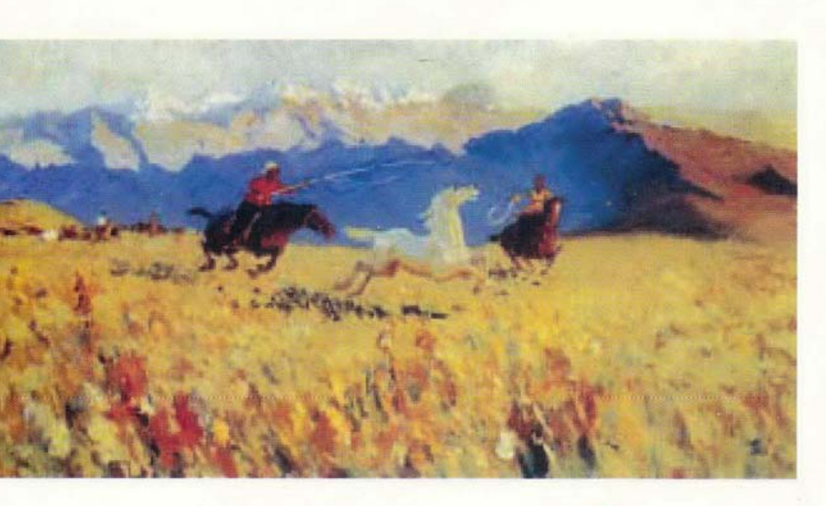
رسول حمزاتوف





رواية





رسول حمزاتوف

بلــدي

روايــة

تعريب:

عبد المعين الملوحي

يوسف حلاق

دار الفارابي

بلدي

الكتاب: بلدي

المؤلف: رسول حمزاتوف

تعريب: عبد المعين الملوحي و يوسف حلاق

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: farabi@inco.com.lb

www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 1979

الطبعة الثالثة 2006

ISBN: 9953-71-149-6

المحتويات

الكتاب الأول

أيها المسافر، إذا لم تعرج على منزلي فليستيقظ البَردْ والرعد على رأسك، البَردُ والرعد..

أيها الضيف: إذا لم يرحب بك منزلي فيسقط البَرد والرعد على رأسي، البَرد والرعد..

(كتابة على باب منزل)

■ قال أبو طالب: إذا أطلقت نيران مسدسك على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك.

بدلاً من المقدمة
ومن المقدمات على العموم

عندما تستيقظ من نومك فلا تقفز من
سريرك كأن أحداً عضك، فكر قبل كل
شيء بما حلمت به في نومك.

الطائرة قبل أن تطير تثير كثيراً من الضجة وبعد أن تذرع المطار كله لتصل إلى المدرج تثير ضجة أكبر، قبل أن تندفع وتطير، وهكذا لا تقلع الطائرة في الهواء إلا بعد أن تتم استعدادها هذا كله.

والطائرة المروحية لا تحتاج إلى مدرج لكي تندفع ولكنها قبل أن تنفصل عن الأرض تنفخ وتدمدم أمداً طويلاً وتأخذها، رعدة شديدة.

نسر الجبال وحده ينطلق دفعة واحدة في السماء الزرقاء خفيفاً ويعلو ثم يعلو حتى يغيب عن الأنظار.

ممثل هذا الانطلاق ينبغي أن يكون انطلاق كتاب جيد، لا مقدمة معدة، لا تحفظات لا تنتهي، إنك إذا لم تستطع أن تمسك بالثور من قرنيه فلن تستطيع أن توقفه إذا أمسكت به من ذنبه.

المغني يمسك بطنبوره[1]. أعرف أن له صوتاً حسناً ولكن لماذا

---

(1) في الأصل بذور وهي آلة موسيقية ذات ثلاثة أوتار.

يداعب أوتاره زمناً طويلاً؟ ولماذا يحلق في عالم آخر قبل أن يبدأ أغنيته؟

مثل هذا القول يرد في موضوع الكلمة التي تسبق حفلة الغناء، والإيضاحات التي تسبق التمثيلية.

والمواعظ الثقيلة التي يقدمها أبو العروس إلى صهره بدلاً من أن يدعوه إلى المائدة، فيصب له كأساً.

كان هنالك جماعة من المريدين[1] يتفاخرون بسيوفهم أيها أكثر مضاء وبفولاذها الذي صنعت منه، وبالآيات القرآنية التي كتبت على نصالها، وكان بينهم الحاج مراد نائب[2] الشيخ شامل فقال لهم:

ـ وعلام تتنازعون في ظل أشجار الدلب الظليلة؟ غداً تخوضون المعركة منذ الفجر وعندئذ تقرر سيوفكم نفسها أيها أقوى وأشد مضاءً.

ومع ذلك: فمن عادة جبالنا ألا يمتطي الفارس صهوة حصانه أمام داره[3]. عليه أن يخرج حصانه أولاً من القرية. هذا ما ينبغي أن يكون. وذلك لكي يستطيع الفارس التفكير مرة أخرى فيما يترك هنا في القرية وفيما ينتظره هناك في الطريق. ومهما كانت المهمة التي يسافر من أجلها فهو يقود حصانه من لجامه في تفكير ودون عجلة من أمره حتى يخرج من القرية[*]. وعند ذلك فقط يقفز على صهوة الحصان فلا يكاد يمس الركاب حتى يغيب في غيمة من الغبار وهو مكب على سرجه.

وأنا كذلك قبل أن أقفز لأمتطي صهوة كتابي سأمضي في تفكيري ودون عجلة من أمري، أقود حصاني من لجامه وأتأمل. أتأخر في نطق الكلمات. الكلام يتلجلج، في لسان التمتام، وكذلك في لسان الرجل

---

(1) المجاهدون.

(2) النائب مساعد القائد.

(3) في النص «ساكليا» وتعني المنزل في جبال القفقاس.

(*) في النص «الأول» وهي القرية الجبلية.

الذي يبحث عن كلمته المناسبة، الكلمة التي لا بديل لها، الكلمة التي هي أكثر الكلمات حكمة. لست آمل أن أثير دهشة الناس بما في كلماتي من حكمة.

ومع ذلك فلست بتمتام. ولذلك فأنا أصر على انتقاء الكلمات.

قال أبو طالب: مقدمة الكتاب هي القشة التي تعض عليها امرأة جميلة مؤمنة بالخرافات، وهي ترفع معطف زوجها لأن الخرافة تقول إن المعطف يمكن أن يصبح كفناً لصاحبه إن لم تحفظ زوجه قشة من التبن بين أسنانها.

قال أبو طالب: أنا مثل من يطوف في الليل ليبحث عن باب مضياف أو مثل من وجد الباب وهو يتلمسه تلمساً ولكنه لا يدري إن كان في استطاعته أن يدخل أو أن هذا الباب لا يستحق عناء ولوجه. ويطرق الباب: طق طق طق.

ـ أنتم يا من في البيت إذا كنتم تريدون طهو اللحم فقد آن لكم أن تستيقظوا.

ـ وأنتم يا من في البيت إذا كنتم تريدون أن تدقوا الماء فناموا كما تشاؤون فلا داعي للعجلة.

ـ وأنتم يا من في البيت إذا كنتم تريدون شرب الخمرة[1] فلا تنسوا دعوة جيرانكم. طق، طق، طق.

ـ إذاً فهل أستطيع الدخول أو أنكم في غنى عن دخولي.

إن الإنسان في حاجة إلى عامين ليتعلم الكلام، وإلى ستين عاماً ليتعلم الصمت. ولست ابن عامين ولا ابن ستين عاماً. أنا في نصف

(1) في النص (البوظة) وهي شراب من طحين الحنطة السوداء والشوفان يشبه صنعه صنع البيرة.

الطريق. ومع ذلك فيخيل إلي أني أقرب إلى الستين لأن الكلمات التي لم أقلها أغلى على قلبي من كل الكلمات التي قلتها.

الكتاب الذي لم أكتبه أغلى على قلبي من كل الكتب التي كتبت وهو أكثرها قيمة وقدسية وصعوبة.

الكتاب القادم هو شعب الجبل الذي لم أسلكه قط. ولكنه تفتح أمام عيني يجذبني إلى ضبابه البعيد.

الكتاب القادم هو الحصان الذي لم أسرجه قط، والخنجر الذي لم أنتضه قط من غمده.

الجبليون يقولون:

لا تخرج الخنجر من غمده دون حاجة إليه، ولكن إذا انتضيته فاضرب به. اضرب لكي تقتل الفارس والفرس بطعنة واحدة.

ما أحسن حكمتكم يا رجال الجبل.

ولكن: قبل أن تشهر الخنجر ينبغي أن تعرف أن حده قاطع. يا كتابي! كم سنة عشت في نفسي. أنت مثل المرأة التي نراها من بعيد. نحلم بها، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نشم عطرها. كم رأيتها قريبة مني، يكفي أن أمد يدي، ولكني في خجلي واضطرابي يحمر وجهي ثم أبتعد عنها.

حسبي ما فعلت. لقد قررت أن أقترن منها وأن أمسك بيدها. من عاشق خجول أريد أن أتحول إلى رجل جريء مجرب.

أسرجت حصاني، ضربته ثلاثاً بسوطي.. وليكن ما يكون.

ومع ذلك: فقد بدأت أضع حفنة من تبغ جبالنا فوق ورقة من ورق السجاير، وأدرت أصابعي لأجعل منها لفافة. دون ما عجلة. ما أحسنها حين ألفها وما أحسنها حين أدخنها.

يا كتابي: قبل أن أبدأ بك أريد أن أقص قصتي معك. كيف نضجت في نفسي، كيف وجدت لك عنواناً؟ لماذا أكتبك؟ وما أهداف حياتي؟

أدخلت ضيفي إلى المطبخ رأساً، كانوا يذبحون خروفاً. ليست هذه رائحة لحم مشوي[1] إنها رائحة الدم، اللحم الطري، جلد الخروف الطازج.

أدخلت أصدقائي إلى مكتبي رأساً، إلى الغرفة السرية التي فيها مخطوطاتي، وأذنت لهم أن ينبشوا فيها ما شاؤوا.

ومع ذلك فقد كان أبي يقول: إن من ينبش في مخطوطات غيره مثل من ينبش في جيوب غيره.

ويقول أبي أيضاً: المقدمة تشبه إلى حد بعيد، رجلاً عريض القفا ويلبس فوق ذلك قبعة كبيرة من الفرو، ويجلس أمامي في المسرح وليته بعد ذلك كله يحافظ على جلسته فلا يميل مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال، مثل ذلك الشخص يثير غضبي.

من دفتر المذكرات: اشتركت كثيراً في ندوات شعرية في موسكو وفي غيرها من مدن روسيا، الناس لا يعرفون لغتي، لغة الآفار ـ وكنت أقدم نفسي بادئ ذي بدء باللغة الروسية ـ على علاتها ـ في نبرة قفقاسية واضحة. ثم يقرأ أصدقائي من الشعراء الروس ترجمات من أشعاري. ولكنهم كانوا يطلبون مني قبل قراءة قصائدي أن أقرأ واحدة منها بلغتي الوطنية: «نحن نحب أن نسمع لغة الآفار وموسيقى القصيدة» وأطيعهم وتصبح قراءتي لشعري مثل تسوية أوتار القيثارة قبل بدء الأغنية أليس هذا ما يحدث في المقدمات؟

---

(1) في النص «شاشليك».

من دفتر المذكرات: عندما كنت طالباً في موسكو. أرسل لي والدي نقوداً لأشتري معطفاً شتوياً. وأنفقت النقود ولكني لم أشتر المعطف. وعندما عدت إلى داغستان في عطلة الشتاء كنت ألبس ما لبسته حين غادرت داغستان إلى موسكو في أواخر الصيف.

وعندما وصلت الدار حاولت أن أعتذر عما فعلت مخترعاً أساطير بعضها أكثر غباء وسخفاً من بعض. وعندما أضاعتني قصصي ضياعاً تاماً قاطعني والدي:

ـ قف يا رسول. أريد أن أسألك سؤالين.

ـ اسألني.

ـ هل اشتريت معطفاً؟

ـ لا.

ـ هل أنفقت النقود؟

ـ نعم.

ـ إذن فقد اتضح كل شيء. فلماذا تقول كل هذه الأقاويل؟ ولماذا تخترع مقدمة طويلة كل هذا الطول؟ وأنت تكفيك كلمتان اثنتان لإيضاح ما هو مهم.

هكذا رباني أبي.

ومع ذلك: فإن الطفل الذي يأتي إلى الحياة لا يتعلم الكلام مباشرة أنه قبل أن ينطق كلمة يتمتم ويتلعثم بألفاظ لا تتبين. ويبكي إذا لم تستطع أمه أن تعرف ما يريده وما يؤلمه.

أليست روح الشاعر مثل روح الطفل؟

يقول أبي: عندما تترقب عودة القطيع من الجبل تظهر لك أول ما يظهر قرون الكبش الذي يمشي أمام القطيع، ثم الكبش كله ثم يظهر

القطيع. وعندما تترقب قدوم العروس أو قدوم المأتم يطلع عليك الرسول بشيراً أو نذيراً.

وعندما تترقب وصول الرسول من القرية ترى قبل كل شيء غيمة صغيرة من الغبار ثم الحصان ثم الفارس.

وعندما تترقب عودة الصياد ترى كلبه أولاً.

كيف ولد هذا الكتاب
وأين كتب

الأطفال الصغار يرون أحلاماً كبيرة.
(كتابة على مهد)
السلاح الذي تحتاجه مرة واحدة عليك
أن تحمله العمر كله.
والأبيات التي ستردهها العمر كله
تكتب مرة واحدة.

مرّ عصفور من عصافير الربيع فوق قرية موشحة بالربيع وفكر أن يرتاح. تطلّع فرأى سطح بيت، سطحاً واسعاً، أملس، نظيفاً. وعلى السطح محدلة من حجر. هبط العصفور من عليائه وحطّ على المحدلة يرتاح. اقتنصت العصفور جبلية رشيقة وحملته إلى البيت. رأى العصفور أن كل من في البيت يعامله معاملة حسنة، فبقي يعيش هنا. وبنى لنفسه عشاً على الحدوة المدقوقة في العارضة السخماء القديمة.

أليست هذه حال كتابي أيضاً؟

كم مرّة تطلعت من علياء شعري إلى تحت. إلى سهول الشعر، أبحث عن مكان أحطّ فيه، لأرتاح...

كلا، خيرٌ لي هنا أن أقارن نفسي بطائرة عليها أن تهبط في المطار،

ها هي ذي تحوم لتحط. لكن المطار يرفض استقبالها بسبب سوء الأحوال الجوية. وها أنا ذا أنتقل من التحويم إلى الطيران المباشر، أواصل طريقي بينما تظل الأرض المنشودة في الأسفل. . . حدث هذا لي أكثر من مرّة.

وقلت في سرّي: لم تُقَدّر لي دعامة صلبة من الأسمنت المسلّح، وإذاً لقد كتب على قدميَّ أن تضربا في الأرض دون توقف، وعلى عينيّ أن تتأملا دون كلل أماكن جديدة على سطح هذا الكوكب، وعلى قلبي أن يلد باستمرار أغاني جديدة.

وكما يتمتع الفلاح الذي يحرث الأرض بجمال غمامة تمرّ بقربه، أو رفّ غرانيق يعبر، ثم لا يلبث أن ينفض عنه آثار انبهاره ويعود من جديد ليضغط بجدّ أكبر على قبضة محراثه، كذلك أنا عدت من جديد إلى العمل في القصيدة التي تركتها في منتصفها.

أجل، كان شعري بالنسبة لي، وإن شبهته بالسماء ـ أرضي، حقلي الذي أحرثه عملي القاسي. فأنا لم أكتب نثراً على الإطلاق.

وها أنا ذا أستلم ذات مرة طرداً وفي الطرد رسالة من محرّر مجلة أحترمها. وبالمناسبة أنا أحترم محرّرها أيضاً. ثم إن المحرّر أيضاً بدأ موجهاً رسالته «بالمحترم رسول» وعلى وجه العموم كان هناك احترام عميق متصل ومتبادل.

حين فضضت الرسالة، بدت لي في حجم جلد الجاموس حين ينشره القرويون على سطح بيتهم ليجف جيداً. والصفحات حين قلبتها كانت تخشخش خشخشة ليست أقل من خشخشة جلد الجاموس بعد جفافه، ويأخذون في طيّه أربع طيّات كي يحملوه إلى البيت. ما كان ينقص الرسالة فقط هو رائحة الجلد الحادة القارصة.

وبالمناسبة كتب لي المحرّر يقول: «قرّرت هيئة تحرير مجلتنا أن تنشر في الأعداد القريبة القادمة موادَّ من منجزات داغستان ومآثرها الطيبة وعملها اليومي وليكن هذا حديثاً عن العاملين البسطاء، عن مآثرهم وعن

آمالهم. ليكن حديثاً عن غد منطقتك الجبلية المشرق، وعن تقاليدها الموغلة قروناً في القدم، ولكن ليكن، بشكل رئيسي، حديثاً عن حاضرها الرائع. وقد قررنا أنك أفضل من يستطيع أن يكتب في هذا الموضوع، النوع كما ترتئيه: أقصوصة، مقالة، مقالة صحفية، مجموعة لمحات وصفية. حجم المادة المطلوبة: 9 ـ 10 صفحات على الآلة الكاتبة، المدة: 20 ـ 25 يوماً. لنا وطيد الأمل، ونشكرك سلفاً..».

فيما مضى كان أهل الفتاة لا يسألونها رضاها حين كانوا يزوجونها، كانوا يضعونها بكل بساطة أمام الأمر الواقع، كما يقال في هذه الأيام. كانوا يقولون إن كل شيء قد تقرّر، لكن حتى في تلك الأيام لم يكن أحد عندنا في الجبال يجرؤ أن يقيم عرساً لابنه دون رضاه. أحد أهالي غيداتلي تجرأ ذات مرّة وفعلها، كما يقال. لكن هل صاحبنا محرّر المجلة من قرية غيداتلي؟ قرّر كل شيء بالنيابة عني.. لكن هل قررت أنا أن أتحدث عن داغستاني في تسع صفحات وفي فترة عشرين يوماً؟

استبعدت في قلبي هذه الرسالة المهينة لي. إلا أن جرس هاتفي أخذ بعد حين يرنّ بإلحاح كأنه ليس هاتفاً بل دجاجة باضت بيضتها للتوّ. وبالطبع كانت المخابرة هاتفاً من هيئة تحرير المجلة.

ـ مرحباً، رسول! هل استلمت رسالتنا؟

ـ استلمتها.

ـ أين المواد إذاً؟

ـ أجل أنا.. أعمال.. دائماً لا وقت لديّ، لا أدري كيف..

ـ ماذا تقول، يا رسول! لا مجال للاعتراض. عدد نسخ مجلتنا مليون تقريباً. إنها تقرأ حتى خارج حدود بلادنا. وإذا كنت مشغولاً جداً بالفعل، سنرسل لك رجلاً. ستزوّده ببعض الأفكار والتفاصيل، وهو يتكفّل بالباقي. وستقرأ بعد هذا ما يكون قد كتبه، وتصححه ثم توقع.. الشيء الرئيسي بالنسبة لنا هو الاسم.

ـ فلتتكسر كل عظام من لا يحبّ الضيوف؟ إذا استقبل أحدهم ضيفاً

بوجه برم، وبجبين عابس، فلا يبقى في بيته كبير يقدم له نصحاً، ولا صغير يستمع إلى هذا النصح! هكذا ننظر إلى الضيوف. ولكن بحقّ اللّه لا ترسلوا إليّ ساليخالوف(*). فأنا أسوّي دفي بدونه، وأنا الذي سأصنع لجرّتي يدها وإذا ما أكلني ظهري، فلا أحد يحكّه لي أفضل من ظفري.

عند هذا انتهت محادثاتنا. وسلام وكلام(**) أخذت إجازة وذهبت إلى قريتي تسادا.

تسادا... سبعون موقداً دافئاً. سبعون خيط دخان أزرق يرتفع في سماء جبلية عالية وصافية. بيوت بيضاء فوق أرض سوداء. أمام القرية، أمام البيوت البيضاء حقول خضر منبسطة. ووراء القرية تنتصب الصخور. لقد تزاحمت الصخور الرمادية فوق قريتنا كأنها أطفال اجتمعوا على سطح لينظروا إلى أسفل، إلى الحوش حيث يجري العرس.

حين وصلت قرية تسادا، تذكرت الرسالة التي بعث بها والدي حين رأى موسكو، أول مرة. كان يصعب علينا أن نحزر أين يمزح أبي وأين يجد، كان مدهوشاً لما يراه في موسكو:

«يبدو أنهم هنا في موسكو لا يوقدون النار في المواقد ليحضروا الطعام، لأني لا أرى نساء يصنعن أقراص الزبل ويضعنه على جدران منازلهن، ولا أرى فوق السطوح دخاناً يشبه قبعة أبي طالب الكبيرة. ولا أرى محادل لدكّ السقوف ورصها. ولا أرى الموسكوفيين يجففون الحشائش على السطوح. فماذا يطعمون أبقارهم، إذا كانوا لا يجففون الحشائش. لم أرَ مرّة واحدة امرأة تسير وهي تحمل حزمة حطب أو عشب. ولم أسمع مرّة واحدة غناء الزورنا(***) أو نقر الدف. يمكن للمرء أن يظنّ أن الشباب هنا لا يتزوجون ولا يقيمون الأعراس. وعلى

(*) حين يريد الأفاريون أن يقولوا إن الأمر قد سوي جيداً يقولون: «كالدف في يد اليخالفوف».

(**) انتهى الموضوع.

(***) نوع من المزامير.

كثرة ما تجولت في شوارع هذه المدينة الغريبة، لم أرَ أبداً خروفاً واحداً.

وإني لأتساءل عما ينحر الموسكوفيون حين يتخطى عتبة بابهم ضيف؟ بماذا يحتفلون عند قدوم صديق عزيز إن لم يكن بخروف ينحر؟

كلا، أنا لا أحسدهم على حياتهم هذه، بل أريد أن أعيش في قريتي تسادا حيث أستطيع أن آكل الخنكل(*) كما أشتهي بعد أن أطلب من زوجتي أن تضع فيه كمية أكبر من الثوم..».

ووجد أبي كثيراً من العيوب في موسكو وهو يقارنها بقريته. كان يمزح بالطبع حين كان يبدي دهشته لأن البيوت في موسكو ليست منقوشة بأقراص الزبل، لكنه لم يكن يمزح حين كان يفضل قريته الصغيرة على هذه المدينة العظيمة. كان يحب قريته تسادا، ولم يكن مستعداً ليستبدل بها كل عواصم الدنيا.

قريتي العزيزة تسادا!! ها أنا ذا قد عدت إليك من ذلك العالم الضخم الذي رأى فيه والدي هذا العدد الكبير من «العيوب». لقد جبته، هذا العالم، ورأيت فيه الكثير من العجائب.

لقد زاغت عيناي من فيض ما فيه من جمال دون أن تعرفا أين تستقران. كانتا تنتقلان من معبد رائع إلى آخر، ومن وجه إنساني رائع إلى آخر، لكني كنت أعرف أنه مهما كان الذي أراه اليوم رائعاً، فسأرى في الغد ما هو أروع منه.. فالعالم، كما ترون، لا نهاية له.

فلتغفر لي معابد الهند، وأهرامات مصر، وكاتدرائيات إيطاليا، ولتغفر لي طرقات أميركا العريضة، أرصفة باريس، وحدائق إنكلترا، وجبال سويسرا، لتغفر لي نساء بولونيا واليابان وروما ـ لقد نعمت بالنظر إليكن، لكن قلبي كان يخفق بهدوء، وإذا كان خفقه قد ازداد، فليس بالقدر الذي يجفّ فيه فمي ويدور رأسي.

(*) نوع من الطعام مكون من إلية الغنم مع القدم.

فلماذا خفق قلبي الآن في صدري، حين رأيت من جديد هذه البيوت السبعين التي تأوي إلى سفوح الجبل، فغامت عيناي ودار رأسي كأني مريض أو سكران؟

هل هذه القرية الداغستانية الصغيرة أروع من البندقية أو القاهرة أو كالكوتا؟ وهل الفتاة الآفارية التي تسير في الطريق الجبلي الضيق وهي تحمل حزمة حطب أروع من السكندنافية الشقراء المشيقة؟

أي تسادا! ها أنا ذا أهيم في حقولك، وندى الصباح البارد يغسل قدمي المتعبتين.

ثم لا أغسل وجهي بمياه السواقي الجبلية، بل بماء الينابيع. يقال، إذا أردت أن تشرب، فاشرب من العين، ويقال أيضاً: ووالدي كان يردّد هذا ـ يمكن للرجل أن يركع في حالتين: ليشرب من العين، وليقطف زهرة. وأنت عيني، يا تسادا. ها أنا ذا أركع أمامك وأنهل من ينابيعك، فلا أرتوي.

ما إن أرى حجراً حتى يتراءى لي فوقه طيف شفاف. هذا الطيف هو أنا.

كما كنت قبل ثلاثين عاماً، أجلس عليه وأرعى أغنامي، على رأسي قلبق ذو وبر وفي يدي عصا طويلة، والغبار يغطي رجلي.

ما إن أرى طريقاً جبلياً حتى يتراءى لي فيه طيف شفاف. هذا الطيف هو أنا أيضاً، كما كنت قبل ثلاثين عاماً. لماذا أنا ذاهب إلى القرية المجاورة؟ يبدو أن والدي هو الذي أرسلني.

في كل خطوة ألتقي بنفسي، بذاتي، بطفولتي، بفصول الربيع التي مرّت بي، بالأمطار والأزهار وأوراق الخريف المتساقطة.

أتعرى وأعرض جسدي للشلال المتلألئ. تياره المتدفق من صخرة إلى صخرة يتناثر ثماني مرات ثم يتجمع من جديد ليتكسر أخيراً على كتفي، ويدي ورأسي. إن الرشاشة في فندق «القصر الملكي»، في باريس لعبة من اللدائن تافهة إذا ما قورنت بشلالي البارد هذا.

ينسل بين الأحجار الدافئة ماء يسخن خلال النهار قادماً بشكل تيار جانبي من ساقية جبلية.

إن المغطس الأزرق في فندق «ميتروبول» في لندن صحن تافه إذا قورن بمغاطسي الجبلية.

أجل، أنا أحبّ التجول في المدن الكبيرة سيراً على الأقدام. ومع هذا، فبعد خمس أو ست جولات طويلة تبدأ المدينة تأخذ شكلاً مألوفاً، وتخبو رغبة التجوال فيها بلا نهاية.

وها أنا ذا أسير للمرة الألف في أزقة قريتي. ولا أشبع ولا أمل السير فيها.

في هذه السفرة زرت كل البيوت. وأحنيت رأسي قرب كل موقد فيه نار تشتعل، وفيه حجرات دافئة أو فيه رماد بارد هامد، أحنيت رأسي الذي خالطه هو أيضاً رماد أبيض بارد.

وقفت فوق المهود التي تخبط فيها جبليّو وجبليّات المستقبل. أو التي لا تزال دافئة مع أنها فارغة، أو التي بردت فيها اللحف والوسائد منذ أمد بعيد.

وكان يبدو لي فوق كل سرير أني أنا نفسي أرقد فيه، وأن كل شيء لا يزال أمامي: الطرق الجبلية ودروب روسيا الواسعة. وطرقات البلدان البعيدة ومطاراتها.

هدهدت الأطفال وغنيت لهم أغاني المهد، وكان الأطفال يغفون بسلام على ألحان أغانيَّ البسيطة.

وتجولت أيضاً في مقبرة تسادا، حيث القبور القديمة التي نما العشب فوقها تجاور القبور الجديدة التي تفوح منها رائحة الأرض.

جلست صامتاً في البيوت التي فيها مآتم. ورقصت فرحاً في الأعراس، وسمعت الكثير من الكلمات والأقاصيص التي لم يتهيأ لي أن أسمعها قبل الآن. كثير مما كنت أعرفه ونسيته، عاد الآن، وطفا على السطح آتياً من أعماق الذاكرة المعتمة التي ليس لها قرار.

الجديد كنت أراه بعيني، أمّا القديم فكنت أسمع عنه وأتذكره، وكانت أفكاري كخيوط متعددة الألوان ملتفة على مغزل كبير. وتصورت السجّادة المتعددة الألوان التي يمكن نسجها من هذه الخيوط.

أمس كنت أتسلل إلى أعشاش الطيور
أغري أصدقائي الأطفال بصعود الجبال،
وأتى الحب عنيفاً، أزرق العينين،
فجعلني، دفعة واحدة، كبيراً
أمس كنت أحسبني كبيراً راشداً،
أشيب وحكيماً حتى آخر أيامي،
وأتى الحب وابتسم في بساطة،
فإذا أنا ولد صغير.

أجل، لم تنته بعد قصيدتي في الحب. هو وهي. هو هذا أنا. لكن البطل الرئيسي هو الحب. إنما يتملكني شعور من استلم برقية مقلقة فوجب عليه أن يترك كل شيء ليسرع إلى المطار.

أو يحدث هكذا: تشعل الجبلية في الصباح الباكر النار في الموقد. إنها تستعد لأن تسخن بقايا غداء الأمس التي تكفي لإشباع العائلة. وفجأة يلوح في عتبة البيت ضيف. عندئذ يجب رفع القدر وما فيها من غداء الأمس عن النار، وإعداد طعام جديد.

أو يحدث هكذا: حين يجلس الشباب في العرس قرب العروس الذي يكون رفيقهم وتربهم، ثم يضطرون على غير انتظار للنهوض والتخلي عن مكانهم، لأن أناساً أكبر منهم دخلوا الغرفة.

أو يحدث هكذا: يكون الكبار، في مجلس، الأطفال يلعبون فيه، وفجأة يخرج الأطفال لأن الكبار يهمون بعقد اجتماع هام.

يبدو لي أحياناً أني صيّاد، صيّاد سمك، فارس، أطارد الأفكار

وأصطادها ثم أسرجها وأهمزها. ويبدو لي أحياناً أني أيل، سلمن(*)، فرس وأن الأفكار والتأملات والعواطف هي التي تبحث عني وتصطادني، وتسرجني وتقودني.

أجل، الأفكار والعواطف تأتي كالضيف في الجبال، دون دعوة ودون إنذار. لا مجال للاختفاء ولا للتهرب منها ومنه.

وعندنا في الجبال ليس هناك ضيوف صغار وضيوف كبار. هامّون وغير هامّين. أصغر ضيف هام بالنسبة لنا لأنه ضيف وحسب. وأصغر ضيف يصبح أجلّ من أكبر ربّ بيت.

إننا نستقبل الضيف عند عتبة بيتنا دون أن نسأله من أي بلد هو، ونقوده إلى صدر البيت الأقرب إلى الموقد ونجلسه على الوسائد.

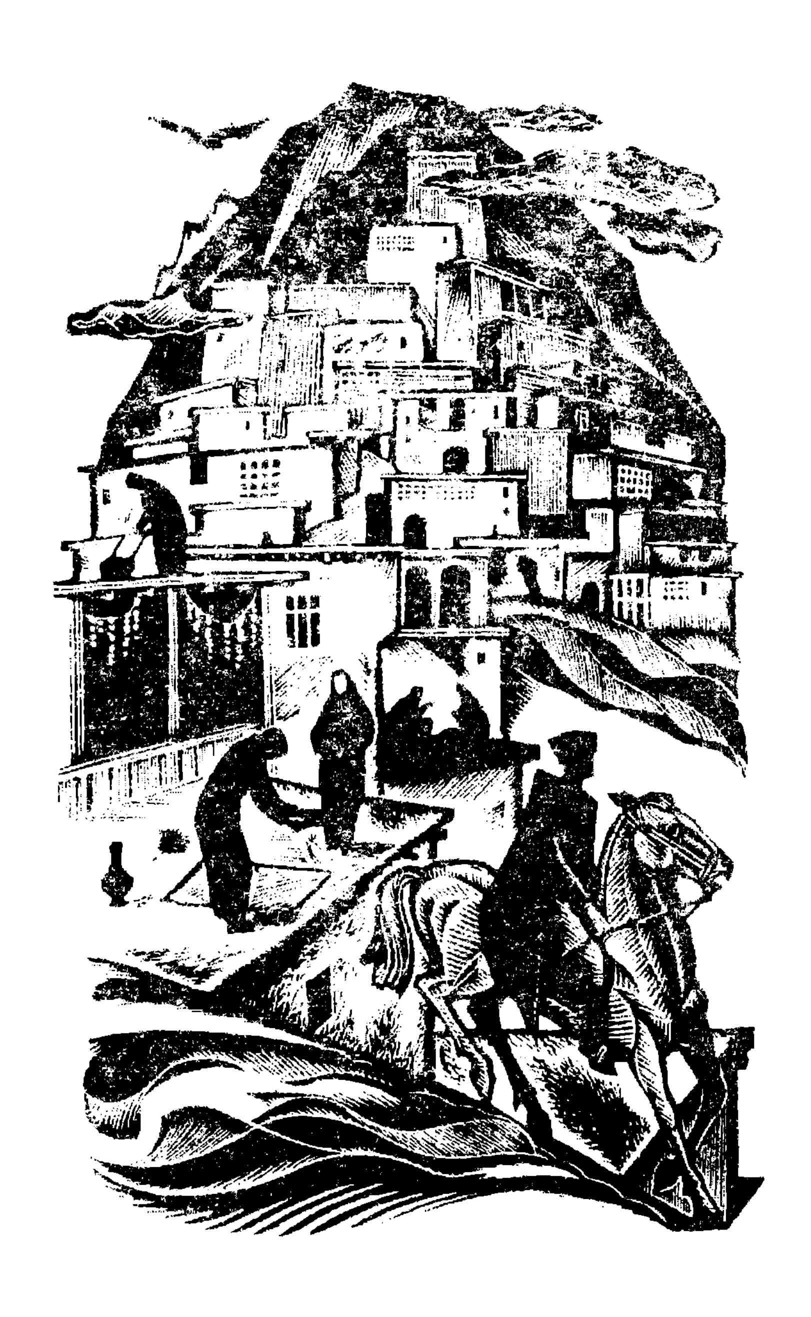
الضيف في الجبال يظهر دائماً على غير توقع. لكنه لا يفاجئنا أبداً، لا يباغتنا، لأننا ننتظره في كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة. وكالضيف في الجبال أتتني فكرة هذا الكتاب.

أو يحدث هكذا: حين ترفع الطنبور عن الحائط كسلاً أو تزجيه للوقت لتتأكد من أن أوتاره مسوّاة، ثم تأخذ في الضرب على أوتاره، وفجأة، على غير توقع، تأتيك أغنية، حينئذ يتحول الضرب إلى نغمة وتتدفق الألحان العذبة، وأنت في غنائك لا تلحظ انحسار الليل وبزوغ الفجر.

أو يحدث هكذا: يذهب شاب إلى قرية مجاورة لأمر ما تافه، ويعود منها بزوجة على ظهر جواده.

عزيزي محرّر المجلة! سألبي الطلب الذي تضمنته رسالتك. وسأبدأ عما قريب كتاباً عن داغستان. لكن اعذرني، فالوقت الذي حدّدته لي قد لا يكفيني. كثيرة جداً هي الدروب التي عليّ أن أمشيها، والدروب عندنا في الجبال ضيقة جداً ووعرة جداً.

(*) هو صوت السلمون.



جبالي تلمع بعيداً ببريق محيّر كأنها ألماس غير المصقول. مزيد من المدى لفرسي. فهو لا يريد أن يخب في المضيق الضيق الذي حدّدتموه له.

لن أستطيع أن ألف داغستان، بلدي في صفحاتك التسع أو العشر.

ولن أستطيع أن أكتب «موادَّ عن المنجزات والمآثر الطيبة والعمل اليومي». «عن العاملين البسطاء، عن مآثرهم وعن آمالهم»، «عن غد منطقتي الجبلية المشرق، وعن تقاليدها الممتدة قروناً إلى الوراء، ولكن، بشكل رئيسي، عن حاضرها الرائع».

قلمي الصغير لا يقوى على مثل هذا الحمل. وقطرة الحبر في نهايته لا تستطيع أن تستوعب الأنهار الجارية بهدوء، ولا السيول الجبلية الهادرة، ولا مصائر العالم، ولا مصير إنسان واحد.

الطائر الكبير يعني دماً كثيراً، والطائر الصغير يعني دماً قليلاً. بقدر ما يكون الطائر، يكون فيه دم.

يقال: رموا عظمةً، فوقعت صدفة على رأس أيل، ومنها نما للأيل قرنان رائعان.

ويقال: لو لم يكن علي موجوداً، لما وجد عمر على هذه الأرض. ولو لم يكن في هذا العالم ليل، لما كان للصباح أن يولد.

يقال: ـ أين ولدت أيها النسر؟

ـ في مضيق ضيق.

ـ وأين تحلق؟

ـ في السماء الرحبة.

في معنى هذا الكتاب
وفي الغرض منه

إنه سعيد بأن يبشرنا بالعيد،
لكن يغفو فيه ناقوس الخطر المخيف
كتابة على جرس
شجاعاً كان أبوه، وصادقاً
كان أبوه حتى النهاية،
هنا يرقد طفل يحمل اسم أبيه.
خنجر أبيه معلق فوق رأسه،
ومآثر أبيه في كلمات الأغنية
عند مهده.
(كتابة على مهد)

شيئان على الجبلي أن يحافظ عليهما: قلبقه واسمه. القلبق يحافظ عليه من له رأس. والاسم يحافظ عليه من في قلبه نار.

في سقف بيتنا الضيق كثير من آثار الرصاص. كان أصدقاء والدي يطلقون الرصاص على السقف من مسدساتهم، وكان على النسور المعششة في الجبال المجاورة أن تعرف أنه قد ولد لها أخ جديد وأن النسور في داغستان زادت واحداً.

بالطبع، لا يمكن أن يولد ولد من طلقة، من رصاصة. لكن دائماً يجب أن توجد رصاصة للاحتفاء بمولد ولد.

عندما ولدت وأعطيت اسماً أطلق صديق والدي رصاصتين: واحدة في السقف، وأخرى في أرض الغرفة.

روت لي أمي كيف تمت تسميتي. كنت ثالث ابن في البيت. كانت هناك فتاة صغيرة هي أختي، لكننا هنا، نتحدث عن الرجال، عن البنين.

اسم البكر كانت كل القرية تعرفه قبل مولده بفترة طويلة، لأن البكر في التقليد المتبع، يجب أن يحمل اسم المرحوم جده. كان كل سكان القرية يذكرون هذا، وكانوا كلهم يقولون: عما قريب سيظهر في أسرة حمزة محمد جديد.

لم يحدث مرّة أن دخل حوش جدّي حيوان بأربع قوائم، اللهم إلّا الكلب والقطة، قد لا يكون في زمانه نام مرّة واحدة تحت لحاف، أو عرف ما هي الملابس الداخلية. ولا يستطيع أي طبيب في العالم أن يتباهى بأنه عاين محمداً، ونظر إلى فمه، وجسّ نبضه وطلب إليه أن يتنفس نفساً أعمق أو أقصر، وبشكل عام، بأنه رأى جسمه، ولا أحد كان أيضاً في قريتنا يعرف التاريخ الدقيق لولادته ولموته. وإذا صدقنا إعلاناً كتب لتسويد صفحة والدي، فقد كان جدّي يعرف العربية قليلاً، واسمه هو الذي أعطاه والدي لبكره، لكبير إخوتي.

وكان لوالدي عمّ أيضاً، توفي قبل قليل من ولادة الابن الثاني. وكان اسم عمي أخيلتشي.

ـ ها هو ذا أخيلتشي قد بعث! قال سكان القرية مازحين، حين ولد في بيتنا ابن ثان ـ لقد بعث حبيبنا أخيلتشي! وليكن بشير خير، لا نذير سوء، فيما لو حطّ غراب على سطح بيته الفقير.. ليترعرع الفتى كريماً نبيلاً كذلك الذي حمل اسمه.

وحين اقترب موعد مجيئي إلى هذا العالم، لم يكن قد بقي في جعبة والدي أقارب أو أصدقاء توفوا منذ أمد أو فقدوا في بلاد الغربة، كان يمكن أن أمنح اسمهم لأحمله في هذه الأرض بنفس الشرف الذي حملوه.

عندما ولدت، دعا والدي إلى بيته وجوه أهل القرية تنفيذاً للتقليد المتبع. جلس وجهاء القرية في وقار ورزانة في أنحاء البيت وكأن عليهم أن يقرروا مصير بلد بكامله. كان كل منهم يحمل بين يديه جرّة ذات بطن من صنع خزّافي بلخاريا. وفي جرارهم كانت توجد بالطبع، بوظة مزبدة. واحد منهم فقط ذو رأس ولحية أبيضين كالثلج، ويشبه النبي، هو أكبرهم، كانت يداه طليقتين.

هذا الشيخ هو الذي سلمتني إليه أمي آتية من غرفة أخرى. كنت أتخبَط بين يدي الشيخ وكانت أمي تقول له:

ـ أنت غنيت في يوم فرحي، وكنت تمسك الطنبور تارة، والدف تارة أخرى. كانت أغانيك جميلة. فأي أغنية ستغني الآن وأنت تمسك صغيري بين يديك؟

ـ يا امرأة، الأغنيات ستغنينها، أنت أمه، وأنت تهزين سريره. بعد ذلك فلتغن له الطيور والأنهار. ولتغن له أيضاً السيوف والرصاص. وأفضل أغنية فلتغنيها له عروسه.

ـ سمّه إذاً. ولأسمعن أنا أمه، ولتسمع القرية كلها، وداغستان كلها الاسم الذي ستدعوه الآن به.

رفعني الشيخ عالياً إلى سقف البيت وقال:

ـ اسم البنت يجب أن يشبه بريق النجمة أو لطف الزهرة. واسم الرجل يجب أن يتجسد فيه صليل السيوف وحكمة الكتب. لقد عرفت الكثير من الأسماء وأنا أقرأ الكتب، وسمعت الكثير من الأسماء في صليل السيوف، وكتبي وسيوفي تهمس لي الآن بالاسم ـ رسول.

انحنى الشيخ الذي يشبه النبي فوق أذني وهمس قائلاً: «رسول». ثم انحنى فوق أذني الثانية وصرخ بصوت عال «رسول» ثم أعطاني، أنا الذي كنت أبكي إلى أمي، وقال متوجهاً إليها وإلى كل الجالسين في البيت:

ـ ها هو ذا رسول.

أقر الجالسون في البيت بموافقتهم الصامتة اسمي. قلب الجالسون جرارهم، ثم تنحنحوا وهم يمسحون شواربهم بأيديهم.

شيئان يجب أن يحافظ عليهما كل جبلي: قلبقه واسمه. قد يكون القلبق ثقيلاً ويكون الاسم كذلك. ويبدو أن الجبلي الأشيب الشعر الذي خبر العالم، وقرأ الكثير من الكتب، ضمّن اسمي معنى وهدفاً.

رسول تعني بالعربية «المرسل، المبعوث» أو بشكل أدق «الممثل» فمن بعثني ومن أمثل؟

من دفتر المذكرات: بلجيكا. أنا هنا أشارك في لقاء شعراء العالم، وفد إليها ممثلو مختلف البلدان والأمم. كان كل واحد يعتلي المنبر ويتحدث عن شعبه، عن ثقافته وشعره ومصيره. وكان هناك ممثلون على هذا الشكل: هنغاري من لندن، وأستوني من باريس، وبولوني من سان فرانسيسكو. . ما العمل؟ لقد شتّتهم القدر في بلدان مختلفة. عبر البحار. ووراء الجبال بعيداً عن أرض وطنهم.

لقد أدهشني أكثر من أدهشني شاعر أعلن قائلاً:

ـ أيها السادة، لقد اجتمعتم هنا من بلدان مختلفة. إنكم تمثلون شعوباً مختلفة. أنا هنا وحدي لا أمثل شعباً معيناً أو بلداً معيناً، بل أمثل كل الأمم وكل البلدان، أمثل الشعر. أجل، أنا الشعر. أنا الشمس التي تنير الأرض كلها، أنا المطر الذي يروي الأرض، دون أن يفكر في القومية التي ينتمي إليها، أنا الشجرة التي تزهر وحيدة في كل أرجاء الكرة الأرضية.

هكذا قال وترك المنبر. كثيرون صفقوا. أما أنا فأخذت أفكر: إنه على حق، نحن الشعراء مسؤولون بالطبع عن العالم كله، لكن الذي لا يرتبط بجباله لا يمكنه أن يمثل العالم كله. إنه، بالنسبة لي، أشبه ما يكون بإنسان غادر موطنه وتزوج هناك، ثم أخذ يدعو حماته أمه. أنا لست ضد الحموات، لكنه لا أم إلا الأم.

حين تسأل من أنت، يمكنك أن تقدم وثائقك، هويتك التي توجد فيها

كل المعطيات الأساسية، وإذا ما سئل شعب من يكون، فالشعب يشير إلى العالم، الكاتب، الفنان، المؤلف الموسيقي، رجل السياسة، القائد الذي أنجبه ويعد كلاً منهم وثيقة تدلّ عليه.

على كل إنسان أن يفهم منذ صباه أنه أتى إلى هذا العالم ليصبح ممثلاً لشعبه، وعليه أن يكون مستعداً لتحمل أعباء هذه المهمة.

الإنسان يعطى اسماً وقلبقاً وسلاحاً، ويلقن من المهد أغاني بلده.

حيثما رمتني الأقدار، أشعر دائماً أني أمثل تلك الأرض وتلك الجبال وتلك القرية التي تعلمت فيها أن أسرج حصاني. إني أعتبر نفسي حيثما كنت مراسلاً خاصاً لبلدي داغستان.

لكنني، بالمقابل، أعود إلى بلدي داغستان كمراسل خاص للثقافة الإنسانية كلها، وكممثل لبلدي كله، حتى للعالم كله.

عن بلدنا لم أستطع، كما أريد،
أن أتحدث للبلدان المزروعة تحت القمر.
حملت معي أكياساً ملأى،
لكني، ويا للأسف، لم أستطع فكّها،

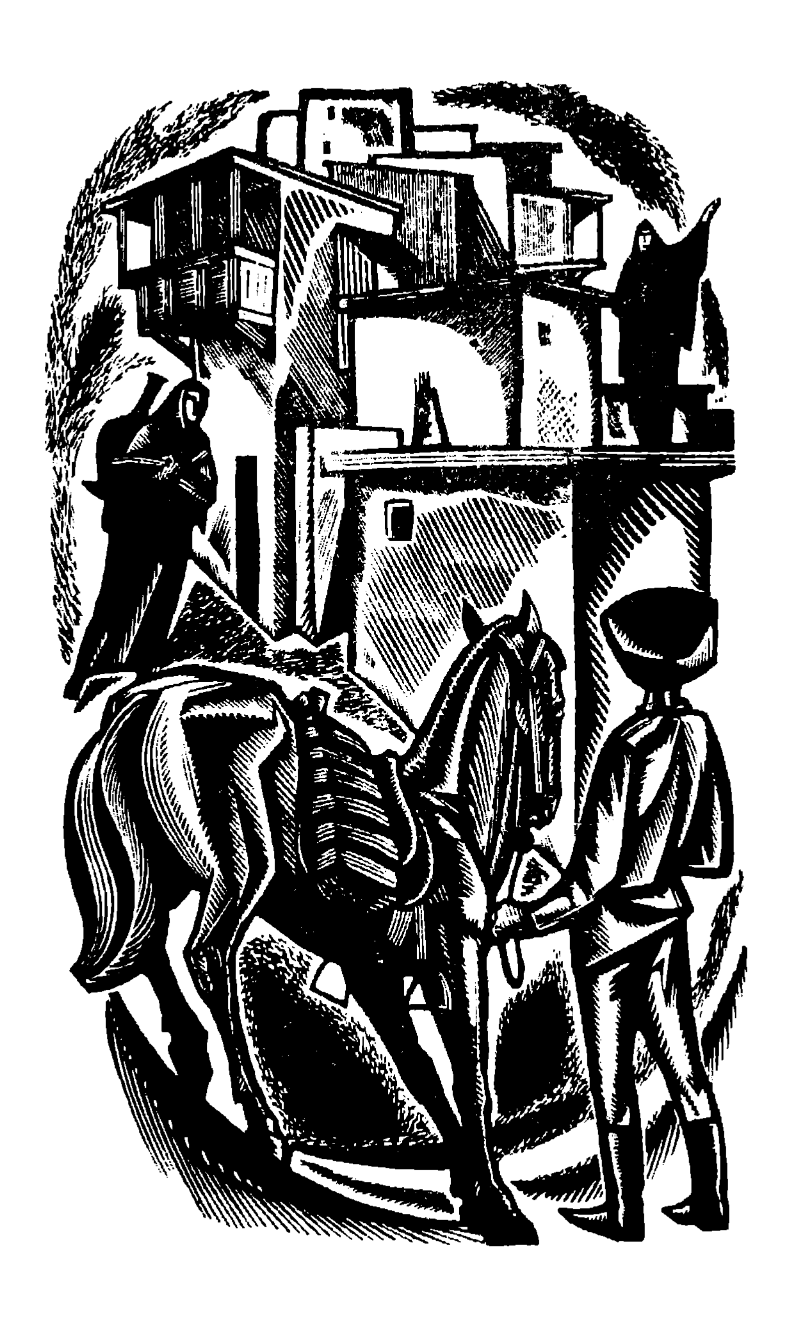
عن البلدان المزروعة، تحت القمر لم أستطع
أن أغني أغنية عالية بلغة قومي،
لقد حملت صندوقاً مسمراً على كتفي،
لكني لم أستطع أن أفتح الصندوق

نجلس أحياناً على سطح بيتنا، فيأخذ أهالي قريتنا بالسؤال:

– ألم تصادف في البلدان البعيدة إنساننا؟

– هل في الدنيا جبال كجبالنا؟

– ألم تسأم في بلاد الغربة، ألم تذكر قريتنا؟



ـ هل يعرف الناس هناك، في البلدان الأخرى، بوجودنا، بأننا نعيش على وجه هذه الأرض؟ وأجيبهم.

ـ ومن أين لهم أن يعرفونا؟، إذا كنا نحن لا نعرف أنفسنا كما يجب؟ نحن مليون مكدسون في كتلة صخرية من جبال داغستان. مليون إنسان وأربعون لغة مختلفة.

ـ أنت، تحدث عنا، تحدث إلينا عن ذواتنا، وحدث الآخرين الذين يعيشون في كل أرجاء الأرض عنا. تاريخنا كتبته، خلال قرون، الخناجر والسيوف. ترجم إلى لغة الناس هذه الكتابات. فإن لم تفعل هذا، أنت المولود في قرية تسادا، فلن يفعل ذلك أحد غيرك.

استجمع أفكارك كقطعان خيول منتقاة، الفرس تزحم الفرس والهجين لا وجود له بينها، أطلق هذه القطعان إلى مراعي الصحائف البيض. ولتعدُ الأفكار على الصحائف كجياد أجفلت أو كقطيع تيوس جبلية.

لا تخبئ أفكارك. إذا خبأتها فستنسى فيما بعد أين وضعتها. أليست هذه حال البخيل، ينسى أحياناً المخبأ الذي وضع فيه نقوده فيخسرها.

لكن لا تعط أفكارك للآخرين. الآلة الغالية لا يجوز أن تعطى الطفل بدلاً من اللعبة. فإما أن يكسر الطفل، اللعبة، وإما أن يضيعها، وإما أن يجرح يده بها.

لا أحد يعرف عادات حصانك خيراً منك أنت.

مثل طريق والدي. يوجد بين قريتنا الصغيرة تسادا وقرية خونزاخ الكبيرة طريق تسير فيه السيارات. كان والدي لا يذهب دائماً إلى خونزاخ وهي مركز المنطقة، سالكاً الطريق العام، بل طريقه الجبلي الخاص. هو الذي رسمه وهو الذي سوّاه وهو الذي يسير فيه كل صباح وكل مساء.

وفي طريقه كان والدي يعرف كيف يجد أزهاراً بديعة، وكيف ينسقها في باقات أبدع.

وفي الشتاء كان والدي يصنع على يمين الطريق ويساره تماثيل صغيرة

للناس والجياد والفرسان من الثلج المتساقط حديثاً. وكان أهالي تسادا وأهالي خونزاخ يأتون بعد ذلك للتمتع بهذه الأشكال.

لقد ذبلت تلك الباقات وذوت من زمن بعيد، ومن زمن بعيد ذابت تماثيل الثلج التي صنعها والدي. لكن أزهار داغستان، لكن صور الجبليين حية في شعر والدي.

حين كنت لا أزال يافعاً، وكان والدي لا يزال على قيد الحياة، اضطررت لأن أذهب إلى خونزاخ، انعطفت عن الطريق العام، وأردت أن أسير في الطريق الذي شقه والدي. رآني أحد الجبليين، فاستوقفني وقال لي:

ـ اترك طريق والدك لوالدك. وابحث لنفسك عن طريق آخر، طريق خاص بك.

امتثلت لأمر الجبلي العجوز، ورحت أبحث عن طريق جديد. لقد كان طريق أغنيتي طويلاً، متعرجاً، لكنني أسير فيه وأجمع الأزهار لباقتي.

وعلى هذا الطريق راودتني لأول مرة فكرة هذا الكتاب.

إذا فكّرت ـ فكأنك حملت. الطفل سيولد حتماً، عليك فقط أن تحمله، كما تحمل المرأة الجنين في أحشائها، ثم تلده بعرق جبينها وبالآلام وأما الكتاب فولادته هي كتابته.

اسم الطفل يمكن اختياره حتى قبل ولادة الطفل ذاته. فكيف أدعو كتابي؟ هل آخذ له اسماً من أسماء الأزهار؟ أو من أسماء النجوم؟ هل آخذه من الكتب الأخرى المملوءة حكمة؟

كلا، لن أضع على صهوة جوادي سرجاً غريباً. الاسم الذي يؤخذ من هنا أو هناك لن يكون اسماً، بل لقباً، اسماً مستعاراً.

تلك هي القضية. لكن إذا كنت تبحث عن عنوان، فعليك أن تنطلق من المضمون الذي تريده لكتابك، وكذلك من الهدف الذي تضعه نصب

عينيك. القلبق أنت الذي تختاره بقياس الرأس، وليس عكس ذلك. وطول الوتر يحدده طول الطنبور.

قريتي، جبالي، داغستاني. ها هو ذا عشّ أفكاري ومشاعري وطموحاتي. من هذا العش طرت أنا كعصفور صغير اكتسى ريشاً. من هذا العش كل أغاني. داغستان هي موقدي، داغستان هي مهدي.

فلماذا إطالة التفكير إذاً؟ في الجبال يعطى الطفل في معظم الأحيان اسم الجدّ. الكتاب سيكون ابنك، وأنت ابن داغستان. إذاً اسمه سيكون «داغستان» نعم، هل يمكن أن يكون هناك اسم أنسب وأروع وأدقّ منه؟

البلد الذي يمثله سفير يعرف بالعلم الصغير الذي يرفرف على سيارته. وكتابي هو بلدي، واسمه هو ذلك العلم الصغير.

الأفكار عند من يكتب تتناقش فيما بينها في كل صفحة وفي كل سطر وبسبب كل كلمة. وها هي ذي أفكاري أيضاً يحتدم النقاش بينها بسبب اسم الكتاب ـ كما الوزراء في مؤتمر دولي يدخلون في مشادة كلامية بدءاً من جدول الأعمال.

وهكذا، اقترح أحد الوزراء تسمية الكتاب بكلمة واحدة هي «داغستان» لكن هذا الاقتراح لم يرق للوزير الثاني الذي أخذ يعترض، وقد بسط بين يديه أوراقاً.

ـ هذا لا يصح، هذا لا يصلح. . كيف نستطيع أن نسمي كتاباً صغيراً باسم بلد بكامله؟ قلبق الوالد لا يوضع على رأس الولد كي لا يغرق رأس هذا فيه.

ـ لماذا لا يصلح؟ يعترض الوزير الذي تقدم بالاقتراح ـ حين يسبح القمر في السماء وينعكس على صفحة البحر أو النهر، فإننا نستمر في تسمية انعكاس القمر قمراً وليس شيئاً آخر. فهل من اللازم حقاً أن نجد لهذا الانعكاس اسماً آخر؟ صحيح أن الثعلب في القصة أقنع الذئب بعد أن أراه انعكاس القمر ذات مرة. إن ما يراه قطعة شحم، وأن الذئب قفز إلى النهر لحماقته. لكن الثعلب دجّال وماكر معروف.

ويستمر الوزير الثاني في عناده:

ـ لا يصح هذا، لا يصح، داغستان هي في الدرجة الأولى مفهوم جغرافي. جبال، أنهار، أودية ينابيع، بل وبحور. وحين يقال لي: «داغستان» أرى أول ما أرى مصوراً جغرافياً.

وأتدخل أنا في الموضوع:

ـ كلّا، ثم كلا، قلبي طافح حتى حافتيه بداغستان، لكنه ليس مصوراً جغرافياً. فليس لداغستاني أنا حدود جغرافية أو أية حدود أخرى. وداغستاني أنا لا تنساب هادئة متصلة من قرن إلى قرن. وكتابي، إذا كتبته، لن يشبه كتاباً مدرسياً عن داغستان، سأخلط العصور، ثم آخذ جوهر الأحداث التاريخية، جوهر الشعب، جوهر كلمة «داغستان».

قد تبدو داغستان واحدة بالنسبة للداغستانيين كلهم، ومع هذا فلكل داغستاني داغستانه الخاصة به. وأنا أيضاً لي داغستاني.

صورتها هذه أنا وحدي أراها، وأنا وحدي أعرفها، ولقد وجدت في داغستاني أنا من كل ما رأيته في داغستان، ومن كل ما عايشته، ومن كل ما عايشه كل الداغستانيين الذين أتوا قبلي، والذين يعيشون معي، من الأغاني والأنهار، من الأمثال والصخور، من النسور والحوافر، من الدروب في الجبال وحتى من رجع الصدى فيها.

من دفتر المذكرات: كيسلوفودسك. نحن اثنان في الغرفة، أنا وأوزبسكتاني، في ساعتي الغروب والشروق نرى من النافذة قمتي البروز.

فكّرت وأنا أنظر إلى القمتين، إنهما تشبهان رأسين حليقين مثخنين بالجراح لصديقين من مريدي شامل الشجعان.

وفي الدقيقة نفسها قال جاري: يذكرني هذا الجبل بقمتيه شيخاً عجوزاً أشيب الشعر من بخارى كان يسير حاملاً صحنين من البلوف(*)

(*) طعام مكون من الأرز بلحم الضأن.

ثم توقف فجأة وتسمّر في مكانه مسحوراً بمنظر الوادي المتكشف أمامه في الصباح.

من دفتر المذكرات: رأيت في كالكوتا، في بيت رابيندرانات طاغور العظيم طائراً مرسوماً. هذا الطائر ليس موجوداً على الأرض، ولم يوجد عليها إطلاقاً. هذا الطائر ولد وعاش في نفس طاغور إنه ثمرة خياله. لكن طبعاً، لو لم ير طاغور أبداً طيوراً حقيقية، طيوراً على هذه الأرض، لما استطاع أن يخلق صورة طائره البديع.

وأنا أيضاً عندي مثل هذا الطائر البديع ـ بلدي داغستان. ولهذا السبب يجب أن أسمّي كتابي:

«داغستان بلدي» حتى تكون التسمية أدقّ، لا لأن داغستان تخصني وحدي، بل لأن تصوري لها يختلف عن تصور الآخرين.

وهكذا قررت. سيكتب على الغلاف: «داغستان بلدي».

ساد الصمت اجتماع الوزراء للحظات، لم يعترض فيها أحد. وفجأة نهض من وراء المنضدة وزير ثالث كان ما زال صامتاً، واتجه إلى المنصة.

ـ بلدي داغستان. جبالي. أنهاري. لا بأس في ذلك. إن الحياة في المدينة الجامعية جيدة في عهد الشباب فقط، في سني الدراسة. وبعد ذلك يترتب على الإنسان أن تكون له غرفة خاصة أو حتى شقة. لا يكفي أن نقول: «موقدي»، بل يجب أن تكون في هذا الموقد نار.

لا يكفي أن نقول: «مهدي» بل يجب أن يكون في هذا المهد طفل. لا يكفي أن نقول: «داغستان بلدي». بل يجب أن تكون في هذه الكلمات فكرة هي مصير داغستان، هي حاضرها. الشاعر الداغستاني سليمان ستالسكي معروف عندنا بحكمته. وقد فهم منذ أمد بعيد ما أريد أن أقوله الآن. ها هي ذي كلماته: «أنا لست شاعراً ليزغينياً، ولا داغستانياً ولا قفقاسياً. أنا شاعر سوفياتي. أنا سيد بلد ضخم بكامله». هكذا تكلم الشيخ الحكيم سليمان، وأنت لم تؤكد إلا على شيء واحد:

قريتي، جبالي، بلدي داغستان، حتى إن المرء ليظن أن العالم كله بالنسبة لك يبدأ وينتهي بداغستان. لكن أليس الكرملين هو بداية العالم؟ وهذا ما لا أراه في تسميتك. لقد صنعت قفصاً صدرياً، لكنك نسيت أن تضع فيه قلباً يخفق. لقد أوجدت عينين لكنك نسيت أن تنفخ فيهما من بريق الفكر. العيون التي لا حياة فيها تشبه حبات العنب.

أطلق الوزير الثالث تشبيهه البليغ هذا من فوق المنصة، ثم جمع رزم أوراقه بما فيها من أقوال مأثورة مأخوذة من كتب سميكة ورزينة، واتجه بكل وقار إلى مكانه. كان ينظر إلى الآخرين كأنما ليس لهم ما يمكن أن يقولوه بعد أن نطق القاضي بحكمه.

لكن في هذه اللحظة بالذات أسرع إلى المنصة أحد المشتركين في الاجتماع. كان مليئاً بالحياة، مرحاً وكأنما كان أصغر من الآخرين سناً. وبدأ كلمته لا كما بدأها الآخرون بل بهذه الأبيات:

ما دام الإنسان يجلس، فلا يعرف إن كان أعرج أو لا،
ما دام الإنسان ينام، فلا يعرف إن كان أعور أو لا.
ما دام الإنسان يأكل، فلا يعرف إن كان جباناً أو بطلاً
ما دام الإنسان يصمت، فلا يعرف إن كان كاذباً أو صادقاً.

ـ هذا ما أردت أن أقوله، تابع يقول، بالطبع إنه لأمر حسن أن تكون هناك فكرة، وعلى الأخص فكرة كالتي تكلم عنها الخطيب السابق. لكنه يوجد أحياناً رفاق مشبعون بالأفكار والعقائد أكثر من اللازم. مثل هؤلاء الرفاق إنما يلحقون الأذى بالفكرة بالعقيدة ذاتها سأذكركم بقصة ميخاييل من قرية إتلا..

وبما أنه لم تكن هنا قواعد تنظّم سير الاجتماع، فقد انطلق الخطيب يروي لنا، بالمناسبة، قصة صاحبه ميخاييل.

كان ميخاييل غريغوريفتش حسينوف يعمل سائساً في لجنة منطقة خونزاخ الحزبية. والحقيقة أن اسمه لم يكن ميخاييل، بل محمد، عاش في مكان ما أثناء الحرب الأهلية، ثم عاد إلى مسقط رأسه ميشا(*) وليس محمد. استبدل إذاً اسمه الداغستاني بآخر. قال لميشا الجديد هذا، والده الشيخ:

ـ ثكلتك أمك! مع أني أنا الذي أعطيتك اسم محمد، فهذا الاسم أصبح ملكاً لك الآن تستطيع أن تتصرف به كما تشاء. لكن من سمح لك أن تمسّني. من سمح لك أن تستبدل غريغوري بحسن، أنا أبوك. وما زلت على قيد الحياة. وأريد أن أبقى وأنا حسن.

ولكن الابن، وهو الذي شارك في الحرب الأهلية، لم يكن من الذين يترددون، وبقي ميخاييل غريغوريفتش. وبهذا الاسم كان يعمل سائساً في لجنة منطقة خونزاخ الحزبية.

كانت معارفه قليلة وضحلة، لكنه، بالمقابل، كان يعتبر نفسه عقائدياً جداً وكان يتحدث عن هذا في كل مكان حتى إن كثيرين صاروا يحسبونه أشد المدافعين عن العقيدة حماسة.

ذات مرة تلقى معلمنا حاجي تأنيباً، لأن أحد أقارب ابن ابن عمّه كان من الأمراء على ما يبدو، ولم يكتب هو في استمارته عن ذلك.

كان حاجي عائداً إلى قريته من قرية باتليتش كئيباً يحمل معه التأنيب الحزبي. وفي الطريق لحق به سائس لجنة المطنقة ميخاييل غريغوريفتش. وانعقد الحديث بينهما. أخبر حاجي رفيقه بما أصابه.

ـ نعم، حتى الإنذار قليل، كان يجب أن تطرد من الحزب، أي حزبي أنت، أي شيوعي! الشيوعي الحقيقي كان عليه أن يكتب الإقرار كما يجب.. حتى ولو لم يكن ابن ابن عمك، بل أخوك أو أختك، أو أبوك..

(*) هو اسم التصغير في ميخائيل (المترجم).

رفع المعلّم عينيه ونظر إلى ميخاييل غريغوريفتش وقال له:

ـ ليس عبثاً أنهم يعدونك عقائدياً أكثر من اللازم. أعجب فقط كيف أنك لم تسوّ حتى الآن كل جبال داغستان. المكان المنبسط، المستوى «أكثر عقائدية» وأبسط من الجبل الصخري العمودي. على أي حال لا جدوى من التحدث إلى شخص مثلك.

وانحرف حاجي عن الطريق إلى درب جانبي، مع أنه كان على كليهما أن يذهبا إلى نفس القرية.

دهش ميخاييل غريغوريفتش:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ حيثما اتفق ـ طريقنا ليس واحداً.

ـ لكنني أنا ذاهب إلى الشيوعية! أما إذا كنت تريد أن تذهب إلى الجهة المعاكسة... حتى إلى الشيوعية لا أريد أن نذهب معاً جنباً إلى جنب وسنرى من منا يصل قبل الآخر.

وأردف الخطيب يقول بعد أن انتهى من هذه القصة ـ كتب أحد الشعراء هذه الأبيات في راعي الغنم:

تبدّد الضباب في الجبال،
فالطريق أمامك واضح.
أغنامك، أيها الراعي،
سر بها إلى الشيوعية.

أو ما كتبه غيور آخر على العقيدة إلى لجنة المنطقة «على الرغم من كل جهودي، وحتى من وسائل الضغط الجسدية التي مارستها على زوجتي، فإنها لا تقرأ حتى الآن الموجز في تاريخ الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) قراءة مناسبة، أرجو لجنة المنطقة التأثير في زوجتي والعمل على تربيتها الفكرية».

أو الإعلان الرهيب الذي ظهر مرّة على أبواب اتحاد كتاب داغستان: «لا يحق لك دخول هذا الباب دون إعداد نظري عميق».

كان الشاعر الشيخ المجيد أبو طالب غفوروف ذاهباً لأمر ما إلى اتحاد الكتاب، لكنه عاد أدراجه لمّا رأى هذا الإنذار.

أو، في ماخاتشكالا، وهي مدينة متعددة القوميّات، مقابر مختلفة: مسيحية، إسلامية، يهودية.. أحد الرفاق العقائديين جداً تكلم مرة في اجتماع لأعضاء الحزب النشيطين على مستوى الجمهورية، فقال:

ـ نحن نشن نضالاً يومياً دؤوباً لتوطيد الصداقة بين الشعوب، ومع هذا توجد عندنا هذه الكثرة من المقابر المختلفة. لقد آن الأوان لنقيم مقبرة واحدة مشتركة. ونستطيع الآن أن نفكر في اسمها وليكن «أبناء الأسرة الواحدة». وعلى وجه العموم.. لقد كان والدي مثلاً، من المؤمنين، وكانا يقيمان الصلاة. فكيف أستطيع، أنا عضو الحزب من عام 1937، أن أرقد معهما في مقبرة واحدة، كلا، لقد حان الوقت منذ أمد طويل لأن نقيم في مدينتنا مقبرة جديدة على مستوى فكري أرفع.

يقال إن المسكين توفي منذ أمد قريب دون أن ينتظر المقبرة الجديدة.

وأردف الوزير يقول رافعاً صوته: اسم الكتاب كالقلبق. فما هو الأهم: القلبق أم الرأس؟ سأروي لكم كيف خرج ثلاثة صيادين لاصطياد الذئب.

هل كان للصياد رأس؟ عرف ثلاثة صيادين بوجود ذئب يختبئ في الوادي غير بعيد عن القرية فقرروا اصطياده وقتله. سرت بين الناس روايات كثيرة مختلفة عن صيدهم الذئب! لكني لا زلت أذكر منذ طفولتي هذه الرواية.

حين طورد الذئب، اندس في مغارة لينجو بنفسه من الصيادين. لم يكن للمغارة إلا مدخل واحد وكان هذا المدخل ضيقاً جداً لا يستطيع أن ينفذ منه إلا الرأس وحده. اختبأ الصيادون وراء صخرة، وصوبوا بنادقهم إلى مدخل المغارة، وأخذوا ينتظرون خروج الذئب من المغارة.

لكن الذئب لم يكن غبياً على ما يبدو، فظل قابعاً بكل هدوء داخلها. ويعني هذا أن الخاسر سيكون ذلك الذي سيمل الهدوء والانتظار قبل غيره.

وأدرك الملل أحد الصيادين فقرر أن يندس بأي شكل كان في المغارة ويطرد الذئب منها، فاقترب من الكوة ودسّ رأسه فيها.

ظلّ الصيادان الآخران فترة طويلة، يراقبان زميلهما مستغربين لماذا لا يحاول التقدم أو على الأقل سحب رأسه. وأخيراً ملّا هما أيضاً الانتظار، فاقتربا منه وهزاه، فإذا هو دون رأس.

وأخذا يحزران: هل كان لزميلهما الصياد رأس قبل أن يندس في المغارة أم لا؟ أحدهما قال إنه كان لديه على ما يبدو رأس، وقال الثاني: إنه لم يكن له على ما يبدو رأس.

حمل الصيادان الجسم دون رأس إلى القرية وأخبرا أهلها بما جرى. قال أحد الشيوخ: نظراً لأن الصياد اندس في المغارة قاصداً الذئب، فإنه لم يكن له رأس منذ أمد بعيد، وربما منذ ولادته. وانطلقوا إلى زوجته المترملة يستوضحون الأمر.

ـ ومن أين لي أن أعرف إن كان لزوجي رأس. كل ما أذكره هو أنه كان يوصي كل عام على قلبق جديد.

الفكرة يجب أن تكون في الأفعال لا في الأقوال. يجب أن تكون في الكتاب ذاته، لا أن تفصح عن ذاتها من الغلاف. الكلمة التي يمكن أن تقال في آخر الكلام، يجب أن لا تقال في أوله.

كثيراً ما يعلقون على صدر الوليد تعويذة كي تكون حياته يسيرة، وكيلا يمرض، وكيلا يعرف الملل والحزن. لن نحكم على التعويذة إذا كانت تساعد على هذا بالفعل، لكن من المعروف أن التعويذة توضع تحت الملابس، ولا تظهر للعيان.

في كل كتاب يجب أن تكون تعويذة كهذه، يعرفها المؤلف ويحزرها القارئ، لكنها مخفية تحت الملابس.

أو حين يصنعون الأوربيتش يضيفون إليه قليلاً من العسل. العسل يذوب في المشروب الحلو والمعطر، لكنك لا تراه ولا تلمسه.

أو في بومباي حديقة رائعة دائماً، لا تذوي ولا تجف مع أن الطقس حولها حار وجاف. ولقد تبين أنه توجد تحت الحديقة بحيرة مخفية تروي الأشجار برطوبتها المنعشة المحيية.

الفكرة ليست ذلك الماء الذي ينطلق هادراً بين الصخور ناثراً الرذاذ حوله، بل ذلك الماء غير المرئي الذي يرطب التربة، ويغذي جذور النباتات.

انتفض الوزير الذي كان غارقاً في الكتب والاستشهادات، وضرب المنضدة بكفه وصرخ:

ـ وماذا يعني هذا كله؟ ليس هناك إذن فرق فيما يزين القلبق: العمامة البيضاء أو الشريط الأحمر، أو النجمة الخماسية؟ لا فرق إذن فيما يضع الإنسان على صدره: الوسام الأحمر أو الصليب الأسود؟ هل هذه هي طيبة القلب في نظركم؟ على الإنسان أن لا يكون في الوقت نفسه مثل حسن الذي من قرية تانوسا: معلماً في غونوخ، وسكرتير كومسمول في غينيتشولا وإماماً في خونزاخ. وهذا أيضاً يصح على الكتاب. كلا، ثم كلا، الفكرة هي الراية، وعلينا أن لا نخفيها عن العيون. علينا أن نرفعها عالياً ونحملها بحيث يراها كل الناس ويسيرون وراءها.

وتدخل من جديد الوزير الأصغر سناً:

ـ آ! لتخونن من يعترض كلامك زوجته، ولكنك تريد أن تفعل بحيث تكون الراية وحدها، والناس الذين يتطلعون إليها وحدهم، أي أن تعيش الفكرة بمعزل عن نفوس الناس وقلوبهم. إنك تضعهم في عربتين مختلفتين. وإذا سارت العربتان فيما بعد في طريقين مختلفين؟ تقول إن الإنسان يجب ألا يكون آفاريا، أو داغستانيا، بل سوفياتياً، وحسب.

ولكن ها أنا ذا مثلاً أشعر أني آفاري، وابن داغستان، ومواطن سوفياتي في آن واحد. فهل تنفي هذه المفاهيم أحدها الآخر؟

الأرض تبدأ من الكرملين، كما هو مأثور. وأنا أوافق على هذا. لكن العالم يبدأ بالنسبة لي أيضاً، وعلاوة على ذلك، من موقدي، من عتبة بيتي، من قريتي. الكرملين والقرية، أفكار الشيوعية والإحساس بالوطن هما جناحا الطائر، ووترا طنبوري.

ـ لماذا إذاً تمشي على قدم واحدة؟ يجب عليك أن تفكر باسم آخر للكتاب، اسم يعبر عن ماهيته الداخلية.

وأخذت أبحث عنه في كل مكان، فكرت في داغستان وأنا أجوب الهند. فقد بدا لي أني أسمع في ثقافة هذا البلد العريقة، وفي فلسفته صدى صوت خفي، في حين أن صوت بلدي داغستان صوت حقيقي تماماً بالنسبة لي، وهو يسمع الآن بعيداً في أنحاء الأرض. مرّ زمن لم يكن يردّد صدى كلمة «داغستان» إلا الأودية الجرداء والصخور العارية. وها هي ذي الآن تتردّد فوق البلد كله، فوق العالم كله وتخفق لها ملايين القلوب.

وفكرت في داغستان وأنا في معابد نيبال البوذية، حيث تنبجس اثنتان وعشرون عيناً من عيون المياه ذات خصائص علاجية.

لكن نيبال ليست بالألماس المصقول، فلم يكن بوسعي أن أقارن بها داغستان التي كسر ألماسها حتى الآن أكثر من زجاج.

وفكرت في داغستان وأنا في أفريقيا التي ذكرتني بخنجر لم يشهر إلا ربعه من غمده. وفكرت في داغستان وأنا في بلاد أخرى. في كندا، وإنكلترا، وإسبانيا، ومصر، واليابان، وكنت أبحث فيها إما عن أوجه الاختلاف وإما عن أوجه الشبه.

لكني ذات مرة وفي أثناء تجوالي في يوغوسلافيا وجدتني في مدينة دوبروفكين المدهشة الواقعة على شاطئ البحر الأدرياتيكي، البيوت والشوارع في هذه المدينة تشبه الأودية والصخور، والكتل الغرانيتية ذات

العديد من المنبسطات والحوافي. ومداخل البيوت تشبه أحياناً مداخل مغاور حفرت في الصخر. وتقوم بالقرب منها بيوت حديثة تجاور العصر الوسيط أو ما قبله بكثير.

ويحيط بالمدينة كلها جدار ـ تماماً كدرب بيت عندنا. ولقد تسلقت هذا الجدار عبر شوارع ضيقة كثيرة الشلالات وأدراج حجرية. على طول الجدار، وعلى مسافات متساوية تقوم أبراج حجرية. ولكل برج فتحتان كأنهما عينان قاسيتان. وهذه الأبراج تشبه مريدي الإمام يؤدون خدمة نزيهة ودائمة.

حين تسورت الجدار، أردت أن أنظر من الفتحتين الموجودتين داخل البرج. وكان بودِّي أن أفعل ذلك تواً، لكن المكان كان يعج بالسواح فلم أستطع الاقتراب من الفتحتين كثيراً. لكني استطعت مع هذا أن أرى على بعد من خلال الفتحتين قطعاً صغيرة من شيء ما أزرق. كانت القطع بحجم الفتحة، والفتحة بحجم راحة اليد.

وحين دنوت أخيراً، وقربت وجهي من الفتحتين، صعقت حين رأيت بحراً هائلاً يتماوج تحت شمس كانون الثاني، ودوداً لأنه الأدرياتيكي، لأنه بحر جنوبي على أي حال، وصارماً لأن الوقت كان كانون الثاني. لم يكن البحر أزرق، بل متعدد الألوان، وكان يقذف أمواجه على صخور الشاطئ، فتتحطم محدثة صوتاً كقصف المدافع، ثم ترتد إلى الوراء، وكانت تمخر عباب أليم سفن، الواحدة منها بحجم قريتنا.

في هذا الوقت بالذات ذكرت داغستان من جديد ذكرتها وأنا لا أزال أقف على رؤوس أصابعي خلف السواح لألقي نظرة إلى العالم الكبير، ثم وأنا أقترب من النافذة وأنظر.

هي أيضاً كانت تقف دائماً في المؤخرة تنتظر دورها، وهي أيضاً كانت تقف على رؤوس أصابعها. لكن المحظوظين الواقفين أمامها بظهورهم العريضة يسدون عليها الطريق. وها هي الآن ترى العالم كله

وكأنما تراه من نافذة صغيرة في برج. لقد ذابت الآن في العالم كله وقد حملت له عاداتها وأعرافها وأغانيها وكرامتها.

شعراء مختلفون في أزمنة مختلفة بحثوا عن صور مختلفة يجسدون فيها تصورهم عن داغستان. المغني الحزين محمود قال في شعوب داغستان إنها كالسواقي الجبلية تسعى دائماً لتندمج في تيار واحد، لكنها لا تقدر على ذلك، فتبقى كل منها تجري في طريقها وحيدة. وقال أيضاً إن شعوب داغستان تذكره بالأزهار في وادٍ ضيق، إحداها تميل صوب الأخرى لكنهما لا تستطيعان أن تتعانقا. لكن ألم تصب شعوب داغستان الآن في تيار جبلي واحد، ألم تنضم كلها في باقة واحدة؟

قال باتيراي: كما يرمي فقير معطفه العتيق في الزاوية المظلمة، كذلك داغستان انكمشت وألقيت في مضائق الجبال.

وشبه والدي داغستان بعد أن قرأ تاريخها بالقرن تتناقله أيدي السكارى أثناء الطعام.

وبأي شيء علي أنا أن أشبهك يا داغستان، يا بلدي؟ أي صورة علي أن أجدها كيما أعبر عن أفكاري في مصيرك وفي تاريخك؟ قد أجد فيما بعد كلمات أفضل وأليق بك، لكني أقول اليوم: «أنت نافذة صغيرة مفتوحة على بحر العالم العظيم». . أو بكلام آخر: «أنت نافذة صغيرة مفتوحة على محيط عظيم».

إليكم أيها الرفاق الوزراء الاسم الثاني للكتاب الذي أتهيأ لكتابته، أنا أدرك أن البلدان الأخرى، جارات داغستان، تستطيع أن تقول هذا الشيء عن نفسها، ولكن ما العمل، ليكن لها سميات.

إذاً، إليكم القلبق «داغستان بلدي» وإليكم النجمة على القلبق ـ «نافذة صغيرة مفتوحة على محيط عظيم».

كمن يستعد ليعزف، سويت طنبوري ذا الوترين، وكمن يستعد ليخيط، أدخلت الخيط في ثقب الإبرة.

أقرّ وزرائي اسم الكتاب، كما يقرّ الوزراء في مؤتمر دولي في نهاية المطاف جدول الأعمال.

يحدث أن يركب أخوان حصاناً واحداً بسلام. ويحدث أن يسوق فارس حصانين برسن واحد إلى حيث الماء.

قال أبو طالب: لقد اشترى قبعة كقبعة ليف تولستوي، فأين له أن يشتري رأساً كرأسه؟

ويقال: الاسم جميل، ولكن أي إنسان سيكون؟

في شكل هذا الكتاب
كيف يجب أن يكتب

الخنجر الراقد دائماً في غمده
يصدأ
الفارس الراقد دائماً في بيته
يترهل.
كتابة على خنجر

أدخلت الخيط في ثقب الإبرة.
فأي قفطان أخيط؟
لقد سويت الأوتار.
فأية أغنية أغني؟

جوادي الجزوع، الأمين نُعل جيداً. أنا بنفسي رفعت كل قائمة من قوائمه وتحققت من متانة حدواته. أنا أسرجته وشددت حزامه حتى إن أصابعي لا تمر تحته إلا بصعوبة. لقد أسرج حصاني بشكل جيد ومتقن.

العجوز الذي يشبه والدي في شيء، لا يدري ما هو، أعطاني العنان. والفتاة الصغيرة الحادة البصر مدّت يدها بالسوط. والجبلية من البيت المجاور خرجت إلي عن قصد وهي تحمل جرّة مملوءة بالماء، وهي بذلك إنما كانت تتمنى لي سفراً ميموناً. وكل من كنت أمّر به من

أهالي القرية، وأنا أقود حصاني، كان يحيد من طريقي ويقول: «سفراً ميموناً، باخارتشي!».

عند طرف القرية وضعت جبلية شابة على نافذة بيتها شمعة مشتعلة، وكانت بهذا تقول:

ـ لا تنسَ هذه النافذة، لا تنس هذا الضوء. إنه لن ينطفئ إلى أن تعود. إنه سيضيء لك عبر الأيام والسنين في طريقك البعيدة وفي لياليك العاصفة الصعبة. وحين ستقترب من قريتنا العزيزة، وقد أضناك التجوال، سيكون أول ما يلوح لعينيك. فاذكر هذه النافذة وهذا الضوء.

والتفت لألقي مرة أخرى نظرة على قريتي. على سطح بيتنا أرى أمي. إنها تقف منتصبة ووحيدة، ثم تتضاءل وتتضاءل لتصبح خطاً عمودياً صغيراً فوق الخطوط الأفقية لسطوح المنازل. وأخيراً وبعد منعطف جديد حجب أحد الجبال عني قريتي. ولما التفت لم أر شيئاً سواه.

وأمامي أرى أيضاً جبلاً. لكنني أدرك أن وراءه عالماً واسعاً، وقرى أخرى ومدناً كبيرة ومحيطات ومحطات قطارات ومطارات وكتباً.

جوادي يدقُّ بحوافره الطرق الحجرية في أرضي الحبيبة، أرض داغستان. وفوق رأسي سماء طوقتها النجوم حيناً آخر، وتغطيها الغيوم السود حيناً ثالثاً فتروي الأرض بمائها.

تمهّل يا جوادي تمهّل
أنا لم أتلفت خلفي
نحن نترك وراءنا
قريتنا الحبيبة الغالية
انطلق، يا جوادي، انطلق
لماذا نلتفت إلى الخلف؟
أمامنا قرى تنتظرنا
نجد فيها الصديق والأخ.

أين أذهب؟ كيف أختار الطريق السليم؟ كيف أكتب كتاباً جديداً.

من دفتر المذكرات: لم يعد الشباب عندنا في داغستان يرتدون لباسنا القومي. إنهم يرتدون القميص والسترة وربطة العنق تماماً كما في موسكو، وفي تيبيليسي وفي طشقند، ودوشانبيه ومينسك.

اللباس القومي لا يرتديه الآن إلا الفنانون في فرق الرقص والغناء. وبإمكان المرء أن يلقى حتى الآن في الأعراس إنساناً يرتدي اللباس القديم. وإذا أراد إنسان أن يلبس اللباس الداغستاني ـ أحياناً يستعيره من أصدقائه أو معارفه أو يستأجره. ذلك أن الداغستاني لم يعد يحتفظ بلباسه القديم. وبكلمة موجزة، اللباس القومي يختفي، كي لا نقول: إنه اختفى.

لكن المسألة هي أن الشكل القومي عند بعض الشعراء يختفي حتى في أشعارهم، وهم يفخرون بذلك.

أنا أيضاً أرتدي اللباس الأوروبي، ولم أعد ألبس قفطان والدي. لكني غير مستعد أن ألبس شعري لباساً لا هوية له. أنا أريد أن تأخذ أشعاري شكلنا، الشكل القومي الداغستاني.

وأنا! لقد قدّر لي أن أعيش عدّة عقود. هذه العقود أتت في زمن يرتدي الناس فيه السروال والسترة وينتعلون الحذاء. والشعر له حياته الخاصة. له تاريخ ميلاد ووفاة. أنا لا أقول شيئاً عن أشعاري فقد لا تعيش أطول مني.

رأيت في موسكو سنديانة يقال إن الذي غرسها هو إيفان الرهيب. أثناء نموّ السنديانة، إذاً، ارتدى الناس ملابس عهد البويارن(*)، ثم تحوّلوا عنها إلى السترة التي بدون ذراعين والشعر المستعار الذي ينتثر عليه المسحوق ثم إلى القبعة العالية والفراك الأسود، ثم إلى الدرّاعة والسترة الجلدية ومنها إلى السترة البسيطة والسروال العريض فالقصير...

(*) الأمراء الإقطاعيون في إمارة موسكو.

وكأني بالسنديانة تقول للناس: تبدّلوا ما طاب لكم، وغيّروا أزياءكم إن لم يكن لكم ما تفعلونه. فأنا لي رسالتي - أن ألتقط أشعة الشمس وأحولها إلى خشب متين مرنان وإلى ثمار تخرج منها أشجار عملاقة.

يقال في الجبال إن اللباس يصنع الإنسان، والحصان يصنع الشجاع. هذا القول له وقع جميل، لكنه لا يبدو لي صحيحاً. فالبطل لا يترتب عليه أن يلبس جلد النمر، قد يختفي تحت الدرع الفولاذية قلب جبان.

ذلك أنه حدث لي أكثر من مرّة أن حككت قفاي حين تبين أن البطيخة التي اخترتها لجمالها، قرعاء مزّة.

ذلك أن أحد الأونتسوكليين اختطف حبيبته بعد أن لفّها بعباءته، وحين فتح عباءته كانت هناك جدّة حبيبته الدرداء.

ذلك أن أبا طالب روى لي كيف دعي ذات مرّة إلى عرس في قرية بعيدة حيث عزف هناك على المزمار. كان العرس ناجحاً جداً. ففي المرج الواقع أمام القرية ظل المزمار يشدو والطبل يقهقه والكمان يئن والأكورديون يصدح والأغاني تدوّي ثلاثة أيام كاملة. وكما يقال عندنا في داغستان كان هناك «دامْ - دامْ» و«تشامْ - تشامْ» أي كان هناك ما يسمع، وكان هناك ما يؤكل. القرية كلها كانت في العرس، وكل إنسان من الكبير حتى الصغير رقص، ولو قليلاً.

وفي اليوم الثالث نادى المنادي بتفويض من راعي الاحتفال بأن العروسين سيخرجان بعد قليل إلى حلبة الرقص. العريس رآه الجميع طوال الأيام الثلاثة، أما العروس فكانت تجلس دائماً متخفية تحت طرحتها. ظل أبو طالب ثلاثة أيام يتطلع إلى ملابسها الأنيقة. فهذه الملابس ببريقها كانت تذكره، إذا شئت، بالغلاف المتعدّد الألوان لمختارات الشعر القفقاسي.

حين نهضت العروس وأخذت ترقص، أثارت بنيتها الحذر قليلاً في نفس أبي طالب. فمن حيث وزنها لم يكن من الممكن مقارنتها إلّا بالقصيدة الكيرغيزية الطويلة «ماناس» التي أصدرتها دار النشر الحكومية

للأدب. تهيّأت العروس لتخلع ملاءتها عن وجهها، فجمد الجميع وحبس أبو طالب أنفاسه. وها هي ذي العروس تكشف الملاءة قليلاً ـ إنها اللحظة التي ظلّ الجميع يترقبونها ثلاثة أيام..

إحدى عيني العروس كانت تنظر إلى خونزاخ، والأخرى إلى بوتليخ. وبين العينين اللتين تعرض إحداهما عن الأخرى بغضب اتخذ أنف طويل جداً مكاناً له.

أدرك الحزن أبا طالب، فلم يعد يستطيع أن يعزف على المزمار وأن يأكل، واضطر إلى مغادرة العرس.

أظن أن أبا طالب بالغ قليلاً وهو يروي لي هذه القصة.

ومع هذا فالإخراج الجيد لا يستطيع أن ينقذ الكتاب الرديء. ولكي نقيم هذا التقييم الصحيح يجب أن نخلع عنه الملاءة.

ذلك أنه كان عام طرحت فيه مسألة المرأة الجبلية وعلاقة الرجل بها على المستوى المطلوب، «وكألح ما يكون الطرح».

في ذلك العام لم يكن الزوج ليجرؤ على توجيه كلمة عتاب إلى زوجته. فقد كان يستدعى إلى مجلس المنطقة بسبب شجار عائلي عادي ويوجه إليه إنذار. وحتى لا يكون هناك لائم، وُجّه منذ البداية إنذار لكل من يعمل في أجهزة مجلس المنطقة. وفي ذلك العام وحده تواترت مؤتمرات الجبليّات حيث أطلق فيها من الكلام قدر ما أطلق في كل المؤتمرات الأخرى التي انعقدت في سائر الأوقات.

في ذلك العام إياه أخذت تظهر في سوق الأحد امرأة ضخمة تتاجر بكل أنواع البضائع الممنوعة. وكان الشرطي يخاف الاقتراب منها كي لا يمسّ باستقلال الجبليات وبتساويهن في الحقوق. لكنه مع هذا حذّر في الأحد الثالث البائعة برفق، وفي الأحد الخامس قرّر ـ وليكن ما يكون! ـ أن يقبض عليها ويقودها إلى القسم.

كان الجميع، وهو في طريقه مع المرأة إلى القسم، يشيرون إليه بإصبعهم ويدهشون كيف تجرأ على اعتقال جبلية مستقلة استعادت حريتها!

هناك في زحمة السوق كان يصعب على الإنسان أن يتأمل هذه المرأة البائعة، أمّا الآن فقد أخذت بعض التفاصيل تثير اهتمام الشرطي، منها مثلاً الجزمة الضخمة تحت الثوب.

قال الشرطي في نفسه: «نعم، هذه الساقية ليست من هذا النبع!»، وخلع الملاءة عن وجه البائعة، فإذا بوجه رجل ضخم ذي عينين جاحظتين وشاربين كشجيرتي عضاهة فوق صخرة يتطلع إليه.

بعض الفنانين الذين لا يملكون الموهبة والصبر وعزّة النفس يتزيّون بأزياء غريبة كيما يروّجوا بضاعتهم محاولين إخفاء عجز فكرهم وراء بريق الشكل. لكن ما جدوى في أن تلبس قبعتك، على جانب رأسك إذا كان بطنك خاوياً.

وأيضاً، مهما يكن الخنجر المصنوع من خشب جميلاً، فلن تذبح به صوصاً. إنه لا يصلح إلّا لتقطيع خيوط المطر.

وأيضاً، لا يولد أطفال من تزويج الدمى.

وأيضاً، حين يراد إجراء طهور لولد، يُرُونه ريش وزّة. لكن هذا للتمويه عليه فقط. فالطهور لا يتم بريش وزّة، بل بسكين حادة.

لكن القراء ليسوا بأطفال لتخدعهم وتسليهم، وأنا لست بفنان كي أضع في الغمد خنجراً من كرتون حتى ولو كان غمده حقيقياً ومذهّباً.

الغمد ضروري بالطبع، فبدونه يصدأ الخنجر. وإنه لأمر حسن أن يكون الغمد جميلاً.

بالطبع، حين كان الفارس يعود من غزوته بغنيمة ثمينة، كانت زوجه تلف عنق الفرس بمنديل حريري؛

وبالطبع، اللغة الضعيفة بالنسبة للفكرة النافذة هي تماماً كالذئب للحمل؛

بالطبع، أقوى العربات تهتز كثيراً في الطريق السيئة، وقد تسقط في الهاوية؛

وبالطبع، صهوة الحصان لا يستطيع أن يزينها حزام سرج حمار، والحمار لا يناسبه سرج حصان جموح.

ـ سأروي لكم هنا مثل البلخاري وفرسه الهزيل.

مثل البلخاري وفرسه الهزيل. حمّل بلخاري فرسه المسكينة جراراً وأصصاً وتوجه إلى القرى يبيعها.

في إحدى القرى الآفارية صادف وصول البلخاري يوم سباق الخيل. كان الفرسان الملتهبون حماسة قد تقاطروا عليها على جيادهم الأكثر منهم حماسة. الفرسان كانوا مشهورين، وجيادهم كانت مشهورة. الفرسان كانوا رشيقين وجميلين، وجيادهم كانت أرشق منهم وأجمل. عيون الفرسان كانت تلتهب شجاعة وشوقاً، وعيون الجياد كانت تحترق تلهّفاً.

كان الفرسان قد أخذوا ينتظمون صفوفاً، حين بلغ الساحة بلخارينا المسالم على فرسه الهزيل. كان منظر البلخاري ناعساً، وفرسه كانت، على ما ظهر، تكاد تغفو وهي تسير. أخذ الفرسان الشباب يسخرون من البلخاري.

ـ هيا شاركنا!

ـ هيا سجّل اسمك في عداد المتسابقين.

ـ ولماذا لا تجاري فرسه جيادنا؟

ـ انطلق معنا، وإلا فلن يكون هناك أحد وراءنا يجمع حوافر خيولنا.

ورداً على هذه السخريات أخذ البلخاري ينزل بصمت ما على دابته من جرار وأصص، وكوّمها كومة واحدة، ثم ركب بهدوء دابته وأخذ مكانه في صفوف الفرسان.

كانت جياد الفرسان تدق الأرض بحوافرها، وتشب ضاربة بقوائمها الأمامية في الهواء، وكانت فرس البلخاري منكسة الرأس تكاد تغفو.

بدأ السباق فاندفعت الجياد الجامحة كالإعصار.. وثارت زوبعة من الغبار، وفي هذه الزوبعة، في مؤخرتها تماماً، كانت فرس البلخاري تعدو. انتهى الشوط الأول من السباق، ثم الثاني فالثالث. بعده لاحظ الجميع كيف بدأت الجياد تتعب. ظهر عليها العرق ثم الزبد الذي كان يتساقط نتفاً في العجاج الحارق، كأنما كانت قوائم الجياد تتخدّر أكثر فأكثر، وكانت سرعتها تخفّ أكثر فأكثر. ولم يكن شيء ليستطيع أن يستحثها على العدو عدواً أسرع، لا سوطها ولا لكزها بمؤخرة الجزم. فرس البلخاري وحدها كانت تجري كما في السابق، لا أبطأ ولا أسرع. تجاوزت الفرس الجياد المتأخرة ثم حاذت المتقدمة منها، وفي الشوط العاشر والأخير تجاوزت الجياد الأمامية.

وربط المنديل، رمز النصر الشامخ، على رقبة الفرس المنكسة الرأس. أما البلخاري فقاد بهدوء دابته إلى حيث الجرار فحمّلها وتابع طريقه.

مثل هذا يحدث في الأدب، وربّما أكثر ممّا في سباق الخيل.

من دفتر المذكرات: الأشعار التي كتبت في سهولة تصعب قراءتها في أحيان كثيرة. والأشعار التي كتبت في جهد تسهل قراءتها في أحيان كثيرة. الشكل والمضمون كاللباس والإنسان.: إذا كان الإنسان طيباً،

ذكيّاً، كريماً، فلماذا لا يلبس اللباس المناسب، وإذا كان الإنسان ذا وجه جميل، فلماذا لا تكون له أفكار جميلة.

كثيراً ما تكون النساء جميلات لكنهن غير ذكيّات، وقد يكنّ ذكيّات جداً لكنهن غير جميلات. والشيء نفسه يحدث للمؤلفات الفنية.

وهناك نساء محظوظات يتألقن عقلاً وجمالاً. نستطيع أن نقول الشيء نفسه في كتب الشعراء الموهوبين حقاً.

قال أحد المآليين: ما إن يظهر الإنسان القادم إلى قريتنا عند المضيق، حتى أعرف إن كان إنساناً جيداً أو سيئاً..

قال أحد الكوياتشينيين: «الذهب أو الفضة لا يعنيان شيئاً بذاتهما. المهم أن يكون للمعلّم الصائغ يد ماهرة».

أروع الجرار
تصنع من الطين العادي
وأروع الأشعار
من الكلمات البسيطة
(كتابة على جرّة)

لقد عشت في هذه الدنيا أكثر من خمسة عشر ألف يوم، وقطعت طرقاً كثيرة جداً، والتقيت بآلاف كثيرة من الناس. انطباعاتي لا تعدّ، كأنها السواقي الجبلية أثناء المطر أو أثناء ذوبان الثلوج. لكن كيف أضمّها لأجعل منها كتاباً؟ ذلك أن كتابته أشبه ما تكون بإنسان يخطّ في الوادي مجرى عميقاً وواسعاً. لكن هذا ليس إلّا نصف المهمة، إذ يجب أن تتجمع السواقي الجبلية وتتدفق في هذا المجرى. فكيف أفعل هذا؟ أي معارف أنا في حاجة إليها؟ نظرية الأدب؟ لكن لا يجوز للمرء أن يفكر في كيفية كتابة الأشعار أكثر ممّا يعمل في كتابتها.

أريد أن أقول إنه ليست عندي مدارس وتيارات أدبية أثيرة على نفسي، بل عندي كتّاب وفنانون محبوبون.



من دفتر المذكرات: في المعهد الأدبي سئل أحد الآفاريين في الامتحان: ما الفرق بين الواقعية والرومنطيقية؟ يبدو أن الآفاري لم يكن قد قرأ كتباً في هذا الموضوع، وكان عليه أن يجيب. فكّر قليلاً ثم أجاب أستاذه:

ـ الواقعية هي حين ندعو النسر نسراً، والرومنطيقية هي حين ندعو الديك نسراً. انفجر الأستاذ ضاحكاً ووضع له علامة النجاح.

أمّا فيما يتعلق بي، فإني أحاول منذ البداية أن أسمي الجواد جواداً، والحمار حماراً، والديك ديكاً، والرجل رجلاً.

من دفتر المذكرات: كان لرابيندرانات طاغور أخ، كاتب هو أيضاً. وكان أخوه هذا من أتباع المدرسة البنغالية في الأدب الهندي. أما رابيندرانات فكان هو نفسه مدرسة. كان هو نفسه تياراً كاملاً، وهذا هو الفرق بين الأخوين.

في نفس رابيندرانات كان يعيش طائر، طائره الخاص، طائر لا يشبه الطيور الأخرى، طائر لم يوجد قبله. أطلق رابيندرانات هذا العصفور، أطلقه في الفن، ورأى الجميع أن هذا هو طائر رابيندرانات طاغور.

إذا أطلق فنّان طائره فاختلط بغيره من أسراب الطيور المتشابهة، فهذا يعني أنه ليس فنّاناً. هذا يعني أنه لا يطلق طائره الخاص، طائره العجيب، بل يطلق عصفوراً دورياً عاديّاً، ولن يميز أحد دوريّه وسط أسراب العصافير الدورية الأخرى التي تظلّ مع هذا عصافير دورية وإن تكن لطيفة ولا شك.

يجب أن يكون للإنسان موقده يشعل فيه النار بنفسه. الممتطي جواد غيره سينزل عنه طال الوقت أو قصر وسيسلّمه لصاحبه. لا تسرجوا أفكار الآخرين، بل ابتكروا لأنفسكم أفكاراً خاصة.

أجرؤ على تشبيه الأدب بالطنبور والكتّاب بالأوتار المشدودة عليه، لكل وترٍ منها صوته، رنينه، لكنها كلها تؤلف اللحن.

الطنبور الآفاري يفترض وجود وترين فيه فقط. ويقال إن والدي شدّ على طنبور الأدب الآفاري وتراً ثالثاً.

لو أني أستطيع أن أصنع وتراً آخر متميز الرنين. لو أني أصبح وتراً آخر على آلتنا الآفارية القديمة هذه.

لا أريد أن أكون كأولئك الصيادين الذين اشتروا أيّلاً من السوق، وقالوا في البيت إنهم اصطادوه.

أو يحدث هكذا: تسري إشاعة بأن أحد الصيادين صاد تيساً جبليّاً ضخماً في أحد الأودية، فإذا بالصيادين يهرعون إلى هذا الوادي السعيد. في هذا الوقت يكون الصياد الأول قد قتل دبّاً كبيراً في مكان آخر فيندفع الصيادون إليه، ويكون الصياد المعلّم يلاحق من وادٍ ثالث نمراً أرقط هائلاً... وأتساءل: من هو الصياد الحقيقي؟ هل هو الذي يبحث عن صيده بنفسه، أم أولئك الذين يقتفون أثره؟ هؤلاء لن يخجلوا من نزع الفريسة من مصائد الآخرين.

وإنهم ليذكرونني ببعض الكتاب. لا يجوز للمرء أن يتصرف كما تصرف أحد معارفي. فبعد أن تعرّف على كورني إيفانوفتش تشوكوفسكي، تظاهر بأنه لا يعرف أبا طالب.

الساقية التي تصل البحر، وترى أمامها المدى الأزرق اللامتناهي، وتختلط بهذه الأمواج الزرق العظيمة، يجب أن لا تنسى النبع العالي في الجبال الذي منه بدأ طريقها فوق الأرض، وذلك الطريق الحجري، الضيق، الكثير المنحدرات والمتعرّج الذي قطعته.

أجل، أنا ساقية جبلية. أحب نبعي، مصدري ومجراي الصخري. أحب تلك الأودية الذاكنة التي يجري فيها مائي، وتلك الصخور التي تسقط من فوقها شلّالات فضية، وتلك الأماكن المنبسطة الهادئة حيث يتعمق مجراه ويعكس على صفحته الجبال المجاورة، والسماء والنجوم في السماء. ثم يعود إلى الجري ببطء أولاً، ثم تزداد سرعته شيئاً فشيئاً.

لكني لا أقول: إن الأودية وحدها تكفيني. أنا أجري، إذاً فأمامي هدف. أنا لا أستشعر فقط، بل أرى، أعرف رحابة البحر التي لا حدّ لها.

ولست أنا وحدي في ذلك. بل إني كذلك حقاً، لأن مجال الرؤية عند داغستان كلها قد اتسع. ففي هذه الأعوام والعقود الخمسة لم تتوسع حدود مقابرنا وحسب، بل حدود تصوراتنا عن الحياة وعن العالم.

أنا شاعر آفاري. لكني أشعر في قرارة نفسي بمسؤوليتي كمواطن لا عن آفارستان وحدها، ولا عن داغستان كلها فقط، وليس عن بلدي كله، بل عن كوكبنا كله. إنه القرن العشرون. ولا يمكنك أن تكون إلّا هكذا.

روي لي: بعد ولادتي مباشرة اضطر والدي بسبب شؤون الخدمة للانتقال موقتاً إلى قرية أراديريخ. وضع والدي على سرج جوادنا خرجاً جمع في أحد جانبيه كل عفش بيتنا من ملابس وبقايا طحين، وطحين شوفان ودهن وكتب. وفي الجانب الآخر كنت أطلُ برأسي.

بعد أن وصلنا، مرضت أمي مرضاً شديداً. وفي القرية التي انتقلنا إليها حدث أن وجدت امرأة مسكينة وحيدة مات صغيرها منذ مدّة. هذه المرأة الأراديريخية أخذت ترضعني. فأصبحت مرضعتي وأمي الثانية.

وهكذا، أنا مدين لامرأتين على هذه الأرض. ومهما امتد بي العمر، ومهما فعلت لهاتين الامرأتين وباسمهن لن أفي ما لهما علي من دين. فدين الأبناء لا نهاية له.

هاتان المرأتان إحداهما أمي، تلك التي ولدتني، وأول من هزّ سريري، وغنّى لي أولى الأغنيات، وتلك الأخرى، التي قدّمت لي صدرها، حين كان محكوماً علي بالموت، فبدأ دفء الحياة يدبّ فيّ فتحوّلت من درب الموت الضيق إلى طريق الحياة، هي أيضاً أمي.

ولشعبي، ولبلدي الصغير، ولكل كتاب من كتبي أمّان.

الأم الأولى هي داغستان. هنا ولدت، وهنا سمعت لأول مرّة لغتنا الأم، وتعلمتها فدخلت في لحمي ودمي. وهنا سمعت لأوّل مرّة أغانينا، ولأوّل مرّة غنيت. هنا أحسست لأول مرة بطعم الماء والخبز. ومهما يكن من أمر الجروح التي كنت أصاب بها وأنا أتسلق الصخور الحادة، فقد كانت مياه أرضنا وأعشابها تشفيها كلها. يقول الجبليون: ليس هناك مرض لا يوجد له في جبالنا عشب يشفيه.

وأمي الثانية هي روسيا العظيمة، أمي الثانية هي موسكو. لقد ربّتني، وألهمتني، وأخرجتني إلى الطريق الواسع وأرتني آفاقاً جديدة، أرتني العالم كله.

لهاتين الأمّين أنا مدين. محمود وبوشكين سجّادتان، لوحتان تتدليان على جدار بيتي. ودواوين بلوك المشبعة ببرودة ليالي بطرسبرج البيض تحتفظ بأكثر من زهرة نارية حارقة قطفت من مروج آفاريا الجبلية العالية.

أمّان كجناحين، كيدين، كعينين، كأغنيتين. وأيدي هاتين الأمّين كانت تمسح على رأسي برفق، وكانت تشدّني من أذني عند اللزوم. أمّان شدّتا وترين على طنبور، شدت كلّ واحدة منهما وتراً. ورفعتاني عالياً فوق الأرض، فوق قريتي، فرأيت من فوق أكتافهما أشياء كثيرة في العالم لم أكن لأراها أبداً، لو لم ترفعاني فوق الأرض. وكما لا يعرف النسر عند تحليقه أي جناحيه أكثر ضرورة وأعز عليه، كذلك أنا لا أعرف أي الأمّين أعز علي.

في الماضي كان الجبليون يداوون كل أمراضهم بالماء والأعشاب وحدها. كانوا يؤمنون بالأطباء الشعبيين. والحقيقة أن هناك أطباء لا زال الناس يتحدثون عنهم حتى الآن. هؤلاء الأطباء كانوا يجبرون الناس على ذبح خروف أسود لكي يشفوا وجع الرأس.

أي آفاري يعرف أن لحم الخروف الأسود أعطر وألذّ من لحم الخروف الرمادي أو الأبيض. كان الطبيب يلفّ رأس المريض بجلد

الخروف الذي يتصاعد منه البخار ويجبره على الجلوس هكذا فترة من الوقت، أمّا اللحم فكان يحمله إلى بيته.

لن نتحدث الآن عن هؤلاء الأطباء. ولكن كان بينهم أطباء جيدون كانت لهم أدوية جيدة.

كان والدي يرقد ذات مرّة في مستشفى الكرملين. وهناك تذكر أعشاب داغستان ومياهها. فطلب إلى أولاده أن يأتوه بماء من نبع صغير في جبال بوتسخار.

كلمة الأب قانون بالنسبة للابن. وسافر الأبناء إلى داغستان وتسلقوا جبال بوتسخار، وعثروا هناك على النبع، وأخذوا من مائه للشاعر الآفاري المريض، الراقد في مستشفى الكرملين.

شرب والدي قليلاً من هذا الماء، فبدا وكأنما حاله تحسنت، لا بل شفي. لكنه لم يعرف أنهم أخذوا في ذلك اليوم نفسه يحقنونه بدواء أجنبي جديد.

ربّما لم يشف بفعل هذه الوسائل الطبية التي أوجدها العلم العالمي فقط. وربّما لم يشف بفعل الماء الآفاري وحده، وهو وسيلتنا الشعبية القومية وحدها. لكنه شفي بفعل هاتين الوسيلتين.

وهذا بالضبط ما يجب أن يكون في الأدب. مصادره هي أرض الوطن، الشعب، اللغة الأم. لكن وعي كل كاتب حقيقي أوسع اليوم من حدود قوميته وحدها. فما هو إنساني، عالمي يبهج فؤاده، ويتدافع في دماغه.

يخرج المسافر في سفر
فماذا يحمل معه؟
خمراً يحمل.. خبزاً يحمل..
لكن يا ضيفي العزيز

لن تتأخر في إكرامك

ولن تحتاج إلى ما تحمل
الجبلية ستخبز لك خبزاً
والجبلي سيقدم لك خمراً

يخرج المسافر في سفر
فماذا يحمل معه؟
خنجراً مشحوذاً يحمل..
لكن يا ضيفي العزيز،

في الجبال ستقدم لك فروض الإكرام.
وإذا كان عدوك لا يغفل عنك
فالجبلي عنده أيضاً خنجر
وهو سيحميك

يخرج المسافر في سفر
فماذا يحمل معه؟
أغنية يحمل..
لكن يا ضيفي العزيز

الأغاني المدهشة عندنا
لا حصر لها في الجبال
لكن لا بأس احمل معك أغنيتك
فحملها ليس بالثقيل.

فإذا شبهنا الكاتب بالطبيب، فعليه إذاً أن يعرف كيف يستخدم الوسائل الشعبية القديمة وآخر منجزات العلم.

وإذا شبهنا الكاتب بالمسافر، فعليه حين يحلّ ضيفاً على شعب آخر، أن يحمل في قلبه أغاني وطنه، ولكن عليه أيضاً أن يجد في قلبه مكاناً للأغنيات التي سوف يغنونها له. يودعه شعب، ويستقبله شعب وكلا الشعبين، له أغانيه.

عندما بدأ أوائل المحاضرين يترددون على قرانا، كانت النساء في قرية كيلب يجلسن وظهرهن إلى المحاضر كي لا يستطيع أن يرى وجوههن. ولكن حين كان يعقب المحاضر مغنّ، كانت النساء يتغلّبن على الأعراف القديمة احتراماً للأغنية ويدرن وجوههنّ نحو المغني، لا بل كان يسمح لهنّ فوق ذلك أن ينزعن الحجاب عن وجوههن.

ليس هناك يوم واحد يمر، أو دقيقة واحدة تمرّ دون أن تحيا في نفسي تلك الأغنية، التي غنتها لي أمي فوق مهدي، وتتردد بين ضلوعي. هذه الأغنية هي مهد كل أغاني. إنها المخدة التي أسند إليها رأسي المتعب، وذلك الفرس الذي يحملني في أرجاء الدنيا كلها. إنها النبع الذي أنهل منه في عطشي، وذلك الموقد الذي يدفئني والذي أحمل دفئه في حياتي.

لكني في الوقت نفسه أريد أن أكون مثل (شوكوم) ذلك الذي لم يكن ليستطيع التخلّي عن حليب أمه وثدي أمه مع أنه أصبح طفلاً كبيراً ضخماً. في أمثال هؤلاء يقال: «الجسم جسم ثور كبير، والعقل عقل عجل صغير».

لقد تعوّدنا في زماننا أن نملأ استمارات مختلفة. كم واحدة منها ملأت في حياتي! لكني لم أجد في أي استمارة سؤالاً يتعلق بحب الوطن، وهذا لا يعني أبداً أن هذا الحب لا وجود له بين سكان هذه الأرض.

من ناحية أخرى، لا يكفي أن تكتب في الاستمارة «مواطن سوفياتي». بل يجب أن تكونه، لا يكفي أن تكتب «عضو الحزب الشيوعي» بل يجب أن تكونه، لا يكفي أن تكتب «لغتي الأم هي الآفارية». بل يجب أن تكون هذه اللغة لغتك الأم بالفعل، وأن تملك الرجولة فلا تخونها.

تعالوا إلي أيها الضيوف على اختلافكم، واحملوا إلي أغانيكم على اختلافها! تعالوا إلي إخوة، أخوات. سأستقبلكم كلكم وسيكون لكم كلكم مكان في قلبي!

حين كان الجبلي يعود إلى خونزاخ حاملاً على جواده امرأة من قومية أخرى، كان هذا الجبلي يستقبل باللوم والعتاب وكان تصرفه يقابل باستنكار كبار القرية. لكن الشيوخ والشباب ألفوا ذلك الآن، فلم يعد زواج الآفاري بامرأة من أية قومية يعتبر مجلبة للعار. زواج واحد فقط يدعو إلى الاستنكار الآن في الجبال إنه الزواج دون حب.

أليس صحيحاً أنه بقدر ما تكون الأزهار متنوعة، تكون الباقة المضفورة من هذه الأزهار أجمل، وبقدر ما تكون النجوم في السماء أكثر تكون السماء أشدّ تألقاً؟ قوس قزح جميل لأنه جمع كل ألوان الأرض.

بودّي أن يكون كتابي الآفاري كتلك الزهرة الأفريقية السحرية، حتى يجد كل واحد فيه ما هو قريب إليه وعزيز عليه.

وها أنا ذا أعرض كل ما يجب أن يتكوّن منه كتابي. إني كالصانع الكوباتشيني الماهر، كل شيء تحت تصرفي. عنده الفضة والذهب والأدوات القاطعة والمطارق والمناقر الصغيرة والدمغات والرسوم. وأنا عندي لغتي الأم، وتجربتي في الحياة وصور الناس، وأخلاق الناس، وألحان الأغاني، وحسّ التاريخ، وحسّ العدالة، والحب، وطبيعة بلدي، وذكرى والدي، وماضي شعبي ومستقبله. . . سبائك ذهب بين يدي. لكن هل لي يدان ذهبيتان، يدان بارعتان؟ هل عندي ما يكفي من الموهبة، ومن البراعة؟

كيف لي أن أفعل حتى أضع أغنيتي على راحتكم عصفوراً حيّاً نابضاً، كي تملأ أغنيتي قلوبكم دون استئذان ودون طلب، كما يملأ الحب القلوب؟

ها أنا ذا أعود من جديد إلى ما بين يدي، على مكتبي، أقلبه. . .

يقال: لتهجرّن الفارس زوجته إذا لم يكن له جواد.

ويقال أيضاً: لتهجرّن الفارس زوجته إذا لم يكن لحصانه سرج أو سوط.

ويقال أيضاً: لا تحاول أن تطعم النسر تبناً، والحمار لحماً.

ويقال: حتى البيت الجميل يمكن أن ينهار إذا كانت جدرانه غير متينة.

ويقال: رأت الدجاجة في نومها إنها نسر، فطارت من أعلى الصخر فحطمت جناحيها.

ورأت الساقية في نومها إنها نهر كبير، ففاضت فوق الرمل فجفت فوراً.

اللغة

الصغير هنا يبكي ويضحك
لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة.
ولكن سيأتي يوم يقول فيه للناس جميعاً
من هو؟ ولماذا أتى إلى هذا العالم؟

(كتابة على مهد)

لولا الكلمة في العالم
لما كان كما هو الآن.
قبل خلق العالم بمائة عام
ولد الشاعر.

الإنسان الذي يقرر كتابة الشعر
وهو لا يعرف اللغة كالمجنون
الذي قفز إلى نهر جارف
وهو لا يعرف السباحة.

بعض الناس يتكلمون لا لأن أفكاراً هامة تتزاحم في رؤوسهم بل لأن طرف لسانهم يحكهم. وبعض الناس يكتبون شعراً لا لأن عواطف كبيرة تتزاحم في صدورهم، بل لأن.. حتى إنه يصعب على المرء أن يقول

لماذا يقررون فجأة كتابة الشعر. صدى هذا الشعر يشبه خشخشة جوز موضوع في كيس من جلد الغنم غير المدبوغ.

هؤلاء الناس لا يريدون أن يلتفتوا ويروا أولاً ما يجري في العالم. ولا يريدون أن ينصتوا ويعرفوا الإيقاعات والأغاني والأنغام التي يفيض بها العالم.

ونتساءل، لماذا أعطي الإنسان عينين وأذنين ولساناً؟ لِمَ كان للإنسان عينان وأذنان، وليس له إلا لسان واحد؟

القضية هي أنه قبل أن يُخرج اللسان الكلمة، أية كلمة، في طرفه ويطلقها في العالم، يجب على العينين أن تريا، وعلى الأذنين أن تسمعا.

الكلمة المنطلقة من اللسان كجواد هابط من درب ضيق وعر إلى فضاء فسيح وممتد. وأتساءل هل يمكن أن نطلق في العالم كلمة، لم تكن قد عاشت في القلب؟

لا ليست هناك كلمة فحسب. فهي إما تكون لعنة أو تهنئة، أو جمالاً، أو ألماً، أو قذارة، أو زهرة، أو كذباً، أو حقيقة. أو نوراً، أو ظلاماً.

سمعت في بلادي القاسية
أن الكلمة هي التي خلقت العالم لنا نحن بني البشر الخطاة.
فكيف دوت هذه الكلمة؟
أمراً أو دعاء أو قسماً؟

نحن نهب لنقاتل من أجل هذا العالم.
العالم مثخن بالجراح، العالم منهك بقسوة.
فهاتوا كلمة: قسماً أو دعاء
أو لعنة، لا فرق، على أن تنقذ العالم.

أحد أصدقائي كان يقول: أنا سيد كلمتي، أقف عندها إن شئت، وأنكص عنها إن أردت. قد يصلح هذا الأمر لصديقي، لكن الكاتب يجب أن يكون سيداً حقيقياً لكلماته، لقسمه أو للعناته. فهو لا يستطيع أن يقسم مرتين. بمناسبة واحدة. وبشكل عام أرى أن الذي يقسم كثيراً ليس إلا كذاباً.

إذا كان هذا الكتاب يشبه سجّادة، فأنا أحيكها من خيوط اللغة الآفارية المتعددة الألوان. وإذا كان يشبه فروة من جلد الخروف فأنا أخيط الجلد بخيوط اللغة الآفارية، المتينة.

يقال إنه لم يكن في اللغة الآفارية في الماضي، الماضي البعيد جداً، سوى عدد قليل جداً من الكلمات. فمفاهيم كالحرية، والحياة، والشجاعة والصداقة والخير كان يعبر عنها بكلمة واحدة أو بكلمات متشابهة جداً من حيث لفظها ومعناها.

ليقل الآخرون إن لغة شعبنا فقيرة. أما أنا فأستطيع أن أقول بلغتي كل ما أريده، ولست في حاجة إلى لغة أخرى كي أعبر عن أفكاري ومشاعري.

في داغستان شعب صغير هم اللاكيون. يتكلم اللاكية ما يقرب من خمسين ألف شخص. من الصعب علينا أن نذكر عدداً أدق هناك أبناء لما يتعلموا الكلام، وآخرون نسوا لغة آبائهم.

قليل هو عدد اللاكيين، لكن بإمكانك أن تصادفهم في أرجاء كثيرة من كرتنا. فحياة الضنك فوق أرضهم الصخرية أجبرتهم على أن يجوبوا العالم. وهم كلهم حرفيون ممتازون. إسكافيون وحدادون وسمكرية، وبعضهم كان يضرب في الأرض ويغني. يقال في داغستان، «واحترس وأنت تقطع البطيخة، فقد يطلّ منها رأس لاكي».

أوصت أم لاكية ابنها وهي تودعه إلى بلاد نائية فقالت: «حين تأكل عصيدة من صحن في مطاعم المدينة، انظر فقد يكون ابن بلدنا تحت العصيدة».

يروى أن أحد اللاكيين كان يتسكع في إحدى المدن الكبيرة، في موسكو أو لينينغراد، لا أذكر، حين رأى فجأة إنساناً في زي داغستاني. شعر اللاكي بنسمة من أرض الوطن تهب عليه، ورغب في الحديث إلى ابن بلده. اقترب منه على الفور وأخذ يحدثه باللاكية، لكن هذا لم يفهم شيئاً، وأخذ يهز رأسه. حاول اللاكي أن يتحدث إليه الكوميكية ثم بالتاتية فاللازغينية، لكن صاحبنا ذا الزي الداغستاني لم يستطع الحديث رغم تعدد اللغات التي كان اللاكي يحاول التحدث بها إليه. فاضطر عندها للانتقال إلى الروسية. وقتها تبين أن اللاكي وقع على آفاري.

وأخذ الآفاري ساعتها يشتم محدثه غير المنتظر ويخجله:

ـ أي داغستاني تكون، وأي ابن بلد تكون إذا كنت لا تعرف الآفارية. أنت لست داغستانياً، بل جملاً جاهلاً.

لست في هذا النزاع إلى جانب ابن قومي، إذ ليس هناك ما يدعوه إلى التهجم على اللاكي المسكين، يمكن للاكي بالطبع أن يعرف الآفارية وأن لا يعرفها. المهم أنه كان يعرف لغته الأم، اللغة اللاكية. زد على ذلك أنه كان يعرف عدة لغات سواها في حين لم يكن الآفاري يعرفها.

كان أبو طالب ذات مرة في موسكو. وفي الشارع اضطر لسبب ما أن يلجأ إلى عابر سبيل، على الأرجح لسؤاله عن موقع السوق. وكان أن صادف إنكليزياً. ليس في الأمر شيء عجيب، فالأجانب ليسوا قليلين في شوارع موسكو.

لم يفهم الإنكليزي أبا طالب، فأخذ يستفسر منه بالإنكليزية أولاً، ثم بالفرنسية، وبعدها بالإسبانية، وربما بلغات أخرى غيرها.

وحاول أبو طالب من جهته أن يتفاهم مع الإنكليزي بالروسية أولاً، ثم باللاكية، فالآفارية، فالليزغينية فالدرغينية فالكومية.

وافترق المتحدثان دون أن يفهم أحدهما الآخر. أحد الداغستانيين المثقفين جداً جداً، وكان يعرف كلمتين ونصف بالإنكليزية، قال لأبي طالب بعد هذا:

ـ هل رأيت ما قيمة الثقافة؟ لو كنت أكثر ثقافة لاستطعت أن تتحدث إلى الإنكليزي، أتفهم؟

وأجاب أبو طالب:

ـ أفهم، ولكن لماذا يجب أن يحسب الإنكليزي نفسه أكثر ثقافة مني، فهو بدوره لم يكن يعرف أية لغة من اللغات التي حاولت أن أكلمه بها؟

لغات الشعوب بالنسبة لي، كالنجوم في السماء. أنا لا أودّ أن تذوب النجوم كلها في نجم واحد ضخم يُغطي نصف السماء. الشمس كفيلة بذلك. لكن لندع النجوم تتلألأ هي الأخرى، ولتكن لكل إنسان نجمة.

أنا أحب نجمي ـ لغتي الآفارية الأم. وأنا أصدق الجيولوجيين الذين يقولون إنه قد يوجد في الجبل الصغير ذهب كثير.

إحدى النساء صبّت على رأس امرأة أخرى هذه اللعنة:

ـ ليحرم اللّه أولادك اللغة التي تتكلم بها أمهم.

في اللعنات: حين كنت أكتب قصيدتي «الجبلية» احتجت إلى لعنة أضعها على لسان امرأة شريرة في القصيدة. فقيل لي: إن امرأة كهلة تعيش في إحدى القرى لا تستطيع جارة من جاراتها أن تجاريها في السباب، فتوجهت فوراً إلى هذه المرأة العجيبة.

اجتزت عتبة البيت الذي كنت أقصده ذات صباح ربيعي لا يرغب القلب فيه أن يلعن ويشتم، بل أن يفرح ويغني. وبكل بساطة قلب أخبرت المرأة العجوز بما أنا آتٍ من أجله. الأمر كذا وكذا، أريد أن أسمع منك لعنة كأقوى ما يمكن، وسأسجلها وأضعها في قصيدتي.

ـ ليجف لسانك، ولتنسى اسم حبيبتك، وليفهم الإنسان الذي تقصده كلماتك على غير معناها، ولتنس إلقاء التحية على قريتك حين تعود إليها من تطواف بعيد، ولتصفر الريح في فمك حين تسقط أسنانك.. يا ابن آوى، هل أستطيع أن أضحك (وليحرمك اللّه هذه النعمة) حين أكون

مغمومة؟ هل يكلف البكاء غالياً في بيت لم يتوفَّ فيه أحد؟ هل أستطيع أن أتفوه بلعنة، إذا لم يغضبني أو يشتمني أحد؟ اخرج، ولا تأت إلي بعد هذا بمثل هذه المطالب الغبية؟

ـ شكراً لك أيتها المرأة الطيبة ـ قلت وخرجت من بيتها.

وفي الطريق أخذت أفكر: «إذا كانت هذه المرأة صبت على رأسي دون أي كراهية، هكذا على الماشي، مثل هذه اللعنات الرائعة، فما عساها تقذف في وجه من يغضبها حقاً».

أعتقد أن أحد الدارسين للتراث الشعبي سيضع ذات يوم كتاباً عن لعنات أهالي الجبال، وسيعرف الناس عندئذ مدى ابتكارهم ومهارتهم وسعة خيالهم، وكذلك مدى قدرة لغتنا على التعبير.

لكل قرية لعناتها.. في إحدى هذه اللعنات ترى نفسك موثق اليدين والرجلين بوثاق غير منظور. وفي ثانية ترى نفسك في نعش، وفي ثالثة تسقط عيناك في الصحن الذي تأكل منه، وفي رابعة تتدحرج عيناك على الصخور الحادة وتسقطان في الهاوية. واللعنة الموجهة إلى العينين تعتبر من أرهب اللعنات لكنه يوجد مع هذا، ما هو أرهب منها. فقد سمعت في إحدى القرى امرأتين تتبادلان الشتائم:

ـ ليحرم اللّه أطفالك من يستطيع أن يعلمهم اللغة.

ـ بل ليحرم اللّه أطفالك من يستطيعون أن يعلموه اللغة.

إلى هذا الحدّ تكون اللعنات مرعبة في بعض الأحيان. لكن في الجبال، وحتى بدون لعنات، يفقد الإنسان الذي لا يحترم لغته الأم احترامه فالأم الجبلية لن تقرأ أشعار ابنها، إذا كانت مكتوبة بلغة فاسدة.

من دفتر المذكرات: التقيت في باريس ذات مرة برسام داغستاني. كان قد غادر البلد إلى روما للدراسة بعد الثورة بقليل، وهناك تزوج

إيطالية، ولم يعد إلى بلده. الداغستاني الذي اعتاد قوانين الجبال يصعب عليه أن يألف وطنه الجديد. أخذ صاحبنا تارة يهيم في أرجاء الدنيا ويحط الرحال في العواصم المتألقة تارة أخرى، لكنه كان يحمل حنينه وشوقه حيثما ارتحل. وأردت أن أرى هذا الحنين مجسداً في الألوان فطلبت من الفنان أن يريني لوحاته.

إحدى اللوحات تحمل هذا الاسم «الحنين إلى الوطن» رسمت على اللوحة إيطالية (تلك الإيطالية ذاتها) في زي آفاري قديم. إنها عند النبع الجبلي، تحمل إبريقها الفضي الذي صنعه حرفيّو غوتساتلين المشهورون. وعلى سفح الجبل تقبع كئيبة قرية آفارية من حجر، وفوق القرية تنتصب جبال أكثر اكتئاباً، وذرى الجبال يلفها الضباب.

قال الفنان:

ـ الضباب هو دموع الجبال. حين يلف الضباب سفوح الجبال، تأخذ قطرات مضيئة تنساب على تجاعيد الصخور. الضباب هو أنا.

ورأيت على لوحة أخرى طائراً يحطّ على عضاهة شائكة. الشجيرة تنمو بين الصخور العارية. الطائر يغرد، ومن شباك البيت تحدق فيه جبلية حزينة. وحين رأى الفنان اهتمامي باللوحة، أوضح يقول:

ـ هذه اللوحة اقتبستها من أسطورة آفارية قديمة.

ـ أي أسطورة؟

ـ اصطادوا طائراً ووضعوه في قفص. وأخذ الطائر يردد في قفصه ليلاً نهاراً: وطني، وطني، وطني، وطني، وطني، وطني..

هكذا أنا تماماً كل هذه السنوات أردد.. وفكر صاحب الطائر في نفسه: «أي وطنٍ هذا وطنه، وأين هو؟ لا بد أنه بلد رائع، زاهرة أشجاره وطيوره من أشجار الجنة وطيورها. هيا فلأطلق سراحه فأرى أين يطير. وهو سيدلني على الطريق إلى هذا البلد العجيب».. وفتح القفص فانطلق الطائر مبتعداً عشر خطوات ثم حطّ على عضاهة كانت

تنمو بين الصخور العارية. في أغصان هذه العضاهة كان عشه.. وأنهى الفنان كلامه قائلاً: أنا أيضاً أتطلع إلى وطني من شباك قفصي.

ـ ولماذا لا تريد أن تعود؟

ـ الوقت أصبح متأخراً. لقد حملت آنذاك من أرض وطني قلبي الشاب المتوقد، فهل أستطيع أن أعيد إليها الآن عظامي البالية؟

حين عدت من باريس بحثت عن أقارب الفنان.. ولدهشتي تبين أن أمه ما زالت على قيد الحياة. وبحزن أصغى أقاربه الذين اجتمعوا في البيت إلى حديثي عن ابنهم الذي ترك وطنه واستبدل به أرضاً غريبة. لكنهم كما يبدو كأنما غفروا له. كانوا مسرورين لأن ابنهم حيّ مع هذا. وفجأة سألتني أمه:

ـ هل تحدثتما بالآفارية؟

ـ كلا. تحدثنا بوساطة مترجم. كنت أنا أتكلم بالروسية، وابنك بالفرنسية.

غطّت الأم وجهها بطرحة سوداء كما تفعل النساء حين يسمعن بموت ابنهن.

كان المطر ينقر على سطح البيت. وكنا نجلس في آفاريا، وعلى الطرف الآخر، في باريس، ربّما كان ابن داغستان الضال يصغي هو أيضاً إلى صوت المطر. وبعد صمت طويل قالت أمه:

ـ أنت مخطئ، يا رسول. لقد مات ابني منذ زمن بعيد. هذا لم يكن ابني. فابني لم يكن ليستطيع أن ينسى اللغة التي علمته إياها، أنا أمه الآفارية.

من ذكرياتي: عملت فترة من الوقت في المسرح الآفاري. كنّا ننتقل من قرية إلى أخرى لنعرف الجبليين بالفن المسرحي ونحن نحمل

اللوحات والملابس وأدوات التمثيل (كل عفشنا كانت الحمير تحمله، إنما كانت تبقى أمتعة للفنانين ذاتهم). كثيراً ما أذكر هذا العام الذي أمضيته في المسرح.

كنت أكلف في بعض المسرحيات بأداء أدوار ثانوية، لكني كنت أجلس معظم الأحيان في مكان الملقن. كان دور الملقن، يعجبني، أنا الشاعر الشاب، أكثر من كل الأدوار الأخرى. تمثيل الممثلين وإيماءاتهم وحركاتهم وتنقلهم على المسرح، كل ذلك كان يبدو لي أمراً ثانوياً وغير ضروري، كما كانت تبدو لي ثانوية الملابس والزينة واللوحات. شيء واحد كنت أحبه أهم ما في هذه الدنيا ـ هو الكلمة. كنت أتتبع، وأنا غيور، الممثلين كي لا يغيروا الكلمات، كي يلفظوها بشكل صحيح. وإذا حدث وأغفل ممثل كلمة أو شوهها، كنت أخرج رأسي وألفظ هذه الكلمة بالشكل الصحيح وبصوت عالٍ بحيث تسمعني القاعة كلها.

نعم، كنت أعتبر النص والكلمة أهم شيء، لأن الكلمة تستطيع أن تحيا بدون ملابس ودون زينة فمعناها سيفهمه النظارة.

أذكر في هذا الصدد حادثة غريبة: كنا نعرض آنذاك مسرحية عنوانها «الجبليون». . وهي مسرحية تتحدث عن الماضي السحيق للشعب الآفاري. كنت ملقناً كالعادة. ومن أحداث الرواية أن بطل الرواية أيغازي الذي يختبئ في الجبال هرباً من الثأر. يأتي إلى قريته ليلاً كي يلتقي محبوبته. وتأخذ هذه بإقناعه بالعودة فوراً إلى الجبال، وإلّا قتلوه (كان ماغايف يمثل هذا الدور)، لكن أيغازي يتحدث إلى حبيبته، وقد غطاها بعباءته من المطر، عن حبه وعذابه.

في هذه اللحظة بالذات حدث شيء غير متوقع. فجأة تصعد على المسرح راكضة زوجة ماغايف، وتنقض عليه غاضبة ـ لأنه يحدث أخرى في الحب. أمسك ماغايف يد زوجته وجرها إلى وراء الكواليس ليوضح لها الأمر. كان يأمل أن ينهي الموضوع بسرعة، ويعود إلى إكمال

المشهد، لكن الزوجة تشبثت بزوجها ولم تدعه يعود إلى المسرح. فبقيت حبيبته وحدها على خشبة المسرح. وهنا أصبح الأمر عسيراً.

كنت أجلس في مكاني بدون ثياب المسرح وبدون زينة بالطبع جل ما كنت أرتديه سروال وقميص أبيض ذو ياقة مفتوحة.

لا بل يبدو أني كنت أحتذي خفاً. في مثل هذه الصورة كنت لا أستطيع أن أقوم مقام ماغايف، وإن كنت أحفظ دوره عن ظهر قلب. لكن بما أن الكلمة لا الثياب كانت أهم شيء بالنسبة لي فقد قفزت من مكاني إلى الخشبة وقلت للمحبوبة المسكينة كل الكلمات التي كان على أيفازي ـ ماغايف أن يقولها.

لا أعرف هل كان النظارة راضين مني، فقد تكون المسرحية قد تحولت إلى ملهاة بالنسبة لهم، لكني كنت راضياً. فقد فهموا مضمون المسرحية. ولم تفتهم كلمة واحدة، وهذا الأمر كنت أعتبره أهم شيء.

وأذكر أني أتيت وللمرة الأولى قرية غونيب الجبلية العالية المشهورة في رفقة هذا المسرح. من المعروف أن الشاعر للشاعر صديق، وإن لم يكونا على معرفة سابقة، وفي غونيب بالضبط كان يعيش شاعر سمعت به لكن لم تتهيّأ لي فرصة لقائه من قبل. عند هذا الشاعر حللت ضيفاً، وبقيت هناك طوال أيام مكوثنا في غونيب.

استقبلني أصحاب البيت استقبالاً جيداً حتى أُحرجت، ولم أعد أعرف كيف أتوارى عن أنظارهم. وأذكر بشكل خاص أم الشاعر بطيبتها الحانية.

عندما كنت أهم بمغادرتهم لم أجد من الكلمات ما أعبر به عن شكري. وصدف أني كنت أودع أم الشاعر حين لم يكن أحد في الغرفة. كنت أعرف أنه لا شيء أفرح للأم من كلمة طيبة تقال في ابنها. ومع أني كنت أنظر إلى قدرات شاعرنا الغونيبي المتواضعة نظرة واعية جداً، إلا أني أخذت أطريه. فقلت لها إن ابنها شاعر تقدمي جداً، وأنه يكتب دائماً في مواضيع الساعة الملحة.

فقاطعتني أمه قائلة بحزن:

ـ قد يكون تقدمياً، لكنه دون موهبة.. قد تكون أشعاره تعالج مواضيع ملحة، لكني أشعر بملل حين آخذ في قراءتها. فكر، يا رسول، في الأمر كيف يحدث. حين بدأ ابني يتعلم نطق كلماته الأولى التي لم يكن بالإمكان حتى فهمها، كنت أُسَرُّ بشكل لا يوصف. لكنه الآن حين تعلم لا أن يتكلم وحسب، بل أن يكتب أشعاراً، أشعر بالملل. يقال إن عقل المرأة في طرف ثوبها، ما دامت جالسة فهو معها، لكن يكفيها أن تنهض حتى يتدحرج عقلها ويسقط على الأرض، وهكذا ابني: ما دام يجلس إلى المائدة يتغدى فأنت تراه يتكلم بشكل طبيعي وأنا على استعداد لأسمع منه كل ما يقوله، لكنه في طريقه من مائدة الطعام إلى منضدة العمل يفقد كل الكلمات البسيطة والطيبة، ولا تبقى عنده إلا الكلمات الرسمية، الباهتة، المملة.

حين أذكر هذه الحادثة، أسأل اللّه أن لا يحرمني لغتي، لأني أريد أن أكتب في شكل تكون فيه أشعاري، وكتابي هذا، وكل ما سوف أكتبه، غالياً ومفهوماً بالنسبة لأمي ولأختي ولكل جبلي، ولكل إنسان يقع كتابي بين يديه. لا أريد أن أبعث فيهم الضجر، بل أن أحمل إليهم الفرح. فإذا فسدت لغتي وأصبحت باردة، غير مفهومة ومملة، وباختصار، إذا أفسدت لغتي الأم فسيكون هذا بالنسبة لي أفظع شيء في حياتي.

حين كان جبليو قريتنا يجتمعون قرب الجامع في مجلس القرية، أي في اجتماع لبحث الأمور العامة، كنت ألقي عليهم قصائد من شعر والدي. كنت طفلاً، لكني كنت أعرف كيف ألقي الشعر باندفاع كبير (لا بل باندفاع زائد). بصوت عالٍ مبرزاً بعض الكلمات والأصوات التي تعجبني. وهكذا مثلاً، حين كنت أقرأ قصيدة والدي «صيد الذئب في تسادا» كنت أخرج حرف تس في كلمتي باتس وتسادا من خلال أسناني

المضغوطة بشدة، بحيث كانت ترتجف، ترفس ويضرب أحدها بالآخر. كان يبدو لي أن مثل هذا اللفظ المتوتر، الشديد، يحدث انطباعاً أكبر.

وكان والدي يصحح نطقي كل مرة ويقول لي:

ـ هل تشبه الكلمة جوزة يجب أن تقضمها وتكسرها بأسنانك؟ أو هل تشبه الثوم، يجب أن تدقه في الجرن بمدقة من حجر؟ أو هل تشبه الكلمة أرضاً صخرية جافة يجب حرثها بالضغط بكل قوتك على المحراث؟ الفظ الكلمات بخفة، دون إجهاد، بحيث لا ترفس أسنانك ولا تطقطق.

وكنت أبدأ في القراءة من جديد ولكن الأمر كان يبقى على حاله. كانت أمي في هذه الأثناء تقف عند طرف سطح بيتنا، فناداها والدي قائلاً:

ـ لو أنك تعلّمينه!

لفظت أمي الكلمات التي كان يصعب علي لفظها كما يريد والدي.

ـ أسمعت؟ والآن هيا.

لكن حظي في النجاح لم يكن أكبر مما في السابق. فغضب والدي وقال:

ـ تفو.. أحد الجالاتوريين الذي كان يفسد الكلمات ضربته بالمكنسة. ولكن ماذا أفعل بابني؟

وغادر والدي الاجتماع متكدراً.

كيف ضرب والدي الجالاتوري: كان ذلك في يوم من أيام الربيع التي تقام فيها الأسواق. في الربيع، كما هو معلوم، ينفد كل ما بقي من محصول العام الماضي، وبينما لا يكون هناك أي شيء جديد. في الربيع كل شيء في السوق يكون ثمنه أعلى مما في الخريف، حتى القدور، مع أنها لا تنمو في الحقل.

قرر والدي، وكان لا زال شاباً، أن يذهب إلى السوق. فطلب إليه جاره أن يشتري له مكنسة وأعطاه عشرين كوبيكا،

ـ إذا اشتريت بسعر أرخص فاترك الباقي لك ـ هكذا أوصى الشاب حمزة جاره، وبهذه الوصية ذهب والدي إلى السوق.

وسرعان ما وجد والدي بائعاً وأخذ يساومه. ترى، هل يعرف الجميع أن الطلب الأول في أي سوق شرقي لا يعني شيئاً؟ فالغرض الذي يساوي خمسة كوبيكات، يمكن أن يطلب فيه مائة روبل.

اختار والدي مكنسة جيدة، قوية وسأل:

ـ هل تبيعها؟

ـ ولماذا أقف هنا؟

ـ ما السعر؟

ـ أربعون كوبيكا.

ـ المكنسة ليست حصاناً لتبدأ من السعر الأعلى، قل فوراً السعر الحقيقي، واقبض.

ـ أربعون كوبيكا.

ـ وإذا تركنا المزاح جانباً؟

ـ أربعون كوبيكا.

ـ هاتها بعشرين كوبيكا.

ـ أربعون كوبيكا. . .

ـ صدقاً، ليس عندي أكثر من عشرين كوبيكا.

ـ ارجع إلي حين تتوفر لك الأربعون.

انطلق والدي يتجول في أنحاء السوق، وقد أدرك أنه لن يشتري مكنسة، فما لبث أن رأى على مرتفع غير بعيد من الممرات التجارية حشداً من الناس. اقترب والدي وشق طريقه وسط الزحام فأدرك أن الناس يستمعون إلى المغني محمود.

كان محمود يجلس وسط الجمهور وطنبوره في يده. كان يضرب عليه تارة، ويضع راحته على أوتاره تارة أخرى ويغني، وقد حبس الجميع أنفاسهم، حتى إنه كان يسمع أزيز النحلة وهي تطير إلى بعض شؤونها.

أحد الشبان سعل أثناء الغناء، فقام إليه جبلي أشيب، هو والده كما بدا، وطرده بعيداً عن مجلس الغناء.

في هذا الصمت الذي لم يكن يسمع فيه إلا صوت أغنية محمود، أخذ أحد الجالاتوريين يتحدث إلى جاره. كانت نية الجالاتوري حسنة: فقد كان يترجم تباعاً لجاره الذي لم يكن يفهم الآفارية ما كان محمود يغنيه. لكن المصيبة أن ثرثرته المتصلة كانت تحول دون الآخرين ودون سماع الأغنية والتمتع بها.

استاء الشاب حمزة، أي والدي العتيد، من تصرف الجالاتوري، فشده من كمه، لكن هذا لم يؤد إلى نتيجة، فهمس في أذنه أن يصمت، لكنه لم يعر كلام حمزة أي انتباه. تلفت أبي في حيرة فرأى أن بائع المكانس قد اقترب هو أيضاً يستمع. فهرع والدي إليه وأخذ أكبر مكنسة عنده، وراح يضرب بها الجالاتوري اللجوج.

أخذ الجالاتوري يتوعد حمزة وهو يتراجع، لكن بلغ غضب والدي حداً لم يستمع فيه إلى تهديداته، بل طرد في آخر الأمر هذا الذي كان يمنع الناس من الاستماع إلى الأغنية.

ثم اقترب والدي من البائع يعيد إليه المكنسة.

ـ دعها لك.

ـ لكن ليس معي إلا عشرين كوبيكا، وأنت تطلب أربعين.

ـ خذها مجاناً. فتصرفك أغلى من بضاعتي كلها.

لقد تكاثر الآن على وجه الأرض من يفسدون الأغنية من أمثال هذا الجالاتوري. ومن دواعي الأسف أن لا يكون لأمثال هؤلاء مكنسة ورجل يضربهم بها.

يقال عندنا في الجبال في الكلمة الجيدة، المحكمة واللاذعة «إنها تساوي فرساً مسرجاً».

من دفتر المذكرات: علي عليف، جاري في ماخاتشكالا، مصارع

رائع وكان بطل العالم أربع مرات. التقى في مباراة جرت في إستمبول مع أقوى مصارع تركي. كان التركي قوياً وماهراً بالفعل. لكن علي عليف الجبلي الرابط الجأش والشجاع ألقى بالتركي على السجادة كومةً من الحبال. كانت دهشة علي عليف عظيمة وهو يسمع التركي يدمدم وهو ينهض بشتيمة جبلية باللغة الآفارية. وكانت دهشة التركي أعظم حين سمع عليف المنتصر يقول له بالآفارية أيضاً «لماذا السباب، يا ابن بلدي، الرياضة هي الرياضة».

ومع هذا كانت دهشة النظارة والحكم أكبر من هذا وذاك، وهم يرون المتصارعين يرتميان فجأة أحدهما في حضن الآخر، كأنهما أخ وجد أخاً فقده منذ أمد بعيد.

وقد تبين فيما بعد أن التركي ينحدر من أسرة آفارية انتقلت إلى تركيا بعد وقوع شامل في الأسر. ولا يزال المتصارعان يلتقيان، حين يلتقيان، كأنهما أخوان.

من ذكرياتي عن والدي في عام 1939: ذهب والدي إلى موسكو لاستلام وسام. كان هذا حدثاً كبيراً في ذلك الوقت. وحين عاد إلى القرية والوسام على صدره، طلبت إليه الجماعة، أي المجلس العام للقرية، أن يتحدث إليها عن موسكو، عن الكرملين، عن ميخاييل إيفانوفتش كالينين الذي كان يقلد الأوسمة وقتها، وعن أقوى انطباع حصل لديه.

قص عليهم والدي بالترتيب كيف جرت الأمور ثم قال:

ـ أما أهم شيء فهو أن ميخاييل إيفانوفتش كالينين لم يلفظ اسمي بالروسية، بل بالآفارية. لقد ناداني تساداسا حمزة وليس حمزة تساداسا فقط.

دهش شيوخ القرية وهزوا رؤوسهم مؤيدين.

قال والدي ـ أترون ـ هؤلاء أنتم تسمعون هذا مني فتسرون، فكم

كان سروري أنا حين سمعت هذا بنفسي، وفي الكرملين نفسه، ومن كالينين نفسه أقول لكم بصدق: لقد سررت حتى نسيت أن أسرّ بالوسام.

وإني لأفهم جيداً مشاعر والدي.

منذ عدة سنوات زرت بولونيا في عداد وفد من الكتاب. ذات مرة في كراكوف قرع باب غرفتي في الفندق الذي أقيم فيه. فتحت الباب، فإذا أنا بإنسان غريب يسألني بلغة آفارية خالصة:

ـ هنا ينزل حمزاتل رسول؟

ارتبكت وفرحت:

ـ لا احترق، بيت والدك! ولا انهار، يا للمفاجأة آفاري وفي كراكوف؟

كدت أرتمي على ضيفي أعانقه، ثم سحبته إلى داخل الغرفة، وتحدثنا حتى آخر النهار والمساء كله.

لكن ضيفي لم يكن آفارياً. كان عالماً بولونياً يدرس لغات داغستان وآدابها. سمع الكلام الآفاري للمرة الأولى في معسكر اعتقال من آفاريَّين أسيرَين. فأعجبته اللغة، وأعجبه أكثر منها الآفاريين ذاتهما. وأخذ البولوني يدرس لغتنا. أحد الآفاريين توفي فيما بعد، أما الآخر فقد تحمل الأسر، ثم حرره الجيش السوفياتي، وما زال حتى الآن حياً يرزق.

كنت أتحدث إلى البولوني بالآفارية فقط. وكان هذا شيئاً مدهشاً وغير مألوف. وفي آخر اللقاء دعوت العالم البولوني لزيارة داغستان.

نعم، كنا كلانا نتحدث، ذلك اليوم، بالآفارية. لكنه كان بين لغتي ولغته فرق هائل، كان يتكلم كما يليق بعالم أن يتكلم، بلغة صافية، سليمة جداً، سليمة أكثر من اللازم، لا بل محايدة، كان يفكر في قواعد اللغة أكثر مما يفكر في تلاوينها، وكان يفكر في تركيب الجملة وبنيتها، لا في الجسد الحي لكل كلمة.

أريد أن أكتب كتاباً لا تخضع فيه اللغة للقواعد، بل القواعد للغة.

وبتعبير آخر أشبه القواعد بمسافر يسير على قدميه، والأدب بمسافر يركب بغلاً. التمس الراجل من الراكب أن يحمله معه على بغله، فأركبه وراءه. لكن الرجل تشجع شيئاً فشيئاً، وأخذ يزاحم صاحب البغل ويطرده قائلاً: «البغل بغلي وكل ما عليه لي».

إيه يا لغتي الآفارية، أيتها اللغة الأم! أنت ثروتي كنزي المحفوظ ليومي الأسود، ودوائي في كل العلل. إذا ولد الإنسان بقلب مغن، لكن أبكم، فخير له أن لا يولد. في قلبي كثير من الأغاني، ولي صوت. هذا الصوت هو أنت يا لغتي الآفارية الأم. أنت التي قدتني كالطفل من يدي، وأخرجتني من قريتي إلى العالم الكبير، إلى الناس، وها أنا ذا أتحدث إليهم عن أرضي. أنت قدتني إلى العملاق الذي اسمه اللغة الروسية العظيمة. هي أيضاً أصبحت بالنسبة لي لغة أماً، وهي التي امسكتني بيدي الأخرى وقادتني إلى كل بلدان العالم، فأنا مدين لها كما أنا مدين لمرضعتي، تلك المرأة من قرية أراديريخ. لكني أدرك جيداً مع هذا، أن لي أماً أصلية.

ذلك أنه يمكن للإنسان أن يطلب أعواد ثقابٍ من جاره كي يضرم النار في موقده. لكنه لا يمكن للإنسان أن يطلب من أصدقائه أعواداً تضرم النار في القلب.

يمكن لألسنة الناس أن تكون مختلفة، على أن تكون قلوبهم واحدة.

أنا أعرف أن بعض أصدقائي غادروا قراهم وذهبوا يعيشون في المدن الكبيرة. وهذا ليس بالمصيبة الكبيرة. صغار الطير أيضاً تبقى في عشها حتى تنمو أجنحتها. ولكن أي موقف سيكون لي من بعض أصدقائي الذين يعيشون في المدن الكبيرة ويكتبون الآن بلغة أخرى؟ الشأن شأنهم بالطبع، وليس بودّي أن أعظهم. لكنهم، مع هذا، يشبهون من يحاول أن يمسك بطيختين بيد واحدة.

لقد تحدثت إلى هؤلاء المساكين، ووجدت أن اللغة التي يكتبون بها

الآن لم تعد الآفارية، ولكنها أيضاً ليست الروسية. إنها تذكرني بغابة يعبث بها حطابون بلداء.

أجل، رأيت أمثال هؤلاء الناس، لغتهم الأم بالنسبة لهم لغة صغيرة وفقيرة، فراحوا يبحثون لأنفسهم عن لغة أخرى، غنية وكبيرة. فكان من أمرهم ما كان من أمر الجدي في الأسطورة الآفارية ـ ذهب الجدي إلى الغابة لينمو له ذنب ذئب، فعاد حتى بدون قرنين.

أو إنهم يشبهون الوزة، إنها تعرف الغطس والسباحة، ولكن ليس كالسمك، وتعرف الطيران قليلاً ولكن ليس كالطيور، بل تعرف الغناء قليلاً ولكن ليس كالشحرور، إنها لا تعرف أن تفعل شيئاً كما يجب.

سألت أبا طالب مرة:

ـ كيف أحوالك؟

ـ لا بأس. ليست كأحوال الذئب، ولكن ليست كأحوال الأرنب. وسط. ثم صمتَ قليلاً وأردف: أسوأ حالة يمر بها الكاتب هي هذه الحالة ـ الوسط. يجب أن يشعر إما أنه ذئب يأكل الأرنب، أو أنه أرنب هارب من الذئب.

من دفتر المذكرات: ذات مرة زار والدي شبان من قرية مجاورة، وأخبروه أنهم ضربوا مغنياً. سألهم والدي:

ـ لماذا ضربتموه؟

ـ كان يتصنع وهو يغني، كان يسعل عن قصد ويشوه الكلمات، ثم تراه فجأة يئز ثم ينبح كالثعلب. لقد أفسد الأغنية فضربناه.

ـ وبماذا ضربتموه؟

ـ بعضنا بالسير، وبعضنا بقبضته.

ـ كان يجب أن تضربوه بالسوط أيضاً. لكنني أريد أن أسألكم أين ضربتموه؟

ـ على الأماكن الطرية في الغالب. لكن الضرب كان لا يوفر رقبته بالطبع.

ـ نعم، فرأسه هو المذنب الأكبر.

ذكرى: لماذا لا أروي لكم الآن قصة، ما دامت قد وردت خاطري؟ يوجد في ماخاتشكالا مغنّ آفاري. . لا أريد أن أذكر اسمه: فهو سيحزر على أي حال، أما نحن فسيان عندنا أن نعرف اسمه، كان هذا المغني يتردّد كثيراً فيما مضى على والدي يسأله أن يضع كلمات لألحانه. كان والدي يوافق وعلى هذا الأساس تظهر أغنيات جديدة.

كنّا نشرب الشاي ذات مرة، حين أعلنت الإذاعة أن المغني المشهور فلاناً سيغني الآن أغنية وضع كلماتها حمزة تساداسا. أخذنا نصغي جميعاً ووالدنا معنا. لكن دهشتنا كانت تزداد بقدر ما كنا نستمع. فقد كان المغني يغني بحيث لا يستطيع الإنسان أن يميز كلمة واحدة. لم تكن تسمع إلا صرخات، وكان المغني يأكل الكلمات كديك يبعثر طعامه في كل الجهات ثم عاد ينقره حبّة حبة.

وحين لقائهما سأله والدي عن هذه المعاملة المتهاونة التي يعامل بها كلماته. فأجابه المغني:

ـ إني أفعل هكذا، كي لا يفهم الآخرون منها ولا يتذكرون شيئاً. لأنهم إن تذكروا الأغنية فسيغنونها هم أيضاً، وأنا أريد أن أغنيها وحدي.

وبعد فترة أقام والدي أمسية لأصدقائه ومنهم مغنينا هذا. وفي نهاية الأمسية نزع أبي من الحائط كوموزا ذا أوتار مقطوعة، وأخذ يغني أغنية من تلحين المغني. كان والدي يلفظ كلمات الأغنية بوضوح كبير، أما ألحان الأغنية المعزوفة على هذه الآلة المتهافتة فلم يبقَ منها ما يشير إليها. اغتاظ المغني وأخذ يقول إن أغنيته لا يجوز أن تعزف على كوموز مقطع متهافت، وإن هذا الكوموز لا يستطيع أن يؤدي كل جمال ألحانه. وأجابه والدي بهدوء:

ـ إني أعزف وأغني هكذا عن عمد، كي لا يستطيع الآخرون أن

يذكروا أو يلتقطوا ألحانك. فإذا كانت الأغنية التي لا يمكن فهم كلماتها تعتبر صالحة، فلماذا لا تكون صالحة تلك الأغنية التي لا يمكن إدراك موسيقاها.

يكتب الداغستانيون كتبهم، بعشر لغات وبتسع ينشرونها. وفي هذه الحالة ماذا يفعل الذين يكتبون باللغة العاشرة؟ وما هي لغتهم هذه؟

بالعاشرة يكتب أولئك الذين نسوا لغتهم الأم ـ الآفارية أو اللاكية أو التاتية أو غيرها ـ لكنهم لما يعرفوا لغة غريبة. فلا هم بقوا هنا، ولا صاروا هناك.

اكتب بلغة غريبة، إذا كنت تتقنها أفضل من لغتك الأم. أو اكتب بلغتك الأم، إذا كنت لا تعرف غيرها كما يجب. لكن لا تكتب باللغة العاشرة.

نعم، أنا عدوّ اللغة العاشرة. يجب أن تكون اللغة قديمة تمتد إلى آلاف السنين. عندئذ فقط تفي بالغرض منها.

اللغة تتغير بالطبع، لن أماري في هذا، وأوراق الشجرة أيضاً تتبدل كل عام: بعضها يسقط وبعضها ينمو مكانها. لكن الشجرة ذاتها تبقى، وتصبح مع كل عام جديد أزهى وأورف وأقوى، وعليها تنمو في آخر الأمر الثمار.

وها أنا أقدّم لكم أغانيّ وكتبي، وأحمل إليكم الثمار التي نمت على شجرة اللغة الآفارية الصغيرة والقديمة:

اللغة الأم

كل شيء في الحلم غريب دائماً وغير معقول
واليوم في نومي تراءى لي الموت.
في يوم قائظ في وادي داغستان
كنت أرقد على الأرض بلا حراك كأن رصاصاً على صدري

النهر يجري، يسرع مزبداً،
أنا منسي، لا يحتاج أحد إلي،
تمددت على التراب الحبيب.
قبل أن أصبح أنا تراباً.

أحتضر، لكن أحداً لن يعرف
ولن يحضر إلي،
النسور وحدها في الذرى تتصايح،
والأيّل يئن في مكان ما بعيد.

لا أم، لا صديق، لا حبيب،
حتى ولا نادبة هناك
تبكي على قبري،
أنا من مات في شرخ الشباب.

هكذا كنت أرقد وأحتضر عاجزاً،
وفجأة سمعت على مقربة مني
رجلين يسيران ويتكلمان
بلغتي الآفارية الأم.

في يوم قائظ وفي وادي داغستان
كنت أحتضر، وكان الرجلان يتكلمان
عن دهاء حسن
وعن أحابيل علي

أسمعت وقع لغتي الأم غائماً،
فانتعشت، وأدركت وقتها
أن من يشفيني ليس الطبيب
ولا الحكيم، بل لغتي الأم

قد تشفي بعضهم لغة أخرى،
لكني لا أستطيع أن أغني بها،

وإذا كانت لغتي ستضمحل غداً،
فأنا مستعد أن أموت اليوم.

أنا أخشى دوماً عليها،
ليقولوا إن لغتي فقيرة
وإنها لا تسمع من منبر الأمم المتحدة،
لكنها عظيمة بالنسبة لي وعزيزة.

حين يبلغ ابني محمود مرحلة الفهم
فهل سيقرأ شعري مترجماً؟
وهل أكون من آخر الكتاب
الذين يكتبون ويغنون بالآفارية؟

أنا أحب الحياة، أحب كوكبنا كله،
وأحب فيه كل زاوية حتى الصغيرة.
وأحب أكثر منها كلها بلاد السوفييت،
لها غنيت بالآفارية كما استطعت،

يعز عليّ هذا البلد المزدهر والحر كله،
من البلطيق حتى ساخلين.
في سبيله أنا مستعد لأموت أينما كان،
لكن فليقبروني هنا في هذه الأرض!

حتى يذكر الآفاريون أحياناً،
عند قبري قرب الأوول،
بكلمة آفارية اسم ابن بلدهم رسول
نجل حمزة من تسادا.

من دفتر المذكرات: كان والدا جبلي شاب يعارضان في زواجه من فتاة روسية. لكن الفتاة، على ما يبدو، كانت تحب فتاها الآفاري كثيراً. وذات يوم استلم منها رسالة مكتوبة باللغة الآفارية. أرى الشاب والديه

الرسالة فقرأها وهما لا يصدقان عيونهما، وكان من شدة ذهولهما أنهما سمحا على الفور لابنهما، وهما لا يمسكان بهذه الرسالة غير العادية، أن يأتي بالفتاة إلى بيتهما.

من دفتر المذكرات: اللغة للكاتب مثل غلة الحقل بالنسبة للفلاح. حبوب كثيرة في كل سنبلة. والسنابل كثيرة لا عد لها. لكن لو بقي الفلاح ينظر إلى حقله دون أن يفعل شيئاً، لما حصل على حبة حنطة واحدة. يجب أن يحصد القمح ثم يدرس. لكن هذا ليس إلّا نصف العملية. يجب أن يذرى الدريس لفصل الحبوب النظيفة عن الخسيسة والحشائش. ثم يجب أن يطحن ويعجن ويخبز. لكن أهم ما في الأمر كله هو أن تذكر أنه مهما بلغت حاجتك إلى الخبز، فلا يجوز أن تستنفد كل الحبوب. أفضل الحبوب يبقيها الفلاح للبذار.

والكاتب الذي يتعامل مع اللغة أشبه ما يكون بالفلاح.

يقال: قطع أطفال شجرة كان يعشش فيها عقعق وخربوا عشه.

ـ لماذا قطعوك أيتها الشجرة؟

ـ لأني لم أكن أستطيع أن أقول لهم شيئاً.

ـ ولماذا خربوا عشك أيها العقعق؟

ـ لأني كنت أقعقع كثيراً.

يقال: الكلمات كالمطر: في المرة الأولى خير عظيم، وفي الثانية، شيء جيد، وفي الثالثة أمر محتمل، وفي الرابعة بلاء وشر مستطير.

الموضوع

لا تكسر الباب ـ إنه يفتح بالمفتاح بسهولة
كتابة على باب

لا تقل: «أعطني موضوعاً»
بل قل: «أعطني عينين»
نصيحة إلى كاتب شاب

«أيها الرفاق الأعزاء، عندي رغبة كبيرة في الكتابة، لكني لا أعرف عن أي شيء أكتب. أعطوني موضوعاً ضرورياً وملحاً، أكتب لكم كتاباً رائعاً».

كثيراً ما يتوجه بعض الشباب بمثل هذا الطلب إلى اتحاد الكتاب، إلى هيئات تحرير المجلات أو إلى الصحف، أو إلى الكتّاب شخصياً. ولقد تلقيت مثل هذه الرسائل، كما تلقاها والدي. كان، حين يتلقّاها، يهزّ رأسه ويقول:

ـ هذا الشاب يريد أن يتزوج، لكن المصيبة أنه لا يعرف تلك التي يريد أن يتزوجها. ليس هناك فتاة معينة، ولا يعرف إلى من يبعث بالخاطبين.

ذكرى: ذات مرة وصلت إلى اتحاد كتّاب داغستان رسالة من أبي

طالب، يطلب فيها الشاعر إيفاده في بعثة إبداعية إلى القرى الجبلية النائية لمدة شهر. ولدى اجتماع إدارة الاتحاد سئل أبو طالب عمّا يريد أن يكتب بالضبط، عن موضوعه. عندئذ غضب الشاعر العجوز وقال:

ـ هل يعرف الصياد ما يلقى في طريقه: أهو أرنب أم أوزة، أم ذئب، أم ثعلب أحمر؟ وهل يعرف المحارب مسبقاً أي مأثرة سينجزها في المعركة؟

كنت في ذلك الاجتماع. وقد وقعت كلمات أبي طالب هذه من قلبي موقعاً طيباً.

يدهشني دائماً أولئك الذين يحاصرون الكاتب بالطلب إليه أن يحدثهم عن مشاريع الإبداع لديه للسنوات القادمة. الكاتب يعرف بالطبع الاتجاه العام لعمله. وربما كان بالإمكان التخطيط لكتابة رواية أو ثلاثية، أما الشعر.. الشعر فيأتي على غير توقع، كهدية. ملكوت الشاعر لا يخضع للمشاريع المحكمة. لا يمكن الإنسان أنه يخطط لنفسه فيقول: في الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم سأحب الفتاة التي سألقاها في الطريق. أو: غداً في حوالى الخامسة مساء سأبغض سافلاً ما.

أبيات الشعر لا تشبه أزهاراً في منبت ورد أو في حوض زهر ـ فهي هناك كلها أمامك، ولا حاجة بك إلى البحث، ـ بل تشبه زهوراً في حقل، في مرج في جبال الألب، حيث كل خطوة تعدك بزهرة جديدة، أكثر روعة..

المشاعر تولد الموسيقى، والموسيقى تولد المشاعر. فأيهما نضعه في المقام الأول؟ حتى الآن لم يحسم هذا السؤال: هل ظهرت الدجاجة أولاً أم البيضة. والسؤال نفسه يتردد هنا: هل الكاتب هو الذي يلد الموضوع أم الموضوع هو الذي يلد الكاتب؟ الموضوع هو كل عالم الكاتب، هو الكاتب كله، لا وجود له بدونه. ولكل كاتب موضوعه المتميز والخاص.

الأفكار والمشاعر طيور؛ أما الموضوع فهو الغابة؛ الأفكار والمشاعر

غزلان، أما الموضوع فهو الجبال؛ الأفكار والمشاعر طرق، أما الموضوع فهو المدينة التي تؤدي إليها هذه الطرق وتلتقي فيها.

موضوعي هو الوطن. ليس علي أن أبحث عنه وأختاره. لسنا نحن الذين نختار وطننا، بل الوطن هو الذي اختارنا منذ البداية. لا يمكن أن يكون هناك نسر بدون سماء، ولا جبلي بدون صخرة، ونقط(*) بدون نهر سريع رقراق، وطائرة بدون مطار. كذلك لا يمكن أن يكون كاتب بدون وطن.

النسر الذي يروح ويجيء في كسل بين الدجاجات في الحوش ليس بنسر. والتيس البري الذي يرعى مع ماشية الكولخوز ليس بتيس بري. والنقط الذي تسبح في أحواض تربية الأسماك ليست بنقط. والطائرة التي تعرض في المعرض ليست بطائرة.

وكذلك بالضبط لا يمكن أن يكون شحرور بدون أغنية شحرور.

في الموضوع أيضاً: تعزّ علي منذ طفولتي لوحة صغيرة. إذا فتحت النافذة الصغيرة في بيت والدي، كنت ترى على الفور هضبة واسعة خضراء تمتد كسماط عند أقدام القرية. وكانت الصخور تنحني عليها من كل جانب. وبين الصخور تتلوى دروب كانت في صباي تذكرني بالأفعى، وكانت مداخل المغاور تشبه بالنسبة لي أشداق الوحوش.

وكنت ترى وراء السلسلة الأولى من الجبال سلسلة ثانية. وكانت الجبال مستديرة، داكنة، تبدو ذات وبر كأنها ظهور جمال.

إني أدرك الآن أن في سويسرا أو نابولي أماكن أجمل، لكني حيثما كنت، وإلى أي جمال على هذه الأرض نظرت، أقارن ما أرى بهذه اللوحة الصغيرة من طفولتي، اللوحة المؤطرة بنافذة بيتنا، فتبهت أمامها كل جمالات العالم. ولو لم تكن لي لسبب ما قريتي وضواحيها، ولو

(*) نوع من السمك النهري.

لم تكن تعيش في ذاكرتي، لكان العالم كله لي صدراً لكن دون قلب، وفماً لكن دون لسان، وعينين دون إنسانين، وعشاً لكن دون طير.

هذا لا يعني أبداً أني أحصر موضوعي في حدود ضيقة هي حدود قريتي وبيتي، وهذا لا يعني أني أرفع حول موضوعي هذا أسواراً عالية منيعة.

هناك حقل تشق فيه بمحراثك طبقة سميكة من التراب، لكنك ترى تحتها تربة جديدة لينة. وهناك حقل تشق فيه بمحراثك طبقة رقيقة من التراب، لكنك ترى تحتها حجارة قاسية. وهناك حقل ما إن تشق الطبقة الرقيقة منه حتى ترى الحجارة. أنا لا أنوي أن أفلح وأعمل في أرض كهذه، لأني أعرف أنه لن يكون منها حصاد جيد.

لا أريد أن أربط حبي لأرض وطني وأعقله، كما يربط أو يُعقل فرس قام بجهد طيب ويجب الآن أن يرعى في مرج واسع أخضر. إني أنزع عنه لجامه وأربّت على عنقه الحار المبتل وأقول له: اذهب وارع واستجمع قواك. ففي شعوري بالوطن هناك شيء ما طيب وهادئ كما في الفرس الذي يرعى على هواه.

أنا لا أريد أن أبحث عن كل ظواهر العالم في بيتي، في قريتي، في بلدي داغستان، في شعوري بالوطن. بل إني، عكس ذلك، أجد شعوري بالوطن في كل ظواهر العالم وفي كل أركانه. فموضوعي، من هذا النحو هو العالم كله.

أذكر أن أصوات الديكة أيقظتني في سانتياغو البعيدة والأسطورية. صحوت، وللحظات بدا لي أني في قريتي الحجرية الصغيرة. وهكذا كانت ديكة سانتياغو موضوعي.

وفي اليابان، وفي مدينة كاماكوري الأكثر أسطورية من مدينة سانتياغو، حضرت انتخاب ملكة الجمال. كانت الحسناوات اليابانيات يمررن أمامنا الواحدة تلو الأخرى. وكنت أقارنهن، عفوياً، بوحيدتي،

تلك الباقية هناك، في جبال آفاريا، فلم أجد فيهن ما في ملكتي أنا. وهكذا كانت حسناوات اليابان، وحتى ملكة جمالها، موضوعي.

وفي نيبال صعدت إلى ذرى جبال كاتاماندنيا الشديدة الانحدار، بعد أن شبعت من التمتع بالمعابد البوذية والقصور الملكية والينابيع الاثنين والعشرين التي تطرد كل الأمراض وكل السحر وكل شرور هذا العالم.

هذه الجبال ذكرتني بجبال داغستان، وشعرت لدى رؤيتها بدفء يغمر قلبي أكبر مما كان لدى رؤية المعابد والقصور الفخمة والجليلة. فقد كانت الجبال العادية أعز عليَّ من المنشآت المعمارية الغريبة. وقلت في نفسي: هذه الجبال، لا تلك الينابيع السحرية، هي التي تستطيع أن تطرد كل الأمراض وكل شرّ من القلب. وهكذا أصبحت المعابد البوذية وجبال نيبال موضوعي فجأة.

بعد المدن الهندية الكبيرة والصاخبة أخذوني إلى قرية صغيرة قرب كالكوتا. وهناك على بيدر واسع كان يجري دراس القمح، وكانت الثيران تدور وهي تدوس على حزم القمح الذهبية. ما الفرحة التي وفرتها لي هذه الثيران البطيئة وهي تفرك حزم القمح الذهبية وتدقها بحوافرها، فلم يوفرها لي أي متحف أو أي مسرح في العالم. كأنما عدت إلى قريتي وإلى طفولتي. وهكذا كانت هذه القرية الصغيرة القريبة من كالكوتا موضوعي.

رأيت: في جبال إندونيسيا يقرعون الطبول كما يقرعونها في جبالنا؛ وفي شوارع نيويورك كان قوقازي يسير وهو يرتدي قفطانه البلدي؛ وفي إستمبول وباريس يعيش جبليون تعساء هجروا البلد طوعاً وهؤلاء هم أتعس من في الأرض؛ وفي لندن كانت تعرض خزفيات من صنع البلخاريين، الخزافين المشهورين، وفي البندقية كان يدهش المشاهدين بهلوانيون من قرية تسوفكرا اللاكية؛ وعند بائع الكتب في بيتسبورغ وقعت فجأة على كتاب عن شامل.

من كل مكان أذهب إليه تمتد خيوط تصل إلى داغستان.

يقع المحارب في وضع صعب إذا هجم عليه عدّة أشخاص بسيوفهم دفعة واحدة. فهو لا يستطيع أن يحمي نفسه في آن من الظهر ومن الصدر. لكن إذا وجد صخرة يمكن أن يسند إليها ظهره، لم تسؤ الأمور هذا السوء كله، فالمحارب يستطيع أن يجندل اثنين أو ثلاثة من أعدائه، ما دام يسند ظهره إلى صخرة.

وداغستان بالنسبة لي هي تلك الصخرة. إنها تساعدني على الصمود في أصعب الأوقات.

المسافرون يحملون إلى بيوتهم أغاني البلاد التي زاروها. أما أنا فالمصيبة تلاحقني فحيثما ذهبت لا أحمل معي إلّا أغاني داغستان. وكأني مع كل قصيدة جديدة، أعرف داغستان من جديد، وأفهمها من جديد وأحبّها من جديد. فبلدي داغستان لا تنتهي ولا تنفد.

من دفتر المذكرات:

- أيها النسر، ما أحب أغانيك؟
- هي التي تتحدث عن الجبال الشاهقة.
- أيها النورس، ما أحب أغانيك؟
- هي التي تتحدث عن البحر الأزرق.
- أيها الغراب، ما أحب أغانيك؟
- هي التي تتحدث عن الجيف الشهية في ساحة القتال.

وللأدب أيضاً طيوره: نسوره ونوارسه أحدهما يتغنى بالجبال والآخر يتغنى بالبحر. لكل وطنه وموضوعه. إنما هناك غربان. إنها تحبّ ذاتها أكثر من أي شيء آخر. فحين ينقر غراب عيني ميت سقط في ساحة القتال، لا يفكر إن كانتا عيني بطل أو عيني جبان، وأعرف أدباء يفعلون اليوم ما هو مناسب أن يفعلوه اليوم، ويفعلون غداً ما هو مناسب أن يفعلوه غداً.

في الموضوع أيضاً: الموضوع صندوق بما فيه من متاع. والكلمة مفتاح هذا الصندوق. لكن المتاع في الصندوق يجب أن يكون متاعك وليس متاع غيرك.

بعض الأدباء يقفزون من موضوع إلى آخر دون أن يتموا أي موضوع. إنهم يرفعون غطاء الصندوق قليلاً، وينفضون الخرق العليا ثم يمضون بسرعة. أما صاحب الصندوق فيعرف أنك لو رفعت الأشياء واحداً بعد آخر، بحذر، فسيظهر في القاع السفط الذي يحوي الكنوز الثمينة.

الذين يقفزون من موضوع إلى آخر يشبهون مزواجاً معروفاً في الجبال اسمه دالاغولوف. فقد تمكن صاحبنا هذا أن يتزوج ثماني مرات، لكنه بقي في النهاية بدون زوجة.

إلا أنه لا يجوز مقارنة الموضوع حتى بالزوجة الشرعية الوحيدة، ولا بالأم الوحيدة، أو بالابن الوحيد. لأنه لا يجوز لك القول: هذا موضوعي، لا يجسرن أحد على الاقتراب منه.

الموضوع موضوعي، لكنه مكشوف لكل الآخرين: سمعت أحد الكتاب يلعن آخر، لأن هذا «سرق» موضوعه. كان يقول: «من أعطاك الحق أن تكتب عن إيرتشي كازاك(*)؟ أنت تعرف أن هذا موضوعي وأن من يكتب عن إيرتشي كازاك هو أنا. هذه أجلى صور السرقات!» وكان هذا الكاتب منفعلاً كما لو أنهم خطفوا للتو حبيبته منه.

وكان الجواب يليق بجبلي:

ـ إماماً يصير من سيفُه أجرأ وأقطع. والعروس تكون من نصيب صاحب عذرتها، لا من بعث الخاطبين إلى بيتها. ويبقى موضوع إيرتشي، مثل كل موضوع آخر، من نصيب من يكتب أفضل.

نعم يستطيع كتاب مختلفون أن يعالجوا موضوعاً واحداً، كلّ منهم بمعزل عن الآخر. ففي الأدب لا وجود لكلولخوزات. لكل كاتب

(*) شاعر كولي من القرن الماضي وأب الأدب الحكومي.

حقله، قطعة أرضه مهما كانت ضيقة. لكني لا أمنع أحداً من الاقتراب من حقلي، لأني أنا شخصياً لا أقترب من حقول الآخرين. على تخومي لن تروا كلباً، ولا حارساً يحمل بندقية. أجل، وأين هي تخومي، كيف أحدّدها وكيف أسيجها؟ موضوعي ليس مرجاً محرّماً، أو مكاناً محرّماً في مسجد لا يجوز أن تطأه قدم إنسان غريب.

في أحد مؤتمرات كتاب داغستان ثار نقاش. قال أحد الخطباء:

ـ لماذا يجب على الداغستانيين أن يكتبوا عن أراض أخرى وشعوب أخرى؟ فليكتب الإسبانيون عن إسبانيا، واليابانيون عن اليابان، وعن صناعة الأورال فليكتب الكتاب الذين يعيشون في الأورال. إذا كان لطائر عشٌ في حديقة، فهل يذهب إلى حديقة أخرى ليغني فيها أغانيه؟ هل من الضروري أن يحمل الإنسان التراب من الجبال الصخرية إلى الوادي حيث التربة الخصبة الرائعة؟ ألية الغنم، وكلها شحم، هل يجب أن تُطلى بالزبدة أيضاً، كي تقلى؟

وكان في المؤتمر ضيف من جمهورية أخرى ردّ عليه قائلاً:

ـ للوحش مأوى كما للطائر عشٌ. لكن الشمس تشرق على كل الوحوش، والمطر يسقي كل الأشجار. قوس قزح يسطع ببريق واحد لكل العيون. والبرق يلمع في الجبال العالية كما في الأودية العميقة، وهكذا يقصف الرعد. الخروف المحشي الرائع يمكن إعداده من أرز أتى من بلد غريب. لقد أتيت إلى مؤتمركم من مكان بعيد. أتيت فقط لأهنئكم. لكنني أشعر الآن أني أحببت جبالكم، رجالكم النبلاء، ونساءكم الجميلات الكريمات. فإذا ما كتبت عنكم فسيقول لي مواطنيّ: شكراً. وإذا كتبتم أنتم عن أرضي فلا ضير في ذلك. اختيار الكاتب حرّ كاختيار الحب. ترى، هل يستأذن الحب ليعمر قلباً ما؟

صفق المؤتمر للضيف، فقد كانت كلماته دقيقة وحادة كالسهام، وحين كنت أصفق مع المصفقين وأكاد أوافق على كل شيء قاله، كانت الأفكار لا تتركني مع هذا كله.

إنه لأمر حسن أن يكتب الإنسان عن بلدان أخرى وشعوب أخرى، إنما بعد أن تكون قدمه قد رسخت في موضوعه.

داغستاني الصغيرة وعالمي الضخم ساقيتان تصبان في تيار واحد حين تبلغان الوادي. دمعتان تنزلان من عينين وتسيلان على خدين، إنما حزن واحد أو فرح واحد هو الذي يولدهما.

سقطت دمعتان على خدي الشاعر
على خده الأيمن وعلى خده الأيسر
دمعة فرح أو دمعة حزن
دمعة حب أو دمعة غضب
دمعتان صغيرتان هادئتان وصافيتان،
دمعتان ضعيفتان حتى تلتقيا.
وحين تلتقيان تتحولان أبيات شعر
تلمعان كالبرق وتهيمان كوابل المطر

داغستاني الصغيرة وعالمي الضخم. هذان هما حياتي وسيمفونيتي وكتابي وموضوعي النسر الذي لا ينطلق من الصخور العالية إلى أجواء الوادي الفسيحة نسر سيئ. والنسر الذي لا يعود من أجواء الوادي الفسيحة إلى الصخور العالية نسر سيئ.

لكن الأمر سهل على النسر. فلقد ولد نسراً، ولا يستطيع، حتى إن أراد، أن يتحول إلى نورس أو إلى غراب. أما الكاتب فمن العسير عليه أن يصبح نسراً، إذا لم يكن ولد بصفات هذا الطائر الكريم والشجاع.

يقال عندنا في الإنسان الذي لم يتعلم العزف على الكوموز على سبيل المواساة: لا بأس، سيتعلم العزف في الآخرة.

كم من كاتب يمسك القلم ويجلس إلى الورقة لا تقوده عاطفة الحب أو البغض، بل حاسة الشم وحدها!

حتى الضيف الذي يأتي القرية ويفكر أي بيت يطرق، يختار أخيراً

البيت من رائحة الدخان المتصاعد من المدخنة. فهناك دخان تفوح منه رائحة أقراص الذرة، وآخر تفوح منه رائحة لحم الضأن المطبوخ.

حتى الخطيب يختار من فتاتين: فارغة وذكية الأولى فقط لأن عندها مالاً أكثر.

لا بل هناك كتاب لا فرق لديهم إن كتبوا عن أي شيء أو عن أي بلد. إنهم يشبهون أولئك المهربين الذين يعتقدون أنهم بقدر ما يبتعدون، يبيعون بضاعتهم بسعر أعلى.

ويذكرونني أيضاً ببار خالشي التي كانت تظن أن ليس في قريتها شاب يناسبها، وظلت تنتظر شبان القرى الأخرى، لكنها، بقيت ـ كما لا يصعب عليكم أن تحزروا ـ بقيت عانساً.

مثل الجبليين اللذين ذهبا إلى الغابة: ذهب جبليان من القرية إلى الغابة يبحثان عن شجرة يقطعان منها عودين للنير. ويبدو أن العجوزين أصابهما التعب.

وجد أحد الجبليين فوراً شجرة مناسبة فاقتطع منها عودين جافين رائعين. إلا أن رفيقه كان يبدو له أن الشجرة التالية أفضل، وإن التي بعدها أفضل منها. وهكذا بقي النهار بطوله يهيم في الغابة، لا يقوى على أن يتوقف ويختار ما هو بحاجة إليه. وفي نهاية الأمر قطع عودين أسوأ بكثير مما صادفه في أول الأمر. وعاد إلى بيته عند المغيب، حين كان الجبلي الأول يعود من حقله بعد أن حرثه بالنير الجديد.

روى لي أبو طالب هذا المثل بمناسبة عودة شاعر داغستاني من مهمة بعيدة وهو لا يحمل معه إلا قصيدتين سيئتين.

ـ الأغنية التي لم تتعلمها في بيت والدك، لن تتعلمها بعيداً عنه، ـ اختتم الشاعر العجوز كلامه وأردف: ـ الشعراء يشبهون أحياناً ذلك الجبلي الذي ظل يبحث عن قبعته طوال النهار، في حين كانت هذه تستقر بهدوء على رأسه الرديء.

في الموضوع أيضاً: يوم غادرت قريتي لأول مرة في سفر، وضعت

أمي على النافذة مصباحاً موقداً. كنت أسير وألتفت، ثم أسير، لكن ضوء بيتنا كان يتلألأ خلال الضباب والظلام.

ظل هذا النور في النافذة الصغيرة يضيء لي سنوات طويلة كنت فيها أجوب العالم. ولما عدت إلى بيت والدي ونظرت من هذه النافذة، من داخل البيت، رأيت كل العالم الواسع الذي استطعت أن أجوبه في حياتي.

من يعطي الكاتب الموضوع؟ الأسهل أن يعطى رأساً وعينين وأذنين وقلباً. والكتّاب الذين يكتبون في موضوع، لا عن حب أو عن بغض، بل بحسب الرائحة لا يمكن أن يكونوا أبناء زمانهم. إنهم ليسوا أبناء زمانهم، بل يومهم. وهم يشبهون أيضاً تلك العروس الصماء.

مثل العروس الصماء، قالوا:

كانت تعيش في إحدى القرى، فتاة صماء. وذات يوم أرسل شاب من قرية أخرى لم يكن يعرف شيئاً عن صممها من يخطبها له. وتم الأمر، وبدأ العرس. كان في العرس جمع غفير. وكانت العروس لا تريد أن يعرف جميع القادمين إلى العرس أنها صماء. فطلبت إلى صديقة لها أن تجلس دائماً بجانبها، وأن تقرصها في كتفها اليسرى إذا كان هناك شيء مفرح يدعو للضحك، وأن تقرصها في كتفها اليمنى إذا كان هناك شيء كئيب محزن.

ليس من الضروري أبداً أن تتكلم العروس في حفلة زفافها، لا بل من الأفضل أن لا تقول شيئاً. ولهذا السبب سار الأمر بعض الوقت على ما يرام. كانت العروس تضحك حين كان يجب أن تضحك، وتغتم حين كان يغتم من حولها.

لكن صديقتها نسيت فيما بعد ما اتفقتا عليه وارتبكت، فصارت تقرصها من الناحية اليمنى في حين كان من المفروض أن تقرصها من

اليسرى، وبالعكس. صارت العروس تقهقه في أوقات الحزن والتأمل الصامت، وتئن وتتنهد أسىً حين كان الفرح يعم الجميع.

أخذ الشاب يتفرس في عروسه ويتتبع حركاتها، وأخيراً قرر أن عروسه غبية. أعادها حالاً من حيث أتت.

وهكذا، على الكاتب الحقيقي أن لا يحتاج إلى من يقرصه من اليمين تارة ومن اليسار أخرى كتلك العروس الصماء. وجع قلبه هو، وفرحه هو، هما اللذان، يجبرانه على الإمساك بالقلم. إنه يضحك، لا لأن الآخرين يضحكون وعليه أن يسايرهم، ويحزن لا لأن الآخرين يحزنون وعليه أن يشاركهم حزنهم. كلا بل عليه هو بالذات أن يجري الأمور المجرى الذي يراه. فليفرح الجميع حين يفرح الشاعر، وليعتصر الألم قلوب الجميع حين يفضي الشاعر لهم بوجع قلبه.

وإذا لم يوافقني بعضهم حتى الآن على ما أقول، وظلّ يحسب أنه من الأيسر أن يكتب الإنسان بناءً على طلبٍ معين، فليعتبر بالحادثة التالية التي جرت لي.

ذكرى: كنت وقتها في الصف الثاني في مدرسة قلعة خونزاخ الابتدائية. وكانت تجلس معي على مقعد واحد فتاة زرقاء العينين، ابنة معلمة روسية. كان اسم الفتاة نينا، وكانت تعجبني كثيراً، لكني لم أكن أجرؤ على البوح لها بإعجابي. وأخيراً قررت أن أكتب لها قصاصة ورق. لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، لأني في ذلك الوقت لم أكن أعرف أن أكتب كلمة واحدة بالروسية. توجهت بطلب حار إلى صديق، فقال لي هذا كلمات روسية غير مفهومة سجلتها بأحرف روسية. كنت أعتقد أني أكتب كلمات رائعة في الحب، تماماً كتلك الكلمات التي كان بودي أن أقولها لنينا. وبيدين راعشتين أعطيت جارتي القصاصة، وبيدين راعشتين فضتها، فاحمر وجهها فجأة وخرجت راكضة من الصف، ثم لم تشأ بعدها أن تجلس معي على مقعد واحد. وتبين فيما بعد أن قصاصتي كلها كانت عبارة عن كلمات بذيئة وبشعة.

وأذكر حادثة أخرى. كنت أدرس هذه المرة في المعهد الأدبي، وكانت نينا في معهد لينين التربوي.

وذات يوم من أيام كانون الأول دعتني لزيارتها. كنت أعرف أن هذا اليوم يوم ميلادها. اهتمت بالهدايا طبعاً، لكنه بدا لي أن أفضل هدية لها هي شعر أكتبه فيها، وأقرأه على الحضور ثم أقدمه لها بشكل رسمي.

وهكذا كتبت قصيدة تهنئة، وأقنعت زميلي في المعهد، وهو شاعر شاب، أن يترجم القصيدة إلى الروسية. ظل زميلي يعمل طوال الليل في الترجمة. ولما قرأها لي، لم أتعرف فيها إلى شعري.

كانت هناك عاطفة زائدة واندفاعات هوى جارف، لكن لم يكن فيها شيء مما كنت أريد قوله لنينا.

كان من الصعب خداعي الآن، فقد أصبحت شخصاً محنكاً. قلت لزميلي:

ـ حسناً، ستقرأ هذه القصيدة لحبيبتك في عيد ميلادها، لأن هذه القصيدة لك، وليست لي.

في الموضوع أيضاً: الموضوع لا يعوم على السطح وبطنه إلى الأعلى كالسمكة الغافية. إنه في العمق، في المجرى السريع، في التيار الأصفى والأعنف. اعرف كيف تمسكه هناك، اعرف كيف تنتشله من قلب التيار ومن تحت الشلال. ترى هل تتساوى قيمة مال اكتسب بعمل طويل وشاق، ومالٍ التقط مصادفة على الرصيف؟

يقول الجبليون: يستطيع الإنسان أن يصطاد كثيراً من الوحوش، لكنها ستكون كلها بنات آوى أو أرانب. إنما الأفضل أن يصطاد الإنسان وحشاً واحداً، على أن يكون ثعلباً.

نحن لا نعرف أين نجده. لكنه ليس من الضروري أن تعيش أفضل الوحوش في أبعد الأودية.

ظل أحد الصيادين يحلم طوال حياته باصطياد ثعلب رمادي. قضى

حياته في مطاردته، وجاب في سبيله كل الجبال طولاً وعرضاً. ولما أدركته الشيخوخة، وأصبح من العسير عليه أن يقوم بجولات واسعة أخذ يصطاد في واد قريب يكاد يقع عند أطراف بيته. وذات مرة وقع الثعلب الرمادي الجميل في يد الصياد. سأله الصياد:

ـ أين كنت تختفي حتى الآن. لقد بحثت عنك طوال حياتي؟

ـ فأجابه الثعلب: عشت طوال حياتي في هذا الوادي، لكن ألا تعرف أنه حتى لو أنفقت حياتك كلها في البحث، فإنه يلزمك على أي حال يوم واحد، لا بل لحظة واحدة، كي تجد ما تبحث عنه؟

نعم، لكل كاتب يوم يكتشف فيه نفسه، ويجد فيه موضوعه الرئيسي. وعلى الكاتب أن لا يخون هذا الموضوع بعد ذلك، وإذا خانه فقد يحدث له ما حدث لأحد معارفي.

إذن فلأحدثكم عن مسرحية صاحبنا: ألف أحد الكتّاب الداغستانيين مسرحية مأخوذة من حياة الكولخوز. لكن المسرح لم يقبل المسرحية على الرغم من أهمية الموضوع، وعلل رفضه بأكثر الأسباب تفاهة: بكل بساطة المسرحية لم تعجبه.

ربّما بدا هذا السبب لشخص آخر وجيهاً، لكنه لم يكن كذلك بالنسبة للمؤلف نفسه. استاء صاحبنا ورفع عريضة إلى حيث يجب أن ترفع. وللحال شكلت لجنة لدراسة المسألة واتخاذ إجراءات. ولدى البحث تبين أن مضمون المسرحية هو التالي: فريقان يتباريان في جمع محصول القمح الوفير وهما ينشدان الأغاني المرحة.

كان بالإمكان أن يناسب هذا المضمون اللجنة وتجري الأمور على خير ما يرام، لو لم يتدخل في الموضوع ظرف إضافي، وهو أنه اتخذ في هذا الوقت تقريباً قرار بزراعة القطن بدلاً من القمح في سهوب كوميا (هناك بالضبط كان الفريقان المرحان يتباريان في جني المحصول). كان من غير الجائز إطلاقاً أن تعرض مسرحية «قمحية» في هذه الظروف «القطنية». أما مؤلفنا المسرحي فلم يطل به التفكير، بل أخذ يعمل في

صياغة مسرحيته من جديد. وما كاد القطن المزروع من جديد يزهر، حتى كان كل شيء في أحسن حال. فقد أخذوا يعيدون قراءة المسرحية في المسرح. لكنه ما عتم أن صدر قرار جديد، والمسرحية لا زالت في طور القراءة وقد جاء في هذا القرار أن زراعة القطن في سهوب كوميا خاسرة أكثر من زراعة القمح، وأنه يجب التحول إلى زراعة الذرة.

وعاد صاحبنا النشيط إلى مسرحيته يعمل فيها من جديد. لست أعرف كيف انتهى الأمر، لكنني أعرف أن المسرح احترق في هذه الأثناء. اغتاظ صاحبي من خيبته وذهب إلى حافة نهر عالية، وقذف في يأسه مسرحيته إلى المياه الهادرة. وهو الآن لا يأسف على مسرحيته تلك.

سأروي لكم، إذا شئتم، قصة مسرحية أخرى، كتبها أديب روسي، واسمها «الناس النشيطون». لم تكن مسرحية «قطنية قمحية»، هذه المرة بل «صيادية». وإليكم موضوعها.

هنالك اتجاه لنقل كل الجبليين من قراهم الأزلية إلى الأمكنة المنبسطة، إلى البحر. هذه العملية تسمى التهجير إلى «السهل». لن نحلل الآن هذه المسألة المعقدة كلها، بل نكتفي بالقول إن الجبليين الذين كانوا يعملون منذ الأزل في تربية الأغنام يصبحون «في السهل» صيادي أسماك في بعض الأحيان. بماذا يفضل صياد السمك السيئ راعي الغنم الجيد ـ هذا أمر آخر ليس بالأمر البسيط توضيحه، إنما في مسرحية «الناس النشيطون» كان الكلام يدور بالضبط حول جبليين من قرية بعيدة أصبحوا صيادي أسماك في بحر قزوين.

كان أشخاص المسرحية كلهم من الآفاريين ولهذا السبب عرض أديبنا مسرحيته على المسرح الآفاري. لكن هذا رفضها.

ماذا بقي على صاحبنا أن يفعل؟ لو كان غيره، لأخذه على الأغلب الارتباك والقنوط. ولكنه يحدث في لعبة الشطرنج مثلاً أن تحاصر البيادق السود، وترتد إلى الزاوية بحيث لا تجد منفذاً أو متنفساً، وفجأة تقوم السود في هذه اللحظة بحركة بالحصان، حركة بسيطة جداً وغير

متوقعة، فإذا بوجه اللعبة يتغير: البيض تضطر للانتقال إلى الدفاع وتتراجع قبل أن يفوت الأوان.

مثل هذه الحركة البسيطة جداً قام بها صاحب «الناس النشيطون»، فاستبدل على حين غرة كل الأسماء الآفارية في المسرحية بأسماء كوميكية وعرض المسرحية على المسرح الكوميكي. إلا أن حركته بالحصان هذه لم تحسن الوضع، فقد رفض المسرح الكوميكي أن يعرض مسرحية عن رعاة أغنام تحولوا إلى صيادي أسماك.

عندنا في داغستان كثير من القوميات. وكان من الدرغينيين والليزغيين أبطال مسرحيات، لكنهم لم يصبحوا، على ما يبدو، صيادي أسماك جيدين. لقد أطلق المؤلف مسرحيته في الناس وكأنها كلب جائع لا يجد في البيت ما يأكله، فطاف الكلب بالدور الأخرى لكنه لم يجد فيها عظمة واحدة.

وبعد سنوات غادر هذا الأديب بلده إلى موسكو، إلى معهد الدراسات الأدبية العليا. وما عتمت الإشاعات أن وردت إلى ماخاتشكالا تقول إن صياديه تحولوا إلى غجر. لقد أثارت المسرحية اهتمام المسرح الغجري «رومين» وأخيراً وجدت العروس العرجاء زوجاً. وبالمناسبة لم يدم هذا الزواج طويلاً.

ها أنا ذا قد انتقدت دفعة واحدة مسرحيتين لاثنين من معارفي. ولو أني وقفت على منصة في اجتماع الكتاب، لكنت سمعت منذ أمد بعيد أصواتاً تصرخ: «تكلم عن نفسك! هات لنا بعض النقد الذاتي!».

وماذا أقول عن نفسي؟ سأكون على الأرجح سعيداً، لو كنت أستطيع أن أعترف بذنوب كتلك التي تحدثت عنها لتوي. لكني أحمل في قلبي ذنباً تعتبر كل الذنوب «القطنية» و«الصيادية» وغيرها من الذنوب التي قد تقترف لسنين كثيرة قادمة، أمامه عبث أطفال، ألاعيب، لا شيء.

لقد اقترفت في شبابي ذنباً يشق علي أن أذكره.

لقد وبخني عليه أصدقائي فيما بعد كثيراً وطويلاً، وكان هذا عقابي.

لكن عقابي الأهم أحمله في صدري، ولن يستطيع أحد أبداً أن يعاقبني عقاباً أشد منه.

كان والدي يقول: إذا قمت بعمل غير لائق، معيب، فإنك لن تعيده إلى الوراء مهما صليت.

وكان والدي يقول أيضاً: الإنسان الذي قام بعمل معيب، ويأخذ بالندم عليه بعد عدة سنوات يشبه إنساناً يريد أن يسدّد دينه بأوراق مالية قديمة تعود إلى ما قبل الإصلاح النقدي.

وكان والدي يقول أيضاً: إذا سمحت للشر أن يفعل ما يريد، ثم أطلقته من بيتك حراً طليقاً، فما جدوى أن تحطم المكان الذي كان يجلس فيه؟

وما جدوى أن توصد الأبواب بالأقفال الثقيلة بعد إخراج الثيران؟

هذا كله يحدث هكذا. وأنا أعرف أنه لا ينفع التلويح بالقبضات بعد المعركة. لكن قرائي لا ينفكون يكتبون إلي، يذكرونني. ينكأون جرحي. كأني بهم يرمون شباكي بالحصى ويقولون لي:

ـ تطلع، يا رسول حمزة، وأرنا وجهك. إرو لنا نحن قراءك، كيف حدث كل شيء ولماذا.

ـ ماذا يجب علي أن أروي لكم؟

ـ أنظر. في عام ألف وتسعمائة وواحد وخمسين كتبت شعراً تشهّر فيه بشامل، وفي عام ألف وتسعمائة وواحد وستين كتبت شعراً تمجّد فيه شاملاً. وفي مطلع القصيدتين يوجد اسم رسول حمزة. والآن نريد أن نعرف: هل هذا رسول واحد، أم أنهما رسولان مختلفان. وأي الرسولين نصدق؟

مسألة المسائل هذه. يمكنك أن تنزع من الجسم سهماً أصابه، لكن هل تستطيع أن تنزع من القلب هذا السهم؟

عزيزي القارئ، أنا لا أعرف عمرك، قد تكون في مطلع شبابك. هل كانت لك في حياتك حدود، تخوم عليك أن تتخطاها؟ كان علي أنا أن

أتخطى حداً، وهو أني كنت أحب دون أن أحاول تفهم عاطفتي بشكل جاد. وكان علي بعدها أن أندم على هذا.

يحدث أن يفصل طريق ضيق بين نافذتي جارين. وفي كل نافذة يقف جار مقابل جاره. وها هما الجاران يتشاتمان، يحاول أكبرهما أو أصغرهما اتهام الآخر بتصرفات سيئة. أنا أشبه هذين الجارين المتلاحمين، إنما أنا الموجود في النافذتين: في إحداهما وقفت وأنا شاب، وفي الثانية وقفت وأنا في عمري الحالي.

لقد أعماني بريق ذلك الزمان كما تعمي الفتاة الجميلة الشاب الغبي. كنت أنظر إلى كل شيء، كما ينظر الخطيب إلى عروسه لا يرى فيها أدنى عيب.

وإذا أردتم أن أتحدث جاداً أقول إني كنت ظل ذلك الزمان. من المعروف أن ظل العصا يكون على قدرها. لقد تقرر رسمياً آنذاك أن شاملاً عميل إنكليزي وتركي، وأن هدفه الرئيسي هو إذكاء العداء بين الشعوب. لقد كنت أصدق البيت الذي أكد هذا، وكنت أصدق سيد ذلك البيت. وقتها كتبت شعراً أفضح فيه شاملاً.

والآن يقولون لي أحياناً ليعزوني:

ـ سمعنا لعلك كتبت هذه الأبيات بناء على طلب خاص، وأنك أجبرت على كتابتها.

غير صحيح! لم يكرهني أحد ولم يضطرني أحد! أنا بنفسي وبمحض إرادتي كتبت هذه الأبيات في شامل، وحملتها إلى هيئة التحرير. كنت، بكل بساطة، أشبه آنذاك بعض الجبليين الذين يقلبون صفحات القرآن وهم لا يفقهون حرفاً بالعربية، وبالتالي وهم لا يفهمون منه شيئاً على الإطلاق، لكنهم يشعرون مع هذا بانبهار لذيذ.

كنت ظل الزمان. لم أكن أعرف وقتها أن الشاعر لا يمكنه أن يكون ظلاً، بل إنه نار ومصدر نور بغض النظر عما إذا كان ضوءاً باهتاً أو شمساً كبيرة. النور لا يلقي ظلاً، والنور لا يصدر عنه إلا النور.

ربما أدركت هذا متأخراً بعض الشيء. ما العمل؟ حتى التفاح يكون أنواعاً مختلفة. بعضه ينضج بسرعة، وبعضه لا ينضج إلا مع اقتراب الخريف. وأنا من النوع الخريفي على ما يبدو.

هذه هي قصتي. أما جرحي فهو معي.

من جديد يعود الجرح القديم الذي لم يلتئم
ليمزق قلبي ويحرقه بناره..
... كان أسطورة قديمة. ومنذ صغري
أعرف كل ما قيل فيه في قرانا.

كان أسطورة امتزجت امتزاجاً وثيقاً بالواقع،
في طفولتي كنت أستمع منهم إلى قصص حية عنه
كانت غيوم المغيب تسبح فوق القرى
كأنها جيش باسل يقوده هو.

كان أغنية الجبال. وهذه الأغنية.
كانت تغنيها أمي، ولا أستطيع حتى الآن أن أنسى
كيف كانت الدمعة التي تلتمع في عينيها الصافيتين
تستحيل ندى في المروج عند المساء.

المحارب القديم في قفطانه القوقازي يتأمل البيت
وهو واقف في الصورة على الحائط. أعسر كان.
كان يمسك السيف بيده اليسرى القوية.
والسلاح على جنبه الأيمن كان يتدلى.

أذكر الشيخ الأشيب وهو يودّع
أخويّ الكبيرين إلى الحرب، هو ينظر إليهما من الصورة
وأختي نزعت عنها قرطها وسوارها
كي تصنع بهما دبّابة تحمل اسمه.

ووالدي إلى فترة وجيزة من وفاته
كتب في البطل قصيدة..
لكن واأسفاه!
لقد كذبوا على شامل كذبة خسيسة
وكان ضحية بريئة لأقاويل الجهلاء

لولا هذا الحزن المفاجئ، ربما
عاش والدي أطول...
وأخطأت في حقه أنا:
صدقت كل ما قيل، وفي جوقة القادمين
دوّت أغنيتي الهوجاء

وسيف جدّي الذي ظلّ في المعارك
ربع قرن يردي الأعداء دون كلل
أسميته في شعر الطفولة، أنا الفتى الضال،
أسميته بكل الفظاظة سلاح خائن

خطوته الثقيلة في الليل ذات وقع قوي
ما إن أطفئ ضوئي حتى يلوح في النافذة
ويقترب مني مدافعاً شديداً عن قرية أخولفو تارة،
وتارة كشيخ من شيوخ غونيب.

ويقول: «في المعارك والحرائق العظيمة
أرقت الكثير من دمي وتحملت الآلام.
لقد أصبت بتسعة عشر جرحاً ملتهباً،
وأنت، أيها الغرّ.
«أصبتني بالجرح العشرين»

كانت هناك جراح خناجر وجراح رصاص
لكن الجرح الذي سببته لي أوجع ثلاث مرات،
لأني لأول مرّة يجرحني جبلي
إساءة لا تعدلها إساءة..

قد تكون غزواتي غير ضرورية اليوم،
لكنها كانت في ذلك العهد تحمي جبالك.
أرى أن سلاحي قد شاخ الآن، لكن هذا الخنجر
الحاد خدم الحرية

كنت أحارب دون هوادة، بعناد الجبلي،
لم يكن لي شأن بالأغاني والمآرب،
كنت أحياناً أضرب الشعراء بالسوط
وكنت مع الرواة قاسياً

قد أكون أخطأت في مضايقتهم،
لم أكبح جماح طباعي النارية،
لكني أرى، وأنا ألقى الثرثارين أمثالك،
إني كنت على حق في رفضي العنيف لهم».

ظل حتى الصباح يقف فوق رأسي معلّماً
وأتبين ـ والظلمة الحالكمة تلفّ البيت ـ
لحيته الكثة مطلية بالحناء،
وعمامته البيضاء مشدودة على قلبقه

بماذا أجيب؟ أمامه وأمامك يا شعبي
اقترفت خطيئة لا تغتفر
كان للإمام نائب ـ محارب مجرّب،
لكن الحاج مراد تخلّى عن إمامه.

ثم قرر أن يعود نادماً على ما فعل،
فسقط في مستنقع وعوقب العقاب الكافي
.. هل أعود إلى الأمام؟ فكرة مضحكة
ذلك الطريق ليس طريقي والزمان ليس ذلك الزمان

أنا، على فعلتي الرعناء

أبكي خجلاً وسهاداً
أريد أن أستغفر الإمام،
لكني لا أريد، مع هذا، أن أسقط في المستنقع

قد لا يقبل اعتذاري
قد لا يغفر لي أبداً ذلك الذي افتريت عليه
فالذي يكتب بالسيف لا ينسى الإهانة
التي تردّدت في أشعاري غير البالغة

ليكن.. لكن أنت، يا شعبي، اغفر لي
خطيئتي. فأنا أحبك حباً جنونياً
وأنت، يا أرض بلادي، لا تنظري إلى الشاعر
نظرة أم أساء إليها ابنها.

لا أعرف إن كان الداغستانيون غفروا لي أشعاري القديمة تلك، ولا أعرف إن كان طيف شامل غفرها لي، لكني لن أغفرها أنا لنفسي أبداً.

كان والدي يقول لي:

ـ لا تقرب شاملاً. إن تقربه فلن تشعر بالطمأنينة حتى تموت.

وقد كان والدي محقاً.

من طفولتي لم أتربّ، وأنا ابن جبلي، على الترف
كنت أتحمل التعنيف، وكنت أحتمل الضرب
وكان والدي يفرك أذني بشدة
على ما أقترفه من أخطاء وذنوب

والزمان يوجه إليّ ضرباته، أنا البالغ،
ويفرك أذنيّ حتى تحمرّا
كما يفرك العازف أذن الأوتار
حين يرتخي الوتر ويصبح ناشزاً

الزمان! من الأيام تنشأ الأعوام، ومن الأعوام تنشأ القرون! ولكن ما العصر؟ هل ينشأ من القرون؟ أو من الأعوام؟

أو هل يمكن ليوم واحد أن يصبح عصراً؟ تنتصب الشجرة خمسة أشهر مغطّاة بالخضرة، إنما يكفيها نهار واحد، ليل واحد حتى تصفر أوراقها. عكس ذلك، قد تنتصب الشجرة خمسة أشهر عارية وسوداء كالفحم. ويكفيها صباح واحد مشرق ودافئ حتى تكتسي بالخضرة. يكفيها صباح بهيج واحد كي تزهر.

هناك أشجار تغيّر لونها من شهر إلى آخر، وهناك أشجار لا تغيّر لونها أبداً.

هناك طيور مهاجرة تهيم من صقع إلى صقع حسب فصول السنة، وهناك نسور لا تخون أبداً عهد جبالها.

الطيور تحب أن تطير في وجه الريح. والسمكة الجيدة تسبح ضد التيار. والشاعر الحقيقي يثور، حين يأمره قلبه، «على آراء المجتمع».

من دفتر المذكرات: أحد أصدقائي، وهو شاعر آفاري، صدر له في العام الماضي ديوان شعر. وقد وزّع فيه شعره على أبواب. كأنما يوزع غرف شقته في المدينة: الشعر السياسي أو الاجتماعي مثلاً ـ المكتب، الشعر الوجداني أو شعر الحب ـ غرفة النوم، شعر في مواضيع مختلفة ـ غرفة الاستقبال، الشعر الخاص بالزراعة، بالخبز، برعاة الغنم.. لا أعرف أين أنسبه ـ أليس إلى المطبخ؟

ثم ألم يكن محقاً ذلك الشاعر الذي هبط ماخاتشكالا من الجبال للاشتراك في مباريات المغنين الداغستانيين؟ لقد طلب شاعرنا الذي بوّب أشعاره أبواباً أبواباً من المغني أن يغني قصيدة من كل باب. ضبط المغني قيثارته وصمت دقائق كأنما يستجمع أفكاره ثم أخذ يغني. غنّى طويلاً. وأصاب الجميع الذعر: إذا كان هذا الذي يغنيه من باب واحد، والأبواب أربعة، فمتى سينتهي من غنائه؟ لكن المغني ما عتم أن صمت

وأوقف رنين الأوتار براحته، وتوقف نهائياً عن الغناء. وقد تبين أنه ضمّ في أغنية واحدة أفكار الشاعر الرئيسية ومشاعره الرئيسية. وسأل الشاعر المغني عن سبب عمله هذا، فأجابه:

ـ يا صديقي، هذه هي قيثارتي، وهذه هي أوتارها الثلاثة. لا أستطيع أن أعزف أولاً على وتر واحد، ثم على ثانٍ ثم على ثالث.

في الموضوع أيضاً: قد لا يعرف بعض الناس أن أحد الجبليين لبس جزمة جديدة وكان يخشى كثيراً أن يوسّخها. ولذلك كان يمشي على أصابع قدميه. وذات مرّة سقط في حفرة موحلة غاص فيها حتى ركبتيه. واضطر المسكين أن ينهض على رأسه.

يحدث هكذا: كأني بالشعراء في أحيان كثيرة لا يخلقون فناً، بل يشتركون في سباق خيل. إنهم مستعدّون أن يسوطوا الجواد حتى يدمى في سبيل أن يطوّقوا رقبته بشارة الفوز لمدة خمس دقائق. الشارة يجري نزعها في اليوم نفسه على أي حال، في حين تبقى جراحه فترة طويلة دون أن تشفى. إنهم، كعلي بولات من تيليتل، مستعدون دائماً.. وبالمناسبة أنتم لا تعرفون ماذا جرى لعلي بولات؟

قال نائب خونزاخ ذات مرّة لخادمه علي بولات:

ـ استعد، فغداً عليك أن تذهب إلى قرية تيليتل.

ـ أنا جاهز ـ أجاب خادمه المطيع.

لمّا تبنْ بعد ذرى الجبال، حين أسرج علي بولات حصانه وانطلق. وما كاد يحين وقت الغداء حتى كان يعود إلى خونزاخ. وحين اقترب من خونزاخ التقى به جبليون من معارفه. سألوه قائلين:

ـ حفظك اللّه، يا علي بولات، هل كنت مسافراً إلى مكان بعيد؟

ـ ها أنا ذا أعود من تيليتل.

ـ أي شؤون قادتك إلى هناك.

ـ لا أعرف. النائب هو الذي يعرفها. قال لي البارحة يجب أن أذهب، وها أنا ذا قد ذهبت.

يوجد أمثال علي بولات في الوسط الأدبي عندنا.

أبيات في الموضوع

كنت يانعاً في العرس البهيج
وكانت الخمرة تتدفق من الأقداح،
وضعوا عصا في يدي وقالوا:
اختر فتاة تراقصها
وقفت مرتبكاً وسط الزحام،
لا أعرف أي جميلة أختار
وأخذ الكبار يرشدونني
لا تختر هذه، بل تلك.
وأصبحت بالغاً. وأعطوني القيثارة
كي أغنّي بلدي الرائع،
لكنهم يعلمونني من جديد، كأني طفل
غنّ ذا، ولا تغنّ ذاك.

في الموضوع أيضاً: رأيت شباناً كثيرين يتشاورون قبل الزواج لا مع أنفسهم، بل مع أقاربهم، مع أعمامهم وعمّاتهم، أخوالهم وخالاتهم. أما الكاتب في إبداعه فلا يمكن أن يعرف زواجاً بلا حب. ففي الحياة يولد ـ على أي حال من الزواج حسب نصيحة العمّات والخالات أطفال أحياء. يقال في الواقع: بقدر ما يكون الحب قويّاً، يكون الأطفال أجمل. أما الكاتب فلا يولد من زواجه بلا حب إلّا كتب ميتة. على الكاتب أن يصغي إلى نبضات قلبه قبل أن يقترن بموضوعه.

القصيدة التي تنظم بنصيحة العمّات والخالات، الأخوال والأعمام، سيكون مصيرها كمصير كتاب أحد أصدقائي.

في كتاب صديقي: لا أذكر في أي عام حدث هذا بالضبط. لكني أذكر أن الأحاديث أخذت تدور فجأة حول حاجة البلد إلى كتّاب أمثال غوغول وشيدرين. لقد ظهرت فجأة حاجة إلى أدب هجائي سوفياتي.

أحد أصدقائي ـ وهو بعض شاعر، وبعض ناشر، وبعض محرر، أي، بكلمة واحدة، أديب، استجاب بسرعة لهذه الدعوة، وكتب ديواناً انهال فيه بالهجاء على الوشاة والمتزلفين والطفيليين والمتعددي الزوجات وعلى غير ذلك من الظواهر السلبية في الواقع السوفياتي الإيجابي بمجمله.

ما إن ظهر ديوان صديقي على رفوف المكتبات حتى كتب أحد النقاد مقالة قاسية فيه. قال: «لقد فهم صاحب الديوان الشعار القائل بحاجتنا إلى أمثال غوغول وشيدرين فهماً مباشراً ومبسطاً أكثر من اللازم. وها نحن أولئك نرى الآن أي إنسان تافه وحاقد كان يعيش بين ظهرانينا. ها نحن أولئك نرى الآن أي قلب صغير وأسود هو قلبه. من أين استطاع أن يجد هؤلاء الناس الذين أبرزهم في كتابه؟ هل يعقل أن يكون أمثال هؤلاء في بلدنا السوفياتي؟ كلا، لا يمكن أن يوجد في بلدنا السوفياتي أمثال هؤلاء. لقد اختلقهم خيال أسود لإنسان أسود يصب بكتابه، الملآن افتراء، الماء على طاحونة أعدائنا».

وصرخ مدير كبير، هو مختار بيكوف، وهو يضرب الطاولة بقبضته:

ـ أين، أين رأيت، مثلاً، رئيس فرقة كسولاً ومتهاوناً إلى هذا الحدّ، وسكّيراً فوق هذا وذاك؟!

وأجاب الأديب في وداعة:

ـ في قريتنا.

ـ هذا افتراء. أنا أعرف أن في قريتنا كولخوزاً طليعياً، وفي الكولخوز الطليعي لا يمكن أن يكون رئيس فرقة كهذا.

وباختصار، انهال الهجاء على رأس الهاجي نفسه. حدث كما في تلك الصورة الهزلية في مجلة بولونية، رسمت شرفتان: إحداهما في

الطابق الأول والأخرى في الرابع، وفي كل شرفة شخص. الشخص الذي في الأسفل يرمي الأعلى بالقرميد، لكن القرميد لا يصل حتى الطابق الرابع، ويعود ليسقط على رأسه. أمّا الرجل الذي في الأعلى فيقذف بهدوء القرميد الذي يسقط هو الآخر على رأس المسكين الواقف في الشرفة السفلى. وتحت الصورة كتب «النقد من تحت والنقد من فوق».

وأشار أحدهم على هذا الهجّاء الفاشل بأن أفضل شيء هو أن يعترف بأنه مخطئ، والمستحسن أن يتم هذا الاعتراف لا مرّة، بل عدّة مرات، كلما كان هذا ممكناً: في الصحف والمجلات وفي كل اجتماع. وأخذ صاحب هذا الديوان المشؤوم يدق صدره ندماً وأسى. لكن هذا كان غير كاف. وقال المدير الكبير مختار بيكوف:

ـ إننا لا نصدقك بعد افتراءاتك تلك. عليك أن تبرهن بالعمل، بقلمك أنك أصلحت نفسك.

كان صديقي لا يهمه ما يفعل. أن ينتقد ـ فلينتقد إذاً، أن يصلح نفسه ـ فليصلح نفسه إذاً. جلس صاحبنا يعمل فكتب قصيدة أسماها «مرجانة المُحِبَّة للعمل». في لحظة تجعل بطلة القصيدة، وهي فتاة طليعية وعضوة نشيطة في الحزب، الكولخوز كله طليعياً، وتنجز المشاريع كلها قبل الموعد، ثم تحتل في نهاية المطاف المكان الأول في مسابقة الهواة بعد أن تغني أغنية من وضعها نشرت القصيدة على الفور في المجلة، ثم صدرت في كتاب مستقل. لكن الوقت كان قد تغير قليلاً فإذا بتلك الصحف ذاتها التي دعت الهجّاء مفترياً ومشتهراً تصرح الآن بأنه «طراش» حقيقي. وضرب المدير الكبير مختار بيكوف بقبضته على المنضدة مجدداً:

ـ أين رأيت كولخوزاً لا عيب فيه؟ أين وجدت هذا الكولخوز المثالي؟!

لم يجب مذنبنا هذه المرة. هناك عقد لا يمكنك أن تحلها بيديك،

ولا يمكنك أن تفكها بأسنانك لأنها مشدودة تماماً. وأدرك صديقي أن أمامه الآن مثل هذه العقدة بالضبط، فترك كل شيء وقعد مطاطئ الرأس حزيناً.

صمت عشرة أعوام كاملة، لم يأت خلالها مرة واحدة حتى إلى اتحاد الكتاب. اللهم إلا حين جرى توزيع الشقق. وقتها لم يكن من الممكن أن لا يحضر، كما تدركون.

أمّا المدير الكبير مختار بيكوف فما لبث أن عزل من منصبه الرفيع بتهمة التضليل. ولم يأسف عليه أحد.

وبالمناسبة كان مختار بيكوف يحب السباحة كثيراً. كان يأتي صباحاً ومساء بسيارته «زيم» الكبيرة السوداء إلى شاطئ خاص، وهناك كان يغطس بجسده الضخم في مياه قزوين المالحة والباردة. كان بيته يقع عند شاطئ البحر. لكن أحداً لم يعد الآن يرى مختار بيكوف وهو يسبح. فعلى الشاطئ العام لم يكن يريد أن يذهب إذ لم يكن في تصوره، على ما يبدو، أن يتغلب على نفسه وعلى كبريائه.

في الموضوع أيضاً: حين تخرج من البيت يبدو لك أنه في كل مكان حولك: على الأرض، في الشجيرات، على الأشجار ترفرف طيور كثيرة. إنها تطير في السماء: بعضها أعلى من بعض: السنونو والزيغان والغربان والعصافير الدورية. وبين هذه الطيور في السماء كلها نسر واحد. إنه أعلى من الكل وأبعد من الكل، ومع هذا فالإنسان الخارج من البيت لا يرى لأول وهلة إلا النسر. إنه يبرز للعيان ويتميز لأنه أبعد من الكل وأعلى من الكل. ثم بعد ذلك تلمح الدوري الذي يحطّ على الشجيرة على بعد خمس خطوات من الباب.

لكنك لن تصبح نسراً لمجرد أنك رأيت النسر. والكاتب الذي يكتب عن البطل لا يصبح هو نفسه بطلاً. وأنا أعرف كثيراً من الجبناء اشتهروا بأبياتهم التي قالوها في البطولة. ترى لو نهض من القبر ابن الجبال

الشجاع ماخاتش داخادايف، فما عساه يقول «لأحدهم من العلماء» الذي كتب أطروحة عنه.

ـ كيف تستطيع أن تتحدث عن حياتي البطولية، إذا كنت لا تستطيع أن تدافع أمام المحرر عن جملة واحدة من الجمل التي كتبتها؟ كل محرّر يغير من أحكامك علي كما يشاء، وأنت لا تجرؤ على الاعتراض. كلا، أنت لست أهلاً أن تكتب أطروحة في إنسان مثل ماخاتش داخادايف، هذا ما كان يقوله ابن الجبال الشجاع، لو نهض من قبره.

يبدو لبعضهم أنه يكفي المرء أن يباشر موضوعاً عظيماً، حتى يصبح هو نفسه عظيماً. لكن أعظم الأشياء هو أبسطها. ففي قطرة المطر الواحدة يمتد الطوفان. والفرق بين الإنسان العظيم والإنسان التافه، أن التفاهة تستطيع أن ترى الأشياء والظواهر الكبيرة وحدها، ولا تلاحظ أي شيء قريب منها، أما الإنسان العظيم فيستطيع أن يرى ما هو كبير وما هو صغير على حد سواء، ويستطيع أن يكتشف حتى في أصغر الأشياء أكبرها ويبرزه للناس.

ذكرى: يحدث أحياناً أن يأسى الكتَّاب الموهوبون، في حين يروح غير الموهوبين ويجيئون وهم يشمخون بأنوفهم. يحدث هذا حين تؤخذ بالاعتبار نوايا الكاتب الطيبة، أما كيف كتب كتابه، وما درجة موهبة كاتبه، وما درجة براعته فلا تقوم تقويماً جاداً. في هذه الحالات يزيد الناصحون على المنصوحين، والمخمنون على البضاعة المعروضة، والثرثارون على الكتّاب.

في هذا الوقت بالذات خطر لوالدي أن يكتب قصيدة كبيرة عن شامل. كانت القصيدة على وشك أن تنشر. حين صدرت فجأة تعليمات تقضي باعتبار شامل من الآن وإلى الأبد عميلاً إنكليزياً تركياً. وكان هذا

معناه أن شاملاً حارب خمسة وعشرين عاماً لا في سبيل حرية شعوب داغستان، بل من أجل خداع هذه الشعوب.

ما أسوأ وضع أبي وقصيدته البطولية آنذاك! لقد ألمحوا إلي أنه ليس بالأمر الحسن في زماننا المشرق هذا أن يغوص الإنسان في التاريخ القديم، وأن من الأفضل لو أنه يكتب قصيدة جديدة عن أي شيء آخر أكثر معاصرة وأقرب إلى القارئ.

في تلك الأيام كان يتردد على والدي كثيراً صديق بيتنا الشاعر المرح أبو طالب. كان يأتي على الدوام تقريباً ومعه قيثارته التي لا تفارقه أو مزماره.

قال أبو طالب وهو يأخذ وضعاً أكثر راحة ويضبط أوتاره:

ـ لا تحزن، يا حمزة، كل هذا الحزن. حين كنت طفلاً ولم أكن أنظم شعراً، كنت أعزف دائماً على هذه القيثارة. لقد أطعمتني وعائلتي أعواماً عديدة. كانت القيثارة بين يدي تستطيع أن تعزف أي لحن يطلب مني. تعال نتذكر شبابنا ونضع أمور الشعر جانباً، فترة ما. ونأخذ في شيء من الموسيقى. أنا سأعزف على القيثارة، وأنت يا حمزة ستضرب على الطبل. وسيهون الأمر.

ـ ماذا تقول يا أبا طالب! لو أننا أصبحنا ضارب طبل وعازف قيثارة لكانت نصف مصيبة. فعازف القيثارة يعزف، وعلى موسيقاه يرقص الراقص أو البهلوان. عازف القيثارة يقف على الأرض، أما البهلوان فيرقص على الحبل. قل لي، يا أبا طالب، من وضعه أسوأ؟ البهلوانان هما أنا وأنت. يريدون أن يصنعوا منا راقصين وبهلوانين.

حزن أبو طالب المرح وحزنت معه قيثارته. عزف طويلاً في صمت، ثم رفع رأسه وقال:

ـ ما أصعب كتابة الشعر.

القمة البعيدة تبدو قريبة، تكاد تمسك بها حين تنظر

إليها من السفح،
لكن، إذا صعدت إليها في الثلج العميق والدرب
الصخري،
فأنت تسير وتسير دون نهاية.
عملنا أيضاً يبدو بسيطاً
ولكنك حين تقف عند كلمة،
ثم لا يتم لك البيت، ويبدو أيسر عليك
أن تصعد القمة من أن تؤلف أغنية.

مثل الطائر الذي أراد أن يتشبه بالنسر؛ كان قطيع من الأغنام يهبط إلى الوادي. وفجأة انقضَّ من العلياء نسر ومسك حملاً وطار به. رأى هذا كله طائر صغير فقرّر في نفسه قائلاً: «لماذا لا أفعل كالنسر؟ وما الحمل؟ سأحمل خروفاً كاملاً» حلق الطائر إلى أعلى، وطوى جناحيه الصغيرين ثم انقضَّ إلى أسفل. وانتهى الأمر بأن اصطدم الطائر بقرن الخروف وتحطم.

ـ قال الراعي وهو يمسك الطائر القتيل على راحة كفه.

ـ والذبابة أيضاً أرادت ذات مرّة أن تدحرج الصخرة.

هكذا لم يربح الطائر الصغير من رغبته في التشبه بالنسر إلا أن شبِّه بالذبابة.

في الموضوع أيضاً: الموضوع حب، والموضوع قسم، الموضوع دعاء والموضوع صلاة. يقال في الشرق. الصلاة لا يفسدها التكرار، الصلاة تزداد قيمة بالتكرار.

إنما لا يصح هذا القول على الموضوع فإذا كنت ستكرر الموضوع نفسه طوال الوقت، فسيصبح تافهاً ويفقد قيمته. بقدر ما يكون الألماس أكبر، يكون أثمن. من يحتاج إلى غبار الألماس؟

كتبت ذات مرة أشعاراً في المعلمة الروسية فيرافاسيلفنا. ولما رأيت،

إن أشعاري أعجبت القراء والنقّاد معاً، سررت وأكثرت من الكتابة في هذا الموضوع.

كانت أشعاري تشبه لا ذلك النبيذ الذي كان في البرميل الصغير في بداية الأمر، بل ذلك الذي كان بعد غسل البرميل.

يمكنك أن تقدم على المائدة نبيذاً لم يختمر على أنه نبيذ عتيق. سأروي لكم كيف كنّا نفعل أحياناً ونحن نضيف الموسكوفيين من خمرنا.

كنت أنا وأصدقائي القوقازيون نحمل معنا نبيذاً، في كل مرة نعود فيها إلى موسكو من مناطقنا. كنّا ندعو أصدقاءنا، ونفتح البرميل وتبدأ الوليمة. النبيذ الذي في البرميل قديم، معتق، من نوع عال. وكان أصدقاؤنا الذين يشربون من خمرنا، يمتدحونه ويخبرون أصدقاءهم الآخرين. وكان المولعون بالنبيذ الجيد كثرة. البرميل، كما هو معروف، له قعر. وكنا أحياناً نشتري آسفين خمراً عادية من تلك التي تباع في زجاجات، ونصبها في البرميل ونقول لهم إن هذه خمر حقيقية، خمر فلاحين، خمر من أقبيتنا. ولم يكن بين ضيوفنا من استطاع أن يفضح أمرنا إلا واحد ذاق خمرنا، فنظر إلي وهزّ رأسه. أمّا الآخرون فبقدر ما كانوا يشربون، كانوا يسكرون، وبقدر ما كانوا يسكرون كانوا يطرون الخمر.

وهكذا كانت حال أشعاري التي كنت أجترها. بعض القراء فقط، وهم أفهم القراء وأكثرهم جداً، كانوا يهزّون رؤوسهم قائلين:

- إيه، يا أخانا، لقد جاءنا في هذا الأمر دالاغولوف.

أو كانوا يقولون أيضاً:

- كل قرية يكفيها تماماً مغفل واحد.

وعندئذ أدركت أني أفعل نفس ما فعله صانعو المنجور بعصيانهم.

وسأروي لكم الآن بالترتيب كل هذه القصص.

حين كنت صغيراً، كان يأتي إلى قريتنا، كل يوم، ساعي بريد اسمه

كوربانالي، بحزمة رسائل وصحف. كان كوربانالي هذا صاحب نكتة، مهذاراً من قرية إيبوت وكان، حين يوزّع البريد، يعرّج حتماً على والدي ليجلس قليلاً ويدخّن غليونه ويتحدث لا أدري لماذا اختار والدي بالذات لأحاديثه تلك. فموضوع أحاديثه كان دائماً وأبداً حول الزواج، وبكلام أدقّ، حول زواجه الجديد، فقد كان من أولئك الناس الذين يتزوجون بعد أسبوع ويطلقون بعد شهر.

كانت تلك الفترة بالضبط فترة طلق فيها، ويبحث عن أرملة شابة. ويبدو أنه قد وجدها، لأنه لم يكن له من حديث في تلك الأيام إلا عن جمالها وشبابها وبشاشتها.

لكن الأحاديث عن الأرملة الشابة انقطعت فجأة. كان كوربانالي يأتي كل يوم كسابق عهده، لكنه كان يتحدث عن الطقس تارة، وعن شؤون الكولخوز تارة أخرى، كان يتحدث عن أي شيء إلا عن زواجه المقبل.

ـ قال له والدي:

ـ ألم تتزوج من كنت تفكر فيها؟

ـ ماذا تقول، يا حمزة، أنا الذي كنت أفكر، أما هي فلم تكن تفكر. علي الآن أن أجوب أرجاء داغستان كلها كي أجد أرملة شابة.

مرّت فترة طويلة لم يظهر فيها كوربانالي. الظاهر، أنه كان بالفعل يطوف في القرى ويبحث. كان ابنه يوزّع البريد طوال هذه الفترة. ولما ظهر خطيبنا السيئ الحظ من جديد في بيتنا، سألناه في لهفة:

ـ كيف أحوالك؟ وهل كان طريقك قصيراً ومستقيماً؟

ـ كان يمكن أن يكون مستقيماً، لكن دالاغولوف جعله أعوج.

ـ وكيف ذلك؟

ـ أمر بسيط جداً. حيثما كنت أذهب خاطباً، كانوا يقولون لي: «جاءنا دالاغولوف في هذا الموضوع».

وكان درويش دالاغولوف (دون جواناً) آفارياً معروفاً. وفي عام 1938 كان قد تزوج للمرة الثامنة عشرة.

وهكذا انطلق عن يد ساعي البريد الخفيفة هذا القول المأثور: «جاءنا «الاغولوف في هذا الموضوع».

والقصة الثانية تتعلق بمغفل. من المألوف أن يعيش في كل قرية مغفل واحد. وهذا شيء جيد. أما حين يكون هناك كثير من المغفلين، يكون الأمر سيئاً، وحين ينعدم المغفلون، يبقى هناك شيء ما ناقص. المغفلون يعرفون بعضهم جيداً، لا بل يتزاورون. وبمقتضى هذا التقليد زار ذات مرة مغفل من قرية غورتاكولا مغفلاً من قرية خونزاخ.

ـ السلام عليك، يا أبله.

ـ وعليك السلام، يا أبله.

ما حدث لهما بعد ذلك كان كما يحدث لأي صديقين. جلسا قرب الموقد وشربا وأكلا. وفي اليوم الثالث تأهب مغفل غورتاكولا ليعود إلى بيته. قدم المغفل صاحب البيت إلى ضيفه كما هو مفروض، كل مظاهر الاحترام، وقدم له الهدايا وصحبه خارج القرية. ثم ودع أحدهما الآخر.

لقد روعيت تقاليد الضيافة. ومع أول خطوة يخطوها ضيفك السابق تستطيع أن تفعل به ما تشاء لأنه لم يعد ضيفك. في هذه اللحظة بالذات وثب مغفل خونزاخ على مغفل غورتاكولا وضربه دون مقدمات.

ـ لماذا تضربني.

ـ لا تعد لزيارتي ألا تعرف أن القرية الواحدة يكفيها مغفل واحد؟

أفكر أحياناً في هذا المثل، فيخطر في بالي أن القرية الواحدة يكفيها أيضاً حكيم واحد.

من دفتر المذكرات: سأل خان غني صعلوكاً:

ـ ما ألذ شيء في الأوزة؟ سأكافئك إذا أخلصت لي النصيحة.

ـ مؤخرتها، أجاب الصعلوك على الفور:

حين طبخوا أوزة تذوقها الخان فأعجبته جداً.

ثم سأل الخان صعلوكاً آخر:

ـ ما ألذ شيء في الجاموس؟

كان الصعلوك الثاني يريد أيضاً أن يحصل على مكافأة فأجاب كالأول:

ـ المؤخرة.

تذوقها الخان فأمر بجلد صاحب النصيحة.

من المؤسف أن لا توجد سياط يجلد بها الكتاب الذين يرددون واحدهم إثر الآخر بمناسبات مختلفة.. الشيء نفسه دون أن يفكر فيه.

ولأحدثنكم الآن عن كتابة على عصا من أونتسوكول: الأديب الموسكوفي فلادلين باخنوف يعرج قليلاً ويحمل عصا. وعدته وأنا أتأهب للسفر إلى داغستان لقضاء العطلة أن أجلب له عصا جميلة من صنع معلمي أونتسوكول المشهورين. وكان أول عمل قمت به بعد وصولي إلى البيت أني كتبت إلى نقاش على الخشب في أونتسوكول من معارفنا أُعلمه بطلبي. كان النقّاش معلماً قديماً وصديقاً لوالدي، وكان بوسعي أن آمل بأن العصا ستكون كما يجب. شيء واحد لم أكن أعرفه وهو أي كتابة أحفرها على العصا.

في هذه الأثناء ظهرت في إحدى الصحف المركزية مقالة كبيرة في موضوعات أدبية. وكان عنوان المقالة «العصا بدلاً من النقد».

وفكّرت في نفسي: «ها، هذه الكتابة ستكون مناسبة على العصا التي سأهديها للأديب الموسكوفي».

بعد أسبوعين كانت العصا جاهزة. كانت أفضل عصي أونتسوكول كلها. وفي المكان المناسب بدت الكلمات التالية: «إلى ف. باخنوف. العصا بدلاً من النقد. من رسول حمزاتوف».

عصي أونتسوكول تباع عادة في محلات الهدايا التذكارية في ماخاتشكالا، وكيسلوفودسك، بيسفورسك وفي الأسواق التي تقام في القرى الجبلية.

وبعد عدة شهور ظهرت فجأة وفي كل هذه الأماكن العصي وعليها الكتابة نفسها: «إلى ف. باخنوف. العصا بدلاً من النقد. من رسول حمزاتوف». لا بد أن كل المنتجعين دهشوا وهم يشترون هذه الهدايا التذكارية وعليها هذه الكتابة. لكني كنت أكثر الناس دهشة.

وقد تبين أن المعلم العجوز الذي صنع أول عصا لم يكن يعرف كلمة بالروسية. وقد نقل إلى العصا بشكل آلي ما كتبته له على الورقة.

لقد ظنّ أنه ما دام شاعر قد رغب أن تكتب هذه الكلمات بالذات على عصا، فلا بد أن فيها حكمة كبيرة. فلماذا لا تزهو هذه الكلمات على العصي الأخرى؟

لا يجوز أن نلوم المعلم العجوز. لقد وثق بالشاعر في سذاجة، وكان في وثوقه طيباً ومخلصاً. لكن ألسنا أحياناً مثله نحن الأدباء المحنكين؟

آخر ما أريد قوله في الموضوع: هناك موضوع كالصلاة، بقدر ما يتكرر، يصبح أكثر قيمة، أسمى، أغنى. الموضوع الصلاة، الموضوع الوطن.

حين يعاقب طفل لهفوة اقترفها، يسمح حسب التقاليد الجبلية بضربه في أي مكان إلا على وجهه. فالوجه البشري لا يمس، وهذا قانون بالنسبة لأي جبلي.

أنت وجهي يا داغستان، وإني لا أسمح بأن يمسك أحد.

الجبليون صبورون جداً في شجارهم. يتبادلون الكثير من الكلمات المسيئة، لكنهم يصبرون ويردّون على كلمات الإساءة بكلمات تناسبها. ويجري الأمر على هذا المنوال ما دامت كلمات الإساءة تمس

المتشاجرين ذاتهم. والويل الويل إذا مس شرف الأم، أو شرف الأخت بكلمة غير مقصودة، غير حذرة، وقتها يتفاقم الأمر وتستل الخناجر.

داغستان أنت أم بالنسبة لي. فليذكر هذا كل من يضطر إلى نزالي. يمكن الإساءة إليّ بأي كلمة، وسأحتمل. لكن لا تمسّوا بلدي داغستان.

داغستان حبي وقسمي، دعائي وصلاتي. أنت وحدك الموضوع الرئيسي لكل كتبي، ولكل حياتي.

يطلب إلي أحياناً أن أتحدث فقط عن أمسك، عن طقوسك وعاداتك وأساطيرك وأغانيك وأعراسك وسيوفك القديمة، عن المعارك والصداقة، عن مريديك الأشداء وبناتك المخلصات، عن النبل والشجاعة، عن دم الشباب ودموع الأمهات.

ويطلب إلي أحياناً، أن أتحدث فقط عن يومك الحاضر. عن السوفخوزات والكولخوزات، عن قادة الفرق والحلقات، عن المكتبات والمسارح، عن مآثرك في العمل.

لكني لا أستطيع أن أتحدث عن هذا أو ذاك، لا عن الأمس ولا عن اليوم. بالنسبة لي توجد داغستان واحدة عاشت ألف عام، ذاب ماضيها وحاضرها ومستقبلها في واحد، ولا أستطيع أن أوزعه على أزمنة مختلفة.

تاريخ الدول الأخرى والأراضي الأخرى كتبت منذ أمد بعيد ليس بالدم وحده، وإنما بالحبر وباليراع على الورق، ليس فقط من قبل الجنود والقادة، وإنما من قبل الكتّاب والمؤرخين. أما تاريخ داغستان فقد كتبته السيوف. والقرن العشرون وحده هو الذي أعطى داغستان اليراع.

أي داغستان! لقد تتبعت معاركك القديمة، وذهبت إلى ساحات الوغى الكثيرة التي تغص بعظام بنيك. فلا تغضبنّ عليّ بسبب ذلك حقول الكولخوزات المزروعة قمحاً وذرة. فأنا حين أتكلم في أشعاري عن داغستان المعاصرة، لا يلومني الماضي على ذلك.

عندما أعود من البلاد الأجنبية البعيدة، يحيط بي الجبليون ويطلبون إلي أن أتحدث إليهم عما رأيت. إنهم يتحلقون حولي ويأخذون في الاستماع. ثلاث ساعات يمسكون بي وأنا أتحدث إليهم عن فرنسا مرة، وعن إيطاليا مرة أخرى، وعن اليابان في ثالثة وتركيا في رابعة. وبعد هذه الساعات الثلاث ينتقل الحديث تلقائياً ودون أن نلحظ إلى داغستان. أتحدث إلى الجبليين عن داغستان، ويستمعون إلي كأنما يسمعون عنها للمرة الأولى. مع أنهم هم أنفسهم داغستان.

كان محمود شاعراً كبيراً. وكان عنده موضوع رئيسي واحد هو حبه لمريم. طلب إليه أكبر أصدقائه أن يكتب أغنية مهد لأنه رزق طفلاً. حاول محمود لكنه لم يفلح. كان الطفل يبكي في سريره وهو يستمع إلى أغنية محمود، في حين كان من المفروض أن يغفو. وطلب إليه صديق آخر أن يكتب رثاء في زوجته المتوفاة. حاول محمود لكنه لم يفلح. فلم يبك الناس وهم يستمعون إلى الرثاء الذي نظمه محمود، بل إن بعضهم كان يبتسم.

لكن الناس يبكون حتى الآن، حين يغنون أغنيات محمود في حبه التعيس لمريم.

كانت مريم الموضوع الرئيسي بالنسبة لمحمود، كذلك هي داغستان بالنسبة لي.

إني أكتب منك يا داغستان، عظيماً كان حبي أو ضئيلاً جداً، خجلة كانت حقيقتي أو عميقة، قديمة كانت عواطفي أو حديثه، لا فرق. وحين أكتب يرتجف القلم في يدي على الرغم مني.

كان والدي يقول: إذا كان حقل البطيخ على درب، فكل من يمر سيقطف بطيخة ولو غير ناضجة.

ويقال: لا تمسك حجراً لا تستطيع رفعه. ولا تبلغ في سباحتك مكاناً لا تستطيع العودة منه.

ويقال: إذا بلغ الماء في الساقية رسغيك لا تشمر إلى ما فوق ركبتيك.



النوع

«الأحمق يضرب بالصراخ والعاقل
يضرب بحكمة تقع موقعها». «غن إذا
حل الربيع،
واحك حكايا إذا جاء الشتاء»

ها أنا ذا أمام الجبل الذي يجب علي أن أجتازه. مع حصاني الباسل أستطيع أن أجتاز أصعب الثنايا. الجبل هو موضوعي، والحصان هو لساني. ومع ذلك فيجب علي الآن أن أختار الدرب الذي يجب علي أن أسلكه لأتغلب على الجبل العاتي.

كان كل أجدادي الجبليين يفضلون الدرب المستقيم. إنه أكثر مشقة وأشد خطراً لكنه أقصر الطرق.. قد يكون سبباً في تعبك ولكنه يقودك إلى هدفك في أقرب وقت.

ها أنا ذا أمام حصن يجب علي أن أفتتحه. وها أنا ذا أملك سلاحاً ممتازاً لا يفل في المعركة. الحصن هو موضوعي، وسلاحي هو لساني. يجب أن تنتقي أسهل وسيلة للاستيلاء على هذا الحصن المنيع. هل نأخذهُ على حين غرة؟ أو بعد حصار طويل الأمد؟

هذا هو حقل الذرة، وهذا هو الماء في مجرى السيل ولكن كيف يمكن أن نجر هذا الماء إلى ذلك الحقل؟

وهذا هو الحطب في المنزل، وهذه هي القدر وتلك هي المواد التي يمكن أن تطبخ في القدر. ولكن ما لون الطعام الذي نريد تقديمه عند الغداء؟

عرض علي مدير المجلة أن أختار ما شئت من ألوان الأدب: قصة، رواية، قصيدة، مقالة، كلما اتسع الممكن عسر الاختيار.

من دفتر المذكرات: في معهد الآداب جرت الأمور على النحو الآتي. كنا في السنة الأولى عشرين شاعراً وأربعة قصاصين ومؤلفاً مسرحياً. في السنة الثانية أصبحنا خمسة عشر شاعراً وثمانية قصاصين ومؤلفاً مسرحياً وناقداً أدبياً. في السنة الثالثة صرنا ثمانية شعراء وعشرة قصاصين ومؤلفاً مسرحياً وستة نقاد. وفي نهاية السنة الخامسة بقينا شاعراً واحداً وروائياً واحداً ومؤلفاً مسرحياً واحداً، وسائرنا أصبحوا نقاداً.

الحق أني أبالغ، وتلك نادرة من النوادر. ولكن كثيراً من المؤلفين يبدأون حياتهم شعراء ثم ينتقلون إلى النثر ثم إلى المسرح وأخيراً إلى المقالة. وفوق ذلك فقد أصبح الطراز الأدبي الجديد كتابة (الحوار والسيناريو).

كان هنالك ملوك وسلاطين يطلّقون زوجاتهم لأنهن عاقرات. وبعد أن يبدّلوا عدداً كبيراً من الزوجات يقتنعون أخيراً أن المسؤولية لا تقع على الملكات. ونجد في مقابل ذلك فلاحاً عاش حياته كلها مع امرأة واحدة وها هو ذا ينط اثنا عشر ولداً في بيته.

إليكم ما أفكر فيه: اشرب الخمر ولا تحتقر الخبز. غن أغنيات ولكن اصغ إلى الحكايات. اقرض الشعر ولكن لا تطرد النثر.

في النثر: عندما كنت طفلاً كانت أمي تغني لي أغنية المهد. الأغنية نفسها دائماً، كانت لا تعرف غيرها. ورغم أن أبي كان شاعراً شهيراً فلم يكتب لأبنائه قصيدة واحدة. كان يسره أن يقصّ علينا قصصاً أو حوادث أو نوادر. ذلك كان نثره.

كان أبي لا يحب أن يتحدث عن قصائده. كنت أحسّ أنه يعتبر الشعر أمراً ليس فيه جد كثير. المسائل الجدية عنده هي فلاحة الأرض. إصلاح الزريبة. العناية بالبقرة والحصان، جرف الثلج عن السطوح، وبعد ذلك الإسهام ـ على قدر المستطاع ـ في أعمال القرية حيناً وحتى في أعمال المقاطعة حيناً.

كان إذا نظم قصيدة لا يهمه أن يعرف أين تنشر، وسواء عنده أنشرت في مجلة العاصمة أو في المجلة المخطوطة التي يصدرها طلاب القرية بل لقد لاحظت أنه كان أكثر سروراً إذا نشرها في مجلة الطلاب.

كان يردد مسروراً الكلمات التي قالها أنس محمد لولده محمود شاعر الغزل الشهير. كان إذا عاد إلى بيته طفلاً مدللاً يشغله الحب وأغانيه عن كل شيء، اصفر اللون جائعاً، يقول له والده في هدوء:

ـ كل القصائد واشرب الحب. كفاني ما حملته من حراثة الأرض بدلاً عنك.

نعم إن الأغنية ضرورة هي أيضاً للعصفور، ولكن مهمة العصفور الأولى أن يبني عشه وأن يجد رزقه وأن يغذي صغاره.

كان أبي يعتبر قصائده مثل أغاني العصافير من كل الجوانب. إنها جميلة، لذيذة ولكنها ليست مما لا يستغنى عنه. إنه يعتبرها مثل «صباح الخير» تقولها في كل صباح، و«مساء الخير» تقولها عند كل مساء عندما تمضي لتنام، مثل التمنيات الطيبة في المناسبات الحلوة أيام الأعياد أو التعزيات المرة في ساعات الشقاء.

يظن بعض الناس أن الشعراء يقفون على هامش الأحداث في هذا العالم، وأن لكل واحد منهم مزاجه الخاص. أما أبي فكان ذلك الجبلي البسيط في طبيعته وفي طريقة عيشه. كان يحب قبل كل شيء الحوار الطويل الهادئ الذي يديره رجال يتحلقون حول موقد النار ويتحدثون عن كثير من الأمور دون أن يقاطع أحدهم صاحبه، كان يفضل دائماً هذا اللون من النثر.

لقد عرض أبي قصائده الأولى على الشاعر المجيد محمود ليرى فيها رأيه. ودهش الشاعر وقال إنه لا يفهم قصائد أبي وأنه لا يفهم أن يكون موضوع الشعر بقرة أو جراراً أو كلاباً أو الطرق المؤدية إلى قرية (خنزاخ) ويسأله أبي في حياء:

ـ وعمَّ يجب أن نتحدث.

ـ عن الحب، والحب وحده.. يجب أن نشيِّد قصر الحب.

قصيدة لمحمود

أنا الذي شيَّدت قصور الحب
أتشرَّد تحت المطر والريح في الطرقات
الجسر الملكي الذي بنيته لعواطفنا
تهدَّم وأنا فوق صخرتي وحيد.

لم يبن أبي قصراً للحب. ولم يهتم به قط. كل ما يشغله كان قصر قصائده: البيت والأسرة، الأولاد، القرية، الحصان، البلد، السلام، الأرض، السماء، المطر، الشمس والزرع.

الحق أنه كتب ذات يوم قصيدة غزل، ولكيلا يقرأها أحد غيره وغيرها كتبها باللغة العربية. كانت قصيدة غزل بالمرأة التي أحب.

أحب أبي الحكمة وهدوء القصة. يأخذني عند المساء. وقت الغروب فوق ركبتيه ويلفني بعباءته الدافئة ويقص عليَّ القصص دون أن يتعب. يقص قصة أولئك الذين سافروا بعيداً في ديار الغربة، وأولئك الذين ظلوا في أرضهم صامدين. يقص قصص الطرق والأنهار وتفتح الأزهار والنحل الذي يحوم عليها ويرشف رحيقها، يقص قصة الشمس كيف تشرق ولماذا تغيب. يتحدث عن العادات والتقاليد في العصور الخالية وعن الأدعية التي يدعو بها المحاربون قبل بدء المعركة.

كان يكفيه أن يرى السماء متفحصاً ليعرف هل تمطر غداً أو هل

سيكون النهار صاحياً يعرف إن كان المطر عاماً يشمل كل ما حولنا أو أن الشمس تشرق على قرية (تيليتل) وهذا يعني أن الجليد يكتسح هضبة (خنخاخ).

يقص عليَّ قصة السنبلة وكم حبة فيها، وكيف تحدث قوس قزح بألوانها الجميلة.

فإذا رأى الناس مسافراً يتنقل من قرية إلى قرية كان أبي يذكر في وضوح من هذا المسافر ولماذا يسافر وفي أي بيت سوف يقضي ليلته..

آه، لم يكتب كل هذا واكتفى بروايته. هذا ما يمكن أن يكون نثر الشاعر نثر حمزة تساداسا.

القصة والحياة عنده شيء واحد. يعتبر الفكر قصة ويعتبر القصة فكراً: أما القصائد فيشبهها بقلب ذي أهواء.

ليته خط كل قصصه على ورق. لأن هذا القلب صاحب الأهواء هو الذي بسط سيطرته عليَّ مذ أصبحت كبيراً. عندما يمر بي عصفور لا أسأل لماذا يطير ولا إلى أين يذهب ولكني أريد أن أمسك به وهو يطير. ورغم كل الجهد الذي كان يبذله أبي في قصصه كنت أفضل عليها جميعاً أغنية المهد التي كانت تغنيها لي أمي، وكانت أغنية واحدة لا تتبدل.

هذه الأغنية رافقت طفولتي، ولحقت بي في شبابي وما تزال معي هنا وقد غدوت رجلاً، وهي التي سترافقني وقد شاب عارضي.

فهمت اليوم، رغم كل الأماكن التي تشردت فيها، والأشعار التي صنعتها أنه كانت لي هنالك دائماً تلك الصخرة التي تنتظر النسر الذي يقف فوقها، والشجرة التي تترقب العصفور الذي يبني عليها عشه، والبيت الذي يتوقع الضيف يطرق بابه، والنثر الذي ينتظر الشاعر.

وأنا أقف على الصخرة التي تنتظرني، وأقرع الباب الذي يفتح أمامي ليستقبلني البيت. فهمت أني لا أستطيع بالشعر وحده أن أعبر عن كل ما رأيته في الأرض وعن كل ما فكرت فيه وعن كل ما شعرت به.

فهمت أن النثر ليس أغنية يمكن أن نغنيها ونحن وقوف. ولكنه أمر يدعو إلى أن تجلس وراء منضدتك، وتقلب كميك، وتضبط المنبه على ساعة مبكرة من ساعات الصباح وأن تصنع إبريق شاي كثيفة لكيلا تنام الليل.

حقاً إن الأساس إذا كان متيناً والدعائم إذا كانت وطيدة أمكن أن نتابع عملية بناء البيت، مهما كان هذا البيت: قصّة أو رواية أو أسطورة، أو تأملات أو كان مقالاً من المقالات.

سيقول بعض المحررين والنقاد: هذا الذي كتبت ليس رواية ولا قصة ولا أقصوصة بل نحن لا نعرف ما يمكن أن يكون.

ويقول لي محررون ونقاد آخرون إن ما كتب هو هذا أو ذاك أو أشياء أخرى.

أما أنا فلا أصر على إعطاء هوية لما أكتب. عمدوا بالاسم الذي تختارونه ما سوف يخطه قلمي. لست أكتب لكي أوافق واحداً من القوانين الكنسية التي وضعتموها ولكني كتبت ما كتبت لألبي نداء قلبي. والقلب لا يعرف قانوناً، أو على الصحيح أن للقلب قوانينه التي لا تناسب الناس جميعاً.

أتساءل: هل أنا أفسد المائدة إذا خلطت في القدر الواحدة اللحم والرز والفاكهة والفلفل ثم أضفت إليها الملح والعسل؟ أو أن ذلك سيصبح طعاماً لذيذاً متميزاً؟ ليحكم على ذلك من سيأكل.

حكايتي قصتي، تأملاتي! عندما كنت طفلاً كانت تمر بي ليال لا أذوق فيها للنوم طعماً وأنا أنتظر في قلق عودة إخوتي أو أبي.. كنت أميل بأذني أسترق السمع إلى صرير الباب، وتصبح الدقائق ساعات.

في هذه الليالي كان جَدي يهرع إلي، ويشرع في سرد شيء ما في هدوء، كان قصة أو أغنية أو مثلاً أو كلمة مضحكة حيناً ورهيبة حيناً أو مزاحاً والزمن ـ الدقائق والساعات ـ يمحي.

ولا يبقى إلا صوت جدي واللوحات التي يخلقها خيالي. ويقاطع أبي أو إخوتي بعودتهم حديث جدي. ما أصعب أن تقطع عودتهم خيوط القصة الرائعة.

اليوم وقد أصبحت كهلاً ما زلت إذا قمت برحلة في العالم أسرع في العودة إلى بيتي، كما كان يسرع في العودة إليه أبي أو إخوتي، وكلما اقتربت الرحلة من نهايتها زاد خفقان قلبي وأعدت ثم أعدت حساب ما بقي لي من مراحل، وها هو ذا أحد رفاقي في الرحلة يحدثني عن حادثة مسلية أو واقعة، عن حكاية أو قصة، وأنا أصغي إليه في اهتمام. وها نحن أولاً قد انتهت رحلتنا. فما أصعب أن لا ينتهي صاحبي من حكايته.

وأبي يسأل:

إذن: ماذا حدث في الجبل؟ والدرب ألم يقطعها الثلج؟

وأنا أيضاً لا أتذكر الجبال ولا الدرب ولا الثلج. أتذكر ما حدثنيه صديقي البليغ. هذه الحكايات تحول الجبال في نظري إلى سهل فسيح أفيح، والثلج المتجمد إلى قطن دافئ.

أيتها الحكايا، يا تأملات قلبي. أفي مقدوركن أن تجعلن انتظار الحبيب أقصر مدى في ليلة من ليالي الشتاء الطويلة؟ أفي مقدوركن أن تجعلن الطريق الشتوي الطويل الذي يؤدي إلى دار الأهل الحزينة أقل طولاً وأقرب سبيلاً.

من عادتي في قصصي المضجرة أن أضيف. كما تضاف الأعشاب ذات الرائحة الطيبة إلى الحساء لتعطيه مذاقاً أفضل ـ من عادتي أن أضيف إليها مثلين سائرين أو كلمتين مأثورتين.

صبايا قرية (تيللوخ) يضعن وشمين ملونين فوق أذقانهن قرب فتحة الشفتين. أيمكن أن تكون الأمثال السائرة في نتوء مثل هذين الوشمين على شفتي الصبية الحلوة؟

أصب في قصصي ذكرياتي وبعض ما هو مسجل في مذكراتي كأني أضع أحجاراً غير متساوية في حائط صقيل. إن كل حجر قد لا يكون بالضرورة صالحاً من أجل الحائط. وبعد أن أضع بعض هذه الأحجار أعود إلى قصتي وأشعر بما يشعر به المؤمنون حين تطول الصلاة بينما يكون القلب مشغولاً عنها. أنا مضطر إلى أن أنتزع من الحائط الحجر الذي لا يناسبه.

وهكذا أنتقل من القصيدة والأغنية الملتهبتين إلى القصة الهادئة إلى النثر. ولكني عندما أقرر أن أهجر الشعر إلى أمد كان الشعر هو الذي لا يريد أن يهجرني. إنه مثل قط أليف يأتي ليندس في فراشي وتحت لحافي عندما أنام. وعندما أفتح نافذتي عند الصباح يتسلل إلي كما يتسلل شعاع الشمس من وراء الجبال. إنه ينتظرني في قعر الكأس مع قطرات الخمرة الباقية، والتي هي أطيب ما في الكأس: إنه يطاردني في كل مكان كأنه امرأة خدعتها فهي تلقاك فتسد عليك طريقك:

ـ أحقاً: إنك تريد أن تهجرني؟ ولكن فكر قليلاً هل تستطيع أن تعيش دوني. إنك وعل ألفَ مرعاه في الغابات الرطبة. إنك سمكة تعودت أن تسبح في الماء الذي يجري سريعاً بارداً كالثلج. أتظن أنك ترضيك بحيرة دافئة ساكنة؟ حسناً ما دمت قررت أن تذهب فتعال نجلس معاً لحظة قبل أن نفترق.

أيها الشعر، لا تعرف أنني لا أستطيع لك هجراً؟ أأستطيع أن أهجر كل الأفراح التي تولد في نفسي؟ كل الدموع التي تغرورق في عيني؟

أنت مثل البنت التي جاءت إلى العالم، والعالم كله ينتظر صبياً. أنت مثلها حين ولدت وكأنها بولادتها تقول: «أنا أعرف أنكم لا تنتظرونني،

وأعرف أن ليس فيكم حتى الآن من يحبني. ولكن دعوني أكبر وأتفتح. دعوني أسرح شعري وأغني أغنية. عندئذ سترون أن ليس في العالم كله من يجرؤ فيدعي أنه لا يحبني».

يأتي العمل أولاً ثم تأتي الراحة
يأتي السير الجدي أولاً ثم تأتي عشر دقائق من الوقوف
أنت لي هذا السير العنيف وذلك الوقوف.
أنت لي تلك الراحة وذلك العمل العنيف
أنت الأغنية التي نمت على أنغامها في المهد وحلمت بها

فوق وسادتي
أنت حلمي البطولي وحلمي الربيعي
أنت ولدت يوم ولد حبي
وقد ولدت أنا وولد الحب معي
عندما كنت صبياً كنت لي أماً
وأنت اليوم حبيبي وغداً
ستكون لي الابنة التي تسهر على شعري الأبيض
وستبقى ذكرى رمادي
حين أغيب في قبري
أنت تبدو لي حيناً جبلاً لا يرتقى
وتبدو لي حيناً عصفوراً أليفاً أنيساً
أنت الأجنحة التي أطير بها
أنت السلاح الذي أخوض به المعركة
أنت لي كل شيء ما عدا هدوئي
سواء أكنت طيباً أو خبيثاً فقد أخلصت في خدمتك
ولكن أين ينتهي الجهد وأين تبدأ الراحة
أين ساعات السير الجاد ولحظات الوقوف
أنت لي هذا السير الجاد وذلك الوقوف
أنت لي تلك الراحة وذلك العمل العنيف

قال أبي: لكي تسكت ثرثاراً متطفلاً ينبغي أن يتولى الكلام شيخ محترم أو ضيف ممتاز. وإذا لم يوقف الثرثار موجة بلاغته الفارغة يجب أن تغني أغنية.

وإذا لم تنجع الأغنية ولم تؤثر فيه فعليك، دون خجل، أن تقبض عليه من عنقه وأن تقذف به إلى الباب. بل لك الحق في أن تضرب كل من يقاطع الأغاني.

أيها الشعر: أنت تعرف أكثر من الناس جميعاً أن كل ما يقولونه عنك لا يجعلك أكثر جمالاً ولا أكبر قدراً. أيمكن أن نمجد الأغنية بحديثنا عنها؟ أيمكن أن نزيد سيل الجبل إذا ألقينا فيه جرة ماء؟ أيمكن أن نقوي هبوب الريح إذا نفخنا فيها؟ أيمكن أن نزيد عظمة جبل سامق يضيع بين الغيوم إذا حملنا إلى ذروته قبضة ثلج؟ أيمكن أن نزيد في حب الأم لولدها إذا ألبسناه ثوباً أو خططنا له شارباً؟

أيها الشعر: أنا ـ لولاك ـ يتيم.

شعر

لولاك كان العالم مغارة من الظلمات
لا تعرف قطرة شمس.
أو سماء دون نجم يلمع.
أو حباً لا يعرف حرارة قبلة.

لولاك كان العالم بحراً لا زرقة فيه
ولا رطوبة خالدة ولا حركة لا نهائية.
أو بستاناً لا أزهار فيه ولا أعشاب
ولا أغنيات بلبل ولا نغمة صرصور.

لولاك لكانت الأشجار عارية سودا
لا شيء غير ضباب تشرين، لا صيف ولا شتاء ولا ربيع
لكان الإنسان وحشاً وشقيا
والأغنية.. ولكن الأغنية لا يمكن أن تكون

يقول الآفار(*): «لقد خلق الشاعر قبل خلق العالم بمائة عام». وكأنهم بذلك يريدون أن يقولوا: لو لم يشترك الشاعر في خلق العالم لما كان في مثل هذا الجمال.

كنا أربعة إخوان، وأختاً واحدة، وكانت أختنا أكبرنا سناً. وكان نصيبها ـ مثل نصيب كل فتاة جبلية ـ كثيراً من العمل ومن الحزن ومن الدموع. وكان أبي غالباً ما يقول:

ـ أنتم أربعة. وأختكم واحدة. احرصوا عليها. اعتنوا بها. ليس في العالم من هو أقرب إليكم من أختكم. حقاً. إن أختي أغلى الناس عندي. ولكن لي أختاً أخرى ولست أدري أيتهما أغلى: أختي تلك أو قصيدتي.. لا أستطيع العيش دونها.

أتساءل أحياناً من يحل محلها؟ نعم ستبقى لي الجبال والثلج والغدران والمطر والنجوم والشمس والخبز. ولكن هل تستطيع الجبال والمطر والأزهار والشمس أن تستغني عن الشعر؟ وهل يستطيع الشعر أن يستغني عنها؟

لولا الشعر لتحولت الجبال إلى كومة من الحصى، والمطر إلى ماء آسن ومستنقع، والشمس إلى جرم سماوي مشع له قدرة حرارية.

وأتساءل أحياناً: ما الذي يمكن أن يحل محل الشعر؟ نعم هنالك بلدان بعيدة، وأغنية عصافير، وشمس وقلب يخفق. ولكن لا يمكن أن يبقى ذلك كله كما كان لولا الشعر. تبقى المفاهيم الجغرافية بدلاً من

(*) قبيلة الشاعر.

نداء البلاد البعيدة، يبقى خزان مياه كبير بدلاً من البحر، تبقى صرخة ذكر يدعو أنثى بدلاً من أغنية عصفور، تبقى مجموعة من الغازات بدلاً من الشمس الزرقاء، وتبقى الدورة الدموية بدلاً من خفقان القلب.

نعم هنالك الحنان والطيبة والشفقة والحب والجمال والشجاعة والحقد والكبرياء.. ولكن كل هذه المفاهيم ولدت من الشعر وولدت الشعر. هذه المفاهيم لا يمكن أن تعيش دون الشعر، والشعر لا يمكن أن يعيش دونها.

لقد خلقني شعري وخلقت شعري. ويموت واحدنا إن مات الآخر، لا نعود في الوجود. لي عضلات ولي عظام لا تستطيع العين المجردة أن ترى العظام في داخل الجسد وأن تحدد ما هو سليم وقوي منها، وما هو مكسور ثم جبر، ومع ذلك فهذه أشعة (إكس) تخترق عظامي فإذا كل ما هو مغطى وكل ما هو سري تراه العين.

إن روحي أكثر خفاء في أعماقي، أكثر خفاء من أضلاعي وعمودي الفقري ورئتي. وها هي ذي أشعة الشعر تخترقها وتصبح كل نأمة في روحي معروضة على الناس. روحي على يدي مفتوحة شفافة، تخترقها أشعة الشعر السحرية ويستطيع الناس أن ينظروا خلال نفسي.

الآلة الحاسبة الحديثة لها ألوف من الأسلاك والحجيرات. يمكن أن تعهد إليها بأشد البرامج تعقيداً وبعدد كبير من الأرقام. ويجري التيار الكهربائي في الأسلاك والحجيرات التي لا تكاد تحصى عدداً ولا تستطيع عين ولا عقل أن يحيط بالعمليات التي تدور في هذه الآلة. ولكن ها هو ذا رقم يظهر: إنه الجواب النهائي، النتيجة.

ولا يستطيع إنسان أن يحيط بالاتصالات، بتيارات الحب والحقد التي تجري على طول الأسلاك التي لا تحصى في جسدي. ولكن ها هي ذي القصيدة الشيء النهائي. الشيء الرائع الذي يمكن لروحي أن تبدعه منطلقة من مشاعرها في الحياة.

لقد شققت الأرض شقاً، مشياً على الأقدام أو على صهوة حصان،

ركبت الطائرة ونعست في مقعدي، وسافرت في القطار مضطجعاً على السرير الفوقاني، وركبت السيارة أحياناً والناس يقولون وهم يرونني في شعاب الجبل أسير أو أركب الحصان: ها هو ذا رسول حمزة، إنه وحيد، ولعله أن يسأم، ولكني لم أكن في يوم من الأيام وحيداً. أختي قصيدتي ـ دائماً معي. نحن لا نفترق لحظة من اللحظات، وحتى في الحلم أنظم أحياناً بعض الأبيات أو أتذكر الأبيات التي كنت نظمتها أو أقرأ قصائد الشعراء.

ظننت أمداً طويلاً أن عدد الشعراء في الأرض قليل، وأن الشعراء يملون مللاً غير قليل وهم يعيشون بين الناس غير الشعراء. كل إنسان له ما يشغله في الحياة، ويمكن أن يتحدث عنه إلى صديق أو جار: عن العمل، والزوجة، والأجور، ويوم العطلة، ومنزل الأسرة، والصيد والسينما والأمراض.. نعم إن الشاعر يمكن أن يتحدث عن كل هذه الأشياء مع الناس ولكن من ذا الذي يمكن أن يشاطره مفهومه الشعري عن العالم، قصيدته؟

وأخيراً فهمت أن ليس في الناس من ليسوا شعراء. كل واحد منهم شاعر في روحه إلى حد ما، وكل واحد منهم زاره الشعر. ما من ذلك بد، كما يزور الصديق الحميم[1] منزل صديقه.

إن حب الأغنية عند شعبنا طبيعي مثل حب الأطفال. نعم نحن جميعاً شعراء. والفرق بيننا أن بعضنا ينظمون الشعر لأنهم يعرفون كيف ينظمونه، وبعضنا ينظمون الشعر لأنهم يظنون أنهم يستطيعون نظمه، وبعضنا لا ينظمون الشعر على الإطلاق. ومن يدري فلعل هذه الزمرة الأخيرة أن يكونوا فعلاً هم الشعراء حقاً.

لقد مر بي عهد كنت لا أنظم فيه شعراً فهل كنت آنذاك غير شاعر؟ هل كان قلبي يخفق أقل مما يخفق الآن، هل كان دمي أقل حرارة مما

---

(1) قوناق: في الأصل: الصديق الحميم (م. ف).

هو الآن؟ هل كانت الآلام أقل تأثيراً في نفسي؟ والأفراح أقل إسعاداً لها؟ هل كانت عيناي تريان الأرض أقل جمالاً مما تريانها الآن؟ هل كنت أقل إحساساً بروعة النجم الأزرق يبدو خلال مزقة بين الغيوم السود؟ هل كانت ترنيمة النهر أقل انسجاماً في نغمتها من ترنيمته اليوم؟ ألم أكن أهتز لصرخة الكركي وصهيل الحصان؟ ألم تكن الدموع تملأ عيني وأنا أصغي إلى أغنية قديمة أو إلى الأساطير الرائعة التي يرويها آباؤنا؟

أتذكر: عندما كنت صغيراً تطوعت عند جارنا لكي أحرس حصانه.. ولقاء ذلك كان على الجار أن يقص علي قصة وكان علي أن أحرس الحصان ثلاثة أيام.

أتذكر: كان ذلك في العهد الذي كنت أرافق فيه الرعاة إلى الجبل.. نصف النهار ينقضي في الغدو ونصف النهار ينقضي في الرواح.. وإذا كنت أغدو وأروح معهم فما ذلك إلا لكي أسمع قصيدة واحدة.

كمشري (أونتزوغول) وعنب (أمري) وعسل (بصرى) وأغاني (الآفار)..

أتذكر: عندما كنت في السنة الثانية من المدرسة سرت في الدروب الوعرة في الجبل المؤدي إلى قرية (بصرى) وهي تبعد عشرين كيلومتراً عن قريتي تسادا. كان فيها شيخ عجوز هو صديق والدي الحميم. كان يعرف كثيراً من الأغاني القديمة ومن الشعر ومن الأساطير. وظل العجوز أربعة أيام من صباحها إلى مسائها وهو يغنيني القصائد وأنا أحاول على قدر ما أستطيع أن أسجل ألحانها، فإذا عدت إلى المنزل عدت جد مسرور وجعبتي ملأى بالقصائد والأغاني.

يشرف على (بصرى) جبل عال، فإذا جزته طلعت من حيث لا أدري كلاب الرعاة الضخمة المتوحشة. كانت تنطلق في العشب الأخضر كما

تنطلق الصواريخ في الأمواج لتصل إلى جناح السفينة الأسود. كنت أرى أشداقها المفتوحة ذات الأنياب الصفر السائلة. وفي الدقيقة التي كادت فيها تمزقني إرباً إرباً كنت أسمع صرخة الراعي:

ـ نم.. لا تتحرك.

وأستلقي في الأرض وألتصق بها ولا أتحرك. أخاف أن أتململ حتى كدت أظن أني لا أتنفس. قلبي وحده كان يخفق فوق الأرض في قوة، وخيل لي أن خفقاته تسمع بعيداً حولي. ووقفت الكلاب حولي تشمني وتشم جعبتي وما فيها من أشعار. وتظن الكلاب أنها أخطأت وينظر بعضها إلى بعض نظرات حائرة ثم تهرع إلى شخص تتصوره في خيالها وتختفي وراء الجبل.

وأبقى مستلقياً في مكاني حتى يقترب مني الراعي ووراءه قطيعه:

ـ من أنت.

ـ أنا رسول بن حمزة من تسادا. وسميت أبي عامداً على أمل أن يسمع الراعي اسمه فيكون أكثر حفاوة بي ولا يسمح بالإساءة إلي.

ـ وماذا تصنع هنا في الجبل؟

ـ ذهبت إلى بصرى لأبحث عن قصائد. إنها هنا في كيسي.

وسحب الراعي القصائد من كيسي وجعل يتفحصها:

ـ أتريد أن تكون أيضاً شاعراً؟ إذن فلماذا تخاف من الكلاب؟ ستلقى في طريقك في المستقبل كلاباً أشد سعاراً، وهؤلاء لن يتركوك إذا شموا رائحة القصائد كما تركتك كلابي هذه. ولكن لا تخف، لا تخف شيئاً على الإطلاق. أتعرف هذا الجبل؟ من هذا الجبل قفز الحاج مراد لكي يتخلص من حراسه. وبقي الحراس وأيديهم فارغة، واستطاع الحاج مراد الفرار. إن الجبال في بلدك تهب إلى نجدتك.

ظننت أمداً طويلاً أن نار الشعر التي تضطرم في نفسي، والقلق الذي

يعيش دائماً في روحي والحب الذي اختار منزلاً له في قلبي، وصخب الدماء في عروقي، ظننت ذلك كله أمراً موقوتاً سرعان ما يمضي.

وها أنا ذا الآن وقد ابيض شعري، وكبر أولادي، وشاخت كتبي، ولكن هذه العواطف لم تهجرني. وما يزال الشعر أكثر أصحابي إخلاصاً لي.

وأنا الآن، أتوجه إليه وأخاطبه..

أيها الشعر: أنت لم تفارقني في رحلاتي الطويلة عبر العالم وعبر الحياة، بل أنت لم تتركني اليوم وأنا أجوب بحر النثر المديد العريض. أنا أعلم أن من العبث أن أجعل للقصة نغماً. حيز القصص يصبح شعراً سيئاً. والشعر في القصة ينبغي أن يكون كالملح في الطعام. وقد كان الشعر دائماً ملح حياتي. لولاه كانت حياتي تافهة لا معنى لها. عندنا في الجبال لا ينسى صاحب البيت أبداً أن يضع المملحة على مائدة الضيف.

النثر يطير بعيداً ولكن الشعر يطير عالياً. النثر طائرة كبيرة تستطيع أن تدور حول العالم. أما الشعر فهو طائرة مطاردة تطير في عنف رائع وتقبض على طائرة النثر الضخمة في طرفة عين.

أريد أن أخلط ألواناً عديدة في كتابي وأن أرسله إلى ما وراء حدود بلدي (آفاريا) ولم لا؟ منذ زمن بعيد وأشعارنا تخط طريقها ودروبها نحو قلوب الناس بعيداً عن حدود داغستان.

بل إن بعض قصصنا نالت تأشيرة خروج. ربما بقي مسرحنا في أرضه لا يغادرها. يمكن أن يكون في طريقه إلى التحقق من هويته أو أنه في حاجة إلى أن يتعلم كيف يجب أن يكون سلوكه؟

لو أني جعلت أكتب مسرحية لاخترت لها مكاناً كل داغستان. ولكان إطارها الجبال والسماء والأنهار المتدفقة والبحر والأرض. أما زمان المسرحية؟ فالقرون الغابرة، والعهد الحاضر وكل المستقبل. كنت

خلطت الألوف من السنين باللحظات. أما أشخاص المسرحية فهم أنا وأبي وأبنائي وأصدقائي. وناس ماتوا من عهد بعيد وناس ما يزالون في عالم الغيب.

هذه المسرحية ستكون أحسن مؤلفاتي.

«حربي وسلمي»[1]، «دون كيشوت»[2] و«المهزلة الإلهية»[3] بالنسبة إلي، ولكنني لا أجرؤ على كتابة مسرحية بل لا أجرؤ أن أضع في جدران كتابي القادم حجراً واحداً من المسرح. أترك المسرح لوقت آخر، بل أتركه في صراحة إلى غيري من الكتاب، وأكتفي بالشعر والنثر أقرن واحداً بواحد. الشعر هو الطيران على صهوة حصان، والنثر هو السير على الأقدام، وعلى الأقدام يمكن أن تمضي إلى مكان بعيد، وعلى ظهر الحصان يمكن أن تسافر في سرعة. وسأسير حيناً على قدمي وأمتطي حيناً حصاني، وسأقص كل ما أستطيع وأجعله أغنية، في نفسي عنفوان الشباب وحكمة الشيخوخة. فيلغن الشباب ولتتكلم الحكمة.

في نفسي تعيش شخصيات كثيرة مختلفة: أحياناً أجلس إلى المائدة في حفاوة، وأستعمل المشوش الصقيل وأمسك الشوكة باليد اليمنى، وأحياناً أمسك بكلتا يدي ضلع خروف وآكل وأنا جالس على الأرض، ومعي مواطنيَّ، وأبلع الخروف بجرعات من البوظة[4].

عندما أغادر المدينة لأذهب إلى الجبال أحمل معي، كما يفعل سكان المدن، فواكه وخموراً ناعمة، وعندما أعود إلى المدينة بعد أن أفارق الرعاة الكرام أحمل معي خروفاً يلقى على سرج الحصان.

والبحر نفسه يكون مرة لطيفاً ناعماً ومرة غضوباً مزمجراً. وكذلك تعيش في نفسي طباع مختلفة.

---

(1) الحرب والسلم: رواية تولستوي.

(2) دون كيشوت: رواية سيرفانش.

(3) المهزلة الإلهية: رائعة دانتي.

(4) شراب وطني.

رأيت على شفير هاوية سحيقة في الجبل شاباً وفتاة يتعانقان.

لم أر إلا خيالهما المشترك، لم أستطع التمييز بينهما، كان عناقهما متحداً إلى هذا الحد، وكان اتحادهما وثيقاً إلى هذا الحد.

وكذلك تعيش في نفسي، ولا تتجزأ السعادة والألم، الدموع والفرح، الضعف والقوة.

كلا، الفرس لا يشب منتصباً على قوائمه
ولا يقتضم من غيظ لجامه،
إنه يبتسم بأسنانه البيض
ورأسه يميل في حزن

يتدلى عرفه إلى الأرض
احمر كأنه نار المساء
يخيل إلي، ويا للعجب
أن الحصان يضحك كما يضحك الإنسان.

من ذا الذي لا تمتلكه الدهشة؟
اقتربت لأرى هذا الحصان الغريب رؤية أوضح
كلا إنه لا يضحك كما يضحك الإنسان
إنه يبكي ورأسه يتدلى ثقيلاً.

في عينيه وهما مثل ورقتي شجرة
دمعتان تعكسان ضباباً بعيداً
أوه يا صديقي.. إذا كنت أضحك فاقترب مني
وخذ حظك من النظر إلي.

من دفتر المذكرات: جبلي من قرية (سيوخ) رأى غيمة بيضاء في سفح الجبل، وقفز إليها وهو يظن أنها كومة من الصوف الناعم الهفهاف. كان الشبه كبيراً بين غيمة دقيقة وكومة من الصوف أو القطن المندوف. وما كان للغيمة أن تصبح قطناً.

مهما كان جميلاً شكل الكتاب الذي كتب للشكل وحده فإنه لا يمس قلب الإنسان.

الشكل وحده لا يترجم عن المعنى. الصياد الذي قضى حياته في البحر، يرى في الغابة قرية من النمل ويظن أنها كومة من الكافيار. والجبلي الذي لم ير البحر يرى كومة من الكافيار فيظن أنها قرية نمل.

من دفتر المذكرات:

القلب نفسه تستهدفه الرصاصة والوردة
والوجه نفسه تأتيه الضحكات والدموع
والشفاه نفسها تذوق العسل والسم
وفي السماء نفسها تطير الصقور والحمام
وفي العش نفسه، في الغيمة السوداء نفسها تنبثق النار والماء..
وعلى المسمار نفسه تعلق القيثارة[1] والخنجر[2]

من دفتر المذكرات: فتاة جبلية، عرفت نشوة الحب، تطلعت من النافذة عند الصباح وصرخت:

ـ آه ما أجمل الزهر على الأشجار.

ودمدمت أمها العجوز:

ـ وأين ترين الزهر على الشجر. إنه الثلج. نحن في أواخر الخريف وأوائل الشتاء.

وهكذا بدا الصباح الواحد لامرأتين صباحين: صباحاً ربيعياً وصباحاً شتوياً. وفي نفسي يعيش هذان المظهران المتناقضان: الشاب والشيخ، الزهر والثلج، الربيع والخريف. فلا تأخذنك الحيرة إذا وجدت في كتابي شعراً حيناً ونثراً حيناً.

---

(1) كوموز نوع من آلات الغناء.

(2) بالعربية مع بعض التحريف خنجل (م. ع).

سألوني: ولكن ألست تحاول أن تمسك بطيختين بيد واحدة؟ وقلت: كلا. لست أحاول ذلك.

عندما أمزج ألواناً شتى في لون واحد فليس يعني ذلك أني آخذ ثمرات مختلفة فأقسمها وأخلطها لأجعل منها سلطة فواكه، ولكني أمزجها حية، أزاوج بينها كما يصنع البستاني العاقل لكي يحصل على نوع جديد من الثمار أو الخضار.

ولا أدري ما سيعطي هذا التنوع في آخر الحساب، ولكن ذلك هو ما يحدث في كل شيء. لا تستطيع أن تتصور كل النتائج التي تترتب على إشعال نار. ولكن ذلك لا يعني أن تخاف إشعال النار في كل مرة، إذن فأنا أحك عود ثقاب وأقربه إلى عود يابس وأحميه من الريح براحة يدي. وتبدأ النار بالحياة. لست أخاف أن تنقلب هذه النار الخجلى، الضعيفة، في هذه اللحظة إلى نار مفترسة لا يمكن أن نسيطر عليها. لا أرى هذا ولذلك فأنا أشعل النار.

لقد نقش الشيخ شامل على سيفه حكمة من حكمه:

«من فكر، قبل المعركة، في نتائجها فليس شجاعاً».

يقولون: سم الأفعى يمكن أن يكون ترياقاً إذا كان في أيد ماهرة، وعسل النحل يمكن أن يكون سماً إذا كان في يدي أحمق.

يقولون: إذا لم تعرف القصص فعليك بالغناء. وإذا لم تعرف الغناء فعليك بالقصة.

الأسلوب

يعرف المغني بصوته.
والصائغ بزخرفته.
(كتبت على قطعة من الحلي في كوباتشي).

ـ لماذا تصرخ بي؟
ـ أنا لا أصرخ. هذه طريقتي في الكلام
(حوار بين رجل وامرأته).

ـ شعرك لا يشبه الشعر.
ـ هذه طريقتي في نظمه.
(حوار بين شاعر وقارئ).

نحن، الصغار، لم يكن مباحاً لنا أن نذهب إلى مجلس القرية[1] الذي كان يضم من هو أكبر منا سناً. كنا نجلس على صخرة كبيرة ونراقبهم من بعيد.

ولاحظنا ذات مرة أن ضيفاً جاء من قرية (آندي) وظل يتكلم ساعة كاملة في المجلس وأن الجماعة[2] كلها كانت تستمع إليه ولا تقاطعه.

---

(1) جود يخان.
(2) الجماعة بالعربية.

وناقشنا الموضوع واقتنعنا أن الجبلي من (آندي) لا بد أن يكون حاملاً أنباء هامة ولولا ذلك لم يصغوا إليه هذا الإصغاء الطويل. وعدت إلى البيت وسألت أبي:

ـ ماذا حمل إليكم ضيف (آندي) من أخبار؟

ـ آه نحن أبناء تسادا سمعنا ما قاله اليوم عشرين مرة أو تزيد، ولكنه يقص في أسلوب جيد يدعونا إلى أن نسمعه حتى المساء. يا له من رجل. مد اللّه في عمره.

في الطريقة: لكل حيوان حيلة، له طريقته في الخلاص من الصياد، ولكل صياد طريقته في مطاردة الحيوان والإمساك به. وكذلك فلكل كاتب طريقته، أسلوبه في العمل. طبعه. كتابته.

عندما دخلت معهد الآداب في موسكو، وكنت فتى شاعراً آنذاك. وقعت في جو لا يمكن أن أعيش فيه. كان كل شيء يلقي عليَّ درساً جديداً، موسكو نفسها، الدروس، الشعراء الكبار الذين يشاركون في مناقشاتنا، الأساتذة، أصدقائي في المعهد وفي البيت، كانت الدروس تسقط فوق رأسي كما يسقط البرد من كل مكان. حتى كدت أضيع، وفي ضياعي جعلت أكتب شعراً في طريقة جديدة، في أسلوب غريب، لم يروا مثله في الأدب الآفاري، ولا أخفي أني كنت حريصاً على أن أرى شعري مترجماً إلى اللغة الروسية. كنت أطير إلى القارئ الروسي وخيل لي أني سأصبح أكثر قرباً منه وصلة به إذا نظمت شعري في هذا الأسلوب الجديد.

وكففت نهائياً عن الاهتمام بموسيقى لغتي القومية، وبأنغام شعرها. كان البناء، والفكر العاري يحتلان المحل الأول. كنت أحاول الوصول إلى طريقة لا مناص لي منها. وكنت في الواقع كما فهمت اليوم ـ أتصيد الوسيلة.

ولكني سرعان ما فهمت أن الشعر والحيلة أمران متناقضان. وفهم أبي الحكيم مقاصدي بادئ بدء. ولم يكد يسمع قصائدي الجديدة حتى أدرك أنني أريد أن أضحي بالخروف كله في سبيل الحصول على أليته، وإني أحاول أن أحرث وأبذر حقلاً من الحجارة لا ينبت شيئاً، مهما سقيته، وإني أطلب المطر دون أن تكون لي سماء.

أدرك أبي ذلك منذ أول وهلة ولكنه كان رجلاً ذكياً وحذراً. وذات يوم ألقى إلي وهو يحاورني بهذه الملاحظة:

ـ يا رسول. يقلقني أني أرى كتابتك تتغير.

ـ يا أبي. لقد أصبحت فتى يافعاً، والكتابة لا تعنى بها إلا في المدرسة. والفتى ينبغي أن يتحمل لامسؤولية الطريقة التي يكتب بها، بل مسؤولية ما يكتب.

ـ قد يكون هذا صحيحاً ينطبق على جندي أو على أمين سر مجلس السوفيات في قرية وهو يحرر شهادات ووثائق أما عند الشاعر فالكتابة والأسلوب هما تماماً نصف مهمته. والقصيدة ينبغي أن تكون جميلة مهما كانت الفكرة التي تعبر عنها مبتكرة. لا جميلة فحسب بل جميلة كما ينبغي أن تكون.

إذا وجد الشاعر أسلوبه فقد وجد شخصيته، إنه عندئذ يصبح شاعراً.

«أنت في عجلة من أمرك. ولكن النبع الصغير الصاخب السريع لا يصل إلى البحر، إن السيل البطيء الهادئ يبتلعه.

«العصفور الذي يبدل أعشاشه دائماً ولا يعرف انتقاء واحد منها يبقى أخيراً دون عش. أليس خيراً لو بنى له عشاً؟ وإذن فهو عندئذ في غير حاجة إلى انتقاء عش من بين الأعشاش».

واليوم وقد جاوزت الأربعين أقف أمام كتبي الأربعين فأقلب صفحاتها وأرى أن في الحقل الذي بذرته قمحاً، نباتات أخرى جاءت من حقول أخرى، نباتات لم أبذرها. قد لا تكون أعشاباً ضارة، بل قد تكون نباتات نافعة. منها الشعير والذرة والشوفان ولكنها تبقى غريبة عن حقلي وعن قمحي.

أرى خرافاً ليست لي بين قطيعي، إنها لا يمكن أن تعتاد أعالي الجبال، هواءها. ألاحظ أحياناً أن في نفسي أشخاصاً آخرين. ولكني أريد أن أكون في هذا الكتاب أنا بالذات.

وسواء أكنت حسناً أم سيئاً فتقبلوني على علاتي.

يذهب الجبلي إلى العرس ويسأل المدعوين الذين سبقوه:

ـ أيكفيكم جمعكم هذا أم أن لي مكاناً بينكم؟

ويجيب الجبليون في العرس:

ـ ادخل إذا كنت أنت أنت.

وها هو ذا كتابي أثبت به أنني أنا أنا.. أريد أن أكون كاتباً لا أن أملأ دور كاتب. انظروا إلى الممثل في المسرح يشرب (الكونياك). ها هو ذا يصبح سكران، يلذعه لسانه، ويرتمي رأسه على صدره. ولكن الزجاجة ليس فيها إلا الشاي بدل (الكونياك) يستحيل أن تثير أعصابك الشاي وأظن أن الذين لم يذوقوا (الكونياك) يوافقون على ذلك.

عندما يدخل الكاتب المسرحي في تمثيليته دور شاعر، فأصعب ما يعانيه أن ينظم قصائد لشخصيته هذه. ولذلك فإن الشاعر في التمثيلية لا يقرأ شعره على الإطلاق. ولكن ما معنى شاعر دون شعر. ما الفرق بينه وبين تمثال مزين في واجهة مخزن.

أنا لا أريد أن أشبه أحداً، لا عمر الخيام ولا بوشكين ولا بيرون.

بعض اللصوص إذا سرقوا بقرة كسروا قرنيها أو قطعوا ذيلها. بعض

اللصوص بعد الاستيلاء على سيارة يصبغونها بلون جديد. ومع ذلك، ورغم كل هذه الحيل تبقى السرقة سرقة.

وأكبر لذة أشعر بها هو أن أسمع القراء يقولون: إن رسولاً كتب كتاباً لرسول. أحب العصافير التي تغرد أكثر من العصافير التي تزعق، أحب العصفور في عنفوان طيرانه أكثر من العصفور الذي ينبش كومة من المزابل. أحب المركب في عرض البحر الأزرق أكثر من المركب الذي يرسو في مرفأ ضيق. انظروا إلى القوارب الخفيفة تتراقص فوق كل موجة، وانظروا إلى المراكب الكبيرة الثقيلة ما أشد ثباتها ورسوخها حتى في أوج العاصفة.

يثير الحمقى الضوضاء ويتنازعون كأنهم سكارى وما هم بسكارى، إنهم لم يشربوا نقطة واحدة من الخمر. أما الحكماء من الناس فهم حتى حين يفرغون في أجوافهم أقداحاً كثيرة من الخمر، يتحدثون في لطف وفي هدوء وفي دم بارد.

يا كتاب رسول! اسلك بين الناس سلوكاً يليق بكتاب رسول.

عندما يدخل ضيف مجهول منزل رجل جبلي، لا يسألونه عن اسمه ولا من أين جاء طوال أيام ثلاثة.

وأنتم تقبلون كتابي دون أن تسألوا ما هو؟ ومن أين جاء؟ ومن هو صاحبه؟ دعوه يتحدث عن نفسه.

لا أريد أن أكون خيراً ولا شراً مما أنا. إذا لم تكن في العشرين من عمرك قوياً فلا تنتظر القوة، بعد ذلك، فهي لن تأتي. وإذا لم تكن في العشرين من عمرك ذكياً، فلا تنتظر الذكاء بعد ذلك، فهو لن يأتي[1].

وإذا لم تكن في الأربعين من عمرك غنياً فلا تنتظر الثروة بعد ذلك فهي لن تأتي أبداً. هكذا يقول المثل الروسي. ويقولون في جبالنا: إذا

(1) كأنه قول الشاعر العربي: إذا بلغ الفتى عشرين عاماً، ولم ينبغ، فليس له نبوغ.

لم يكن الرجل في الأربعين من عمره نسراً فهو لن يطير أبداً. لتدرج عجلتي على طريقي. في قريتي عندما يهطل المطر تنحدر الجداول الكثيرة من الجبل الذي يحتضنها، ثم تتجمع كل هذه الجداول في سفحه وتكون بحيرة من ماء المطر. يخرج منها نهر كبير واحد.

كثير من الدروب الضيقة تنحدر نحو قريتنا من الجبال المحيطة بها، وتذوب كلها في قريتنا كالجداول. ولكن عندما نترك القرية سيراً على الأقدام أو فرساناً لنذهب إلى مركز المنطقة، إلى المدينة، أو إلى العالم الواسع فليس أمامنا إلا طريق عريضة معبدة.

لست أدري بِمَ أشبه نفسي؟ إما بالطريق أو بالنهر. ولكني أعرف أن أفكار أبناء وطني، كلمات أبناء وطني، مشاعر أهل وطني قد تجمعت في نفسي كما تجمعت جداول الجبل ودروبه الملتوية. أما طريقي الخاصة، دربي الخاص فقد قادني من القرية إلى الشعر.

زرت كثيراً من زوايا العالم، زرت كثيراً من البلدان، لاقيت كثيراً من الناس. وحدث أني حضرت حفلات استقبال فخمة عند رؤساء وملوك، أو رؤساء وزارات أو وزراء أو سفراء! ما أكثر ما لمعت الأحذية والصلعات في هذه الحفلات! ما أكثر ما عقدت ربطات العنق في أناقة!ما أشد ما تألقت ياقات القمصان! ما أشد ما في التحيات والابتسامات من تهذيب! ما أدق ما حظيت به كل كلمة وكل حركة من تفكير!

في حفلات الاستقبال هذه يبدو الفنانون كأنهم رؤساء وزارات، ورؤساء الوزراء كأنهم فنانون.

لم أكن في يوم من الأيام، خلال هذه الحفلات ما أنا عليه حقاً. كنت أتصنع حركات لا أريدها، وأقول كلمات لا أرغب فيها. وفي أضواء هذه الحفلات كنت أرى بيتي في تسادا فجأة وأرى أهلي يتحلقون حول النار، أو أرى أصدقائي المرحين يتجمعون في غرفة من غرف

الفندق. وأحس عندئذ بالرغبة في أكل (الخانكالي)[1] بالثوم بدلاً من كل هذه المآكل القادمة من وراء البحار. آه ما أطيب أن تجلس أمام النار، بين أصدقائك، وأن تقلب أكمام قميصك وتلتهم (الخانكالي) بالثوم حتى يسيل الدهن من بين يديك.

بعض الكتب تبدو وكأنها في حفلة استقبال سياسية، تخلو من حرية الحركة، من حرية المظهر من حرية الكلمة.

أيمكن أن تكون يا كتابي غير مدعو إلى حفلة رسمية، أيمكن أن تنقل الكلمات التي تناسب طبيعتك وحدها، لا تلك الكلمات التي يجب أن تقال في المجاملات.

رأيت أناساً يظلون ما داموا في بيوتهم، بين أسرتهم مع نسائهم، مع أولادهم، مع أصدقائهم، أناساً مثل سائر الناس. ولكن ها هم أولئك يتربعون في مقعدهم في مكتب، في دائرة، وإذا هم جفاة غلاظ خبثاء، كأنما حل محلهم ناس آخرون. طباعهم، طريقتهم في العيش، وجوههم، تتغير كلها في كل منصب جديد، في كل مقعد جديد.

أيمكن يا كتابي أن تظل كما كنت راسخاً، فلا تغير طبعك ولا أحذف فيك نفسي. أحب أصدقائي ودخان بيتي، لا حفلات الاستقبال الطنانة، أحب الحقول لا ندوات الشعر، أصغي إلى نداء الأرض لا إلى ضوضاء الاجتماعات. كثيراً ما يحدث أن يقال في اجتماع شيء، وأن يقال بعد انتهاء الاجتماع شيء آخر.

من دفتر المذكرات: أي داغستاني لا يعرف (البابابخا)[2] الضخمة (باباخا) سليمان ستالسكي، وقرونها الثقيلة التي صنعت من جلود الأغنام ذات الرائحة، و(شركسييه)[3] الخفيفين المصنوعين من جلد الخروف.

---

(1) طعام يصنع من اللحم والثوم والتوابل.

(2) قبعة من الفراء.

(3) نوع من الأحذية في الجبل من الجلد غير المدبوغ.

أعتقد أن أهل داغستان ليسوا وحدهم هم الذين لا يستطيعون أن يتصوروا سليمان دون (باباخا) ودون (شركسية).

وفجأة ها هو ذا سليمان وقد أصبح يحمل وساماً. مكسيم غوركي قال: إنه هوميروس القرن العشرين. ودعي سليمان إلى موسكو: وفي موسكو قابل وزيراً داغستانياً. وقال الوزير للشاعر:

ـ إيه إيه يا عزيزي سليمان. لا يمكن أن تسلك في موسكو كما تسلك في قريتك. يجب أن تلبس هنداماً مناسباً.

وبناء على طلب من الحكومة الداغستانية صنعت لسليمان بزة رسمية، وجيء له بزوج من الأحذية، وقبعة ذات غطاء للأذنين، ومعطف شتوي له فرو من أستراخان. وفحص سليمان كل قطعة على حدة وراز المعطف ونظر إلى كعبي الحذاء وضرب إحداهما بالأخرى، ثم كوم هذه الأشياء جميعاً كما اتفق وألقاها في حقيبته.

شكراً لكم. إنها أشياء جيدة جديدة ومن صنف متين. إنها تصلح لولدي مصعب، أما أنا فأريد أن أبقى سليمان. لا أريد أن أغير اسمي لقاء بزة ولا لقاء حذاء.

شركسيتي تغضب علي.

كان والدي يعجب كثيراً بتمسك سليمان حتى بهذه المظاهر الخارجية من الأصالة.

من دفتر المذكرات: لقد حاول أبناء سليمان ستالسكي مراراً تعليمه القراءة والكتابة، وكان سليمان يكب على التعليم في جد، ولكنه لا يلبث أن يدفع بالورقة ويقول:

ـ كلا يا أولادي، عندما أمسك بالقلم تهرب مني القصائد، وذلك لأني عندئذ لا أفكر في القصائد، وإنما أفكر في طريقة الإمساك بهذا القلم اللعين.

من دفتر المذكرات: كان أفندي كابييف صديقاً لسليمان ستالسكي، وهو الذي ترجم أشعاره إلى اللغة الروسية. وكانت هذه الصداقة مثار حسد في نفوس بعض الناس المساكين. وحاولوا أن يغضوا من أفندي كابييف في عيني الشاعر الشهير أن يدسوا عليه، وقالوا لسليمان:

ـ أنت لا تقرأ اللغة الروسية، ولكننا نحن نعرف أن أفندي كابييف يفسد أشعارك عندما يترجمها. يزيد فيها ما يشاء، ويحذف منها ما يشاء، ويصوغ بعضها تماماً حسب طريقته.

وذات يوم في حوار هادئ قال سليمان لأفندي.

ـ يا صديقي. قيل لي إنك تضرب أولادي. وفهم أفندي رأساً موضوع الحديث:

ـ ليست أشعارك أولادك يا سليمان. إن قصائدك هي أنت نفسك.

ـ إذن فأنا أستحق وأنا عجوز احتراماً أكثر مما يستحقه الأطفال.

ـ ما الذي تراه أكثر قيمة في نظرك؟: أعدد أبيات القصائد أم أسلوبها؟ روح قصائدك؟ أمامنا زجاجة خمر. ولنفرض أنها تعرضت للهواء وفسدت. سيكون لدينا تقريباً كمية مماثلة من الخمر، ولكنها لن تكون خمرتنا نفسها، خمرتنا هذه التي نشربها الآن. والتي نتمطق ونتلمظ بها. المسألة ليست مسألة كمية الخمر، ولكن مسألة نكهتها مذاقها، حمياها.

ـ أنت على صواب. ذلك هو المهم.

والحق أن أفندي كابييف كان يقدم إلى القارئ الروسي على هذا النحو أشعار سليمان ستالسكي.

من دفتر المذكرات: قال لي أفندي كابييف شاكياً: لا أستطيع قط أن أجد مفتاح شعر أبيك (لقد ترجم أيضاً إلى الروسية أشعار حمزة تساداسا). إن لأبيك قفلاً خاصاً. تظن أنه يضحك، ولكنه في الواقع حزين، وتظن أنه يرثي، ولكنه في الواقع يمزح ويسخر. تظن أنه ينتهر

ولكنه في الواقع يمتدح. أفهم كل ذلك ولكني لا أستطيع أن أنقله إلى اللغة الروسية. يمكن أن أنقل أفكاره الشعرية ومعاني قصائده ولكني في حاجة إلى حمزة الحي كما نعرفه. هكذا يجب أن يعرفه من يقرأ له في اللغة الروسية. يبدو وكأنه يشبه الناس جميعاً وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يشابه أحداً. هكذا يجب أن يكون الشعر.

ذكريات: أنا اليوم معروف في قريتي بالشاعر رسول حمزة. ولكن كم مرت أيام يعتبرني فيها أبناء قريتي شخصاً لا يصلح لشيء عندما أفعل شيئاً أفكر في شيء آخر. وهكذا فأنا ألبس قميصي وأجعل صدره قفاه وأزر معطفي زراً مكان زر، وأخرج هكذا إلى الشارع، لا أربط شرائط حذائي، فإذا ربطتها فسرعان ما تنحل عراها. ويقولون عني:

كيف حدث أن يكون لمثل هذا الأب النظيف، المعروف بعنايته بهندامه وبهدوئه واتزانه مثل هذا الولد المضطرب الأخرق!؟ من منهما أكبر سناً وأكثر شباباً: أذلك الذي ينسى أن يربط شرائط حذائه أم هذا الذي لا ينسى شيئاً؟

وأسمع هذه الأحكام الشائكة وأجيب:

ـ نعم لقد أخذت من أبي شيخوخته وأعطيته شبابي.

والحق أن والدي بقي إلى أخريات أيامه متميزاً، مستقيم العود، كأنه شاب كان في مظهره الخارجي كما كان في أعماق روحه منظماً تنظيماً جيداً، متزناً واضحاً. كل الناس في القرية يعرفون الساعات بل الدقائق التي يلبس فيها معطفه ويصعد إلى البيت. ويمكنهم أن يطمئنوا إلى تصحيح ساعاتهم عند ظهور والدي على سطح منزله. كتب أحد شبابنا وكان يؤدي خدمته العسكرية إلى أهله «نحن نستيقظ في قطعتنا مبكرين، يوقظوننا تماماً في الساعة التي اعتاد فيها حمزة الصعود على سطحه».

وعندما كانوا يريدون مقابلة حمزة في الصباح فهم يعرفون الساعة والدقيقة اللتين يلاقونه فيها وهو في طريقه إلى (خنزاخ) كان يترك دائماً منزله في الوقت نفسه ليذهب إلى عمله.

كان الناس يعرفون كل شيء عنه: يعرفون المكان الذي يذهب إليه يقود فرسه برسنه قبل أن يمتطي صهوته، يعرفون قميصه البسيط الأسود، سروال الفارس الذي يلبسه، وحذاءيه اللذين صنعهما بيديه ويمسحهما كل صباح بيديه. يعرفون حزامه ولحيته المقصوصة في عناية دون أن تحلق قط و(البباباخا) التي يعتمرها في شكل معين قاس.

وكانت جانبا هذه (البباباخا) من «الأستراخان» مزرورين دون ضيق ولا سعة.

كان والدي شخصاً له خصوصياته وأصالته. كل ما كان يلبسه وكل ما كان يصنعه يليق به في شكل عجيب. ومن العسير أن نتصور أن شيئاً آخر من غير حمزة موجود في ثيابه وتصرفاته وسلوكه.

وكان هو نفسه لا يحب التغيير. عندما يهترئ ثوب ويتوجب عليه أن يشتري آخر، يصنع مثله تماماً على المقاييس نفسها، وعند الخياط نفسه، ومع ذلك يبقى عدة أيام منزعجاً وقلقاً في ثوبه الجديد.

وحدث مرة أن استسلم للزمان حزامه فاهترأ ولم يكن سهلاً عليه أن يشتري حزاماً جديداً ولكن حمزة رقع حزامه المألوف في عناية بالغة واستعمله زمناً آخر. لم يكن بخيلاً، وكان ذا مال، ولكنه يوجع قلبه أن ينفصل عن الأشياء التي اعتاد عليها وألفها. وأخيراً تمزق حزامه مرة أخرى واضطر إلى شراء حزام آخر. ومع ذلك فقد نقل إلى الحزام الجديد حلقة الحديد من الحزام القديم.

كان يداعب (باباخاه) كما يداعب حملاً حياً. وعلينا أن نتصور درجة حرصه على (باباخاه) من قدر حرصه على حزامه.

وفي بدء الحرب العالمية في صيف 1941 أصرت حكومة داغستان على والدي ليستقر في (ماخاتشاكالا). وظهرت له العاصمة حارة خانقة بعد رطوبة الجبال العالية.

والثياب التي أعدت للجبال أصبحت لا تطاق في جو المدينة القائظ، وخاصة (البباباخا) وجرب والدي أن يلبس قبعات من مختلف الأنواع

ولكنها كانت كلها تبدل من مظهر حمزة فيلقي بها بعيداً رغم كل ما نبذله من جهد لإقناعه.

حتى كارثة الحرب يمكن أن تصبح شيئاً مألوفاً عنده لقد جرت الحياة في الحرب، مجرى جديداً، وكان والدي يمضي في طريق الجبل حيناً بعد حين.

ما أطيب الحرية التي كان يستنشق فيها نسيم الجبال! وما أبدع اللذة التي كان يعود فيها إلى لبس (باباخاه)! كل ما فيه يوحي إليك أنه مثل مدخن حرموا عليه الدخان تحريماً قاطعاً أو لم يكن معه تبغ، وها هو ذا فجأة يصبح قادراً على أن يلف لفافة من تبغ قوي ذي رائحة عطرة، وأن يشعلها في بطء بل في عبادة، وأن يستنشق في مثل ذلك العمق وهذا البطء وتلك العبادة دخان لفافته.

لم يدخن أبي طوال حياته، ولكنه كان يجد مثل لذة التدخين (بل أكثر من لذّاتها) في ألف شيء من الأشياء الصغيرة في الحياة دون أن نتحدث طبعاً عن أفراحه الكبرى فرحة الخلق ولذة حب الوطن وتراب المهد.

من دفتر مذكرات والدي: «رجب صديقي ولكنه عاملني معاملة عدو. لقد حالف موسى الحلاقة ليعمل ضدي»، ما كتبه والدي في دفتر مذكراته. وإليكم الحادث: في عام 1934 سافر أبي إلى موسكو ليشهد المؤتمر الأول للكتاب السوفيات. وكان الكاتب الآفاري رجب دنها جومايف لا يزال حياً في تلك الفترة. ونجح في أخذ والدي إلى حلاق لكي يسوي شيئاً من شعره ولحيته.

هل دبر رجب الأمر أو أن الحلاق لم يفهم ما طلب منه؟ وكانت النتيجة أن والدي وجد نفسه دون شعرة في لحيته البيضاء، هذه اللحية التي لم تمسها الموسى قط. وعندما أدرك ما حدث كان قد فات ما فات. وعندما رأى في المرآة هذا الوجه المجهول بل الغريب عنه صرخ

صرخة، وغطى وجهه بيديه وهرب من الدكان. ولم يُر مطلقاً في جلسات المؤتمر، ولم يجرؤ على الظهور أمام الناس.

وقال والدي بعد ذلك: إذا كنت لم أستطع أن أخون وجهي في حياتي فكيف أستطيع أن أخونه في أشعاري؟!

لم يكن والدي يحب الدقة المفرطة في حياته، كما لم يكن يحبها في شعره. ومع ذلك فقد وطَّن نفسه مرة على موقف غير طبيعي كان غريباً عنه.

أتذكر ذلك: ذهب بعض المواطنين في قريتنا لزيارة والدي في (ماخاتشكالا). وحدثهم حمزة تساداسا وهو يسند ذقنه إلى ثلاثة أصابع من يده. ولاحظ أحد الفلاحين ذلك فقال له:

ـ لم نلاحظ قط أنك تعتمد على ثلاثة أصابع في الإمساك بذقنك. أتراك اكتسبت هذه العادة من زمن بعيد ولماذا؟ ذلك لا يليق بك. ليست تلك عادتك يا حمزة.

أجاب والدي:

ـ أنت على حق، ويجب أن أتخلص من هذه العادة. لقد كانت خطيئة الرسام محي الدين جمال. صنع لي صورة في ثلاثة أشهر كاملة. ثلاثة أشهر كاملة جلست أمامه دون حراك، وأنا أمسك ذقني بأصابع ثلاثة. هكذا قرر الفنان وكان علي أن أطيعه.

ـ ذلك عسير.

ـ كلا ليس عسيراً أن تجلس، ولكن هذا الوضع هو الصعب.

شعرت أحياناً أن هذه الأصابع التي تسند ذقني ليست لي. وأحياناً أتصور أن الذقن التي تدعمها هذه الأصابع الثلاثة ليست ذقني.

وهكذا كان يحدث كل يوم خلال أشهر ثلاثة حتى اعتدت ذلك شيئاً بعد شيء. وانتهت الجلسات وانتهت اللوحة بل علقت على الحائط أما أنا فظللت أمسك ذقني بأصابعي. إن المصابين بقلوبهم يضعون أيديهم

على قلوبهم حتى حين لا تؤلمهم هذه القلوب. ولكن لا تقلقوا سأحاول التخلص من هذه العادة.

من دفتر مذكرات والدي: قص علينا حمزة كيف وضعوا أسناناً اصطناعية. سأل الطبيب حمزة عن نوع الأسنان التي يفضلها: أسنان من ذهب أو من فضة أو من فولاذ. وتحير حمزة وأشار بعينيه إلى أصدقائه حوله يستشيرهم بحثاً عن رأي يعتمد عليه؛ وقال أحدهم:

ـ ضع أسناناً من ذهب. الذهب معدن ثمين، وقال الثاني:

ـ ضع أسناناً من فولاذ. الفولاذ معدن متين، لا يهترئ قط. واعترض حمزة قائلاً:

ـ وما نتيجة ذلك؟ لو عدت إلى القرية بأسنان من ذهب أو فولاذ لنظر إليَّ الناس وكأنَّ في فمي مشاعل، ولن يتطلع الناس إلي ولكنهم سوف يتطلعون إلى وجهي. ولسوف تكسف الأسنان الصناعية وجهي. ألا يمكن أن تصنع لي أسناناً من عظام كيلا يلاحظ أحد أن لي أسناناً جديدة؟ أنا موافق على الأسنان التي لا تلفت الأنظار.

وقام طبيب الأسنان بعمل ما طلبه حمزة، ومنذ ذلك اليوم كان والدي إذا لاحظ في شعر شاعر جملاً غريبة أو جملاً مقتبسة من شاعر آخر قال:

ـ تلك هي الأسنان الاصطناعية بدأت تلمع. حقاً إنك تستطيع أن تقضم تفاحة بأسنان من ذهب ولكني أقسم أنك لا تقضمها بالطرقة التي تقضمها بها بأسنانك، ولن تجد فيها المذاق ولا العصير اللذين تجدهما فيها إذا قضمتها بأسنانك.

أتذكر: عام 1947، أقيمت حفلة فاخرة في مسرح ماخاتشكالا: كانوا يحتلفون بوالدي (حمزة تساداسا) بمناسبة عيد ميلاده السبعين. كان هنالك كثير من الخطب وكثير من التمنيات ومن القصائد والهدايا. وأخيراً جاء دور حمزة في الكلام. وصعد حمزة على المنبر، وسحب من جيبه الداخلي ـ دون استعجال ـ ورقة فيها قصيدة نظمها من أجل

هذه المناسبة، وبحث في جيب آخر ـ دون استعجال عن نظارتيه. . ولكن حركات والدي الهادئة أصبحت أكثر عصبية. . . ومد يده إلى جيب بعد جيب، وعرف الناس أن بطل العيد نسي نظارتيه في البيت.

وأرسلوا فوراً أحد الشباب للبحث عن النظارتين ولكن حمزة كان ما يزال على المنبر، عندئذ أعاره أبو طالب، وهو صديق حمزة، نظارتيه. وأخذ حمزة نظارتي أبي طالب وبدأ يقرأ قصيدته.

ولكن صوته ووضعه كليهما كان ينقصهما الثقة والطمأنينة، كان فيهما شيء من الخجل الغريب. حتى خيل للناس أن أبي يقرأ قصيدة يراها أول مرة، قصيدة ليست له، قصيدة لشاعر آخر.

وعندما بدأ بتلاوة قصيدة ثانية، كان الشاب الذي ذهب للبحث عن نظارتيه قد عاد يحملها إليه وهو يجري في القاعة جرياً. وترك حمزة نظارتي أبي طالب ووضع نظارتيه، واعتدل وضعه اعتدالاً واضحاً. وبدأت القاعة كلها تصفق له كأن حمزة صعد الآن فقط إلى المنبر وكأنه كان من قبل شخصاً آخر يشبهه.

وقال حمزة: ـ وهو يضحك ـ كادت النظارتان تفسدان عليّ عيدي.

وسأله أبو طالب في صوت عال:

ـ ولماذا؟ هل نظارتي أقل جودة من نظارتيك؟

ـ بل هي جيدة جداً ولكنها ليست نظارتي. كل إنسان له عيونه، ويجب أن تكون له أيضاً نظارتاه.

كان أبي لا يحب ما هو منير إنارة تبهر العيون، ولا ما هو مظلم ظلمة لا تخترقها العيون، لا يحب كل ما هو سميك جداً ولا ما هو مائع جداً، ما هو شديد الحرارة وما هو شديد البرودة، ما هو غال غلاء فاحشاً وما هو رخيص جد رخيص، ما هو كثير التحفظ والجمود وما هو كثير التقدم والبروز. لا يحب وحشية الذئب ولا ضعف الأرنب، ولا إرهاب السلطة ولا الخضوع الذليل.

كان يقول:

لا تكن صلباً فتكسر ولا تكن مائعاً كالخرقة فتعصر. لم يكن ممن تبله قطرة مطر، ولا تجففه نسمة. كان عاملاً من العمال تحيا في نفسه كل ما في شعبه من عادات وصفات يحملها في وقار وجدارة.

أتذكر: كان على والدي وعليَّ ذات يوم أن نسافر إلى القرية لعيادة قريب مريض هو عبد الرحمن دانيالوف الذي كان رئيس الحكومة الداغستانية. وعلم بعزمنا على عيادته فأرسل إلينا سيارة سوداء من سيارات الرئاسة، أعتقد أنها (زيم).

كان والدي على خير ما يرام ما دمنا نجول في شوارع عاصمة داغستان. ولم نكد نخرج من المدينة ونصادف في طريقنا أبناء الجبل يركبون حميرهم وبغالهم أو خيولهم، أو يمشون على أقدامهم، حتى جعل والدي يتململ في مركبه الفخم النفيس. أما أنا، وكنت شاباً أحب الظهور. قدر ما أستطيع ـ أن ألصق وجهي بزجاج النافذة لكي يراني الناس جميعاً في هذه السيارة، بينما كان والدي ينزوي في أعماقها قدر ما يستطيع.

كان المطر يهطل، وعندما بلغنا نهر غوتزالتين رأينا شيخاً يركب عربته، وقد حبسه السيل في تياره، وأوقف والدي السيارة فوراً، وخاض في النهر وجعل يساعد العجوز، وظلا معاً يشجعان البقرتين، ويدفعان الدولابين. واجتازت العربة النهر وبلغت الطريق. واستأنفنا سيرنا. وبعد بضعة كيلومترات بلغنا نهراً آخر وأوقف والدي السيارة وظللنا ننتظر العجوز وعربته.

ـ ستتوقف العربة حتماً هنا، وأنا أعرف كيف أمكن البقرتين من اجتياز النهر سأنتظر العجوز.

والواقع أننا انتظرنا حتى وصلت العربة وهي تصرصر إلى النهر الثاني، واجتاز والدي النهر بالبقرتين في مهارة بالغة.

وقال والدي وهو يعود إلى السيارة ويمسح يديه بأطراف ثيابه:

ـ طالما وقعت في مثل هذه المآزق، وأنا أحمل أثقالاً من (البونياك) في الجبال.

ثم نظر إلى العربة نظرة حزينة وهو يراها تجري ويجري معها ماضيه كله، حياته كلها.

ولم نكد نبلغ الشاطئ الذي يؤدي إلى سهل (كنزاخ) حتى ضربتنا سيارة شاحنة وكسرت إحدى عجلات السيارة. وسر والدي بالحادث، فمضى إلى القرية سيراً على الأقدام، رغم كل ما بذلناه لنقنعه بانتظار تعديل العجلة في وقت قليل، وكأنه لا يريد أن يستمع إلينا.

ـ أخجل من دخول القرية في مثل هذه السيارة الفاخرة حتى لو كنت مدعواً إلى حفلة زفاف. فكيف لا تكون هذه الفخامة أقل جدوى حين أدخل القرية لعيادة صديق مريض. كلا. أنا مسرور لأن السيارة انكسرت. وسأمضي سيراً على قدميَّ.

ومضى في دربه المألوف الذي يعرفه منذ الطفولة والذي سارت عليه أجيال لا تحصى من سكان الجبل لتذهب إلى قريتنا. وأصلحنا العجلة وسرنا في الطريق العام. وبلغنا القرية في الوقت الذي بلغها فيه والدي.

وبعد زمن علم عبد الرحمن دانيالوف بما حدث وقلق فسأل والدي عن الحادثة فقال له وهو يضحك:

حقاً لقد كانت سيارة جد جميلة. لو كانت أقل حسناً لم يصبها شيء.

أتذكر:

في السنوات الأخيرة من حياته كان أبي مريضاً مرضاً شديداً. فاجأه المرض وهو في إحدى رحلاته في الجبال، يقوم بالاتصال بالناخبين.

كانت الانتخابات لمجلس السوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تقترب وكان حمزة تساداسا مرشحاً لها.

وبعد أن قطع حمزة بالسيارة الطريق إلى مركز المقاطعة كان عليه أن يركب حصاناً لكي يصل إلى قرى الجبل. كان والدي يحب الخيول

الهادئة الساكنة. وكان عادة يسير على قدميه وهو يجر لجام فرسه. كان في الحقيقة يفضل السير على قدميه.

واهتمت السلطات المحلية بنائب المستقبل وأرسلت إليه فرس سباق فتياً جم النشاط. ليس في هذا الكلام عتاب لتلك السلطات فقد أرادت أن تفعل كل ما تستطيع من خير. فمن أجل ضيف عزيز لا يجوز أن يعطى إلا أفضل فرس في المقاطعة.

ولم يرغب الشيخ في رد هدية مضيفيه، ورغم سنواته الحادية والسبعين قفز على سرج الحصان في عناد كما كان يقفز في عز شبابه. وبدا الشاعر ذو اللحية البيضاء وقد أحاط به الشباب على الخيول وكأنه إمام يحيط به نوابه.

وضرب الشباب بالسياط خيولهم فمضت بهم تعدو في دروب مختلفة تؤدي إلى قرى مختلفة لكي يذيعوا نبأ وصول حمزة.

وأصاب فرس حمزة عدوى الحماسة العامة فانطلق يعدو به. ولم يستطع العجوز إيقاف حصانه وبدأ سباق مجنون وشعر حمزة أن حالته تزداد سوءاً، وقد هزته الحركة هزاً شديداً وأخيراً وقع عن سرجه وعاد مريضاً إلى ماخاتشكالا، ولم يتركه مرضه هذا حتى قضى عليه بالموت.

قال لي ذات يوم وهو يسعل:

ـ مثل هذا يحدث في الشعر. على الشاعر أن يركب حصانه المألوف لا فرس سباق مجهولاً، إن فرس السباق الغريب يزل بك عن صهوته.

أستطيع أن أتحدث حديثاً مطولاً عن والدي ولكني أريد أن أقص بعض ما يتعلق بصديقه أبي طالب، لقد قضيت البارحة كلها في رفقته.

يوم مع أبي طالب: أصعب ما علي أن أعود إلى نظم قصيدة لم أتمها في وقتها لسبب من الأسباب، وها أنا ذا أسحب عليها من جديد لأنتهي منها. الجبليون يقولون إن الضفدعة بقيت دون ذنب لأنها أرجأت إلى الغد العملية التي تؤدي إلى وضع ذنبها في مكانه.

في الصباح قررت أن أنهي قصيدة طويلة شرعت فيها منذ أسبوعين. كان العمل الذي ينتظرني صعباً، وقلت للمشرفة على البيت (فروسيا):

ـ إذا سأل عني أحد فقولي إني لست موجوداً. ومن كانت له حاجة فيستطيع أن يعود بعد الظهر.

وأخذت عدتي للعمل وصعدت إلى مكتبي، وشرعت أعمل. كانت جلبة الشارع تبلغني وسمعت صرير الباب الكبير. ثم قرع الجرس. ولم أسمع صوت (فروسيا) ولكن بلغني صوت أبي طالب.

وشعرت أن الكرسي تحتي يتحول إلى مدفأة ملتهبة، أو إلى كومة من الأشواك، لم يحدث أبداً أن أبا طالب وجد باب حمزة تساداسا موصداً في وجهه، أو باب رسول حمزة، وها هو ذا يدير ظهره إلى عتبة الباب ويمضي. لم يحدث هذا قط ولا يجوز أن يحدث.

ووجدتني في وضع حرج: أنا لا أستطيع أن أتركه يمضي من جهة، ولا أستطيع من جهة أخرى أن أخون (فروسيا) لأنها نفذت بأمانة ما طلبته منها حين قالت لأبي طالب إنني غير موجود، وإنني سأعود بعد الظهر.

واتبعت نصيحة قلبي وتركت نصيحة عقلي، وأطللت من النافذة وناديت صديق أبي الكبير:

ـ ادخل يا أبا طالب. أنا هنا.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم. أمن الممكن أن يختبئ ولد حمزة تسادا عن عيون أصحاب الديون؟ وألقى أبو طالب بقلبقه ونظر شزراً إلى فروسيا ثم تابع:

ـ قل لهذه المرأة يا رسول إن الأبواب تفتح تلقائياً حين يزور أبو طالب هذا البيت، وإنك تكون دائماً هنا حين أجيء. وحتى حين لا تكون موجوداً ففي البيت ما يشربه أبو طالب وما يأكله، بل إن فيه سريراً ينام عليه أبو طالب حين يريد.

ـ ليس الخطأ خطأ فروسيا. عندما ذهبت فاطمة إلى العمل أوصت فروسيا أن تعلن لمن يزورني أني لست في البيت. إنها تعنى بصحتي.

ـ ما أحسن أن يكون لنا امرأة تلقي أوزارنا على أكتافها. ولكن هل نسيت فاطمة أن يومنا هذا هو يوم الخميس. دمدم ذلك أبو طالب وهو يعبث بقلبقه ذي الريش المبلول.

ـ وبم يتميز يوم الخميس عن سواه من الأيام؟

ـ إنه اليوم الذي أذهب فيه إلى الحمامات. ألم تلاحظ أنني أذهب إليها كل خميس، ولما كانت حمامات البخار قريبة من بيتك فعليك دائماً أن تتوقع زيارتي لك وجلوسي عندك لحظة نتحدث وندخن.

ـ وما حاجتك إلى الحمامات يا أبا طالب؟ عندك حمام في بيتك وماء ساخن.

ـ المغطس أو (الدوش) قطعة خبز أسود. أما حمامات البخار فوليمة. عندي بستان وجدول يجري من الجبل منذ ألوف السنين. جعلته يحيط بكل شجراتي ويسقيها. أيمكن أن أسقي كل أشجاري بسطل ماء أو برشاش. أقول لك إن الحمامات هي الجدول الغزير الجبلي، وإن مغطسي هو الرشاش. لا يا رسول، دع هذه الدمى دمى الأطفال لشاعر الأطفال نور الدين يوسف. يبدو أنه يصنع حواراً للدمى. وذلك حقاً ما يصلح له وللدمى التي يصنعها.

ومضينا إلى غرفة الجلوس وعرضت على أبي طالب:

ـ أفضل أن تشرب كأس شاي بعد الحمام.

ـ واللّه إني أريد الشاي ولم لا؟ وباللّه إن الحساء ليس أقل جودة، وباللّه إن كأس خمر ليست كثيرة. ولكن خير ما يشرب بعد الحمام كأس من الفودكا الخالصة.

ـ أما الحساء فعندنا منه ما شئت ولكنه صنع أمس، نحن الآن في وقت مبكر، ولم يحن صنع حساء جديد.

ـ نبتدئ بحساء أمس، وخلال ذلك يجد الحساء الجديد وقتاً لطبخه.
وبينما كانت فروسيا منهمكة حول المائدة كنت أتبجح بألوان المشروبات الغربية المختلفة.

كنت في أسفاري الكثيرة حريصاً على جلب زجاجات جميلة من مختلف الألوان، من الروم والكونياك والجن والويسكي والكالفادوس، والأبسنت والفيروموس والسليفوفنيسا، ونبيذ هنغاريا. وكان الكونياك نفسه من أجناس مختلفة من المارتان والكامو. . . وقلت: اختر ما تشاء منها يا أبا طالب.

ـ خذ كنوزك هذه كلها يا رسول وأعطني فودكا عادية، الفودكا ذات الرأس الأبيض[1] للرأس الأبيض مزاياه: ذلك أننا لسنا نعرفه فحسب، بل إنه هو أيضاً يعرفنا، كل ما أريتنيه قد يكون طيباً ولكن كل هذه القناني جاءت من بعيد، إنها تتكلم بلغة أنا لا أعرفها، وأنا أتكلم بلغة هي لا تفهمها. والعادات والصفات. كلا نحن لا نتآلف ولا نتعارف. إنها تشبه ضيوفاً لا تعرفهم وأنت مضطر إلى الحديث معهم بادئ بدء، إلى معرفتهم، إلى أن تأكل معهم على الأقل قليلاً من الملح «مثل أو تضمين» أخشى ألا نتفاهم مع زجاجتك. دعها لأصدقائك، لكتاب موسكو. دعها لأولئك الذين نسوا طعم الطعام الذي تعده أمك على الموقد في بيت أسرتك.

لم يكن في مجموعتي زجاجة واحدة من الفودكا ذات الرأس الأبيض. وجعلت أصطنع حركات الرجل الذي يستعد للخروج من بيته ليشتري شيئاً من المخزن في السوق، آملاً أن يستبقيني أبو طالب في البيت ويقنعني بعدم الخروج: كان المطر يهطل، وكانت الريح باردة، وعندي في البيت كل هذه الأنواع من المشروبات. ثم أن يطلب الفودكا وعلى المائدة أطيب أنواع الكونياك الفرنسي، حقاً إن ذلك دلال.

---

(1) زجاجة فودكا «ستولتشنايا» مختومة بشمع أبيض (الرأي المدعم).

والواقع أن أبا طالب حاول أن يثنيني عن عزمي:

ـ كلا يا رسول. لا شك أنك شاب رغم شعرك الأبيض. ولكن لماذا تخرج أنت لتشتري فودكا؟ أليس عندك من هو أصغر منك سناً؟

اذهب إلى الباحة واطلب من أحد أولاد الجيران أن يذهب ليشتري لك هذه الزجاجة. أما أنا فلست مستعجلاً، وسأنتظر عودته في سرور.

وفعلت ما قاله أبو طالب. أعطيت ابن الجيران دراهم ومضى يقفز إلى المخزن. وكان أبو طالب ينقب عما حوله بعينيه.

ـ الظاهر أن ليس عندك ضيوف من الجبل.

أمن الممكن ألا يكون لديك واحد على أقل تقدير.

ـ ما عندي اليوم منهم أحد.

ـ عندما كان حمزة صديقي وأبوك حياً كان الضيوف يملأون البيت كل يوم.

ما أحسن الضيوف. إنهم دائماً يحملون علب دخان في عبهم.

ـ وأنا عندي دخان. وأخرجت من الجرار أنواعاً من التبغ.

ـ هذه العصي الملس البيض ليست لي. دع هذا التبغ لأهل موسكو. أما التبغ الوحيد الذي يدخل على قلبي السرور فهو تبغ جبالنا. أنا مضطر إلى أن أخرج علبتي.

وسحب أبو طالب من عبِّه علبَة تبغ ضخمة، وفتحها وبحث في أعماقها عما يمكنه من صنع لفافة، ثم لفها بيد معلم صناع، وألصقها بضربة من لسانه.

ـ أيمكن أن نقارن هذه السيجارة بعصيك البيض الملس؟ إن سيجارتي لها وجهها الخاص وهي لا تشبه إلا نفسها، أما سجائرك فيشبه بعضها بعضاً. والآن قل لي: أيهما أدعى إلى السرور: أن تسحب من علبة السجاير سيجارة جاهزة أو أن تلف بيديك سيجارة مثل هذه التي بين يدي؟ أتعلم أني أحس وأنا ألفها بسرور بالغ. إذن فلمَ تريد أن تحرمني هذا السرور؟

وأشعلت عود ثقاب من سويسرا أو بلجيكا، ولكن أبا طالب أزاح يدي التي تمسك بالنار، وأخرج من جيبه قطعة من الفولاذ وحجراً من الصوان وفتيلاً. ووضع نهاية الفتيل على الحجر وبضربة واحدة تطاير الشرر من الفولاذ، وحرك الفتيل ليشتعل ويشعل منه سيجارته. وقرب من فمي الفتيل المشتعل:

ـ شم هذه الرائحة الطيبة. أليس كذلك؟ وثقابك ما هي رائحته؟

وغاب أبو طالب بعد لحظة في غيمة من الدخان، ثم انقشع الدخان قليلاً وسألني أبو طالب:

ـ قل لي يا رسول. لماذا ابيضّ شعرك منذ اليوم؟

ـ لا أعرف يا أبا طالب.

ـ أما أنا فأعرف لماذا شاب شعري.

ـ احك لي حكايته.

ـ لقد ابيضّ شعر رأسي لأن عليَّ أن أنتظر دائماً هؤلاء الأولاد الملاعين الذين يذهبون إلى الحانوت ليأتوا بالفودكا ثم يتأخرون. نعم يا رسول. الأولاد لا يفهمون عذاب الآباء ما داموا هم أنفسهم لم يأتوا بأولاد.

وينطبق هذا نفسه على من لا يشربون. إنهم لا يستطيعون فهماً لنا. يجب أن ترسل للبحث عن الفودكا من يحب هو نفسه أن يشرب منها قدحاً، وعندئذ لن يتأخر.

وهيأت (فروسيا) المائدة، وجاءت الفودكا أخيراً واتخذت مكانها وسط المنضدة.

وقال أبو طالب. أف، إنها مثل رئيس (سورخين) عندما يظهر بين فلاحين بسطاء. وأمسك بزجاجة الفودكا وجعل يرجحها بين يديه. كأنها طفل صغير.

ـ يا لها من زجاجة رائعة. هذا الصبي الذي جاء بها سيصبح حتماً رجلاً عظيماً عما قريب.

ولاحظ أبو طالب، خلال ذلك، الأقداح الصغيرة التي وضعت على المائدة. وتقبضت جبهته كأنه أصيب بألم في أسنانه، وتشنج فمه كأنما يبلع لقمة شديدة المرارة، وقلب القدح الصغير ثم قلبه وألقى نظرة إلى قعره، وأظن أنه كان يرغب في أن يطفئ فيها عقب سيجارته لكي يعبر عن احتقاره الكامل لشيء لا يستحق غير الاحتقار.

وأخذت قرناً كبيراً أهداه لي بعض أهالي جورجيا وقدمته إلى أبي طالب.

وفحصه العجوز زمناً طويلاً من جميع وجوهه ثم ألقى حكمه:

ـ إنه قرن جيد، ولكنه يمكن أن يكون أكثر روعة لو لم يزين بالفضة. إنها مثل حزام على عروس هذه الفضة المزركشة فوق القرن. ولم هذه الفضة؟ هل تجعل الفضة الفودكا خيراً مما هي أو أشد قوة؟ لا يا رسول أعطني قدح ماء عادياً. تعودت يدي أن تمسك به. وأنا أعرف عدد الجرعات في الكأس الكبيرة، وأعرف متى أتوقف عن الشراب، ومتى أستمر فيه؟

ولبيت طلب أبي طالب. وسكب الفودكا في الكأس وألقى فيها قطعة صغيرة من الخبز وقال بلغته الدرجينية[1]:

ـ درخاب[2]:

وأفرغ كأسه دفعة واحدة، وأضاف وهو يسترد أنفاسه:

ـ كلمة «درخاب» يجب أن تقال دوماً قبل الشراب.

من الصعب أن أشرح معناها، ولعلَّ أن لا يكون لها معنى، ولكن ألا تفهم هكذا: درخاب! وشرب أبو طالب ثم جرَّ نحوه صحن الحساء، واصطاد ما فيه من اللحم وضعه في صحن آخر، وجعل يفت الخبز في الحساء. أكل دون استعجال، في سرور، وهو يتمطق بكل ملعقة من الصحن الطيب الساخن.

---

(1) إحدى لغات داغستان (م. ف).

(2) بمعنى: في صحتك أو كأسك (م. ع).

وكان يقطع حيناً بعد حين، ودون استعجال قطعة من اللحم في الصحن الآخر ويبتلعها. وخيل إلي أن اللحم لا يمكن أن يكون في مثل هذه اللذة لو أنه أكله في شكل آخر أو أنه قطعه بسكين أخرى لا بموساه.

وبعد أن انتهى من الحساء واللحم جمع أبو طالب كل ما سقط على المائدة من فتات الخبز ووضعها في فمه ثم شرب قليلاً وجعل يداعب شاربيه:

ـ أتريد الشاي الآن.

ـ الشاي عندي الآن دخاني. قل لي يا رسول. ما الفرق بين السيجارة وأي شيء آخر؟

ـ لا أدري.

ـ كل شيء يمتد إذا سحبته إلا السيجارة فتتضاءل إذا سحبتها. وجعل يضحك من أحجيته الساذجة.

ـ أنت تدخن كثيراً يا أبا طالب. أليس في ذلك ما يضر بصحتك؟

ـ يقولون إن اللّه نفسه يدخن بعد مثل هذا الغداء الدسم.

وبعد أن دخن حتى اكتفى سألني فجأة:

ـ متى يعقد اجتماع إدارة الكتاب؟

ـ غداً.

ـ لا أدري إن كانوا سيناقشون غداً الطلب الذي قدمه زين الدين إلى التيفوند[1]؟

ـ لا أعلم. ولكن ما يهمك من الموضوع؟

ـ أريد أن أحكي لك حكاية: عندما كنت يانعاً كنت أرعى الأغنام. وكانت أغنامي هادئة، لذلك كنت أستطيع أن أتمدد على العشب

---

(1) مبالغ من المال يقدمها اتحادات الكتاب وتخصص لمساعدة رجال الأدب مادياً لتسهل عليهم الخلق الأدبي (حاشية المترجم: إلى الفرنسية).

الأخضر، وتحت الشمس، وهي ترعى حولي. وكنا جميعاً مسرورين: أنا والأغنام وصاحب الأغنام. ولكن ما لبثت أن حلت بنا كارثة: خروف أكثر خبثاً من أصحابه وجد الطريق إلى حقل من الشوفان، وتبعه الآخرون. وكان هذا اليوم نهاية حياتي الهادئة.

لم أستطع أن أُنسي خرافي طعم الشوفان، فاضطررت إلى ألا أترك مراقبتها لحظة واحدة. وذلك ما يحدث للتيفوند ولشعرائنا. إنهم يعيشون في سلام كامل، ويكتبون مؤلفاتهم، حتى الساعة التي يشعرون فيها برائحة التيفوند. أنا لا أعلم من كان أول من قبلها منهم، ولكنهم الآن يقبلون عليها جميعاً كما تقبل خرافي على الشوفان.

إنهم يفكرون في قصائدهم، أقل مما يفكرون في التيفوند. فلا يكادون يستيقظون عند الصباح حتى نراهم يشرعون لا في كتابة القصائد بل في كتابة كل لون من ألوان الطلبات، وأنا أيضاً أريد أن أكتب طلباً وأنت تتولى لي مناقشته في اجتماع اللجنة الإدارية.

ـ ولكن يا أبا طالب، أي طلب تريد. . . ما الذي ينقصك؟

ـ أنت تعلم أنني لم أعرض جسمي على طبيب حتى الآن. ومع ذلك فقد قررت رغم ذلك أن أقيم إقامة طويلة في أحد المصحات.

ـ يمكنك أن تعد طلبك هذا مقبولاً كأنه في جيبك. ولكن ألا ترى من الأوفق لك أن تتقدم بطلبك هذا إلى مجلس السوفيات الأعلى في داغستان بدلاً من تقديمه إلى اتحاد الكتاب. أنت عضو في مجلس الرئاسة للسوفيات الأعلى. إن بيوت الاستجمام التابعة للدولة خير من بيوت استجمام الكتاب.

هز أبو طالب رأسه وقرع لسانه. قرقعة اللسان هذه يمكن أن تعبر عن عواطف كثيرة مختلفة: الحماسة، الاشمئزاز، الدهشة أو النفي كما عبرت عنه الآن.

ـ كلا يا رسول. أنا أولاً عضو في السوفيات الأعلى لفترة أربع سنوات فقط، ولكني كاتب مدى حياتي. وهناك ثانياً نواقص في كل بيت

من بيوت الاستجمام، مهما كان نوعه. ثم قل لي: أليس يناسبني أن أقرعك أنت وخاباليف أكثر من تقريعي للسوفيات الأعلى.

ـ حسناً. اكتب طلبك، وستجري مناقشته غداً.

ـ سيكتب الطلب ميرزا، فأنا لم أكتب طلباً قط، وعلى كل حال، هيئ لي بطاقة الإقامة. ونهض أبو طالب، وهو يقول هذه الكلمات ويهم بالذهاب.

ـ أين نذهب الآن؟ يا أبا طالب.

ـ سأذهب إلى المطبعة. يظهر أن كتاباً من كتبي قد نشر. وأريد أن أعرف هل هو ذكر أم أنثى؟

ـ تعال الليلة إلى معهد التربية. الطلاب يستقبلون الكتاب.

ـ موافق. سآتي، هل آخذ معي المزمار[1].

ـ ولماذا؟ لست عازف قيثارة.. أنت شاعر. خير لك أن تأتي بمجموعة شعرية.

ـ إلى اللقاء قال أبو طالب.

الأمسية الأدبية المقرر عقدها في معهد التربية كان موعدها في الساعة السابعة مساء، جاء بعض الشعراء. وفي الساعة السابعة تماماً بحثت بعيني ذات اليمين وذات الشمال، فلم أجد أبا طالب. كان علي أن أبدأ الأمسية دون حضوره. وتتابع الشعراء على المنبر. كل واحد منهم قرأ قصائده في لغته الأصلية: بلغة اللاك، وكوميك، وليزجيان، وآفار. وبينما كان أحد الشعراء الشباب يلقي قصيدته قاطعه الجمهور بتصفيق حاد: إنه أبو طالب يعدو في القاعة، والشباب يصفقون له.

وبعد أن استمعنا إلى شاعرين آخرين أشرت إلى أبي طالب ليستعد، وفجأة بدا عليه الجد، وجلس على كرسيه كأنه يستعد للتصوير، وجعل يفرك شاربيه: وكأن جلسته تقول لي: «انظر ها أنا ذا أستعد».

---

(1) الزرنا: آلة موسيقية هوائية.

وصعد أبو طالب على المنبر، وتحدث إلى الطلاب الشباب بالروسية ثم بلغة آفار ولاك، لأنه يكاد يعرف شيئاً من كل لغات داغستان، ثم قرأ قصيدتين بلغة لاك.

ولكن هذا الجزء الأدبي ـ إذا صح التعبير ـ من مشاركته في الأمسية قاده في سرعة إلى ما هو عنده أساسي، وكأن ذلك النصيب الأدبي لم يكن إلا مقدمة له. فقد أوقف أبو طالب بحركة من يديه التصفيق ثم سأل المستمعين:

أتريدون أن أعزف على المزمار؟

وصرخت الصبايا:

نعم، اعزف، هذا ما نريد.

ومضى أبو طالب يبحث في ثنايا المسرح عن مزمار ثم عن شبابة. وبدأ يعزف في نعومة على إحداهما ثم على الأخرى، وعرف كل الحاضرين أن ذلك إعداد للعزف وأنه يصلح أنغام الآلتين، وبعد أن اطمأن إلى سلامة الآلتين أمسك بكأس من الماء فوق المنضدة وسكبه في جوف المزمار، وهو يقول:

ـ اسق حصانك قبل أن تشرب أنت هكذا يقول أهل الجبل، وقبل أن تشرب أنت اسق مزمارك، هكذا يقول العازفون في الجبل.

وعزف أبو طالب على المزمار، وهو يتمايل إلى هذا الجانب أو ذاك، وأحس أبو طالب بحميا النشوة في هذه القاعة التي تغص بالصبايا. ولعل أنغام المزمار في هذه الليلة سمعتها كل أرجاء (ماخاتشكالا) وسألني أبو طالب في بساطة وهو يعود إلى مكانه في الرئاسة:

ـ أعزفت جيداً؟

ـ نعم.

ـ إذن فلماذا صفقت تصفيقاً قليلاً؟ أتريد أن تصفق أيضاً؟

واستقبلت كلمات أبي طالب بضحكات جماعية.

لقد سرني، كمسؤول عن إثارة الحماسة في الأمسية، أن ينتقل الشاعر المرموق أبو طالب إلى دور عازف على المزمار، ولقد حدث مثلاً أن الشاعر الروسي (إيسينين) اندفع إلى أداء رقصات روسية بدلاً من إلقاء قصائده. نعم إن (إيسينين) قد يعرف الرقص، ولكن لكل شيء زمانه. ومن الممكن أنني قطبت حاجبي. وصفقت تصفيقاً قليلاً وذلك ما دعا إلى سؤال أبي طالب المرح وإلى نشوة عارمة في القاعة.

ونزلنا الدرج العريض الذي يؤدي إلى الرواق يصحبنا سرب من الصبايا. ولبست معطفي ونظرت إلى المرآة. في ذلك العهد كان يسود طراز المعاطف ذات الأكتاف العريضة المربعة المحشوة، وكنت ألبس هذا المعطف، ورمقني أبو طالب وهز رأسه:

ـ كان (الكورديدك) في الماضي، يعني التغذية الغنية والصحية هي التي تصنع الأكتاف العريضة، أما الآن فالذي يصنعها هو القطن. وكانوا في الماضي يغنون الأغاني ترافقها (الكوموز) أما الآن فأنتم تقرأونها في قصاصة من الورق. لقد تغير العالم كثيراً: وذلك ما لا يرضيني.

ـ ولم تأخرت يا أبا طالب؟

ـ كنت على أهبة السير في الطريق عندما هرع إلي أحد الممثلين في المسرح وهو يركض.

ـ وماذا يريد الممثل الآفاري؟

ـ افهم ما أقول: كان في المسرحية مشهد للزواج، لا يمكن اليوم أن يقدموا مسرحية دون حفلة زفاف. وكان عازف المزمار مريضاً. ما قيمة حفلة زفاف إذا لم يكن فيها مزمار؟ وعندئذ دعوني إلى أن أعزف. عشر دقائق فقط. ولكن الوصول إلى المسرح، والوقت الذي استغرقته المسرحية حتى تبدأ حفلة الزفاف كانا طويلين، وقد اخترت أغنيتين

جديدتين حتى نسي المشاهدون المسرحية، ولم يصغوا إلا إلى عزفي. وكان من الممكن أن يبقوا وهم يصغون إلي طوال السهرة.

وقلت له:

ـ أما أنا فلو كنت مكان أبي طالب جعفر، الشاعر الشهير وعضو رئاسة السوفيات الأعلى في الجمهورية، لما رضيت أن أكون عازف مزمار.

ـ أبو طالب يعرف خيراً منك ما يجب أن يفعله، وما يجب ألا يفعله.

ـ أذهبت إلى دار النشر؟ كيف حال كتابك؟

ـ الحمد للّه: لقد ظهر الكتاب. والحمد للّه: لقد قبضت بعض المال. والحمد للّه: لقد وفيت ديوني، والحمد للّه: لقد اشتريت إوزة.

ـ أتريد أن تقيم مأدبة:

ـ لمن؟

ـ للمحرر والمصور والمحاسب لكل أولئك الذين أسهموا في طبع الكتاب.

ـ مأدبة للمحرر ـ وكاد أبو طالب يفقد الكلام من غضبه ـ أيستحق مأدبة.. إنه يستحق الضرب.

وضحك أبو طالب ضحكاً طويلاً ثم استأنف:

ـ اسمع يا رسول. سمعت أن الداغستان الذين يختنون أولادهم يهددون بالتسريح، بل بالطرد من الحزب. ولماذا إذن لا يسرحون المحررين الذين يزيدون في قصائدي ويقطعونها تقطيعاً؟ من مجرد النظر إلى الترجمة الأخيرة أستطيع أن أقول لك من أية قرية جاء المحرر. عندنا، في شعب اللاك، كل قرية لها لهجتها الخاصة. والمحرر يحاول كل مرة أن يترجم قصائدي إلى لهجة قريته.

وصمت أبو طالب فجأة وابتسم:

ـ أما المرأة التي وقعت العقود هناك فهي امرأة باسلة. يا لها من امرأة باسلة. لقد شكرتها شكراً عميقاً.

ـ وماذا قلت لها أيضاً؟ لعلك قدمت إليها هدية.

ـ عرضت عليها أن تعطيني ما لديها من أوان مطبخية مهترئة، أو مثقوبة، أو مكسورة وسأصلحها لها حتى تعود كأنها أوان جديدة.

هذه الاندفاعة الجديدة لأبي طالب كانت أقل إثارة لسروري من اندفاعته إلى عزف المزمار في المسرح.

ورأيت أمام أحد الجدران كومة من الأواني النحاسية القديمة، فقلت لأزعج العجوز:

ـ ما دمت تصلح الأواني فلماذا تترك هذه الكومة هنا؟ كان عليك أن تجمعها وتمضي بها إلى البيت.

ـ وقال أبو طالب في سذاجة:

ـ لا يمكن أن آخذها يا رسول. لعل هناك من يلتقطها قبلي.

ومر بنا عابر متأخر. فأوقفه أبو طالب في بساطة وطلب منه بعض التبغ وعود ثقاب، وجعل يدخن.

الحق أن سلوك أبي طالب لم يرق لي.

شاعر داغستان الشعبي الكبير، الشهير في كل البلد، عضو الحكومة يوافق على أن يقوم بدور عازف مزمار، في مسرح، ويعرض إصلاح الأواني على أمينة سر دار النشر، ويطلب قليلاً من التبغ من عابر سبيل ومع ذلك فقد أحجمت عن إثارة العجوز، وخفت أن يتضايق. وقلت له:

ـ إنك شيخ عجوز يا أبا طالب. أليس من الخير لصحتك أن تكف عن التدخين؟

ـ ما هذا؟ اليوم يجب أن أكف عن التدخين، غداً يجب ألا أصلح الأواني، وبعد غد يجب ألا أعزف على المزمار. أما القصائد فسأكون مضطراً إلى ترك نظمها، إنها ستفرُّ مني فراراً. إنها تعرف أبا طالب، أبا

طالب النحاس، المدخن، عازف المزمار، فإذا لم أكن أبا طالب فهل تحتاج إلى قصائدي، أنا أبو طالب جعفر ولست رسول حمزة الذي لا يحب التدخين ولا يعرف إصلاح الأواني، ولكنه يعرف إدارة اتحاد الكتاب. ولست أيضاً يوسف خابالي ولا نور الدين يوسف، ولا مكسيم غوركي، ولا زوشتشنكو (كان زوشتشنكو معرضاً للنقد في ذلك العهد فتذكر أبو طالب اسمه).

ـ أين تستطيع المهاة الاختفاء إن لم تختف في الجبال؟ أين يستطيع الغدير الجريان إن لم يجر نحو الوادي؟ لا تحاول أن تلبسني قلبق[1] غيري.

علام تساومني في موضوع ما مضى من حياتي؟ نعم لقد كنت عازف مزمار، وراعياً ونحاساً. ولكن هل أخجل من سنواتي الماضية؟ أنا دائماً أبو طالب. تذكر يا رسول ما أقوله لك: إذا أطلقت رصاصة من مسدسك على الماضي أطلق عليك المستقبل قنابل مدافعه.

لقد هجرت نساء، وهجرتني نساء. ولكن العمل الذي أجيد صناعته لا يمكن أن يتركني، وليس في مقدوري أن أتركه.

نعم، إنه هو حقاً الشيخ الشاعر أبو طالب، صديق والدي. كان دائماً على هذا الشكل ويجب أن أقبله على علاته. لو تغير لكف في الوقت نفسه عن أن يكون الشاعر أبا طالب سأقص عليك أيضاً حكاية يمكن أن نسميها:

بيت أبي طالب الجديد: كان ذلك في العهد الذي انتخبت فيه رئيساً لإدارة اتحاد الكتاب في داغستان. وهذا المنصب يعطي من الحقوق أكثر مما يطلب من الواجبات، ولو شاء الإنسان الراحة لانصرف هادئاً إلى عمله الأساسي، ألا وهو نظم الشعر. ولكني كنت في ذلك العهد لا

---

(1) لباس للرأس معروف (م. ع).

أزال شاباً كثير الحماسة. ورحت أمارس ألواناً من النشاط، وأبحث عن كل نوع يناسب مهمتي الجديدة.

كنت أتصور أننا عندما نريد أن نتحقق من صلابة بيت ورسوخ قواعده فيجب أن نفتش بادئ ذي بدء عن عوارض سقفه وأعمدة زواياه وكل نقاط ارتكازه. وبعد أن انصرفت إلى تأمل طويل، تحققت أن هناك أربعة شعراء من قوميات مختلفة يمكن لهم أن يضمنوا دعم اتحاد الكتاب.

تاجر خريوجسكي من ليزجيان، وعلي كازياف من الكوميك، وساجد جاجييف من الآفار وأبو طالب جعفر من اللاك.

وبعد أن أدركت هذا وصغت مشروعاً. قررت أن يلتقي هؤلاء الشيوخ المحترمون مع أعضاء حكومة داغستان. الشعراء يعبرون عن حاجاتهم للحكومة، والحكومة تلبي مطالبهم.

وها نحن هؤلاء نناقش مع عبد الرحمن دانيالوف أمين سر اللجنة المحلية للحزب. كانت المناقشة تجري في جو طليق، وبقلوب مفتوحة، وشربنا الشاي. وشعر شعرائي أنهم يعيشون في السماء السابعة ورددوا بأصواتهم الأربعة: ما أحسن هذا الرجل، هذا الرئيس الجديد لاتحاد الكتاب رسول حمزة. وشعر الرفيق دانيالوف بالمتعة مع الشعراء الشعبيين، وكرر هو أيضاً في نفسه الثناء على رسول، وظللت جالساً كأن الأمر لا يعنيني.

تحدثوا عن داغستان، وعن الحياة وعن الشعر. وأخيراً طلب إليهم أمين سر اللجنة أن يذكر كل واحد منهم مطاليبه، وبدأ الكلام تاجر خريوجسكي فقال:

ـ أنا متأثر جداً يا رفيق بالموضوع الآتي: في الشتاء عندما يهجم البرد تموت الأغنام في الجبال، ألا يمكن أن يرسلوا إلى هناك، في الصيف، ما يكفيها من العلف في الشتاء؟

وسجل الرفيق دانيالوف الملاحظة ثم سأل:

ـ أليس لك طلبات أخرى؟

ـ ألا يمكن أن تخصص سيارة للمزرعة الجماعية في خريوج؟

وانتقل الحديث لعلي كازياف. وفتح علي فمه وعرض علينا جميعاً وعلى أمين السر في هذه المناسبة أسنانه العتيقة المهيضة:

ـ انظر ألا يمكن أن تصنعوا لي أسناناً جديدة، أسناناً جيدة. فمن الصعب أن أمضغ طعامي بهذه الأسنان. ثم إن الأهم ألا يستطيع الغناء. وعندما ألقي قصائدي أجدني ألثغ. وأوضح لنا كازياف أيضاً مدى صعوبة إلقاء القصائد عندما تذهب الأسنان. وقرأ لنا رسالة أرسلها إلى رئيس اللجنة التنفيذية لـ (خاسافيورت) وفيها طلب مؤثر للشاعر العجوز بإرسال فحم يدفئ به بيته:

وسأل دانيالوف:

ـ وهل أرسلوا الفحم إليك؟

ـ المسألة لا تزال موضوع بحث منذ العام الماضي.

وسجل أمين السر الملاحظة، وتهيأنا لنسمع جاجييف.

ـ في مشاهد المنوعات، الشباب يصرخون ولا يغنون، وهم بصراخهم هذا يشوهون الأغاني الشعبية الرائعة. أما الأغاني الجديدة فهي التي تدعو المغنين إلى الصراخ رغم أنوفهم. يجب أن نضع حداً لذلك ـ ثم إنهم يذيعون في الإذاعات كثيراً من أغاني الحب. بل إن بعضها يشيد بحوريات الأساطير القديمة. قل لهم يا رفيق دانيالوف ألا يشيدوا بتلك الحوريات، وأن يمجدوا العمال وهم طلائع زراعتنا.

وبعد أن أنهى جاجييف خطابه التفت إلي ووشوش في أذني:

ـ وليس هذا كل شيء، لقد علمت أن شختامانوف وسليمانوف شربا الخمر أمس في المطعم. يجب أن نمنع الكتاب من الشراب. ولكني سوف ألقاك خصوصاً من أجل هذا الموضوع.

وجاء دور أبي طالب فقال مخاطباً أمين السر.

ـ يا عزيزي عبد الرحمن. زوجتي الأخيرة جاءتني بطفل.

ـ وكيف: زوجتك الأخيرة؟

ـ كان لي نساء كثيرات. وماذا تريد مني أن أصنع؟ ينشرون صوري في الجرائد، يتحدثون عني في الإذاعة، يعلنون على الملأ أنني شاعر داغستان الشعبي، وأنني نائب، وأنني أحمل هذا الوسام وذاك، والنساء سريعات التصديق يهرعن إلى عض الطعم، ويتباهين، ويعتقدن أنني ما دمت شهيراً إلى هذا الحد فلا بد أن يكون لي قصر، وأن تكون صناديقي ملأى بأكياس الفضة. ويتزوجن بي، ولكنهن لا يكدن يفعلن ذلك حتى يرين أبا طالب يسكن قبواً من الأقبية. ولا يرضيهن ذلك فيهجرنني. هذا ما جعلني أتزوج عدداً من الزوجات، نعم يا عزيزي عبد الرحمن، إن أغاني تحلق في السماوات كالقبرات، أما أنا فأعيش دائماً في قبو. من هذا الكهف البائس أطلق نحو السماء أغاني من ذهب. وها هي الآن زوجتي الجديدة التي أعطتني ولداً صغيراً تهددني بتركي إذا لم يكن لي بيت ترتاح فيه. ستذهب وهي تضم ولدها إلى صدرها.. اسمع يا عبد الرحمن، إنها لم تتركني حتى الآن وقلبي ينقبض حزناً، لا تدمر أسرتنا، أعطني منزلاً أحمل فيه طناجري على السرج[1]. عمري أكثر من سبعين سنة، وعربتي لا تصعد الشاطئ بل تهبط إلى السفح. ولك علي إذا أعطيتني منزلاً أن أدعوك إليه.

ولم يمض أسبوع حتى أصبح لأبي طالب منزل جديد. إلى اللقاء أيها القبو المرح. هذا أبو طالب ينتقل إلى منزل يتألف من ثلاث غرف في الطابق الثالث في بناية جديدة في شارع بوشكين.

والتقيت بأبي طالب ذات يوم في الشارع، ولم يكد يراني حتى تظاهر أنه مشغول بالبحث عن شيء ما في كومة من الحديد العتيق. دنوت منه وقلت له:

ـ مرحباً يا أبا طالب. كيف الحال في منزلك الجديد. هل يرضيك؟

ـ لقد قضيت زمناً طويلاً في البحث عن جرس كبير أعلقه على باب

---

(1) تعبير محلي عن إمكان الطبخ في المنزل.

البيت لأدعوك إلى زيارتي يا ابن حمزة من قرية تسادا. فتحت نافذتي المطلة على البحر ثلاث مرات وعزفت على مزماري وأنا آمل أن تسمعه وتأتي ملبياً ندائي. ولكني عرفت أني لا أصل إلى طلبي. إني لم أحصل على جرس كبير، وها أنا ذا أبحث عنه في هذه الكومة من الحديد.

وذهبنا فوراً لنزور بيت أبي طالب الجديد. لم تكن فيه إلا الجدران العارية. على الأرض تتمدد أشياء من سقط المتاع جاء بها أبو طالب من قبوه: قيثارة قديمة، ومزمار، ومنفاخ حداد عتيق (والله أعلم بما يمكن أن يقدم له من نفع في المنزل الجديد) وكانون عتيق، وطسوت وسطول وجرادل، وأحذية وفروة.

كثير من الشيوخ يأتون من الجبال ويمرون بأبي طالب. يلبسون الفروات، ويقدمون المدينة لبعض أعمالهم. وقال أبو طالب لأحدهم وهو يخلع عنه فروته ويتعجب:

ـ أيتها الفروة اللعينة لماذا أنت فارغة؟ آه لو أنك حملت لنا خروفاً على سبيل المثال، لانتهى عمل ضيفي في سرعة. هؤلاء الناس يقطعون جبل ستانخ عبثاً لمجرد أنك فارغة.

وهكذا حمل أبو طالب على الفروة الفارغة وهو يبحث بعينيه عن مكان أستطيع أن أجلس فيه. ولما لم يجد شيئاً مناسباً أعطاني سكيناً كبيرة وأشار من النافذة إلى قن في ساحة البيت:

هنالك إوزة. اذهب واذبحها. ستكون غداءنا.

وفتحت باب القن وأمسكت بالإوزة بعد طول عناء، كانت تتخبط يائسة بين يدي، وبدأت عملي، وصوت أبي طالب يأتينا من فوق:

ـ أرأيت إوزة تذبح على هذا الشكل؟ أدر لها رأسها إلى الجهة المقابلة. ألا تعرف جهة القبلة في مكة، أم أخبرك؟

وأتممت عملي في شكل ما ولكني حظيت أخيراً برضا أبي طالب.

وضع أبو طالب القدر على السرج ـ كما يقولون عندنا ـ واشتغل بإعداد المائدة، واغتنمت الفرصة لفحص منزله. لقد ترك الشاعر العجوز

قبوه ولكنه حمل إلى البيت الجديد كل ما كان في حياة القبو القديم، بدءاً من القدر العتيقة حتى أقل عاداته. ليس في البيت كرسي، ولا منضدة ولا مرآة ولا سرير ولا شيء من الأثاث.

وسألته:

ـ أين تكتب أشعارك يا أبا طالب؟

ـ لم أكتب حتى الآن شيئاً في هذا البيت. في البدء كنت أذهب إلى قبوي القديم وأكتب فيه. ولكنهم أعطوا القبو لرسام ليكون مرسماً له. اللّه يعلم أني أنام وأنا أقل راحة في هذا البيت مني في ذلك الكهف. هنالك كان مصروفي أقل، وكان وقتي أكثر، ولم يكن الناس يشغلونني ويهبطون علي دون استئذان، كان الزائرون لي في قبوي نادرين، هنالك كنا لا نرى البحر، هذا صحيح، ولكن ها هو ذا البحر الآن تحت نظر العجوز أبي طالب.

وتأمل أبو طالب طويلاً بحر الخزر، وكانت تصطخب فيه الآن عاصفة زرقاء بيضاء. ولم أرغب في إحراجه فسكتنا. ثم استأنف أبو طالب حديثه:

ـ سأحدثك يا رسول عن يومين في حياتي. أسعد يوم وأشقى يوم.

ـ حدثني.

ـ أنت ترى يا رسول أنني قضيت في حياتي عدداً غير قليل من أيام السعادة. لقد وهبوا لي أوسمة، وكنت مسروراً، ووهبوا لي بيتاً، وكنت مسروراً، وكنت مسروراً كذلك يوم أعطاني الحمر في عام 1920 فرساً أصيلاً. نعم لقد سرت مع الحمر، وكنت عازف القيثارة في الكتيبة. وكان حصاني في دروب الحرب يمس بمنخره كفل حصان القائد، وكان ذلك أيضاً مدعاة لسروري. ومع ذلك فإن سعادتي الكبرى والأولى لم تكن كل هذه. عندما كنت في الحادية عشرة من عمري وكنت أرعى الغنم، قدم لي أبي أول جزمة عرفتها في حياتي. لا تستطيع الكلمات أن تعبّر عن كبريائي التي شعر بها قلبي بهذا الحذاء الجديد. كنت أسير في

الأودية ومجاري السيول في جرأة، ثم جاءت أقسى لحظات حياتي مرارة. في اليوم الرابع قال لي أبي:

ـ اسمع يا أبا طالب. لك الآن حذاء جديد متين. ولك عصا، ووراءك أحد عشر عاماً فوق هذه الأرض. لقد حان لك أن تضرب في الأرض وأن تسير في دربك لكي تأكل وتلبس من عملك. وأرسلني والدي لأتسول في القرى والدساكر. لقد كان عذابي الأخلاقي في هذه اللحظة أقسى ما عانيت في حياتي. لقد سالت دموعي مراراً ولكنها لم تكن في حياتي في مثل هذه المرارة. أحد الكتاب ذكرني فقال: ـ أبو طالب أخذ بيتاً جديداً. وسنرى ما نوع الشعر الذي سوف يكتبه. وكان هذا الكاتب لا يعلم أن أبا طالب يعرف أن الشعر لا يتعلق ببيته أن الشاعر هو نفسه بيت قصائده، قلب الشاعر هو بيت شعره. في نفسي تعيش لحظات حياتي، أفراحها وآلامها. أما المكان الذي أعيش فيه أنا فليست له قيمة.

لقد أثر في نفسي بيت أبي طالب تأثيراً عيمقاً، وتحدثت في ذلك إلى قادة جمهورية داغستان، وتقرر أن يخصص قسط من حقوق أبي طالب في كتابه (العنادل تطير نحو الجنوب) لشراء أثاث حديث جميل لمسكنه الجديد. وتألفت (لجنة عمل ثلاثية) مدير دار النشر في داغستان، وزير التجارة وأنا، وكان علينا أن نجد الأثاث الضروري، وأن نشتريه وأن ننقله إلى بيت أبي طالب. وكلفت أن أجري معه المباحثات الضرورية.

وطفنا نحن الثلاثة في مستودعات ماختشاكالا، وانتقينا غرفة النوم (فلعل شاعرنا يذوق طعم الراحة) ومجموعة مكتب (فلعله يؤلف فيها أشعاره الرائعة) وغرفة طعام (فلعل طعامه أن يكون أطيب مذاقاً وشرابه أكثر حلاوة!).

وحسبنا أن أبا طالب سيهرع إلينا وهو لا يدري كيف يعبر لنا عن شكره. والواقع أننا لم نتلق شكراً صغيراً بل نحن لم نتلق منه ما يشعر بوصول الأثاث إلى بيته.

وقررنا عندئذ أن نذهب لزيارته لنعرف كيف يستعمل ما اشترينا.

ولم نحتج إلى قرع الباب، لأن الباب كان مفتوحاً. ودخلنا، فإذا أبو طالب وأسرته يجلسون على الأرض فوق بساط قرب منضدة غرفة الطعام، وكانوا يجلسون متحلقين على ركبهم قرب الكراسي. وطعامهم موضوع أمامهم فوق جريدة، وأبو طالب يلتهم في ضوضاء صحناً من الكفير، وهو يرمق من حين إلى حين تلك المنضدة اللماعة كأنها صبية تنتظر أن يضمها بين ذراعيه، بينما هو، أبو طالب، لا يرغب فيها أقل رغبة.

في الغرفة الثانية وجدنا مجموعة مكتبية جميلة. فوق المنضدة ورق وقلم ومحبرة، وكلها عذارى لم تمس. وهذه الأشياء، حتى المكتب نفسه، تبدو وكأنها قطع يضمها متحف لا قطع للاستعمال. وفي آخر زاوية من الغرفة كانت هنالك أوراق تغطيها أحرف عربية تتناثر على الأرض.

ـ ألا تعرف كتابة الأبجدية الحديثة يا أبا طالب.

ـ أعرفها، ولكني تعودت الكتابة القديمة، أكتب بالأحرف العربية أولاً ثم أنقل لمحرر دار النشر ما كتبته بالحروف الحديثة، وكأني بذلك أترجم نفسي.

وأعلنت امرأته:

ـ لم ينم مرة واحدة في السرير، ما أضيع التعب في شراء مثل هذه الأشياء الغالية!

ـ وما السرير؟ في البدء، في أول سنة أقمت فيها في المدينة كانت وسادتي حجراً من أحجار الجبل، وكنت أنام نوماً عميقاً أكثر مما أنام على وسادة. لقد تعودت النوم على حجر منذ كنت راعي غنم.

ـ إذن فأنت غير مسرور بالأثاث الذي اخترناه لك؟

بهذا المكتب، وبهذه الكراسي وبهذه المنضدة، وبهذه المرآة؟

ـ الأثاث جيد جداً. ولكنه أكثر ملاءمة لجاري جود فريد غسانوف.

ـ وهل هو جار طيب؟

ـ يمكن أن يكون إنساناً جيداً، ولكننا لا نتفاهم.

ـ ولماذا؟

ـ إنه حقاً واسع الثقافة. أنا جبلي، أما هو فمدني. جئت من الجبال وعاش في السهول. إن غطاءي رأسينا مختلفان، بل لعل رأسينا أيضاً لا يتشابهان. أنا ابن أرضي، وهو ابن صنعته. إنه لا يتحمل قيثارتي ولا أغاني. وهو ينطح رأسه بالحائط ويصرخ: «أبا طالب. أنت تمنعني عملي..» وأقول له: لست أنا الذي أعزف. العزف في المذياع والحق أنه مع ذلك ينطح رأسه إذا سمع القيثارة في الإذاعة. ما معنى هذا؟ إنه لا يمنعني العزف على القيثارة. بل إنه يريد أن يمنعني الاستماع إلى المذياع. وبكلمة واحدة، نحن لا نتشابه. عندما يزورني ضيوف، فهم من الجبل جاؤوا من قراهم مع الفروات.

أما ضيوفه فيأتون من موسكو بمناديل من الجلد. أنا أقدم إلى ضيوفي البوظة (العرق) والشنكليش، وهو يقدم إلى ضيوفه الكونياك والقهوة. أنا أقوم بشراء حاجاتي من السوق، وهو من المخزن. عندما أنام يكتب، وعندما ينام أكتب. هو يحب الأزهار التي تنمو في الأقبية وأنا أحب الأعشاب التي تزهر في الحقول الجبلية. اسمعوا ها هو ذا يعزف الآن إحدى سمفونياته.

كنا نعرف جيداً جار أبي طالب. إنه جود فريد عليفتش غسانوف، معلم خبير بفنون داغستان وهو من اتحاد فناني روسيا. كان يعمل في ذلك العهد على تأليف كونشرتو على البيانو. كنت أسمع في نشوة موسيقاه الناعمة المهمة. وقلت في نفسي: آه. ليتنا نستطيع الجمع بين هاتين العبقريتين الكبيرتين القادرتين: العبقرية البسيطة الشعبية في أبي طالب، والعبقرية المهنية المثقفة عند غسانوف.

وتصورت في نفسي أيضاً أن من أكثر الأمور طرافة أن أجمع في كتبي

بين هذين التيارين: الطبيعة العفوية في شعبي، روحه المبتكرة والمقدرة المهنية العليا. أردت أن يجتمع في شعري أبو طالب وجود فريد. أردت أن يكون تجاورهما في مؤلفاتي تجاوراً هادئاً، مختلفاً عن تجاورهما في البيت.

نعم آمل في أن يتحقق التعاون بين هذين الينبوعين. ومع ذلك فماذا تصنع لو لم يكن ذلك ممكن تحقيقه، ولو أنك مضطر إلى أن تختار واحداً منهما. يمكن في النهاية أن أفضل الماء المثلج في ينبوع الجبل على أطيب أنواع الشراب المتمدن. إن الثقافة والتمدن ودقائق المهنة يمكن أن تكتسب. يمكن للإنسان أن يكتسبها، وإن لم تكن فيه، أما المشاعر الوطنية، والشعبية فإنها فطرية في الإنسان عند ولادته. إن الشاعر الوطني وعازف القيثارة أبا طالب في شروط أخرى، يمكن أن يصبح موسيقياً محترفاً، بل ومؤلفاً، أما المؤلف والموسيقي المحترف جود فريد فلا يمكن أبداً أن يصبح شاعراً شعبياً بسيطاً.

وعندما كدنا نغادر البيت قال أبو طالب فجأة:

ـ رسول ألا يمكن أن يكون لدي هاتف؟

ـ وما تصنع بالهاتف ما دمت ترفض استعمال المكتب والسرير؟

ـ أريد أن أعزف في الهاتف مرة لنيكولاي تيخونوف في موسكو، ومرة لرئيس مزرعتنا التعاونية. يجب أن يعرف رئيس المزرعة، مهما كان الأمر، أني ما أزال على قيد الحياة، وأن قيثارتي ما تزال تعزف أغانيها الأصيلة. لو سمع الرئيس قيثارتي في الهاتف لأدرك أن ما في جبالنا من عطور وأصوات ما زالت تعيش في هذا المنزل المدني.

ـ يا أبا طالب إن أغانيك المضمخة بعبير الجبال تطير إلى موسكو، إلى مسقط رأسك في قريتك، إلى كل قرية في داغستان إلى كل زاوية في العالم دون أن تحتاج إلى هاتف. أغانيك تطير فوق الجبال، وأعلى من الجبال.

والآن أريد أن أترك أبا طالب وأريد أن أحدثكم عن قصة لنا أنا ووالدي:

أتذكر...: لا أدري لِمَ لَم يكن من المألوف لدينا أن يلقي أحدنا على الآخر قصائده. بل حتى أن يتحدث عنها. اكتشف قصائد جديدة لوالدي عندما كانت تنشر أو تلقى في الإذاعة وعندما يتحدث عنها أصدقاء سمعوها. وكذلك كان والدي لا يعرف أشعاري الجديدة إلا بعد نشرها.

في عام 1949، نشرت جريدة في آفار قصيدتي (سنة ولادتي) ووقعت الجريدة طبعاً في يدي والدي، ووجدت عدد الجريدة وقد غطته ملاحظات كتبت بقلم الرصاص. لقد قرأ والدي في انتباه شديد قصيدتي، وعدل كثيراً من الأبيات حسب طريقته، «أصلح» الأبيات التي وجد فيها مبالغة، والمجازات المعقدة والتشابيه التي تخطف الأبصار. وفي الأبيات التي كتبها فوق أبياتي حاول التعبير في شكل أكثر بساطة ووضوحاً وقرباً. وما أزال آسفاً لأني لم أحتفظ بهذه الجريدة وما فيها من إصلاحات: ذلك أنني اعتدت أن أحرق المسودات والمخطوطات المختلفة عندما يتم طبع القصيدة.

أكثر التصحيحات أفرحتني وبدت لي القصيدة أكثر جودة. ولكني لم أوافق على بعض الإصلاحات. وقلت لوالدي:

ـ لا شك أنك أكثر حكمة وأكبر سناً وأظهر نبوغاً مني. ولكني شاعر من عصر آخر غير عصرك. ومن مدرسة غير مدرستك، ولي أذواق أدبية مختلفة، وأسلوب آخر، كل شيء بيننا مختلف. ألمح في هذه الإصلاحات الأسلوب الشعري لحمزة تساداسا، ولكني لست حمزة نفسه، أنا رسول حمزة. اسمح لي أن تكون لي طريقتي الخاصة، أسلوبي الذاتي.

ـ لست تماماً على حق فيما تقول. أسلوبك، طريقتك يعني طبعك

سجيتك يجب أن يشغلا المحل الثاني في أشعارك. وعليك أن تجعل لطبع شعبك وسجاياه المحل الأول. أنت قبل كل شيء جبلي، ومن آفار، ثم إنك بعد ذلك رسول حمزة. أنت في أشعارك تتكلم بلسان لا يتكلم به جبلي. وإذا كانت أشعارك غريبة عن فكر رجال الجبال، عن سجيتهم، فإن طريقتك في الكتابة تبقى مصطنعة مزخرفة. وستتحول قصائدك إلى دمى جميلة، يمكن أن تكون مسلية. من أين يأتي المطر إن لم تكن هنالك غيوم؟ من أين يأتي الثلج إن لم يهطل من السماء؟ من أين يجيء رسول حمزة إن لم تكن هناك بلاد آفار وشعب آفار؟ من أين تأتي بقوانينك الشخصية إن لم تأت بها من القوانين العامة في شعبك، وهي قوانين ترسخت خلال عصور وعصور؟

ذلك هو الحديث الذي دار ذات يوم بيني وبين والدي. كل السنوات التي قضيتها بعد هذا الحديث، كل الدروب التي سلكتها كانت وما زالت تؤكد أن أبي كان على حق.

رمز الزوجة الثالثة: ذهب شاعر شاب من داغستان إلى موسكو ليدرس في معهد الآداب. ومضى عليه عام واحد فأعلنت الجرائد أن الطلاق قد تم بينه وبين زوجته وهي صبية من قرية نائية في الجبل.

وسألوه:

ـ لماذا طلقت زوجتك؟ تزوجتها حديثاً، وأنت تحبها. فماذا حدث؟

ـ ليس بيننا لغة مشتركة. إنها لا تعرف (شكسبير) ولم تقرأ (أوجيني أونيفين) ولا تعرف الشعر، ولم تسمع (بميريميه).

ولم يلبث الشاعر الشاب أن عاد إلى (ماخاتشكالا) ومعه زوجة من موسكو لعلها سمعت بميريميه وشكسبير. ولم تعش غير سنة واحدة في بلدنا ثم عادت إلى موسكو لأن زوجها طلب الطلاق.

وسألوه:

ـ لماذا طلقت زوجتك؟ تزوجتها حديثاً، وأنت تحبها. فماذا حدث؟

ـ لقد اكتشفت أن ليس بيننا لغة مشتركة، إنها لا تعرف كلمة واحدة من لغة آفار، ولا تعرف عاداتنا. ولا تفهم طبيعة مواطني من رجال الجبال، وهي لا تريد أن تبقى في بلدنا، إنها لا تعرف مثلاً واحداً من آفار، ولا رمزاً واحداً من رموزنا، ولا أغنية واحدة من أغانينا.

ـ إذن ما الذي تريد أن تفعل؟

ـ يجب فيما أعتقد ـ أن أتزوج مرة ثالثة.

في رأيي إن هذا الشاعر الشاب يجب أن يجد نفسه قبل أن يجد زوجة ثالثة.

أيمكن أن تتحد جبال بلاد آفار مع قصائد شكسبير في كتابي؟ كتابي هذا أريد أن يكون الزوجة الثالثة التي يبحث عنها الشاعر الداغستاني الشاب.

من دفتر المذكرات: تم بناء بيت للكتاب في (ماخاتشكالا) يضم أربعين مسكناً. وشرعوا في توزيعها. طالب بعضهم بتوزيعها حسب النبوغ، وطالب بعضهم بتوزيعها حسب عدد الأطفال.

يجب أن أذكر أن توزيع المساكن على الكتاب من أعسر القضايا. وأخيراً حُلَّ الموضوع في شكل ما حلاً حسناً أو سيئاً وسكنت في البناية الجديدة أربعون أسرة من أسر الكتاب، وها هي ذي تمد حبال الغسيل. وفي اليوم التالي سافرت عشرون زوجة من زوجات الكتاب مجتمعات إلى موسكو. وعدن بعد أيام متعبات هزيلات كأنهن خرجنَ من حرب. وبعد قليل بدأ الأثاث الجديد يرد من موسكو.

وإليكم ما حدث. بحثن في موسكو طويلاً عن الأثاث. وقررت واحدة منهن أن تشتري. ولم تحتمل الأخريات أن يكون أثاث إحداهن خيراً من أثاثهن. ولكن المؤسف أن الزوجة الأولى اشترت أغلى أنواع الأثاث ولم يكن في مستطاع الباقيات أن يجارينها. النتيجة: تشابهت

المساكن العشرون حتى كأنها: أسنان مشط. يستحيل أن تتصور كيف يمكن لشعب آفار أن يعيش بين مثل هذا الأثاث.

في المساكن الباقية كنت إذا دخلت عتبتها قفزت إلى أنفك رائحة اللحم والقديد، والبوظة وجلود الغنم، والشحم المجمد.

وعندئذ تعرف حالاً أن الآفار هم الذين يسكنون هذه البيوت. لم يكن مقدورك أن تجد كاتباً واحداً منهم يمتلك فكر هذا العصر وأسلوبه.

يمكن لك، وأنت تقرأ كتابي أن تدرك أن الآفار هم الذين يسكنون فيه، ولكنك تدرك أيضاً أن واحداً من معاصريك، أن إنساناً من القرن العشرين يسكن كذلك فيه.

أنا لا أريد أن تكون لي الشمس وحدها، ولا أن يكون لي الظل وحده، يمكن أن يكون لمسكني ساحات واسعة مشمسة، ولكن ينبغي أن يكون لي فيه أيضاً زوايا صغيرة يغمرها الظل، أريد أن يشعر كل زائر أنه في بيته، وأنه حر لا يضايقه شيء، لا يريد أن يغادره أو على الصحيح، (ما دمت أتحدث عن الضيوف) أن يغادره حين يشاء وهو في حسرة وفي لهفة إلى العودة إليه.

كنا في اليابان ذات يوم، مجموعة من الأجانب، ورحنا نتبادل انطباعاتنا، كنا واقفين عند نبع خيل إلي أن أحجاره مصنوعة من أحجارنا في داغستان، من تلك الحجارة التي يزين بها المجلس الذي يجتمع فيه الشيوخ للندوات.

قال موسيقي أمريكي: ما أعجب هذه البلاد! أحس في وجه اليابان أنني أجد وجه أمريكا الصناعية.

واعترض صحافي من هايتي فقال:

ـ فكروا في الموضوع، عدت الآن من البرية، إن اليابان تشبه على الخصوص جزيرتنا الصغيرة.

ودمدم مهندس معماري فرنسي:

ـ لا تتنازعوا يا سادتي. هنا كل ما في باريس من أفراح وأحزان.

أما أنا فقد تأملت أحجار النبع الياباني التي يبدو على سيمائها أنها جاءت من قرية في آفار فقد قلت في نفسي: «أيتها اليابان العجيبة! فيك كل ما في بلاد العالم، ومع ذلك فأنت لا تشبهين واحداً منها. إنك اليابان».

يا كتابي! يمكن لكل إنسان أن يجد فيك شيئاً من ذاته، ولكن عليك أن تبقى كتابي، ابق كما أنت، لا تشبه كتاباً آخر. أنت بيتي الآفاري، بيتي الداغستاني، يمكن أن يستريح في هذا البيت، وجنباً إلى جنب، كل ما لم يكن فيه حتى الآن، وكل ما كان فيه منذ عصور.

كان أبي يقول: إذا لم نر المؤلف، في أثره الأدبي، فكأننا نرى حصاناً يجري دون فارس.

يقال: كان هناك جبلي لا تنجب أسرته إلا البنات. وكان يحلم بصبي. وتصور كل من في الجبل أن من واجبه أن ينصح الأب المنكود. وانهالت النصائح عليه حتى ثار غضبه وصاح:

كفوا عن نصائحكم، فقد كدت أنكر ما أعرفه.

بناء هذا الكتاب

الموضوع

حجارة نحن. ما نلبث أن نرصف
في جدار قصر أو معبد أو سجن
(كتابة على حجر)

ينظر إلى الحجر الكريم في إطاره،
وإلى الرجل في بيته.
انتهى العرس ـ يجب بناء المسكن.

قصور الأفكار الواسعة، وأبراج التأملات الثقيلة، وبيوت القصص، ومسلات الأشعار السامقة.. ها أنا ذا قد جلبت الحجارة، وأعددت الخشب، واخترت موقعاً ليرتفع فيه البناء الجديد. والآن علي أن أكون بعض معماري وبعض مهندس ورياضي وبناء ومصمم.

فأي بناء أبني؟ وأية ملامح أهبها له كي يبهج البناء العين؟ كي يكون متناسقاً وجميلاً، كي يكون غريباً وأليفاً في آن. أن لا يكون صغير الحجم كما في الشقق الحالية حتى ليمس الرأس السقف. ولا ضخماً حتى ليجب على الإنسان أن يرفع رأسه ليرى السقف، أن لا يكون ضيقاً فلا يمكن إدخال منضدة عادية من الباب، وأن لا يكون واسعاً فتستطيع

أن تدخل من الباب على جمل. أن لا يكون حوشاً أو نادياً يستمع فيه الناس إلى حفلة غناء وينصرفون، وأن لا يكون جامعاً يقصده المصلون فقط. أن لا يصلح ليكون دائرة محشوة بالشهادات والتصاريح، وأن لا يشبه طاحونة علي، التي تدور دائماً.

قال والدي بعد أن قرأ قصيدة جبلي شاب:

ـ جدران هذه القصيدة جميلة أكثر من اللازم. إنها تشبه القن الذي بناه علي كيبيد القن يجب أن لا يذكرنا بالقصر، والقصر لا يجوز أن يستعمل كقن.

وقال والدي لكاتب بعد أن قرأ له قصة قصيرة أطول من اللازم، كان يبدو أن الكاتب لا يستطيع أن ينتهي منها:

ـ لقد فتحت باباً لا تستطيع إغلاقه، وفتحت صنبوراً لا تستطيع أن تسده. لقد بللت الحبل أكثر من اللازم حين عقدت العقدة.

أذكر أن المغنين كانوا يقصدون قريتنا في طفولتي. كنت أتمدد على طرف السطح وأنظر إلى الطريق تحتي وأستمع إلى المغنين. كانوا يعزفون، بعضهم على الدف وبعضهم على الكمان، وبعضهم على لتشونفور وأكثرهم على الكوموز.

كانوا يأتون من أماكن مختلفة وفي أوقات مختلفة، وكانوا يغنون أغاني مختلفة ولا يكررون أبداً الأغنية الواحدة مرتين وكان يعجبني بنوع خاص مغنيان أو ثلاثة يتبارون فيما بينهم.

كانت الأغنيات طويلة وقد نسيتها كلها. لكن بقيت في ذاكرتي من كل أغنية تقريباً أربعة أبيات وأحياناً ثمانية وأحياناً بيتان. هذه الأبيات التي استقرت في ذاكرتي كانت على ما يبدو أكثر شاعرية أو أشدها لذعاً أو أشدها ذكاء، أو أشدها فرحاً أو أشدها حزناً.

لا أدري لماذا أذكر أبياتاً دون غيرها لكني أحملها في ذاتي إلى الآن وأرددها أحياناً كأنها أقرب الأشياء وأكثرها صميمية، كأنها اسم الحبيبة.

وعلى أية حال ففي الأغنيات الآفارية الأخرى التي أعرفها عن ظهر

قلب من بدايتها حتى نهايتها، توجد مع هذا أبيات مختارة أحبها أكثر من باقي الأغنية.

وما الأغنية؟ أنا أيضاً أميز في أشعاري ذاتها بعض الأبيات وأحبها ـ إنها تبدو لي أنجح وأقوى وأكثر شاعرية من الأبيات الأخرى. وأعترف لكم بسر وهو أنه عندي قصائد طويلة كتبتها فقط من أجل بعض أبيات عزيزة علي.

هذه الأبيات هي خنجر على سير. إذا كانت القصيدة سيراً، وهي السنابل في الحقل، إذا كانت القصيدة حقلاً، وهي جناحا الطائر، إذا كانت القصيدة طائراً، وهي عينا الأيل تنظران إلى البعيد إذا كانت القصيدة أيلاً يقف على طرف صخرة.

خطرت لي ذات مرة فكرة: إذا كانت توجد في القصدة ثمانية أبيات عزيزة علي مثلاً فلماذا أكتب ثمانين بيتاً آخر؟ ألا أستطيع أن أكتب فوراً الأفضل، هذه الأبيات الثمانية المختارة وحدها؟ وهذا هو السبب الذي جعلني أكتب ديواناً كاملاً من قصائد ثمانية الأبيات.

حين يسر الجبلي بمجيء ضيف، يأخذ سكينه ويذبح ثوراً. لكن الضيف لا يحتاج إلّا قطعة صغيرة من اللحم. فالضيف أي ضيف لا يستطيع أن يأكل ثوراً.

وفكرت في نفسي: «لماذا أذبح ثوراً كبيراً، إذا كانت دجاجة تكفيني؟».

ولهذا السبب أريد أن أحذف من الكتاب الذي سأكتبه يوماً ما كل ما هو زائد، وأن لا أبقي إلا على تلك الأماكن التي تكون عزيزة علي، حتى ولو كان الكتاب أطول بعشر مرات أو عشرين.

ذات مرة قرأ شاعر لاكي شاب أشعاره على أبي طالب بحضوري.

قرأ عشر قصائد، ولما ذهب الشاعر، قال لي أبو طالب:

ـ جيد على أية حال. سيكون له شأن.

ـ هل أعجبتك أشعاره؟

ـ أشعاره ضعيفة. ولكن هناك ثمانية أبيات يستطيع المرء من أجلها أن يعيد قلعة احتلها للتو. هذه الأبيات الثمانية لم يكتب أحد مثلها باللاكية.

إذا كانت في القصائد، والأغنيات أبيات لا تنسى ـ ثمانية أبيات أو أربعة أبيات ـ فهناك أيضاً لقاءات وأيام، وبالنسبة للبلد أحداث ومآثر، تبقى في الذاكرة. وإني لأرغب أن أضمها إلى جدران بنائي الجديد ـ كتابي الجديد، وأثبتها وأركبها. ولا أريد أن أستبدل بها كلمات توضيحية جميلة، بل أدعها تتكلم عن ذاتها.

آذار على شاطئ البحر شهر عاصف على الدوام. وذات مرة مرّ في آذار إعصار فوق ماخاتشكالا. تصادمت ريحان: ريح آتية من قزوين، وأخرى هابطة من الجبال. ريح هبت على المدينة آتية من عرض البحر، وأخرى عصفت بها منقضة من أعالي الجبال. أمسكت الريحان إحداهما بالأخرى في معركة قاسية، وتشابكتا، وبدأ الصراع. حين يتصارع عملاقان، يصبح من الخطر أن تجد نفسك بين أرجلهما. هذه المرة كانت ماخاتشكالا بين أقدام المتصارعين. وكل ما لم يكن ثابتاً، ما لم يكن متشبثاً بالأرض بقوة لفته الريح في اندفاعها: تطايرت الأشجار النخيلة، والعلب الفارغة، وسقوف الأكواخ، والصناديق الخشبية الرقيقة وكل النفايات.

لكن الأشجار العتيقة والبيوت القوية ظلت تقف في قوة وكبرياء متشبثة بالأرض، لقد ذهب كل ما هو خفيف ومتهافت، ولم يبق إلا ما هو جوهري وراسخ.

وهكذا الأحداث ومشاعر الإنسان وأفكاره، تكون ضحلة يحملها حتى نسيم الزمان الخفيف، وقد تكون قوية لا تستطيع حتى أعاصير الزمان العاتية أن تبددها وتعفو عليها.

من هذه الأحداث الراسخة، من هذه الأفكار، من هذه المشاعر يجب

عليّ أن أرفع البناء، بناء هذا الكتاب. يجب أن يبنى بالأسلوب الآفاري التقليدي، وفي الوقت نفسه، أن يكون حديثاً. يجب أن يبنى البيت بحيث تكون الأسرة سعيدة في العيش فيه، يكون الضيف أيضاً راضياً. يجب أن يبنى البيت حتى ليجد الأطفال فيه سعادتهم، والشباب حبهم، والشيوخ راحتهم.

كتابي بلدي داغستان. بأي ملامح أراك؟ وبماذا أشبهك؟ أبالنسر المحلق؟ لكن النسر ليس من صنع يدي الإنسان، الطبيعة أبدعته، وليس فيه شيء من فكرنا. بالطائرة، ربما؟ لكن الطائرة تحلق فوق الأرض أكثر من اللازم، وحين تندفع على الأرض، لا يرى حولها إلا منظر المطار. إني لا أحب أولئك الذين ينظرون إلى الأرض من فوق، ويتكلمون عنها من فوق.

كلا، إني أرى ملامح جهاز يطير كالطائرة، ويسير كالقطار، ويسبح كالسفينة، وأنا فيه الطائر والسائق والقبطان. نقطة انطلاقنا ـ مطارنا، مرفأنا، عنبرنا ـ هي داغستان الممتدة عبر آلاف السنين، وداغستان الخالدة. من هنا نستطيع أن ننطلق في الجو وفي البر وفي البحر إلى كل أصقاع المعمورة، وإلى حيث كنت، أو إلى حيث كان خيالي على أقل تقدير. ننطلق براً وجواً وبحراً، فنرى من نوافذنا الجبال المكللة بالثلج، والمروج اللازوردية اليانعة، والأنهار العريضة، والمحيطات التي لا حدود لها، ويمر قرب نوافذنا الربيع العاصف، والخريف القصير، والشتاء القارس، والصيف القائظ. وما أكثر المسافرين معي. هناك مريدو شامل بضماداتهم التي تنز دماً والجبليون الأنصار، ومعاصرون لي ـ أناس من مختلف المهن. وحولي كل الذين رأيتهم في وقت ما، والتقيت بهم، وتحدثت إليهم وما زلت أذكرهم.

نعم، لركوب كتابي ـ القطار، كتابي ـ الطائرة، كتابي ـ السفينة، هناك حاجة إلى بطاقة وحيدة، إلى بطاقة واحدة: يجب أن أذكر. يجب أن يكون الناس والأحداث كالأبيات الثمانية أو الأبيات التي بقيت في

ذاكرتي من تلك القصائد الطويلة التي كان المغنون المتجولون، ينشدونها، أن يكونوا كتلك الأبيات الثمانية التي نوّه بها أبو طالب بعد أن استمع إلى قصائد الشاعر الطويلة، أن يكونوا كتلك الأشجار والبيوت التي صمدت أمام الإعصار حين ذرت الريح كل ما هو خفيف وواهن كأنه أوراق خريف.

وإلّا أكون أشبه بمسلم من قرية كازانيشي. وسأروي لكم الآن ما جرى له.

في أيار حين تساق النعاج من السهب القائظ المغبر إلى الجبال الباردة، تقدم مسلم من قرية كازانيشي إلى اتحاد الكتاب بطلب مهمة ليكتب مقالات عن انتقال الماشية وعلى أي حال، قد يكون هذا قد حدث في أيلول، حين تساق النعاج، على العكس، من الجبال الباردة إلى السهوب الدافئة لتمضية الشتاء.

أعطينا مسلماً المهمة. سافر مسلم وقطع بكل أمانة كل الطريق مع الرعاة وأغنامهم، وحين عاد حملت دفاتره التي سجل فيها مشاهداته على فرس بمفردها. وقد تبين أنه كان يسجل ما يراه يوماً بعد يوم. لم يغفل قلمه أي شيء مهما كان تافهاً. كان يرى حصاناً فيسجل عنه ما يراه، ويرى راعياً فيسجل عنه ما يراه، ويرى نعجة فيسجل عنها ما يراه، وكم كان هناك من رعاة ونعاج! كان يسجل ما يراه ويسجل ما يسمعه. ومرة أخرى لم يهمل قصة ولا حديثاً. كتب عن الذين يسبقون الركب، ويجب إيقافهم، وعن الذين يتخلفون عنه ويجب حثهم. صار الكتاب لم أطول من الطريق ذاته. صار كتاباً تستدعي قراءته وقتاً طوله طول الوقت الذي استغرقته رحلته. وقد أخبرنا الرعاة فيما بعد أنهم التقوا ببغل وهم يصعدون قمة غمدين. وبالإضافة إلى أن مسلماً أخذ يكتب عن هذا البغل، فقد أراد أن ينظر إلى حوافره الأربعة.

اندفع مسلم إليه وأمسكه بقائمته الخلفية، وأراد أن يرفعها. ولم يكن

في وسع البغل أن يعرف نوايا الكاتب الطيبة، وكل أهمية الحدث، فرفس بشكل غير لائق مسلماً المتعطل هذا على أنفه تماماً.

كان الرعاة يضحكون حولنا:

ـ وهذا أيضاً يجب أن يسجله مسلم.

بالطبع، البغل حيوان متقلب الأطوار، ذو طبع رديء، لكنه كان محقاً هذه المرة. فالإلحاح الزائد يجب أن يعاقب.

وحين جرت مناقشة مؤلف مسلم في اتحاد الكتاب سألناه:

ـ قل لنا يا مسلم، لقد كتبت في كتابك عن كل شيء بدءاً من حمار قرية خاريكولو وانتهاء بحافز البغل. فلماذا أغفلت الأجم؟

ـ ماذا تقولون، كيف أستطيع أن أغفله! الأجم موجود عندي، لكني تحدثت عنه باللهجة المحلية. إنه يسمى عندي «خانكفا». ضحكنا كلنا. لكننا حاولنا بعد ذلك أن نفهم مسلماً أن على الكاتب أن لا يكتب كل ما يراه، إنما عليه أن يختار من كل شيء ما هو لازم له. فجملة واحدة تستطيع أن تعبر عن فكرة كبيرة، وكلمة واحدة تستطيع أن تعبر عن عاطفة كبيرة، ومشهد واحد يستطيع أن يعبر عن الحدث كله.

منذ فترة ليست بالبعيدة أعيد تنظيم مختلف الأمور عندنا. وما زلنا حتى الآن لا نمل من إعادة تنظيم أمر ما بين الحين والآخر. ولقد أصبت أنا أيضاً بعدوى إعادة التنظيم. فها أنا ذا أعيد تنظيم النوع الأدبي الذي أمتلك ناصيته، وأضم كل الأنواع في كتاب واحد، وأتحكم فيها كيف أشاء. أقلص عدد الملاك حيناً، وأزيده حيناً آخر. وأبدل في مكان الأنواع، فأمزج اثنين أو أقسم واحداً إلى اثنين. فإذا قمنا بإعادة تنظيم متواترة جداً، فلا بد أن تنجح إحداها ولو مصادفة.

مثل الجبلي الذي أتى إلى ماخاتشكالا: أتى جبلي إلى ماخاتشكالا في مهمة. وكان معه مال كثير، ولكنه ليس ماله بل المال المرصود

لمهمته. كان يتغذى ويتعشى في أحد المطاعم الفخمة. وكان يوم وصوله يصيح بصوت عال يسمعه كل من في المطعم:

ـ هات أيضاً كونياكا أيها النادل!

وكان الجميع يسمعون ويتلفتون نحوه ويعجبون منه: من يكون هذا الذي يشرب إلى هذا الحد، ولا يضن بكل هذا المال على الكونياك الغالي الثمن.

وفي آخر يوم من أيام مهمته سأل جبلينا النادل نفسه بصوت خفيض، هامس:

ـ كم ثمن صحن حساء الشعيرية عندكم؟

وهكذا، لا يعرف الثور في بداية الحراثة بل في نهايتها، لا برفساته وهو في المرج، بل بمشيته وهو تحت النير. ولا يتكلمون عن الحصان حين يمتطونه، بل حين ينزلون عنه.

ألست أنفخ في كتابي كما ينفخ الإنسالتيون الأنبوب؟ ألست كالسيفوخيين أصنع مدفأة من خشب؟ ألست أقتل الكلب مكان الذئب، كما فعل مواطني التسادينيون ذات مرة؟

حين تبدأ طريقك إلى هدف ما، يكون الهدف بعيداً، فهل تتوفر لي الشجاعة والحب والصبر كي أبلغه؟ أم أني سأخطر في نهاية الطريق أتلمس رقبتي وأفكر في سعر حساء الشعيرية؟

ذكرى: حل في داغستان ذات مرة شتاء قارس، على حين غرة سقط ثلج غطى الأرض حتى ارتفاع متر تقريباً. فبقيت النعاج والخراف دون علف، وأخذت تنفق. استدعيت إلى فرع الحزب وقيل لي هناك:

ـ اذهب يا رسول إلى الأغنام في مشتاها، يجب إنقاذها.

ـ وأية مساعدة يمكنني أن أؤديها.

ـ سترى ذلك على الطبيعة، وستفكر في الطريقة. يجب أن نجد طريقة لإنقاذها.

أنا لم أكن أعرف الطريق المؤدي إلى الأغنام كما يجب حتى في اليوم الصاحي، فكيف لي أن أجد الطريق في يوم ثلجي عاصف؟ لكن الانضباط الحزبي فوق كل شيء فأخذت أهيم فوق الثلوج في الرياح. وأخيراً وقعت على قطيع غنم. استقبلني هناك رعاة حزينون، تحولت الدموع على خدودهم وشواربهم إلى خرزات جليدية قاتمة. وكانت النعاج بأشداقها الدامية تحاول الوصول إلى العشب من خلال الثلج المتجمد لكنها لم تكن تتمكن من ثقب القشرة المتجمدة بقرضها. وكانت تهلك. كانت الكلاب تختبئ من الريح في أماكن معزولة هادئة دون أن تفكر في الذئاب أو في اللصوص. وبكلمة موجزة ـ المصيبة والعجز ـ هذا ما وجدته هنا.

ابتسم الرعاة بمرارة حين رأوني:

ـ القصائد والأغاني ـ هذا ما ينقصنا الآن. هل أتيت لتقرأ لنا أشعاراً أو لتغني لنا أغنية، يا ابن حمزة من قرية تسادا، الأفضل أن تنظم لنا رثاء وسننوح معك.

مكثت ثلاثة أيام في كوخ الرعاة، ولما رأيت أن لا فائدة من وجودي، ولا يمكن أن تكون هناك فائدة، أدرت للرعاة ظهري، وتوجهت إلى ماخاتشكالا.

وسئلت في فرع الحزب:

ـ كيف، هل أنقذت الأغنام؟

ـ أنقذت ثلاثة خراف.

ـ كيف ذلك، أخبرنا.

ـ الأمر بسيط جداً، لقد ذبح الرعاة ثلاثة خراف وأكلناها. وإني لأعتبر أني أنقذت هذه الخراف.

ـ طيب ـ ساد الغضب فرع الحزب ـ اذهب واهتم بأشعارك، أما إنقاذ الأغنام فسنقوم به نحن دونك على ما يبدو. ولكي تنظم أشعارك بشكل أفضل، هاك إنذار صارم.

أرجو أن لا يحدث شيء من هذا القبيل لكتابي. أخرج لأنقذ الأغنام، ولكن بماذا أعود؟ النهار الذي يبدأ عند الفجر لا يكون دائماً كما نتمناه.

ذكرى: أذكر اليوم الأول من دراستي في المعهد الأدبي في موسكو. صادف عيد ميلادي، مع بدء الدراسة. لم يهنئني أحد بالطبع، لأن أحداً لم يكن يعرف أني ولدت في هذا اليوم. وكان معي نقود أعطاها لي والدي لأشتري معطفاً.

وقلت لنفسي: «هيا بنا، يا رسول المسكين، نقدم لك هدية في عيد ميلادك ـ لنشتر لك معطفاً». أخذت نقودي وذهبت إلى سوق تيشنسكي.

أي أسواق كانت في موسكو آنذاك، في السنوات الأولى بعد الحرب! كان لها قوانينها ومهربوها وشرطتها. ويبدو لي أنه كان بإمكانك أن تشتري هناك وقتها كل شيء اللهم إلا حماراً أو حمارة.

كانت سوق تيشنسكي تشبه أكثر ما تشبه بيت نمل مذعور. بقيت ساعة كاملة أتدافع بين الناس الذين كانوا يلوحون أمام عيني بمختلف أنواع البضاعة: بزات، جزمات، سترات رسمية، معاطف، سدارات، أثواب، كنزات، أحذية، عكاكيز...

كنت أريد في ذلك الوقت أن أبدو كوزير. فأخذت أبحث وسط هذا الزحام عن معطف ما إن أرتديه حتى أصبح وزيراً. وأخيراً شاهدت شيئاً يشبه ما أريده ملقياً على كتف نصّاب. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك سدارة من لون المعطف ومن قماشه نفسه.

بدأت من السدارة بالطبع، قستها ونظرت إلى نفسي في مرآة صغيرة ـ وزير حقيقي. وأخذت أساومه. في البداية، حين كنت أذكر له سعراً ضئيلاً بصوت عال ومفهوم، كان يتصنع الصمم، وحين ذكرت له همساً السعر الحقيقي سمعني على الفور وضرب كفاً بكف. أعطيت النصاب المعطف ليمسكه، حتى أستطيع أن أعد بارتياح أوراقي النقدية من فئات

الثلاثة والخمسة روبلات. عددت ألفين ومائتين وخمسين روبلاً، وسلمتها له، وعدت إلى المدينة الجامعية بكل أبهة وجلال، بمظهر وزير فعلاً. ووقتها فقط تذكرت أن المعطف بقي مع النصاب. وهكذا لم أشتر بهذين الألفين والمئتين والخمسين روبلاً إلا سدارة.

بقيت دون معطف ودون مال إذاً، وأنا أحلم بأن أبدو كوزير. وأرجو أن لا يحدث شيء من هذا لكتابي!

الجميع يعرفون ما هم في حاجة إليه، لكنهم لا يستطيعون كلهم بلوغه. الجميع يرون هدفهم، إنما لا يستطيع أي كان أن يبلغه. وهناك أناس يبدو لهم أنهم يعرفون كيف يجب أن يكتب كتاب، لكنهم لا يستطيعون كتابته.

يقال: الإبرة الواحدة تخيط ثوب العرس والكفن.

يقال: لا تفتح باباً لا تستطيع بعد ذلك أن تسده.

العبقرية

«احترق لتضيء»
(كتابة على سراج أيقونة)

أسطورة الشاعر والسمكة الذهبية:

زعموا أن شاعراً سيئ الحظ اصطاد في بحر الخزر سمكة ذهبية.

وتوسلت إليه السمكة:

ـ يا شاعر! يا شاعر! أعدني إلى البحر.

ـ وبماذا تجزينني بديلاً عنك؟

ـ كل آمالك السرية أحققها لك.

وكان الشاعر سعيداً جداً فأطلق السمكة الذهبية. وجعلت كل أنواع النجاح تنصب فوراً على الشاعر. نشروا مجموعات أشعاره مرة بعد مرة. وأصبح له بيت في المدينة ودارة فاخرة في الريف. وأصبح الشاعر شهيراً يدور اسمه على ألسنة الناس جميعاً. الأرض كلها هنا تحت قدميه كأنها شاشليك وضعت على السفود محفوفة بالبصل مضمخة بعصير الليمون.

يكفيه أن يمد يده: خذ وامرح. وقالت له زوجته وهي تلقي على لسانها هذه الكلمة من كلمات القدر ذات يوم وقد أصبح زوجها عضواً في المجمع العلمي ونائباً وحامل أوسمة:

ـ لماذا إذن لم تطلب من السمكة الذهبية أن تهب لك قليلاً من العبقرية.

وكأنما أشرقت نفس الشاعر، وأدرك ما كان ينقصه حتى الآن. وهرع إلى البحر ونادى السمكة:

ـ أيتها السمكة الصغيرة! أيتها السمكة الجميلة! هبي لي شيئاً ولو قليلاً من العبقرية.

وأجابت السمكة الذهبية:

ـ وهبت لك كل شيء.. كل ما اشتهته نفسك. وكل ما سوف تشتهيه يمكن أن أهبه لك. أما العبقرية فلا.. لا أستطيع.. أنا نفسي لا أملك منها شيئاً. ولو نصيباً يسيراً من العبقرية الشعرية.

وهكذا إما أن تكون صاحب عبقرية أو لا تكون. لا يستطيع أحد أن يهب لك العبقرية، ولا يستطيع أحد أن ينتزعها منك. يجب أن يولد الإنسان وتولد معه عبقريته.

وأدرك شاعرنا الذي غمرته السمكة الذهبية بألوان النعم أنه غراب يلبس ريش طاووس. وفجأة سقط عنه الريش المزيف، بل فقد في الوقت نفسه ريشه الخاص، وأصبح الشاعر أسوأ حالاً من كل وقت مضى. تكرار الدعاء لا يفسده وكذلك أكرر أن من شروط من يكتب أن تكون له عبقرية، ومن أين يمكن أن نحصل عليها إذا كانت السمكة الذهبية نفسها ليس لها منها شيء؟

حكى والدي قال: استقبلت يوماً شاعراً من الجبل قدم من قريته البعيدة ليقرأ علي شعره، وأصغيت إلى الشاعر الطري المتدرب، وبينت له المقاطع القاتمة، والمقاطع الضعيفة، وشرحت له كيف يمكن أن أكتب أنا حمزة تساداسا هذه القصائد.

وصرخ الجبلي:

ـ ولكن يا عزيزي حمزة يجب أن يكون الشاعر عبقرياً ليكتب مثل كتابتك.

ـ أنت على حق.. قليل من العبقرية لا يضرك.

ـ ولكن أين أجدها؟ انصحني..

كان ذلك سؤال الجبلي، وهو مسرور، ولم يدرك ما في جواب حمزة من سخرية.

ـ مررت بالمخازن اليوم فلم أجدها، لعل من الضروري أن تقوم بجولة في السوق.

لا ندري من أين تأتي العبقرية إلى الإنسان؟.. هل هي عطية الأرض أو هبة السماء، لعلها أن تكون بنت السماء والأرض معاً؟ لا نعرف أيضاً أين تقيم: هل هي في القلب؟ أو الدم؟ أو الدماغ؟ هل عششت في قلب الإنسان الصغير عندما ولد؟ أو أن الإنسان لقيها بعد ذلك على طريقه الصعبة فوق الأرض؟ وما الذي يكفل أحسن غذاء لها؟.. الحب أم الحقد؟ الفرح أم الألم؟ البسمات أم الدموع؟ أم أن كل أولئك ينبغي أن تجتمع لتنمو العبقرية ويشتد عودها؟ هل هي وراثية؟ أو أن الإنسان يراكمها شيئاً بعد شيء في نفسه وكأنها محصلة لكل ما رأى وسمع وقرأ وعانى وعرف؟

هل هي ثمرة الجهد أو لعبة من لعب الطبيعة؟

هل هي لون العيون الذي يجده الإنسان عند ولادته، أو أنها العضلات التي يكتسبها وهو يمارس الرياضة كل يوم؟ هل هي شجرة التفاح التي تنمو بما يحيطها به البستاني من رعاية وعناية أو هي التفاحة التي تسقط بين يدي الطفل وهو يلعب في البستان؟

العبقرية هي أشد ما في الوجود غموضاً وسراً، ولو أن الناس عرفوا في يوم من الأيام كل ما في الأرض: ماضيها ومستقبلها، وعرفوا كل ما في الشمس وما في الكواكب، والنار والأزهار، وعرفوا كل شيء في

الإنسان لبقيت العبقرية مع ذلك شيئاً لا يعرفونه حتى بعد معرفتهم كل شيء:

من أين تأتي؟ وأين توجد؟ ولماذا كان نصيب هذا منها أكثر من نصيب ذاك؟

لا تشابه عبقرية إنسان عبقرية إنسان آخر، لأن العبقريات التي تتشابه ليست عبقريات على الإطلاق. وأكثر من ذلك أن العبقرية لا تتعلق بالتشابه الذي يمكن أن يقع بين أصحابها.

لقد رأيت كثيراً من الوجوه التي تشبه وجه أبي، ولكني لم أرَ في أي مكان عبقرية أبي.

العبقرية ليست وراثية، لو كانت كذلك لسادت في الفن السلالات الملكية. وليس نادراً أن يولد الأحمق من حكيم وأن يصبح ولد الأحمق حكيماً.

عندما تقطن العبقرية إنساناً ما فهي لا تعبأ إن كان بلد هذا الإنسان كبيراً أو غير كبير، ولا تكترث إن كان عدد سكانه كثيراً أو غير كثير. وظهورها نادر غير متوقع، وعجيب، كأنما هو لمح البرق، قوس قزح، مطر في صحراء تموزية لا تنتظر المطر.

كيف أضعت صديقي Koumak: كنت يوماً في مكتبي عندما اقترب فارس من البيت.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

ـ جئت يا رسول إليك لأرجوك أداء خدمة صغيرة.

ـ ادخل وضع عريضتك على المنضدة. وسحب الشاب من جيبه عدة أوراق وضعها على المنضدة. وكانت واحدة منها رسالة كتبها صديق كبير لوالدي طالما كان من ضيوفي. كتب لي صديق البيت وصديق الأسرة:

«عزيزي رسول؟ هذا الشاب واحد من أقاربنا الأقربين، وإنسان جيد جداً. ساعده على أن يصبح شاعراً معروفاً مثلك».

أما الأوراق الأخرى فكانت: شهادة من السوفيات المحلي.. شهادة من المزرعة التعاونية، مصدقة من منظمة الحزب ووثيقة تعدد صفات الفتى.

تذكر شهادة السوفيات المحلي أن الرفيق فلاناً هو ابن أخ الشاعر الشهير محمود من كاخاب ـ روسو، وأن السوفيات يعتبره جديراً بترشيحه له شاعراً داغستانياً شهيراً.

والشهادات الأخرى تذكر أن ابن أخ محمود بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وأنه درس تسع سنوات وأن صحته جيدة.

ـ حسناً.. كل شيء كامل.. والآن هات ما عندك من آثار.. قد تكون ذا موهبة وقد تصبح فيما بعد شاعراً كبيراً.. وأنا سعيد جداً بمد يد المعونة إليك وبتحقيق رغبات صديقنا المشترك.

ـ كيف! لقد أرسلوني إليك لتعلمني نظم الشعر.. أنا لم أحاول قط نظمه.

ـ وماذا تعمل على العموم؟

ـ أعمل في المزرعة، ولكن هذا العمل لا يجدي شيئاً. يسجلون لحسابي أيام عمل ولكنها لا تكاد تدفع. وأسرتي كبيرة، وعندئذ فكروا في إرسالي لأعمل شاعراً، أنا أعلم أن عمي محموداً يربح أرباحاً غير قليلة أكثر مما أربح في المزرعة. ثم إنهم يقولون إنك أنت يا رسول تنال مبالغ ضخمة.

ـ أخشى كثيراً ألا أستطيع أن أجعل منك شاعراً رغم كل ما أملك من رغبة.

ـ كيف، ولكني ابن أخ محمود.. وذلك مكتوب على الشهادة.. السوفيات المحلي يرشحني لهذه الوظيفة، ومنظمة الحزب تؤيد ترشيحي.

ـ حتى إذا كنت ابن أخ محمود.. كلنا نعرف أن أبا محمود كان فحاماً ولم يكن شاعراً.

ـ إذن أين العدل؟.. أنتم هنا في ماخاتشكالا معشر الشعراء والكتاب تتقاسمون فيما بينكم شحم الأدب ولحمه.. فكيف لا أستطيع الحصول على شيء من المصارين؟

أنا أقبل المصارين.. ماذا أصنع الآن؟ ساعدني على السكن في مكان ما.. كل شهاداتي صحيحة قانونية.

واستطعت تخصيص مساعدة صغيرة مالية له من (ليتفوند) باعتباره ابن أخ محمود، ثم أصدر مدير معمل الآلات الكهربائية أمراً بتعيينه في المعمل بعد شفاعتي.

ورغم ذلك كله ظل المرشح للقب شاعر غير راضٍ عن حظه، ولم يلبث أن أرسل أبوه، صديقنا، كتاباً غاضباً:

«كان أبوك حمزة يلبي كل ما أطلب منه. ولم يرفض لي طلباً. وأنت يا ابن حمزة تأبى أن تحقق لنا خدمة صغيرة: إدخال ولدي في الشعراء. يظهر يا رسول أنك أصبحت مغروراً وأنك لا تشبه أباك. لم يحدث أن قطعت صلتي بصديق، ولكني هذه المرة يجب علي أن أقطعها. الوداع...».

ـ وهكذا أضعت صديقاً عزيزاً حرمتني إياه العبقرية أو على الصحيح غياب العبقرية.. الحق أن صديقي كان رجلاً جد طيب، ولكنه لا يمكن أن يفهم أن ليس في مستطاع أحد، لا رئيس اتحاد الكتاب ولا أمين سر الحزب، ولا رئيس الحكومة توزيع العبقرية على الناس كما توزع أعضاء الشاة على الجبليين الملتفين حول المائدة، حين تقدم الشاة، والبخار المحرق يغطيها.

مثلاً: يمكن أن نرى في دروب داغستان عربة محملة تصعد سفح جبل: واحد يجرها من أمام وآخر يدفعها من وراء.

مثلاً: يمكن أن نجد سيارة شحن كبيرة تجر بحبل سيارة موسكيفتش وقعت في الثلج.

مثلاً: يمكن أن نرى سيارة شحن ضخمة وبطيئة تسد الطريق على سيارة خفيفة سريعة. . طريق الجبل ضيقة، والسيارة الخفيفة ليس لها سبيل إلى تجاوز السيارة الثقيلة.

حسناً، ولكن العبقرية ليست عربة يمكن سحبها من أمام أو دفعها من الخلف، العبقرية ليست سيارة موسكيفتش يمكن جرها بحبل، العبقرية ليست سيارة لا يمكن أن تتجاوز سيارة أخرى لتندفع إلى أمام.

ما من حاجة إلى دفع العبقرية من خلفها ولا إلى جرها باليد. إنها تشق طريقها بنفسها ثم إذا هي في مقدمة الناس جميعاً.

ومع ذلك ما يزال كثير من الناس يأملون أن يسحبوا أو يدفعوا.

هذه قصة قصيرة يمكن أن يكون عنوانها:

يمكن أن تكون عجوزاً، نعم، ولكن أن تكون ذا عبقرية: عندما كنت أدرس في معهد الآداب في موسكو لاقيت عدداً من الشعراء الروس كانوا هم أيضاً طلاباً في المعهد. حاولوا ترجمة قصائدي. ونشرت التراجم في عدد من الصحف والمجلات. وبفضل التراجم إلى الروسية انتقلت قصائدي إلى شعوب داغستان.

ودارت على بعض ألسنة السوء في ذلك العهد أحاديث تذكر أن رسول حمزة ليس قادراً في الواقع على نظم الشعر بلغة آفار، وأن بعض المترجمين الروس من أصحاب العبقرية يحاولون أن يجعلوا منه شيئاً ما، وأن ما يكتبه إنما يستجيب فيه إلى ذوق القارئ الروسي.

وبالمناسبة أتذكر دائماً حكاية شاعر داغستاني. في بلادنا أقلية من السكان تسمى (تات) لا تكاد تبلغ خمسة عشر ألف نسمة، ومع ذلك فهناك خمسة أو ستة كتاب مرموقين من (تات) تعرفهم داغستان كلها. وقد نشرت مؤلفاتهم بلغتهم في ماخاتشكالا وترجمت إلى الروسية.

وأريد أن أقص عليكم حكاية شاعر من (تات) لا أريد أن أصرح باسمه.

عندما أتممت دراستي في معهد الآداب عدت إلى ماخاتشكالا، وبعد أيام من عودتي دعاني الشاعر التاتي إلى زيارته، وقدم لي طعامه في الهواء الطلق. وقرأ لي قصائده بلغة تات ثم ترجمها لي كلمة كلمة بالروسية لكي أستطيع فهم معانيها.

لقد أخذت بعين الاعتبار أني ضيفه، وأنه يمكن أن يعتقد أني أريد أن أعرض عليه معلوماتي التي تلقيتها في موسكو، وأن كل الشعراء يفضلون المدح على النقد، وأن كل نقد لا يمكن أن يساعده، وأنه أخيراً يرفع إلى عنان السحاب كل قصيدة من قصائدي، وكل بيت من أبياتي، كل ذلك حسبت حسابه فأثنيت دون حياء على كل ما قرأه لي من أشعاره.

الواقع أن بعض قصائده أعجبتني، وتحدثت عنها بكل ما يختلج في نفسي، ولكن قصائد أخرى لم تعجبني، فتساهلت ووافقت. ومنذ ذلك اليوم، وأنا أمد يدي ـ عقلياً ـ إلى أمواج بحر الخزر وأركع على ركبتي أطلب منها العفو عن هذه الأكذوبة. ثم جعلت، في خيالي، أدير وجهي إلى الجبال، وأمد يدي إلى قممها البيض، وأركع أمامها على ركبتي وأقول لها:

ـ عفوك عن تلك الأكذوبة.

وبعد أن قرأنا أشعارنا وتبادلنا المدائح سكتنا فترة من الوقت. أصغيت إلى البحر في بساطة، وكان صديقي ـ كما علمت بعد ذلك، مستغرقاً في أفكاره. وأخيراً استأنف الحوار على الشكل التالي:

ـ رسول أريد أن أصرح لك بفكرة هامة، هامة جداً. ولكن عدني ألا تقولها لإنسان. ووعدته بذلك. وتابع صديقي:

ـ أنت تعرف أننا نحن «التات» شعب جد صغير. وأشعر أني أضيق ذرعاً بقصائدي، وأنت تحسن إلي إذا وجدت لي قراء في موسكو. أريد أن أسير على هدي خطاك، وأذهب للعيش في موسكو. ولكن ليس لي هناك أقارب ولا أصدقاء، ولا علاقات، وليس لي سقف آوي إليه. ماذا

ترى؟ أيمكن إذا سافرت إلى موسكو بما سأقبضه من مال لقاء كتابي الجديد، أن أجد مأوى مناسباً؟

ـ ولم لا؟ إذا كنت تملك مالاً تستطيع أن تستأجر غرفة.

ـ لست أتكلم عن هذا. هل يمكن أن أجد زوجة؟ لتكن عجوزاً، لتكن مشوهة، لتكن ما تكون، شريطة أن تكون ذات عبقرية. . . شريطة أن تترجم أشعاري إلى الروسية، شريطة أن تجعل مني شخصاً ما، ذلك أني إذا استطعت أن أقف على قدمي وجدت طريقي الشخصي، وإلا فسوف أجف وأيبس في هذه القوقعة الوطنية.

وشرعت ألاحظه في انتباه. إنه قوقازي في الخامسة والعشرين من عمره، ذو عضلات، متوقد. يدان كبيرتان، وأصابع يغطيها الشعر. شعر صدره قاس كأنه مسامير مغروسة في حائط. في وجهه الأسمر ـ والذي يكاد يكون كستنائياً ـ شفتان غليظتان وعينان زرقاوان كالبحيرة، يمكن أن يظن رأسه رأس قنفذ. أسنانه بيض عريضة. ساقاه كأنهما عمودان، عضلاته بارزة في كل موضع من جسده. إنه إنسان بدائي من أبناء الطبيعة من ذا الذي يستطيع أن يجد زوجة في سهولة وفي مدينة تعد عدة ملايين من السكان، وبعد ثلاث سنوات من نهاية الحرب، من الذي يستطيع ذلك إن لم يكن صاحبي هذا!

وقلت له:

ـ يكفي أن تقف في وسط الشارع وأن تصفر صفرة واحدة حتى تجد كل الزوجات اللواتي ترغب فيهن يهرعن إليك.

وفرح صاحبي كأنه طفل، ومشى على يديه إلى البحر وقبل أن يغطس في الماء سألني:

ـ بماذا تنصحني؟ هل أسافر إلى موسكو بالطائرة أو بالقطار؟

ومضت ستة شهور. وذات يوم كنت أصعد إلى الطابق الثالث في سلم دار نشر (الطلائع) وأنا أنفض قبعتي المبللة بالثلج فالتقيت بالشاعر التاتي الذي دعاني إلى وليمة في بحر الخزر. كان يهبط السلم وهو

يمسك منشغة كبيرة تحت ذراعه. وقد لفت انتباهي أول الأمر الطريقة التي يحمل بها منشغته فهو لا يمسك بها في قبضة يده كما يصنع الكتاب العاديون ولكن تحت ذراعه كما يفعل المحاسبون وأمناء الصندوق. ولاحظت أيضاً أنه تغير تغيراً كبيراً خلال هذه الأشهر الستة. شعره الذي كان يشبه شعر القنفذ أصبح مسقولاً وموزعاً في جدائل تتضح فيها العناية وكانت له لحية مثل لحية (الديسبرست)[1] وظفر خنصره طويل مصقول محدد كأنه حربة. وفي بنصره خاتم له فص. وهناك شيء يشبه جناحي خنفساء مثبت في ياقته كأنه ربطة عنق. أنيق أناقة شيطان. وبعد التحيات المعتادة أصلح لي ربطة عنقي، وكانت منحرفة قليلاً. وشكرته طبعاً. وقدم لي أحمد زوجته وقدمني إليها.

قالت ومدت لي ثلاثة أصابع:

ـ تشرفنا.

عندنا في داغستان ليس من المألوف أن يقبل الرجل يد المرأة. وهكذا اكتفيت بمصافحة اليد مصافحة خفيفة، ولكنها جعلت تصرخ صراخاً عالياً، حتى كأنني كسرت أناملها جميعاً.

ـ عفواً.. أنا جبلي غير متمدن.. لم أكن أقصد..

ـ لقد آن الأوان لتصبح متمدناً.

ثم اقتربت من المرآة، وهي تغنج كأن المرآة يمكن أن تصلح شيئاً ما من هيئتها.

نعم. لقد كانت عجوزاً مشوهة، وتضع على وجهها مساحيق تكفي لتجصيص منزل صغير. وأشد ما أسفت له أن أبا طالب لم يكن معنا. إذن لوجد لها الجواب المسكت.

يقولون: لا شيء يمكن أن يتجاوز ما يتمتع به الثعلب وذنب الثعلب من مكر. ولكن أي محجن استطاع أن يظفر به هذا الثعلب الفضي لكي

---

(1) فئة من الثوار قاموا بثورتهم في كانون الأول (ديسمبر) وسموا باسمه.

يجد نفسه معلقاً في عنق هذه العجوز الخبيثة. ومضت المرأة في طريقها إلى كشك الجرائد وبقينا قليلاً وحيدين.

ـ ماذا حدث لك؟ وكيف أنت يا صديقي أحمد؟

ـ أوه أشعر أني بقرة ربطت في بيدر العدس.

إن امرأتي تدير أعمالي. لو عرفت ما تتمتع به من ثقافة. رأس ويا له من رأس. تعرف جيداً بلوك وماياكوفسكي. وكانت صديقة سيرجي إيسينين. وزارت باريس. وهي تتحدث بالإنكليزية. لنا بيت مؤلف من أربع غرف، وليس لنا جيران. ما عندنا أولاد ولكن لنا كلباً صغيراً اسمه طرزان. كلب ياباني أصغر من قطة.

ـ حسناً أراك محظوظاً. أين نذهب الآن؟

ـ حملت بعض القصائد إلى مجلة (مورزيلكا) ولكن المحرر وجدها أشد عمقاً مما يقبل الأطفال الصغار. وفكرت في إرسالها إلى مجلة (للزراعيين التعاونيين الشباب) فنالت رضاهم، ولكن يجب الإلحاح قليلاً لإبراز كلمة (زراعي تعاوني). وسأتمم ذلك الليلة وأحملها إليهم غداً.. نعم يا رسول، هكذا حقاً يجب أن تعمل وتعيش. تقول لي زوجتي دائماً: إنه حتى الأطفال حين يتعلمون المشي يتحركون وهم يزحفون. بعد ذلك سوف أكتب قصائد جيدة.

وعادت الزوجة إلينا وقالت في صوت رقيق وآمر في وقت واحد:

ـ أليوشا هيا بنا نطعم طرزان ثم نمضي إلى (التمساح) وإلى (الفتاة العاملة).

ولم نلتق مدة طويلة بعد ذلك. ثم تلقيت منه رسالة يطلب فيها أن أوصي له بصنع جرة في بالخاري تحمل هذه العبارة: «إلى زوجتي العزيزة».. وأوصيت بها وأنا أفكر في نفسي:

«يمكن أن يكون صحيحاً أنها تعمل كثيراً من أجله». كانت أشعاره التي تترجمها زوجته تنشر أحياناً في (موزيلكا) وفي (الطلائع) وفي

(التمساح). ولكنه لم ينشر شيئاً عندنا. في ماخاتشكالا بلغته الأم. وطلبنا إليه مراراً أن يرسل إلينا شيئاً فلم نتلق جواباً.

ولم نلتق ثانية إلا بعد خمسة عشر عاماً. كان يعقد في موسكو مؤتمر دام عشرة أيام للفن الداغستاني. وجاء أربعون شاعراً من داغستان إلى موسكو. وألقينا قصائدنا في لغات متعددة، في قاعة الأعمدة، وفي مسرح الكرملين، وفي معمل للسيارات. أمام جنود فرقة كانتيميروف.

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر جاء صديقنا أحمد يبحث عنا في الكواليس يكاد يحلق الجدران. قال لي في استعطاف:

ـ رسول! أعدني إلى داغستان، لقد أردت هنا أن أصنع لي سناماً من الشحم، ولكني أضعت آخر ما أملك من ريش.

وهكذا عاد أحمد إلى داغستان. ولكنه لم يستطع تحقيق الانسجام في قيثارته ولا إدراك الدرب الصحيح. كأنه جام تصدع فسالت منه الخمر. ومهما جبرت صدع الجام لم تكف الخمر عن مسيلها.

وهكذا فإن المترجم لا يستطيع زيادة عبقرية من ليست له عبقرية. يقول ناس: إن أفندي كابيف صنع سليمان ستالسكي. ويقول آخرون إن سليمان ستالسكي هو الذي صنع أفندي كابيف. والحق أنهما كليهما يمتلكان ناصية العبقرية. عبقرية أفندي أبدعت أفندي، وعبقرية سليمان أبدعت سليمان.

سأنقل ذلك إلى إيزيا: هكذا يمكن أن أعنون قصة أخرى تذكرتها. لقد درست أنا ومحمد سليمان معاً في معهد التربية في آفار، وهو الآن كاتب داغستاني مشهور. كان منذ طفولته موهوباً مواهب مختلفة: يرسم جيداً، ويرقص جيداً وينظم قصائد. كان يحب حتى الجنون. (أوجني أونيجين) ويكاد يحفظها عن ظهر قلب. ومنذ ذلك العهد كان يفكر في ترجمتها إلى لغة آفار. بل إنه حمل معه قصيدة بوشكين إلى جبهة القتال.

. وفي نهاية الحرب وجدناه في مستشفى في موسكو وقد خرقته الرصاصات وشظايا القنابل حتى كأنه مصفاة. وتعرف في المستشفى إلى فتاة موسكوفية تدعى فاليا. وعندما شفيت جراحه تزوج بها وبقي في موسكو.

وعندما قدمت إلى موسكو لإتمام دراستي وجدت صديقي بعد الاستعانة بمكتب الاستعلامات. كنت لا أمل منه، ولا يمل مني، ولم تكن فاليا تعكر علينا حوارنا الطويل. كنا نظل طويلاً نحن الثلاثة نتحلق حول زجاجة خمر. محمد يحدثني عن الحرب وأنا أحدثه عن داغستان والجبال وقريتنا مسقط رأسنا، وأقرأ له قصائد، قصائدي وقصائد أصدقائي من شعراء آفار. ثم سألته عما ينوي أن يفعل في مستقبل أيامه.

ـ فكرت طويلاً فيما ينبغي أن أشغل به نفسي. إن لفاليا عمة، وعمتها تعرف رجلاً ذا نفوذ كبير في موسكو يدعى (إيزيا) ورأت العمة أنني أتعذب في بطالتي، وقالت لي: ولماذا أنت مشغول البال؟ سأحدث إيزيا عنك وسيتولى هذا الأمر كله، والواقع أن (إيزيا) وجد لي مركزاً مرموقاً في المجمع العلمي. وأنا فيه أعمل منذ ذلك الحين.

ـ والرسم.

ـ لقد رسم الرصاص جسدي رسماً يكفيني.

ـ والشعر؟

ـ كنا أطفالاً يا رسول. أما الآن فأنا رجل كهل جدي ويجب أن أجد عملاً جدياً.

ـ وأوجني أونيجين؟

وأطرق صديقي مفكراً. لقد لمست النقطة الضعيفة فيه.

ـ ولماذا لا تعود إلى داغستان؟

ـ وما أصنع بفاليا؟

ـ خذها معك.

ـ بيتي في القرية ولا أستطيع الذهاب مع فاليا إليها. ثم إنها لا تستطيع التحدث إلى أمي، ولست أستطيع أن أجد مترجماً لتفهم فاليا أمي، ولتفهم أمي فاليا.

وقبل أن أنهي هذا الحوار الشاق مع محمد رفعت نخب صحته وصحة فاليا وصحة أوجيني أونيجين.

وعدت لأرى صديقي في لقاء لاحق، فذكرت لي فاليا أن محمداً تغير تغيراً كبيراً. حتى لتكاد لا تعرفه. وهو يغتنم كل لحظة من لحظات فراغه في الليل وفي النهار لكتابة أشياء لا يلبث أن يمزقها. وهو ينسى معها أن يأكل ويشرب ويرتاح.

وبعد أن لاحظت عمة فاليا محمداً مدة طويلة سألته أخيراً عما يكتب؟ ولماذا يمزق ما يكتب؟ وأجابها محمد:

ـ أريد أن أصبح شاعراً. أريد أن أترجم أوجيني أونيجين لبوشكين إلى لغة آفار.

ـ ولماذا إذن كل هذه الحكايا ولماذا ترهق نفسك هذا الإرهاق.. سأنقل ذلك إلى إيزيا، وسيتولى هذا الأمر.

ـ كلا يا عمتي.. لا يستطيع إيزيا ولا رئيسه ولا زوجته مساعدتي لكي أصبح شاعراً. لا يستطيع تحقيق ذلك إلا أنا نفسي.

وبعد قليل أطلعني محمد على الفصل الأول من ترجمته لأوجيني أونيجين، وبعد ثلاث سنوات صار في مستطاع كل شعب آفار أن يقرأها بلغته الأم.

أي صورة أنشر؟ يظهر أن الزوجة النشيطة يمكن أن تسهم إسهاماً مقبولاً في نجاح زوجها. نعم لقد عرفنا أمثال هؤلاء الزوجات النشيطات. وهذه على الخصوص حالة شاعر داغستاني مشهور. كل الناس في اتحاد الكتاب وفي دور النشر وفي الصحف يكتسون لحم الدجاجة حين يذكر اسم زوجته.

وأنا أيضاً أخشاها إلى حد ما. ولذلك فلقد علقت في مكتبي لأكسب رضاها صورة زوجها. وتصورت أنها ستكون مسرورة بذلك وأنها ستعاملني معاملة أكثر رقة. ولكن ذلك لم يغن عني لديها إلا قليلاً. وذلك أن وجود صورة زوجها في مكتبي لم يزدني كوبكاً واحداً.

ذات يوم ألحت على دار النشر لتطبع فوراً مجموعة شعرية لزوجها، واعترض مدير الدار في خجل، وذكر أن قائمة المشاريع، في السنة الحالية، قد تم إعدادها وتوقيعها. وأن الورق غير كاف، وأن في الإمكان طبع المجموعة في السنة القادمة.

وصرخت المرأة في غضب:

أنت قليل الحياء. أنت تخشى في بساطة أن يرى الناس إلى أي حد تتفوق قصائد زوجي على قصائدك. ولذلك فأنت تحدثني عن تلك الأساطير في الورق وفي المشاريع. أوه. إني أرى جيداً ما يدور وراء رأسك. ولن أدع لك أن تنتصر علي. سأجبرك على طبع ديوان زوجي. قالت الزوجة ذلك ثم صفقت الباب وراءها ففرقع.

وما هي إلا ساعتان حتى قرع الهاتف عند المدير.

إنه أمين سر اللجنة المحلية للحزب.

وجعل يتوسل للمدير:

ـ بحق السماء! اصنع شيئاً ما كيلا تأتي إلي هذه المرأة. لم تتح لي فرصة لاستبدال زجاج مكتبي، لقد كسرته، وهي تضرب عليه بقبضة يدها.

وماذا كانت نتيجة ذلك في آخر الحساب؟ قذفوا بالحاج مراد من تأليف تولوستوي، نسفوا كتاباً للأطفال من تأليف حمزة تساداسا. وكلاهما كان مقرراً. وبدلاً منها حشروا المجموعة الشعرية لزوج هذه المرأة المقاتلة.

ويدا في الظاهر أن السلم قد ران على الدار أخيراً، ولكن فضيحة

جديدة لم تلبث أن ذر قرنها. إنهم لم ينشروا صورة زوجها الشاعر في مجموعته. وصرخت المرأة وهي تتميز غضباً.

ـ يا لكم من أوغاد. أنتم تخافون أن يرى الناس إلى أي درجة كان زوجي أكثر جمالاً منكم ولذلك فلم تنشروا صورته. وأجاب مدير دار النشر:

ـ كلا.. ولكننا في بساطة لم نعرف ما علينا أن ننشره في هذا الديوان. صورتك أم صورة زوجك.

وأجابت الزوجة في خبث:

ـ ولم لا؟ فليس من المؤكد تماماً أن يصبح شاعراً لو لم أكن إلى جانبه.

أبو طالب رأى هذا الشاعر ذات يوم فقال له:

ـ اسمع يا كوسا. تنازل لي عن زوجتك أسبوعاً واحداً، وسأحمل فوراً وسام جائزة ستالين.

ـ أتظن ذلك يا أبا طالب؟ أنا أعيش معها منذ عشر سنين ولم أتلق حتى جائزة الحاج حسون.

ـ إذن فاطلب منها شيئاً من العبقرية.

حوار بين أبي طالب وخاتمة: كان أبو طالب في أول حياته راعي غنم. ثم مارس مهنة نحاس، ولكنه ظل دائماً يحمل شبابة الراعي ويعزف عليها كلما وجد دقيقة من فراغ، وكانت مهنته تقوده من قرية إلى قرية، وها هم أولئك يقولون: إنه الآن في (كوالي) ويقول آخرون إنه في كوموخي، وها هو ذا في يوم من الأيام تأتيه فتاة تدعى خاتمة وتحمل إليه دلواً مثقوباً. وحثت خاتمة أبا طالب النحاس على إصلاح دلوها وهي تصرخ:

ـ لتكن سكايرك التي تلفها على أقل تقدير أكثر قصراً.

ـ فكري يا عزيزتي خاتمة أني سأجعل طولها ستة أقدام لأستطيع تدخينها مدة أطول.

وأخيراً غضبت الفتاة حقاً، وكان على أبي طالب أن يرد إليها قدرها بعد إصلاحه.

كان الدلو يلمع كأنه دلو جديد فقد عني به أبو طالب عناية فائقة. ولكن الفتاة لم تكد تستقي به الماء حتى نفذ منه. وبكت الفتاة غيظاً وعادت إلى أبي طالب.

ـ رغم كل الوقت الذي أضعته في إصلاح دلوي فهو ما يزال يرشح أكثر مما كان يرشح.

ـ لعل الشباب يرمون دلوك بالحصى فيثقبونه. فلماذا تغضبين يا خاتمة؟ لقد تركت فيه عمداً ثقباً صغيراً لتعودي إلي وأراك مرة أخرى.

ـ ولكن ليت الشباب يرمون الحصى على رأسك لا على دلوي.

ومضت الفتاة.

وتألم أبو طالب كثيراً، وتأججت نار حبه لخاتمة، يوماً بعد يوم. وكلما عظم اللهيب عظم الألم. ونظم أبو طالب في ألمه قصيدة يغني بها خاتمة وحبه لها. ثم كتب أغنية ثانية، ثم عشراً ثم عشرين، وهكذا أصبح شاعراً شهيراً.

وخلال ذلك تزوجت خاتمة شخصاً يسمى حاجي، ثم طلقت وتزوجت شخصاً ثانياً يدعى موسى.

وذات يوم كان الشاعر الشهير أبو طالب يمر بالسوق، فصرخت به امرأة:

ـ هيه يا أبا طالب أتستطيع إصلاح دلو؟

والتفت الشاعر ليرى خاتمة وقد أصبحت عجوزاً ناضبة مريضة.

ـ أنت تنفخ ريشك يا أبا طالب. انظروا إليه. إنه نائب، وله وسام! أحقاً أنك نسيت مهنتك عندما كنت نحاساً. ولكن فكر قليلاً. في الواقع إنني أنا التي جعلت منك شاعراً يا أبا طالب. ولو لم آتك بدلوي لإصلاحه في ذلك العهد لبقيت نحاساً في السوق.

ـ إذا كانت قدرتك تصل إلى هذا الحد يا خاتمة، وإذا كنت

تستطيعين حقاً أن تحولي الناس إلى شعراء، فلماذا لم تجعلي من زوجك الحاج شاعراً ثم أين أغاني موسى، زوجك الثاني، إننا لا نسمعها.

ومضى أبو طالب في طريقه وبقيت خاتمة مسمرة في مكانها، فاغرة فاها، لا تدري بماذا تجيب. ولم تتمالك مشاعرها إلا عندما هطلت عليها القطرات الأولى من المطر فأيقظتها.

كلا، ما من أحد يستطيع أن يخلق شاعراً من شخص ليس هو نفسه شاعراً.

حدث أبي قال: عندما بدأت أنظم قصائدي الأولى، قال صديق قديم لأبي وهو شخص مشهور جداً أو محترم جداً في داغستان:

ـ ما يلزم الآن لرسول هو أن يصبح عاشقاً ولهاناً. لا يهم إن كان سعيداً أو غير سعيد في حبه، أن يلقى استجابة لغرامه أو لا يلقى. بل إنه إن أحب ولم يحبه من أحب كان ذلك خيراً له، حتى إذا لم يلق من حبه إلا المحن والعذاب، عندئذ يصبح شاعراً كبيراً.

بل إن صديق والدي وجد فتاة جميلة جداً كان عليها أن تجعلني شقياً لأصبح شاعراً.

وأجاب أبي:

ـ أتعرف كم في العالم من عشاق؟ فهل هم كلهم شعراء؟ يجب أن تكون هنالك عبقرية لكي يحب الإنسان حباً جميلاً. ربما كانت العبقرية ضرورية في الحب أكثر مما يكون الحب ضرورياً للعبقرية. وليس في الأمر تناقض: الحب يجري مع العبقرية ولكنه لا يحل محلها. وأنا أقول مثل ذلك في عاطفة أخرى مناقضة للحب: هي الكره.

ـ ولكن خذ على سبيل المثال، محموداً فهو شاعر الحب.

ـ صحيح تماماً، محمود شاعر كبير. وذلك إلى حد بعيد بفضل محبوبته. وأنا أعتقد رغم ذلك أن هذه المحبوبة إذا لم تكن موجودة فإن محموداً على كل حال سيصبح شاعراً كبيراً. إن قوى القلق والثورة التي تتمخض في روحه لا بد أن تشق طريقها كما تشق النبتة الغضة الخضراء

طريقها نحو الشمس من خلال أكوام التراب الرطب الثقيل المظلم. ألا ترى العشب ينجم أحياناً من تحت الحجر؟

نعم إن العبقرية تتغذى بالعواطف الإنسانية القوية، من الحب والكره، كالنار التي تتغذى بالحطب اليابس. يمكن للقصيدة أن تبعثها بسمة مشرقة أو دمعة مرة. ولكني أريد أن أضرب لك مثلين:

أي ألم يعادل ألم الأم التي ثكلت ولدها؟ ها هم هؤلاء يحملون جثته إلى القبر، والناس مجتمعون. ولكن الأم تبقى خرساء. تبكي في بساطة، إنها لا تستطيع أن تجد الكلمات التي تعبر بها عن ألمها، هذه الكلمات التي تبكي بها الناس كما تبكي هي نفسها.

وعندئذ تأتي النائحات اللبقات، ليس في عيونهن قطرة دمع واحدة، لأن الفجيعة لغيرهن وليست لهن، ومع ذلك تجد الناس جميعاً يجهشون في البكاء في اللحظة التي تمارس فيه هؤلاء النائحات فنهن الرهيب.

أنا أقول إن هذا الفن رهيب، والحق أنه رهيب وقاس. والمسلمون يقولون وليس ذلك عبثاً: إن النائحات محكوم عليهن بالعذاب الأبدي في الحياة الآخرة كما يحكم على المنافقين والكذابين والمفترين.. ولكن هذا الفن فن إجبار الناس على البكاء ما يزال قائماً.

ثم إليك مثلاً آخر يناقضه تماماً: هل هناك فرحة تعادل فرحة الأب والأم عندما يصبح ولدهما شاباً وقوياً وجميلاً يستعد للزواج. الزفاف من أحلى أعياد الناس. يرقصون ويغنون. ولا شك في أن أبا العروس وأمه أسعد الناس.. ولكن هل في استطاعتهما أن يعبرا عن فرحهما بكلمات، بأغان، تجعل كل من حضر العرس سعيداً يشعر بالفرح كما لو أن هذا العرس له.

كلا.. إن الأبوين يبحثان في كل قرية عن الموسيقيين البارعين.. ويأتي الموسيقيون إلى العرس. أمس كانوا في أعراس أخرى وغداً سيذهبون إلى أعراس ثالثة. كلها عندهم سواء. ولكن مواهبهم توحي الفرح إلى الناس وتحمل إليهم سعادة حقيقية.

هل معنى هذا أن العبقرية تتغذى بالمشاعر المنوعة في الحياة اليومية؟ وأن كل ظاهرة من ظواهر العبقرية هي المحصلة الفنية لمعرفة شاملة، لقدر معقد، لسبب علوي؟

إذا كان ذلك كذلك فبماذا نفسر إذن أن يستطيع فتى في الرابعة عشرة من عمره، وأعمى زيادة على ذلك، أن يدهش ويسحر قرى آفار بطريقته في العزف على شبابته؟

أعرف فتى آخر هو محمود رجيوف، إنه مقعد كسيح في سريره منذ ولادته، أهدى إلى أمه أغنية بلغ من جمالها أنك لا تجد في بلاد آفار كلها إنساناً لا يعرفها ولا يغنيها. وقد وضع موسيقاها أحمد سورميلوف وهو أيضاً مشلول الساقين.

لقد أهديت إليه هذين البيتين:

في أوتار عودك الثمانية
تنساب ثمانية آلاف نغمة..

إن الأعمى الموهوب يرى ما لا يراه المبصر غير الموهوب. وقد قال أحد الحكماء: إن الرجل الذكي يرى، دون أن يترك كرسيه، ما لا يراه الأحمق الذي قام بجولة حول العالم.

وأضيف إلى ذلك أن هذا الأعمى محمداً لم يخطئ قط في حساب ما يتصدق به الناس عليه، بعد يوم يقضيه وهو يتسول في السوق.

من دفتر المذكرات: إذا كانت العبقرية تأتي من النظر فكيف استطاع الشاعر اللزجيان كوتشخورسكي الذي فقأ الخان عينيه، أن يغني؟.. وإذا كانت تأتي من الغنى فكيف بلغ الشاعر اللزجيان اليتيم أمين، وهو الفقير اليتيم رتبة المجد؟ وإذا كانت تأتي من التعليم فكيف أصبح الشاعر سليمان ستالسكي «هوميروس القرن العشرين»، وهو لا يعرف كتابة توقيعه

(وكان يبصم إصبعه بعد أن يغطها في الحبر). وإذا كانت تأتي من التبحر في الثقافة فكيف عرفت كثيراً من الناس المثقفين والمتبحرين ثم هم لا يعرفون كتابة سطر واحد مقبول؟

في الجبل كانت تقام مساجلات شعرية يقف فيها المتعلمون[1] وهم يعرفون القراءة والكتابة بلغة آفار، ويقف في الجانب الثاني الرعاة الأميون الذين لا يعرفون شيئاً أبعد من عملهم. وكان هؤلاء الرعاة هم الذين يخرجون غالباً منتصرين في هذه المساجلات. إن الصوت المحسوب للشعراء المتعلمين يختنق في الأغاني الحرة مثل ريح الجبال.

ومع ذلك فإن هؤلاء وأولئك يغلبهم شعراء هم متعلمون ورعاة في وقت واحد. عندما كان محمود ووالدي حمزة يشاركان في هذه المساجلات، كان الأمر ينتهي دوماً إلى منافسة بينهما كليهما، ويبقى سائر الشعراء بعيدين في آخر الحلبة.

ولكن هل تأتي العبقرية في بساطة من الذكاء؟ ومع ذلك فقد لقيت عدداً كبيراً من الأذكياء جداً في موسكو وفي غيرها من البلاد. ولو أن ذكاءهم تجسد في شكل شعر أو رواية أو قصة لكان لدينا مؤلفات فنية لها قدرها. ولكن شيئاً ما يحول دون أن تسيل أفكارهم من رؤوس أقلامهم على أوراقهم، ثم نجد هذه الأفكار الذكية تتبعثر في الهواء أو تذهب إلى القبر مع أولئك الذين حملوها.

إذن فهل تأتي العبقرية من عمل عنيد، من جهد ينزف دماً وعرقاً؟ طالما سمعت أن العبقرية لا توجد عفواً من نفسها، وأنها لا تظهر إلا بعد عمل جبار.. ولكن تصوروا أني أحب أغنية العندليب الذي يقف هكذا في بساطة على غصنه، أكثر مما أحب أغنية الحمار الذي يحمل أثقالاً. إن من يجر العربة لا يغني ولكن الذي يغني هو من يركب العربة.

---

(1) بالعربية وهم طلاب مكاتب القرآن.

يا اللّه، ما أكثر ما يحفل به العالم من تناقضات إذا كان الغناء ثمرة فراغ الرجل الجالس في العربة فهل يأتي الفن كله من الفراغ والبطالة، من الرفاهية وطمأنينة البال؟

ولكن أليست الأغاني التي تتردد في القصور الغنية هي الأغاني التي ولدت في الأكواخ الشقية؟ إن الفقراء هم الذين ألفوا الأساطير التي تروي حكايا الخانات وأصحاب الثروة. السلطان كوميك أمر بنفي الشاعر أرشي قازاق إلى سيبيريا. ولكن أرشي قازاق ظل ينظم القصائد في سيبيريا. إننا من أشعار أرشي قازاق نعرف اليوم من كان سلطان كوميك هذا.

الجبليون الذين اختطفوا الأمير الجورجي الشاب دافيد غوراميشفيلي ألقوا به في عيابة حفرة عميقة في أونتسوكول. وبكى الأمير الشاب في حفرته الرطبة، وتذكر لؤلؤته، جورجيا الزرقاء، وجعل ينظم الشعر. إن الجبليين هم الذين جعلوا، إلى حد ما، من هذا الأمير شاعراً.

عائشة بنت السلطان خونزاخ أحبت راعياً شاباً جميلاً. وعندما اكتشف السلطان ذلك طرد الفتاة من قصره. وكان ذلك في ليلة من ليالي الشتاء، بردها يجمد أوصالها، وثلجها يصل إلى ركبتيها. وكانت تلبس ثوباً خفيفاً تمزقه الرياح الغاضبة. عندئذ نظمت عائشة أغنيتها الأولى.

إذن فهل تأتي العبقرية من ضعف الإنسان، من الشقاء؟ هل يهب الشقاء والألم أحلى الأغاني؟ من أنت أيتها القصائد؟ وماذا تريدين؟

جئت توسوسين إلى باتيري، وهو عجوز مريض جائع قابع في كوخه قرب موقده الخامد.

جئت توسوسين إلى محمود عندما كان يتجمد في خنادق الكربات، عندما كانت حبيبته، التي هي أغلى عنده من الشمس والأرض والحياة، تتزوج واحداً غيره.

جئت توسوسين إلى أبي طالب عندما كان يدور في القرى متسولاً، وعصاه في يده، وعندما كانت حبيبته خاتمة تصد عنه لتتزوج غيره.

جئت توسوسين إلى الداريلاف عندما تلقى من يد قاتله كأس السم. خاط زونتي النائب فم انخيل مارين بالخيطان وعندئذ غنى انخيل مارين أحلى أغنياته. وسلبت هذه الأغنية النائب راحته ونومه حتى نهاية عمره.

قولي إذن أيتها العبقرية من أي مصدر تأتي قوتك؟ من أنت؟ الوجدان، الشرف، الشجاعة أو لعلك أنت الخوف؟ لأن من يخاف يغني أيضاً وهو يضرب في الليل ليهب لنفسه الشجاعة.

أأنت السعادة أم الشقاء؟ المكافأة أم العقوبة؟ أأنت الجمال الذي خلق لعذاب الناس؟ أم الألم الذي يلد فيه الجمال؟ أأنت ابنة العصر أو الحادثة؟ بنت الشرارة تلد من قرع الحجر بالحجر، بنت الحرب لا تزيد عدد الناس على الأرض، ولكنها تزيد عدد الأبطال على الأرض.

ما العبقرية؟ أنا لا أعرف، مثلما لا أعرف ما هو الشعر. ومع ذلك يحدث لي، وأنا في طريقي إلى البيت، أو في بلد غريب، أو خلال نومي (كأن ذيل معطفي يشمر) أو عندما أسير فوق العشب الأخضر (كأن خضرته الحية تجري في وتسري في دمي) أو عندما أتناول طعامي، أو عندما أصغي إلى الموسيقى، أو عندما أكون بين أفراد أسرتي، أو بين أصدقائي الصاخبين، عندما أرفع بين يدي طفلاً لأبارك له في حياة طويلة، أو عندما أمسك بنعش صديق أسير به إلى مثواه الأخير، أو عندما أرنو إلى وجه الحبيبة الغالية، في كل هذه الحالات المتباينة، وفي غيرها من الحالات، يحدث لي أن أحس أن شيئاً ما يوسوس لي أنه شيء نادر، مدهش عجيب قوي. إن عروس الشعر عندي مرحة حيناً، حزينة حيناً، ولكنها دائماً تحثني على العمل، وتضطرني إلى التعبير عن نفسي. إنها تجيئني دون أن أوعدها، دون أن تقرع باب بيتي.

وعندما تأتي ترفع الستار عن صورة محمود، وهو يلبس فروته ويحمل ربابته وحبه وأغانيه اليائسة، وعن صورة والدي بابتسامته الرقيقة الحزينة، وصورة الداريلاف، وكأس السم في يديه، وصورة انخيل مارين بشفتيه الداميتين، خاطهما النائب القاسي، وهنالك أيضاً تبدو صور كثيرة لفئة

من العمالقة: دانتي، تولستوي، شيللر، بلوك، غوته، بلزاك، دوستويفسكي.. ويخيل إلي أحياناً أن صورة اللّه تبدو خلال ضباب يخترقه شعاع مضيء من نور.

وسألتها:

ـ من أنت؟

ـ أنا عبقريتك، شعرك.

ـ من أين جئت.

ـ أنا في كل مكان.

ـ أأنت لدتي؟

كلا، عمري ثانية واحدة وعمري مائة قرن. في ذاتي سذاجة الطفل وعاطفة وطيش الشاب وحكمة الشيخ. ليس لي عمر. أنا النار التي لا تخمد، أنا الأغنية التي لم تتم. أنا الطيران الذي لا ينتهي، أنا بعيدة جداً عنك، وأنا في ذاتك. من يحملني في روحه يشعر بالفرح وباللذة، ولكن حملي في روحه هو العذاب الأليم. ما من شيء أكثر مني خفة وما من شيء أشد مني وطأة.

يكفي أن أكون ليستطيع رنين الأوتار في قيثارة أن يشق صخرة صماء. يكفي أن أكون حتى ترقص الربابة بقر الوحش في ثنايا الجبال. يكفي أن أكون حتى يسقط الخنجر من يد القاتل، ويتحد العاشقون في قبلة.

كنت هناك عندما نزعوا الغطاء عن رأس باتي[1] في قرية آندي. كنت هناك عندما أغويت مريم وألقيت هكذا على سرج الحصان. كنت هناك عندما سلت جان دارك سيفها. كنت هناك عندما اخترع رجل ما أجنحة وقفز من قبة جرس. كنت هناك عندما نصب ماجلان وكولومب الشراع. كنت هناك عندما ولدت عذراء القديس سيكسيت.

كل العصور وكل البلاد ساحات لنشاطي. وأصحابي هم الناس.

---

(1) علامة على التشهير.

الناس لهم ذكاء ولهم أرواح. في كل قارة يعرف الناس الحب والبغض. الشجاعة والرياء. ذكاء الناس وأرواحهم هي ساحة معركتي. ساحة إخفاقاتي ونجاحاتي ساحة إنجازاتي.

ـ إذن فأخبريني عن حقيقتي.

فيم أنا أصلح؟ أمن الممكن أن أتعرض لخطر ما مثل أن أكون ثلجاً يذوب غداً، مثل أن أحاول ملء جرة قعرها مثقوب؟ هل وهبت روحي ولو شرارة من نارك التي لا تخمد. هل بللت على شفتي ولو بقطرة واحدة من قطراتك المحرقة الملتهبة المثيرة؟

من عيني تسيل دموع الفرح والترح. ولكن هنالك دموعاً أخرى تتوارى في أعماق عيني كما يتوارى العصفور الخائف وهو يسمع خطى الصياد. ولكن هذه الدموع الخفية واحدة منها دمعة حب، وأخرى دمعة ألم، وثالثة دمعة شقاء، ورابعة دمعة سعادة.

رأسي يجلله شعر أبيض وأسود، وأنا أضع رجلاً في الشباب ورجلاً في الشيخوخة. والشباب والشيخوخة يتصارعان دائماً، وروحي هي ميدان المعركة.

حبي شجرة دلب لها جذعان.
جذع يجف وجذع تغطيه الأوراق
حبي نسر له جناحان
جناح يحلق وجناح يسقط
في صدري جرحان يلتهبان،
جرح يدمى، وجرح يندمل.
وهكذا عشت دائماً ينتظرنا الفرح حيناً
وحيناً يسرع الألم ليحل محله.

الحياة لها حدود، إنها قصيرة. أما الأحلام فلا تنتهي. ما أزال على الطريق، وأحلامي ما تزال هنالك في البيت. أمشي إلى حبيبتي. وأحلامي ما تزال بين ذراعيها. أنا أعيش في هذه اللحظة وأحلامي ما

تزال تطير هناك في السنوات الخالية.. تطير إلى ما وراء الحدود التي تغرق فيها الحياة في الظلمات. أحلامي تطير فوق العصور.

أحجية تعرض على شامل: وضع بين يدي شامل حبل فيه ثلاث عقد. اثنتان منها متجاورتان في طرف الحبل، والثالثة في طرفه الآخر بعيدة عن العقدتين: وقيل له: احزر! وأمسك شامل بالحبل وفحصه وقال:

ـ إحدى العقدتين هي أنا، والثانية هي موتي. والثالثة التي في الطرف الثاني من الحبل هي المكان الذي تعيش فيه الآن أحلامي وأفكاري، الغاية التي أحاول الوصول إليها في حياتي.

إن الحقل الذي تحرثه أحلامي أوسع بكثير من الحقل الذي أحرثه في الواقع. فمن ذا الذي تريدين أن تخدميه يا عبقريتي. أأنا أم أحلامي التي تطير بعيدة أمامي؟ نعم أنت النار التي لا تخمد، أنت الأغنية التي لا يستطيع أحد أن يضع لها نهاية، أنت الطيران الذي لا يحده حد، ولكن هل أستطيع أن أمسك في أغنيتك الخالدة ولو بنغمة واحدة تكون هي نغمتي، نغمة من آفار.

عندئذ يمكن أن تكون أغنيتي كلها أكثر غنى.

أيمكن أن أشعل على قمم داغستان نوراً تبعثه نار متواضعة، تكون شعبة من نارك التي لا تخمد. أيمكن على أقل تقدير أن أمدد، ولو من صخرة إلى صخرة، طيرانك الذي ليس له حد ولا نهاية.

قريتي هي تسادا، ومعناها الشعلة. سألني يوماً قروي من غير قريتي:

ـ من أين أنت يا ولدي؟

ـ من تسادا.

وقال السائل:

ـ اقرأ لي أولاً شعرك، وعندئذ أقرر إن كان شعرك هذا شعلة أو رماداً بارداً.

الشك يستبد بي. ألست في سبيل لبس معطفي تماماً في الوقت الذي ينتهي فيه الطقس الرديء، وتشرق الشمس مرة أخرى من وراء السحب التي تتبدد؟ ألست في سبيل أن أضع قفلاً لباب الزريبة بعد أن سرق اللصوص بقرتي؟ ألست أروي أشياء سمعها كل الناس عدة مرات؟ ألست أدعو إلى بيتي جماعة تركوا الآن مائدة عامرة في منزل مضياف؟ فهل ثمة ما يدعو إلى تأليف هذا الكتاب؟

ـ إذا كنت تستطيع ألا تكتب فلا تكتب.

ـ أيمكن ألا أكتب؟ المريض الذي يتوجع كثيراً هل في إمكانه أن يكف عن الأنين؟

السعيد هل في إمكانه ألا يبتسم؟ العندليب هل يستطيع الكف عن الغناء في صمت الليل الذي يغمره القمر؟ العشب هل يستطيع ألا ينجم إذا انفلقت الحبة في الأرض الرطبة الندية؟ الأزهار هل تستطيع ألا تتفتح عندما تدفئ شمس الربيع البراعم؟ جداول الجبل هل تستطيع ألا تجري نحو البحر عندما تذوب الثلوج ويهرع الماء مزمجراً يكب الحصى في وجهه؟ النار هل تستطيع ألا تندلع إذا مس اللهب الأغصان اليابسة؟

أحببت دائماً نيران المعسكر. في الليل عند الرعاة، على شاطئ النهر، عند قدم الصخرة، على قمة الجبل، وخلال أحجار الموقد في المنزل، أنا أعرف أن إشعال النار ليس إلا نصف العمل، وأن حراستها وحمايتها خلال ليل طويل ماطر أصعب كثيراً من إشعالها.

أنا أعرف أن في قلبي ناراً. ولكن ماذا أعمل؟ كيف أسلك لكيلا تخمد هذه النار؟

كيلا تنطفئ قبل الأوان؟ قبل أن أجد الزمان الذي أستطيع فيه إدخال الدفء على قلب إنسان؟ أو إضاءة الطريق في الظلمات في عيني إنسان؟ كيف أصنع لأحتفظ وأغني ما أتمتع به من عبقرية؟

ذكريات والدي: جاء جبلي إلى والدي وقال له:

ـ لقد حاولت، واقتنعت أني قادر على الكتابة. ولكني لا أعرف ما يجب أن أفعله لأستطيع نظم قصائد جيدة.

وأجابه والدي:

لا يكفي أن تستطيع إصلاح الأوتار في كمان، ولكن عليك أن تعرف كيف تعزف عليه. لا يكفي أن يكون لك حقل، ولكن عليك أن تعرف كيف تحرثه وتبذره.

ـ وما علي أن أفعل لكي أنظم شعراً.

ـ كيف تسأل عما تفعل؟ اشتغل واعمل.

العمل

إذا ظننت أن عملنا عسل على الدوام
فتعال إلى كوباتشي، تعال إليها يوماً واحداً.
(كتابة على آنية صنعها صاغة كوباتشي).

أنا عبد أشعاري طوال النهار المقدس.
أحني ظهري، أمسح عرق العناء.
ولكن أولئك السادة، ليس لهم ما يكفيهم..
لا يعنيهم أن أركض حتى في الليل..
أجر عجلتي، وعموداها الجانبيان
يخزانني في عنف، والعجلة ترجرج دون نهاية
وأثقال العربة تزداد يوماً بعد يوم
وأنا أجرها إلى أبد الآبدين

حدث ذلك منذ أمد بعيد، ولكني ما أزال أتذكره في جلاء ووضوح كأنه حدث أمس. بل إني وصفت الحادثة في قصيدة، ولكني لا أستطيع منع قلمي من كتابتها هنا.

كنت ابن شاعر داغستاني هو حمزة، ولكني كنت ما أزال مغموراً لا يعرفني أحد عندما غادرت قريتي لأسافر أولاً إلى ماخاتشكالا ثم إلى موسكو. ومضت السنون، أنهيت دراستي في معهد الآداب ونشرت عشر مجموعات شعرية، ونلت على واحدة منها جائزة ستالين. وتزوجت..

وأصبحت في اختصار الشاعر رسول حمزة، وعندئذ فكرت في زيارة قريتي.

كنت أتشرد أياماً كاملة هناك في الأمكنة التي ركضت فيها وأنا طفل، كنت أرى الصخور والكهوف وأتحدث إلى الناس، وأصغي إلى أغاني الجداول. وأجلس في صمت في المقبرة، وأدور مرة أخرى في الحقول.

في أمريكا زرت معامل فورد، والأرض التي تختبر فيها السيارات، إن المكان الذي ولد فيه الشاعر هو أرض اختباره وتجربته.

وذات يوم لقيت نساء عائدات إلى بيوتهن بعد أن اقتلعن الأعشاب الطفيلية من حقول القمح. وجلسن على قارعة الطريق يسترحن، مرهقات، يغطيهن الغبار، وتبدو على أيديهن علامات الوخز والجراح التي خلفتها الأعشاب الشائكة.. واقتربت منهن.

هل لاحظنني فجعلن عامدات يتحدثن عني، أو أنهن كن يتابعن حديثاً سالفاً طويلاً؟ لا أدري. وسمعت فجأة إحداهن تقول، وهي تمسح جبهتها بقبضة من العشب:

ـ لو سألوني: ما هي أمنيتك الأولى لقلت لهم: قلب رسول حمزة الخلي، وعيشه الرغيد. وقالت إحدى قريباتي تدافع عني:

ـ ولماذا تعتقدين أن لرسول قطعة من الجبن بدلاً من القلب.

ـ لنفرض أنه ليس قطعة جبن، ولكنه على كل حال لا يضطر إلى اقتلاع الأعشاب من حقول القمح. ثم إن جرس المزرعة التعاونية لا يدعوه إلى العمل في الوقت المحدد، ولا ينتظر قرع الجرس ليذهب إلى الغداء، ثم إنه لا يعرف ما هو يوم ـ العمل، وكيف نربحه وكيف يدفع لنا، إنه يكتب: ترا ـ لا لا... ترالي، فالي.. وماذا يشغل باله بعد ذلك؟.. ما الذي يمكن أن يعذب قلبه؟ أنا لا أحب حظاً خيراً من حظه..

أيتها المرأة الطيبة: كيف يمكن أن أشرح لك عملي؟ وكيف أني أجده شاقاً لا نهاية له؟

كنت أعود من الحقول إلى القرية أحمل أفكاراً حزينة. الشيوخ ذوو الشعر الأبيض يدفئون أحجار ندوتهم الباردة، يتحدثون في هدوء عن الأرض وعن الحصاد الجديد، وعن الجبال والمراعي، والأمراض والأعشاب، وعن أيام القرية الخوالي.

ودنوت منهم وألقيت عليهم التحية وجلست فوق حجر بارد.

أحد الشيوخ كان يمسك بيده آخر عدد من جريدة فيها قصيدة لي. ودار الحوار حولها.

إن الفارس يحب أن يسمع الثناء على مزايا حصانه. ورجوت أن يثني مواطني على قصيدتي. وكنت قد ألفت المدائح في موسكو وفي ماخاتشكالا. العجوز الذي يمسك بالجريدة لاحظ ما يأتي:

ـ أبوك حمزة كان ينظم القصائد، وأنت يا ابن حمزة تنظم قصائد، متى تشرع في العمل؟ أتظن أنك ستعيش طول حياتك، وأنت لا ترفع حملاً أثقل من كسرة خبز؟ وقلت له في حياء، وقد استغرقني ما جرى في الحوار من تحول:

ـ ولكن الشعر هو عملي.

ـ إذا كان الشعر عملاً فماذا تسمى البطالة؟

وإذا كانت الأغنية عملاً فماذا تسمى النشوة والراحة؟

ـ الأغاني في الواقع نشوة لمن يغنيها، لكنها عمل لمن يؤلفها. عمل لا نوم فيه ولا راحة، دون يوم إجازة، دون عطلة.. إن الورق عندي هو مثل الحقل عندك، والحبوب عندك هي الأحرف عندي، وقصائدي هي السنابل.

آه. هذه كلها كلمات جميلة. إن الحقل لا يأتي إلي ليستلقي على سقف بيتي. وعلي أنا أن أذهب إلى الحقل لكي أعمل فيه. أما الأغاني فإنها موجودة حيث أنت موجود، بل إنها في سريرك. كل أغنية من

أغانيك ضيف يقرع باب بيتك.. وكل أغنية عيد. أما حقلنا فهو حياتنا اليومية، حياتنا كل يوم.

هكذا قال الشيوخ في الندوة، أو هكذا على وجه التقريب كان تعبيرهم عن أفكارهم.

ـ ولكن الأغنية هي حقاً حياتي.

ـ إذن فإن حياتك عيد أبدي. الأغاني شأن من شؤون العبقرية. والعبقري يكتب في سهولة أغنية جميلة، ومن لا يتمتع بالعبقرية فيجب عليه أن يعمل. ذلك صحيح. ولكن العمل في مثل هذه الحالة قليل الجدوى.

ـ كلا. أنت مخطئ. إن صاحب الموهبة القليلة يعتبر الفن أمراً يسيراً. فهو ينتقل من أغنية إلى أغنية، وبذلك يسف في عمله، كما يقال. أما الموهبة الكبيرة فهي تأتي مع الإحساس بالمسؤولية التي تفرضها، والرجل الموهوب حقاً يعتبر قصائده عملاً عسيراً أو كثير الخطر. ليس كل ما يغنى أغنية، ولا كل ما يحكى قصة.

ـ إذن فحدثنا كيف تعمل وأين تجد الصعوبة في مهنتك؟

كانوا فئة من الشيوخ المزارعين يجلسون حولي. وجعلت أشرح لهم، ولكني سرعان ما أدركت أن من العسير شرح أبسط الأشياء لهم، وهي التي تبدو لي أكثر الأشياء وضوحاً وفهماً. وانقطع خيط حديثي، وارتج علي فسكت. لقد انتصر عليَّ شيوخ الندوة اليوم، لقد أخفقت في شرح السبب الذي جعل نظم القصائد قضية عسيرة على الخصوص وما معنى نظم القصائد على العموم.

ومضت سنوات كثيرة بعد هذا الحوار. ومع ذلك فلو سألوني اليوم شرح ما يقوم عليه عملي، وما الذي يجعل منه عملاً صعباً وبماذا يتميز عن المهن الأخرى لما استطعت الجواب.

أين مكان عملي؟ لا شك في أنه منضدة ومكتب. ولكنه أيضاً درب

الجبل أثناء النزهة، عندما أفكر في قصائدي فتأتيني الكلمات والأنغام، فأنتقي منها ما أشاء وأترك ما أشاء.

إنه أيضاً القطار الذي استقله إلى بلد غريب، في هذه الفترة يمكن أن تخالجك فكرة قصيدة جديدة. إنه الطائرة والحافلة، والساحة الحمراء، وضفة جدول، والغابة ومكتب وزير. كل ذلك هو مكان عملي حيث أحرث وأحصد.

متى أعمل؟ في الصباح أم في المساء؟ ما عدد ساعات يوم العمل؟ ثماني ساعات أو ست، وربما اثنتا عشرة ساعة، وقد تكون أكثر؟

وإذا كانت ساعات العمل طويلة فلماذا لا أعلن الإضراب وأطالب بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات؟

ذلك أني أعمل دائماً منذ عرفت نفسي، عندما آكل عندما أكون في المسرح، وأثناء الاجتماعات، وفي الصيد وأنا أشرب الشاي، وأمشي في جنازة، في السيارة وفي الأعراس. حتى عندما أنام تنهال علي أبيات وصور وأفكار، وأحياناً قصائد تكاد تكون كاملة، إذن فإن يوم العمل عندي يستمر حتى أثناء نومي. وكان علي منذ زمن بعيد أن أعلن الإضراب.

كيف أعمل؟ هذا هو أصعب الأسئلة.. أحياناً يخيل إلي أن عملي يشبه أي عمل آخر، ويخيل إلي أحياناً أن عملي متميز لا مثيل له، ولا يضارعه أي عمل يعمله الناس على ظهر الأرض.

ويخيل إلي أحياناً أن كل الناس حولي يعملون، أما أنا فطفيلي. وأحياناً يخيل إلي أنني أنا الوحيد الذي يعمل، أما الناس جميعاً فلا يحركون أناملهم.

ما أشد حرارة الدم الذي يجري في عروق العصافير. تغني دائماً، وطوال حياتها الأغنية التي تعلمتها من أهلها، وللجداول دم حار، فهي تغني دائماً أنشودتها منذ ألوف السنين. أما أنا فيجب علي، خلال حياتي

القصيرة، أن أبدع أغاني ترضاها السنون بعد السنين والأجيال بعد الأجيال.

إن أول من حرث قطعة من الأرض لاقى ولا شك عناء كبيراً، وكذلك من أبدع الأغنية الأولى. ولكن عندما يحرث ألف إنسان هذه الأرض، فإن الإنسان الواحد بعد الألف يجد حرثها أكثر سهولة. أما عندما يكتب ألف إنسان أغاني، فإن الإنسان الواحد بعد ألف يجد كتابتها أكثر مشقة. نعم أيها الإنسان الذي تحرث الأرض إن بين عملي وعملك شيئاً مشتركاً. لا تنظر إلي نظرتك إلى إنسان كسول، حياته لذة دائمة، وراحة مستمرة. إنني أفكر ليالي طويلة بيضاء في حقلي تماماً كما تفكر أنت في حقلك. أنت تنتقي أحسن الحبوب للبذار وأنا أنتقي أحلى الكلمات من بين كل ما في اللغة من كلمات. يجب علي أن أنتقي كلمة واحدة من ألف كلمة. وأنا أيضاً لي أشغالي، النجوم الأولى التي أفرح بها، ثمرات جهدي. أنا أيضاً يجب أن أزرع وأن أقتلع الأعشاب الضارة لأنها موجودة في حقلي. من الصعب أن تفصل الحبة الطيبة عن الشوفان المجنون حتى حين تستعمل الآلة. وأصعب من ذلك أن تنتقي الكلمات السيئة لتفصلها عن الكلمات النافعة الصحيحة الطيبة.

أنت تحمي حقلك من الجمد والجليد والرياح اللافحة، وأنا ينبغي علي أن أبدع أغاني لا تخشى ألد أعدائها ألا وهو الزمن، لأني أريد أن أبدع أغاني تعيش مئات من السنين. وأنا لي أيضاً طفيليات: الحشرات والجراد والقوارض.. إنها تستطيع أن تسرق نصيباً من محصولي أو تقضي عليه كله. تستطيع أن تجعله مراً لا يؤكل، يدير الناس رؤوسهم إذا مروا بثماري. والفرق بيننا أن القوارض عندي أكبر حجماً وأكثر هولاً من فئرانك، وأن حربها أشد ضراوة، بل إن حربها أحياناً لا تجدي.

النار تضطرم، والدخان يشق الفضاء فوق المنزل.
ولكن شرخاً صغيراً صدع الحائط،
والريح التي لها رأس بقرة

تسللت من هذا الشق لتجمد البيت

قصائدي لها أحياناً هذا الحظ.
أنا الذي أدفع من دمي ثمن الشعلة التي تلهبها
وتأتي الريح فتصيبها بالتجمد حتى القلب
وهي تنفذ دائماً من بين الكلمات الدنيئة (الوغدة)

يجب أن أوزع ثماري على الناس. في داغستان، وفي غيرها من البلاد، وعلى الناس أن يتذوقوها، ويعرفوا حلاوتها ومرارتها، وطعمها الخاص. من واجب هذه الثمار ألا تشبه أية ثمرة في العالم.

ما أزال أذكر كيف كان أبي يعلمني كيف أجمع الأعشاب حزمة حزمة عندما كنت صغيراً. وعندما كنت أشد نطاق الحزمة بكل قواي، وأنا أعتمد على ركبتي كان ينصحني:

ـ انتبه يا رسول.. لا تخنق العشب.

واليوم عندما تستعصي علي قصيدة، وعندما يفر مني بيت رغم كل ما أبذل من جهود لإقراره في موضعه أراني أضرب ضربة صاعقة لأنهي القصيدة مهما كلف الأمر. عندئذ أتذكر كلمات والدي: «انتبه يا رسول. لا تخنق العشب».

المحاصيل في الحقول تختلف كمياتها من عام إلى عام.

أحياناً نجد الحنطة تضيق بها المستودعات والأهراء ثم تأتي ثلاث سنوات لا ينبت فيها شيء. وهكذا يحدث لي: لست دائماً أعمل في سهولة. يبدو لي أني دخنت واشتغلت وبذرت بعض البذور ولكني مع ذلك لم أحصد ما يكفيني خبزي. عندئذ أراني أهرع إلى التراجم وأشتري حنطتي من كندا أو من أستراليا. الكيمياء، الكبيرة منها والصغيرة، لا تستطيع أن تساعدني عندما يفتر الإلهام الشعري، فترة ما، وعندما تأبى الأبيات أن تنساب من روحي إلى الورق.

ما العمل؟ لو أن كل مزرعة وكل مشروع ينتهيان دائماً بالنجاح لكان الناس جميعاً سعداء ومسرورين. لو كانت الأرض تعطي في كل سنة غلالاً وفيرة لشبع الناس في الأرض جميعاً. لو أن كل ما يكتب يغدو أغنية لكان الناس من زمن بعيد لا يتحدثون حديثاً عادياً، ولكنهم يظلون يغنون، حقاً إن إبداع أغنية أمر جد عسير.

زرت كهوف الخمور في داغستان وجورجيا وأرمينيا وبلغاريا، ومستودعات الجعة في بيلزن، ويخيل إلي أن الشعراء تربطهم بالخمارين نقاط التقاء جمة.

لكل مهنة دقائقها وأسرارها. كل قصيدة مثل الخمرة، يجب أن تختمر في النفس وتهرم فيها. وكأن لكل قصيدة جيدة نكهة تبهم النفس. وهكذا تربط بين الخمرة والقصيدة صلة وثقى.

هذه سيارة شحن تحمل براميل النبيذ تصل إلى مخزن في قرية في الجبل، هذا البرميل، لهذه القرية، وذلك البرميل لتلك وهكذا يوزع السائق نبيذ (بونياك) على قرى الجبل.

ولا يكاد القرويون يبصرون السيارة حتى تضج بهم كل زوايا القرية. ها هم هؤلاء يمضون إلى المخزن دون عجلة، وفي بطء ولكنهم في الواقع يشعرون بأن صبرهم ينفد ها هم هؤلاء يحيطون بالبرميل كما تحيط النعاج بقطعة ملح يضعها الرعاة على الأرض.

ويصب النبيذ في الجرار، ويتذوقه الناس فإذا خيبة الأمل تعمهم، وإذا الأصوات تعلو.

ـ أهذا نبيذ؟ هذا ماء!

ـ ولكنه من ماء النهر!

ـ ليشربه الذين يبيعونه.

ويدافع البائع من نفسه:

ـ لا علاقة لي بالموضوع. لقد رأيتم أن السيارة هي التي حملت البرميل. وأننا أنزلناه أمام عيونكم. بل لقد ساعدتمونا على إنزاله. إذن

فما علاقتي بذلك؟ أنا أبيع النبيذ الذي حملونيه وما عليكم إلا أن تكفوا عن شرائه إذا لم يعجبكم.

والواقع أنهم قبل أن يرسلوا النبيذ من المنطقة إلى الناحية يأتي مدير مستودعات المدينة فيأخذ برميلاً ما دون انتقاء، ثم يضيف إليه ماء صافياً ويقول: «في الناحية سيكون الناس سعداء بهذا النبيذ وفي مستودعات الناحية تتكرر العملية نقطة بعد نقطة، ويقولون في الناحية: «هذا النبيذ جيد في القرى، وفي الطريق يشرب السائقون والحمالون من البرميل ليتسلوا ويقطعوا الطريق، ثم يعوضون عما شربوه من النبيذ الرائع من ماء أول جدول يجدونه في الطريق ـ وتكون النتيجة أخيراً أننا نحصل على نبيذ أفسده الماء، أو ماء أفسده النبيذ.

وهكذا عندما نقرأ بعض القصائد لا نعرف هل هي شعر أو رص كلمات؟ هذا اللون من القصائد ينظمه شعراء كسالى لا يعملون في صبر ولا في جد ودأب.

ولكن السيل النزق قل أن يصل إلى البحر، والراجل الكسول قل أن يصل إلى مكة. عندما يضطر فارسان إلى امتطاء صهوة جواد واحد، يمسك أحدهما بالآخر، وكذلك تمتطي العبقرية والعمل حصاناً واحداً.

قال أبو طالب: على العبقرية والعمل أن يتلازما كما يتلازم الخنجر والغمد.

من دفتر المذكرات: في ذلك العهد كنت أمضي أيامي في الشارع أكثر مما أقضيها في البيت. كنت ما أزال أذهب إلى المدرسة حيث نظمت الشعر. ولم أكن أصبر على نظم الشعر وعلى قراءة الدروس وعلى كتابة الوظائف. كنت لا أكاد أستقر على مقعدي. وبدأت أتحرك ثم أقف ثم أغتنم أول فرصة ممكنة لأفر إلى الشارع، وأنا لا أزال حتى الآن غير كثير الدأب وغير طويل الصبر. في يوم من الأيام أجلسني أبي إلى وظائفي، أو على الصحيح إلى أشعاري، وغادر المنزل دقيقة، ولم

يكد يغلق الباب وراءه حتى تركت الكرسي وصعدت على سطح المنزل، ورآني أبي فصرخ ينادي أمي:

ـ هاتي الحبل، الحبل المتدلي من المسمار!

ـ ولماذا؟

ـ أريد أن أربط رسولاً بكرسيه، وإلا فلن يصنع خيراً.

وربطني أبي في هدوء وعناية إلى الكرسي وربت على جبيني، وقال لي وهو يشير إلى الورق:

ـ انقل على هذا الورق كل ما في هذا الرأس. أوه.. ليتنا نجد الآن نحن معشر الكتاب من يربطنا بمكاتبنا، ولو حيناً بعد حين.

الرأس يعمل ولا شك، ولكن عندما تبقى اليدان عاطلتين فذلك يشبه طاحوناً تدور على فراغ بدلاً من أن تطحن الحب.

أحجية شانغري وابنه والروبلات الخمسة: كان في زمن من الأزمان، في مدينة كونزاخ رجل غني يحترمه الناس جميعاً، وكان اسمه شانغري. وكان له ولد وحيد، إذن فهو ولد مدلل وذو نزوات، وأراد الأب أن يعمل ابنه كما يعمل كل الناس، وأن يغدو رجلاً حقيقياً. ولكن الولد لم يكن يرغب في العمل. وكان أقاربه وأصدقاء أبيه يدللونه. هذا يهديه حصاناً وذلك شركسية وثالث مالاً أو خنجراً.

ومرض شانغري ذات يوم مرضاً خطيراً. ولم تجد في علاجه الأدوية، وكان أقاربه وأصدقاؤه وكل أهل المدينة يحيطون به.

ـ ماذا نفعل لنحقق لك الشفاء؟

ـ أما أنا فأعرف ما يجعلني أقف على قدمي، ولكنكم لا تستطيعون تلبية طلبي.

ـ وماذا تريد؟ سنفعل كل ما نستطيع.



ـ سيتم شفائي عندما يستطيع ولدي أن يأتيني بخمسة روبلات يكسبها بعمله، ويقول لي:

«خذ يا أبي، هذه لك».

وبعد يومين جاء الولد إلى أبيه ومد إليه يده بخمسة روبلات.

ـ خذ يا أبي لقد اشتغلت في تعويم الشجر في النهر، في خليج «كواسو» وكسبتها.

ونظر الأب إلى ولده، ثم إلى الدراهم وألقاها في النار. ولم يتحرك الولد، واصفر وجهه كأنه تلقى صفعة على وجهه.

والواقع، أن الولد لم يكسب المال وإنما أعطاه إياه عمه الذي سمع ما قاله شانغري وأراد أن ينقذ الولد من ورطته.

وبعد عدة أيام جاء الولد من جديد ومد الروبلات إلى أبيه وقال:

ـ اشتغلت في غونيب، في شق الطريق الجديد وكسبت هذا المال.

ونظر الأب إلى المال ثم إلى ولده، دعك الأوراق المالية ثم رماها من النافذة.

ولم يتحرك الولد، كان هذا المال عطية من صديق لأبيه من سكان غوتساتلي.

وجاء الولد إلى أبيه مرة ثالثة، وقدم إليه مرة ثالثة ورقة بخمسة روبلات.

ودون أن ينظر الأب إلى ولده مزق الورقة قطعتين ورماهما. عندئذ أسرع الولد كأنه صقر ينقض على فريسته، والتقط القطعتين وجعل يلصق إحداهما بالأخرى. وهو يصرخ:

ـ لقد نظفت زرائب بتروفسك لا لكي تمزق هذا المال كأنه قطعة من ورق. انظر إلى الدمامل في يدي.

ـ هذه المرة عرفت أنك كسبت المال بعرق جبينك. وأصبح شانغري أكثر فرحاً، وتحسنت صحته ثم ما لبث أن شفي تماماً.

وهكذا فإن ما نكسبه بعملنا هو وحده ذو قيمة حقيقية.

أليس يصح هذا على الشعر. أنت عانيت العذاب في نظم قصيدتك. كل كلمة فيها، كل فاصلة فيها، عزيزة عليك. ولكن عندما تلتقط فكرة في الطريق فلن تحصل أبداً على قصيدة ثمينة حقاً.

الصاغة، جيراني
رأيتهم مراراً في يسر بالغ
يستعملون معيارهم
ليميزوا الذهب من النحاس

وأنت أيها القارئ الذي تعرف قيمة الأشياء
ليتك تساعدني في استعمال معيارك
لتميز العملة النحاسية
التي تتوارى خلف زخارف الشعر وبهارجه
لتدعي أنها عملة ذهبية

إذا أردت أن تكون السمكة طيبة الطعم فاذهب إلى البحيرة واصطدها بنفسك. النسر يطير ضد العاصفة، والسمك يسبح ضد التيار. والشاعر يكتب وهو يمضي إلى لقاء العواطف العنيفة حتى إذا لم تكن فرحاً، بل كانت عذاباً. قال لي أبو طالب مثل ذلك في يوم من الأيام.

أحجية صانعي الفخار في بالخار وجرارهم والمشترون الوقحون: صانعو الفخار في بالخار وضعوا جرارهم في سلال كبيرة وحملوها على حميرهم وبغالهم وذهبوا بها إلى المدينة ليبيعوها، وفي الطريق صادفوا فتياناً من القرية المجاورة أحبوا أن يسخروا بهم:

ـ يا صانعي الفخار، أأنتم تسافرون إلى مكان بعيد؟

ـ نذهب لنبيع جرارنا.

ـ وما ثمنها؟

ـ الجرة الصغيرة بعشرين كوبكاً، والجرة الكبيرة بخمسة كوبكات؟



ـ وكيف ذلك؟

ـ لأن الفاخوري يلقى في صنع الجرة الصغيرة عناء أكبر من صنع الجرة الكبيرة.

والفتيان العابثون اشتروا كل الجرار.

وقال صانعو الفخار وهم يستأذنون ويديرون أعنة حميرهم وبغالهم ليعودوا إلى قريتهم:

ـ ستكونون مسرورين من بضاعتنا. إنه عمل تم في وجدان. إن فخارنا يمكن أن يخدم أبناءكم وأحفادكم.

ومضى صانعو الفخار يرتقون التل ثم جلسوا ليستريحوا قليلاً. كانوا يرون من هناك كل الطريق، وفجأة أثارت انتباههم مجموعة الفتيان الذين اشتروا منهم بضاعتهم الجميلة الطنانة.

لقد وضع الفتيان الجرار على جانب هاوية في الجبل وتراجعوا عشرين خطوة وجعلوا يرشقون الجرار بالحصى. ويظهر أنهم تراهنوا أيهم يكسر أكبر عدد منها. وتفجرت الجرار وجعلت شظاياها تسقط في الهاوية. وسر ذلك الشباب سروراً كبيراً.

وكأن صانعي الفخار صدر إليهم أمر مباغت: قفزوا عن التل، وهم يشهرون خناجرهم وهجموا على الشباب الأوغاد، وهم يصرخون:

ـ ماذا تصنعون أيها الأشقياء.. لقد بعناكم أحسن ما لدينا من جرار.. ما الذي تصنعونه بهذا الكنز؟ وصعق الغلمان وسألوهم:

ـ ولماذا تغضبون لقد بعتم بضائعكم واشتريناها منكم ودفعنا لكم ثمنها. والجرار الآن لنا، فما علاقتكم بما نعمل؟ نحن أحرار في أن نكسرها، أحرار في أن نحملها إلى بيوتنا، أحرار حتى في أن نتركها هنا على قارعة الطريق.

ـ ولكن هذه الجرار عزيزة علينا. ولقد كلفتنا جهداً كبيراً لتصبح جراراً، ووضعنا في طينها كثيراً من الجهد وجزءاً كبيراً من أرواحنا حتى أصبح الطين شيئاً جميلاً، يعجب به الناس. لقد ظننا أن عملنا سوف

يدخل السرور إلى قلوب الناس، وأنه سوف يجمل حياة البشر. وعندما فمنا ببيع جرارنا كنا نرجو أن تستعملوها، واحد يضع فيها نبيذاً يقدمه للضيوف، وثان يملأها من ماء النبع النمير، آخرون يزرعون فيها أزهاراً رائعة. أما أنتم يا قليلي الإيمان فتكسرونها وتحولونها إلى شظايا، كل جهودنا، كل مهاراتنا، كل أحلامنا تحطمونها بإلقاء الحجارة عليها على حافة هاوية، إنكم حين تقذفون الحجارة على جرارنا مثل الأطفال المجانين الذين يقذفون حجارتهم على البلابل، على الطيور الصداحة بأصواتها الجميلة.

وحمل صناع الفخار دون تردد كل ما لم يستطع الغلمان كسره من الفخار وعادوا به إلى ديارهم.

كل من يعمل بروحه، وكل من يحب أن يرى نتائج عمله يفهم عذاب صناع الفخار.

بهذه الكلمة أنهى أبو طالب حكايته.

تذكرت حكاية أبي طالب وأنا في اليابان أشاهد صيادات اللؤلؤ الصبايا. كن فتيات جميلات وقويات، يغطسن في أعماق البحر. وقد نجحن في وضع عدد من أصداف اللؤلؤ في كيس يتدلى على خصورهن، ثم صعدن إلى وجه الماء قبل أن يختنقن. يمكن أن تكون إحدى هذه الأصداف تضم لؤلؤة.

ولكن ينبغي أن تخرج ألف صدفة لتحصل على هذه الصدفة السعيدة اللؤلؤية. كم مرة ينبغي أن تغوص، كم صدفة ينبغي أن تخرج من جوف البحر حتى تحصل على عقد من اللآلئ الحقيقية.

ولكن هل تأليف أغنية كأنها العقد مصنوعة من الكلمات التي يستعملها الناس في حوارهم أقل من عقد اللؤلؤ عناء؟ إن مجموعة الكلمات العادية والحوادث والعواطف والتجربة في الحياة تؤلف محيطاً تتناثر فيه الأصداف اللؤلؤية في كرم، ولكن ما أحلى وما أصعب عمل

صياد اللؤلؤ الذي يجب عليه أن يغطس دون هوادة في أعماق المحيط ذات الأسرار. يجب أن يكون مسلحاً بكثير من الحصافة والصبر والصحة والثبات والحماسة. ويجب أيضاً أن يكون ذا حظ. إن صبر الغواصين على اللؤلؤ وصبر الصاغة في كوباتشكي الذين يصنعون الفضة المشبكة ينجمان عن عبقرية، ولكن ذلك كله هو العبقرية والعمل معاً وفي آن واحد.

لكي تعيش قصيدة إلى نهاية العصور
أيها الأصدقاء الذين تروني مرحاً أو قاسياً
اعلموا أني أتعلم الصبر والصلابة
من صاغة كوباتشي

قواعد الحياة التي يعرفها كل جبلي: لا تزوج بنتك قبل سن النضج. لا تخلع نعليك من قدميك قبل أن تقترب من النهر.

لا تضع قدرك على النار لتطبخ الصيد، والصيد ما يزال في الغابة، لم تصطده ولم تذبحه.

الثعلب الأزرق لا يملكه أول من يراه لكن يملكه من يمسك به.

ما أزال أتذكر: ما كنت أريد أن أذكر هذه الحكاية لأن ليس فيها ما يدعو إلى المباهاة، ولكني ما دمت بدأت في ذكر الأمور حسب تسلسلها فمن المستحيل أن أقفز على حلقة منها. ليس عبثاً ما يقولونه في الجبال: «إذا غصت في الماء إلى سرتك فاغمر كل جسدك». و«إذا حللت عقدة كيسك فافرغه».

كان من الممكن أن يتم هذا الكتاب منذ زمن لولا هذه الحكاية السخيفة التي قررت ذكرها الآن.

من عادتي إذا بدأت بكتابة كتاب ثم كان علي أن أسافر، أن أحمل مخطوطته معي. ولذلك فإن مخطوطاتي سافرت معي غالباً في رحلات

طويلة. وطبيعي أني لا أحملها لمجرد أن أحملها. هنالك أيام أكون فيها حراً عند الصباح في الفندق، فآخذ المخطوطة وأتأمل فيها وأكتب صفحة. كتابي هذا قطع معي بحاراً ومحيطات وقارات.

عدت يوماً من (بروكسل) ونزلت في فندق (موسكو) في الطابق الثامن، وما دمت قد ذكرت هذا الموضوع فأنا أريد مباشرة أن أقول بأن فندق (موسكو) ليس بالنسبة لي فندقاً عادياً. إنه يكاد يكون بيتي الثاني. لقد قضيت فيه نصف حياتي الشاعرة تقريباً ككاتب عندما كنت أجيء إلى موسكو في أعمال مختلفة.

كل من في هذا الطابق من إداريين وموظفين ونساء مشرفات أعرفهم جيداً أو يعرفونني.

ويعرف أصدقائي بموسكو أني أنزل دائماً في هذا الفندق، والحق أن بعضهم تعني عندهم كلمات (رسول في موسكو) أن لهم حظ الدعوة عنده إن لم يشغلهم شاغل.

ولا أكاد أدبر أموري حتى تبدأ عادة الهواتف والقرع على الباب. وبعد قليل لا نجد مكاناً نجلس فيه، ثم لا نجد مكاناً نتحرك فيه. ليست غرفة في الفندق بيتاً في القرية. نحن معشر الجبليين لا نسأل عادة عن اسم ضيوفنا قبل اليوم الثالث من بدء زيارتهم، حسب تقاليدنا القديمة. ومع ذلك فإن قليلاً من الناس يبقون ثلاثة أيام في غرفتي في الفندق ويبقى كثير منهم وأنا لا أعرفهم.

إذن فقد عدت يوماً من بروكسل ونزلت في فندق (موسكو) وامتلأت غرفتي بالناس كالعادة. جاء بعضهم للتهنئة بعودتي من الرحلة، وبعضهم يرجون لي، سفراً سعيداً إلى داغستان، وآخرون هنا، هكذا دون سبب، بعضهم جاء بدعوة مني، وبعضهم دون دعوة.

كنا نتبادل المدائح عالياً، ونشرب نخبنا، وكنا نذم غيرنا عالياً ونشرب نخبهم، نثرثر ونشرب ونضحك ونشرب، ونغني ونشرب، وامتلأت الغرفة

بدخان كثيف حتى خيل إلينا أن هناك ناراً من حطب رطب تشتعل تحت المنضدة أو تحت السرير.

قال أبو طالب: أمور ثلاثة عجلت هرمي:

الأول: أن يحضر كل الضيوف دعوتك ما عدا واحداً، تضطر إلى انتظاره.

الثاني: أن تضع زوجك الصحون على المائدة وابنك الذي أرسلته ليأتي بالفودكا ما يزال غائباً.

والثالث: أخيراً، أن يذهب ضيوفك جميعاً إلا واحداً. إنه ذلك الذي سكت طوال السهرة، فلما بلغ العتبة بدا يتكلم ليستدرك كل ساعات الصمت التي فاتته وتشعر أنت وهو يحدثك أن حديثه ليس له نهاية.

لقد أنهك التعب قواك وألقى النوم ثقله على جفونك، وأنت مضطر إلى الاستماع إلى حديثه السخيف، ومضطر إلى عدم معارضته شريطة أن يكف وأن يذهب، ولكنه وقد شعر بموافقتك على كلامه يسترسل في اندفاعات تتجدد دون انقطاع.

كان عندي في الواقع واحد من هذا النوع في هذه السهرة، أريد أن أتحدث عنه وعن نهاية زيارته وكانت سيئة، ذهب الناس جميعاً فأمسك بي من كتفي وهو سكران، يلقي أعقاب سجائره في أماكن لا يمكن أن تصدق، ويطفئها على الستائر، على ظهور الكراسي، على حقيبتي، وعلى الأوراق المتناثرة فوق مكتبي.

بدأ بالتغني بمآثري، ووافقت. ثم بدأ بالتغني بمآثره فوافقت. ثم تغنى بمآثر زوجته، ووافقت. وفي آخر الحساب بدأ بشتمي وإثارة كثير من السخافات ضدي، ووافقت أيضاً. وقلت في نفسي في خوف:

«الآن يبدأ بشتم نفسه ثم بشتم زوجته».

ولكنه عندما بلغ النقطة التي كان ينبغي فيها أن يبدأ منطقياً بشتم نفسه

كف فجأة عن الحديث وأسرع في الذهاب إلى غرفته، ووعدني لكي يخفف عني أسفي على مغادرته غرفتي أنه سيعود إلى زيارتي صباح غد.

يقولون أحياناً: إن الضيف جميل دائماً، ولكنه أكثر جمالاً حين يدير ظهره. الآن أدركت معنى هذا المثل. إن ظهر ضيفي وهو يغادرني بدا لي رائعاً، وقلت لنفسي وأنا أتنفس الصعداء: «حسناً أستطيع الآن النوم في هدوء» وأغلقت بابي وتسللت إلى سريري مثل لص. ونمت فوراً. وكان نومي هانئاً كأني راع في عباءته الدافئة والمطر يهطل ويضج في الخارج. وحلمت أني كنت أتلفف في عباءة قرب نار موقدة في معسكر. والرعاة يجلسون حولها ويمدونها بالحطب حيناً بعد حين. وكانت النار تدخن، والدخان يحرق عيني ويدغدغ أنفي. ثم رأيتني في مخبز، ولا أدري لماذا؟ والحرارة في المخبز شديدة، كأن شيئاً يحترق. ثم وجدت نفسي في الريف بين أصدقائي، في يوم من أيام الأحد، ونحن نشوي لحماً طيب الرائحة.

واستيقظت على ألم في عيني لا يحتمل. ونهضت قافزاً أعمى. الحجرة كانت ملأى بالدخان، وظننت أن هنالك حريقاً قرب الباب. وأسرعت إلى الردهة فإذا حقيبتي تكاد تأتي عليها النيران.

كانت تغطيها لاصقات من أحسن فنادق العالم. كم من بلد قطعناه معاً. كم من جمارك اجتزناها معاً دون حرج. حقاً إنها لم تضم يوماً ما شيئاً سيئاً إلا أن يكون زجاجة فودكا مهدية إلى صديق، أو علبة دخان أكثر مما تسمح به أنظمة الجمارك، أو مبذلاً يهدى إلى زوجة.

وها هي ذي الحقيبة التي اجتازت في أمان الحرائق الجمركية تشتعل هنا في أهدأ غرفة في فندق موسكو. وهرعت إلى بقايا حقيبتي المحترقة ونقلتها إلى المغطس وأجريت عليها الماء. وتصاعدت من جديد سحب من الدخان الكثيف. وأتيحت لي الفرصة في الوقت نفسه لإحراق يدي وحتى وجهي، وكان علي أيضاً أن أطفئ النار التي أصابت الكرسي

الذي كانت الحقيبة فوقه، والسجادة وحتى الستائر، وأسرعت إلى الهاتف ودعوت المشرفة على الطابق.

وقلت لها: أنا أحترق. أسرعي لإنقاذي. والظاهر أن المشرفة ظنت أن رسولاً لا يمكن أن يحرقه إلا الحب، وأنني بالتالي أحترق حباً لها. وأجابت في هدوء، وحنان الأم في صوتها.

ـ اسمع يا رسول. اذهب ونم. غداً تنسى ما عانيت.

أيتها النساء. ما أعجب أمركن: كم مرة قلت لكن وأنا أمزح أني أحترق حباً، فكنتن تصدقنني وتسرعن إلى نجدتي. ولكنني لم أجد واحدة منكن تصدقني حين كنت أحترق فعلاً.

واضطررت أن أكافح النيران وحدي، مثل إطفائي باسل. وأخيراً نجحت في إطفاء النار التي أصابت السجادة والستائر والأرض الخشبية التي بدأت تتفحم. نعم خرجت منتصراً من معركتي. ولكن النار كانت قد كبدتني خسائر فادحة.

الظاهر أن ضيفي، في سكره، ألقى عقب سيجارة مشتعلة في حقيبتي، وبدأ من هناك الحريق. قمصاني وبزتي والهدايا التي جئت بها من بروكسل كلها احترقت. وأقامت إدارة الفندق دعوى علي تطالبني بالسجادة والكرسي والستائر وكلفتني مبلغاً ضخماً، أما أنا فاضطررت إلى الذهاب إلى المستشفى وهتفت إلى زوجتي أنني اضطررت إلى البقاء في موسكو لقضايا مستعجلة. وبما أني لم أجد من الوقت ما يسمح لي باختراع سبب ما لتأخري فقد وعدتها بإرسال هاتف آخر. ذلك ما استطاع أن يفعله عقب سيجارة لعين.

ولكن علي أن أذكر أن كل ما أضعت تافه بالنسبة إلى ما بقي. الواقع أن المخطوطة التي عملت فيها سنتين كانت في قاع الحقيبة.

يقال إن أكبر سمكة هي التي استطاعت أن تقطع الشبكة وأن أحسن الأيائل هو الذي نجا منك، وأن أحلى النساء هي التي هجرتك.

قسم كبير من المخطوطة احترق، وأنا مقتنع، تطبيقاً لهذا المثل أنه خير ما فيها من صفحات.

وأضيف أن تلك السمكة التي نجت ليست لي، وأن الأيل الذي فر ليس ملكي، وأن المرأة التي هجرت ليست حبيبتي، ولكن هذه الصفحات التي احترقت هي لي فعلاً. أنا الذي اخترعتها، أنا الذي عشتها، أنا الذي تعذبت وأنا أكتبها، أنا الذي قضيت ليالي وليالي بيضاً في عمل متصل دائب. لهذا أجدني أتألم لضياع مخطوطتي. ولهذا عددته خير كتبي.

شعرت أني وحيد مهجور كأني حقل قاموا بتعشيبه، أو كأني سنبلة وحيدة نسيها الحصادون في الحقل.

كل حرف خططته على هذه الأوراق التالفة أصبح عندي أغلى من لؤلؤة. وبدا لي كل خط من خطوطها، في أحلامي، كأنما هو عقد يتلألأ.

وظللت سنتين كاملتين لا أستطيع العودة إلى المخطوطة، لكثرة ما أقلقني وهزني ضياعها. وعندما استطعت أخيراً أن أصحو وأهدأ شعرت أني أستطيع إعادة كتابتها تقريباً على نحو ما كنت كتبتها، ولكن يستحيل علي أن أعيد صفحاتها الضائعة.

ذلك يشبه زوجين جديدين أضاعا ولدهما الأول، الزمن يمضي، والزوجان يرزقان ولداً آخر يحبانه مثلما أحبا الولد الأول، ومع ذلك يبقى غير الولد البكر الذي مات.

يقال: إن القصائد تخشى الماء. القصيدة نار، وفن الشاعر لهب. الحق أن القصائد لا ينبغي أن تكون مائية، ولكني أسأل اللّه أن يصونها أيضاً من النار التي التهمت مخطوطتي في غرفة الفندق.

سرقة بيت أبي طالب: كيف حدث هذا؟ من الذي استطاع أن يضرب هذه الضربة؟ كيف كان البيت خالياً من سكانه في ذلك اليوم؟ تلك أمور لا أعرفها، ولكن الذي حدث أن بيت أبي طالب سرق. وأسرعوا ليروا

ما أخذ منه، واكتشفوا أن السارق أخذ ساعة ابنته الذهبية، وخاتمها الذهبي وعقودها وغير ذلك من الحلي، وأخذ أيضاً معطف الفرو، والثياب والأحذية والمال.. وكادت زوجة أبي طالب يغمى عليها، وانهارت ابنته على المقعد وهي تبكي. أما أبو طالب فقد مضى إلى غرفة ثالثة وجلس على الأرض وشرع يعزف على ربابته.

وهجمت زوجته وألقت نفسها عليه:

ـ كيف تجرؤ على العزف بعد هذه الكارثة الفادحة؟

يجب أن تسرع إلى الشرطة، إلى المدعي العام.

ـ أتحدثين عن كارثة؟ انظري هذه قصائدي ما تزال هنا، هذه أوراقي لم تمسها يد السارقين. إذن فلماذا أغضب؟

ـ ومن يحتاج إلى قصائدك، ولا سيما وقد كتبت فوق ذلك بلغة لاك؟

ـ أوه أيتها الجاهلة. هناك أشخاص لا هم لهم إلا سرقة الشعر، بل إنهم ربما سرقوا عناوين الشعراء. أما قصائدي فها هي ذي سليمة والحمد لله. لقد عملت فيها سنة كاملة، لو سرقت لكانت هذه هي الكارثة. ثم انظري ها هي ذي ربابتي سليمة. فلماذا لا أعزف فرحاً؟

وظل أبو طالب يعزف على ربابته دون أن يكترث بصرخات زوجته وابنته.

حدثني أفندي كابييف قال: في يوف من أيام الصيف الرائعة كان سليمان ستالسكي يتمدد على سطح بيته، وينظر إلى السماء. العصافير ترفرف. والينابيع تدمدم. كل من رآه ظن أنه يستريح. وذلك ما ظنته زوجته. وصعدت إلى السطح ونادته:

ـ اللحم المشوي انتهى.. حان وقت الطعام.

ولم يجب سليمان ولم يلفت حتى رأسه.

وبعد فترة نادت (عينه) زوجها مرة أخرى.

ـ اللحم برد. وعما قليل لا يصلح للأكل.

ولم يتحرك سليمان.

وعندئذ حملت الزوجة الطعام إلى السطح لكي يستطيع سليمان تناوله هناك، ما دامت تلك رغبته. وقدمت إليه الطعام وهي تقول له:

ـ أنت لم تأكل منذ الصباح. ذق هذا اللحم الطيب الذي أعددته لك.

وغضب سليمان. وانتصب واقفاً يصرخ بزوجته التي تعتني به:

ـ أنت دائماً تحولين بيني وبين عملي.

ـ ولكني ظننت أنك لا تعمل، فأنت تستلقي على ظهرك.

ـ كلا. بل أنا أعمل.. لا تزعجيني.

والواقع أن سليمان نظم في ذلك اليوم قصيدة جديدة. وهكذا يعمل الشاعر حتى حين يكون مستلقياً على ظهره ينظر إلى السماء.

الشاعر ينظم قصيدة لزوجته
«يا ضيائي، يا نجمي، يا صباحي.
الحياة حلوة قربك،
ومرة عندما لا أراك

ولكن ها هي الزوجة ـ النجم والضياء
تقف عند عتبة الباب
ويصرخ الشاعر: «أأنت ما تزالين هنا؟
اذهبي ودعيني أعمل بحق اللّه

حدثني أبي: مغني الحب الكبير محمود ذهب يوماً لزيارة رجل من الصالحين. كان هنالك ضيوف آخرون. وبقي الشاعر يسحرهم بأغانيه حتى انتصف الليل. ثم ذهبوا إلى النوم. وأعطي محمود أحسن غرفة. ووضع له رب البيت طستاً وإبريقاً للوضوء وتمنى له ليلة سعيدة.

وعند الصباح خاف رب البيت أن تفوت محموداً صلاة الفجر فجاء

يلقى نظرة خجلى على غرفة محمود فوجد الشاعر ما يزال ساهراً لم ينم، وهو جالس على السجادة ينظم شعراً ويدندن في صوت خافت:

ليس في الجنة غناء
فاعفني منها إن أردت
واحتفظ بجنتك
وأنا أحتفظ بحبيبي

ـ يا محمود حانت صلاة الفجر. دع قصيدتك وهيا إلى الصلاة
وأجاب محمود:
ـ ولكن تلك هي صلاتي.
وهكذا يعمل الشاعر حتى في ساعات الصلاة.

من دفتر المذكرات: والآن سأقص عليكم حكاية شاعر من آفار. لن أذكر لكم اسمه لأني لا أريد أن يُشار إليه ويُسخر منه، ففي حكايته ما يستحق السخرية.

تزوج هذا الشاعر، وبعد حفلة الزفاف غادر المدعوون البيت وتركوا العروسين في غرفة أعدت لليلة الزفاف. وتمددت العروس على الفراش في انتظار زوجها. ولكن هذا الأخير بدلاً من أن يأتي ليجد زوجته، جلس إلى المنضدة وجعل ينظم قصيدة.

وظل يكتب طوال الليل، وعند الصباح أتم قصيدة طويلة مهداة إلى زوجته، إلى الحب، إلى ليلة الزفاف. أيجب علينا أن نستنتج من هذه الحكاية أن الشاعر يعمل حتى في ليلة زفافه. لو فعلت كما فعل هذا الشاعر لكنت كتبت خمسين كتاباً فوق ما كتبت، ولكن يخيل إلي أن هذه الكتب ستكون كتباً زائفة.

إن من يجلس إلى منضدته، وعروسه تفتح له ذراعيها ذلك الذي لا يدع أوراقه وقلمه إذا حضرت امرأة جميلة، ذلك في رأيي مدع مغرور.

يمكن أن يكتب عشرة مؤلفات أو عشرين مؤلفاً زيادة على ما يكتب غيره، ولكن كلماته تظل ينقصها الصدق والإخلاص.

العمل: ذلك أمر لا مناص منه، جلس حكيم تحت شجرة في انتظار أن تسقط تفاحة في فمه. ولم تسقط التفاحة.

ومع ذلك فإن الصدق، أمام الأشخاص وأمام الذات، أكثر ضرورة للشاعر من العمل، وربما من الموهبة.

يقولون: الرجل الشجاع يجب أن يظل على صهوة حصانه أو على ظهر الأرض.

يقولون:

ـ ما هو أشد ما في العالم حقارة وشناعة.

ـ الرجل الذي يرتجف خوفاً.

ـ وما هو أشد من ذلك حقارة وشناعة.

ـ الرجل الذي يرتجف خوفاً.

الحقيقة والشجاعة

ينبغي أن يتصف الإمام بالحكمة، في جملة ما يتصف
به.
ـ قال ذلك نائب أبيض الشعر في المجلس
ينبغي أن يتصف الإمام بالشجاعة في جملة ما يتصف
به
هكذا اعترض نائب ثان على النائب الأول.

حكم العالم أسهل في ما أعتقد
من أن تكون شاعراً تحكم الشعر
لأن الشاعر ينبغي أن يكون شجاعاً وحكيماً
وأن يتمتع بمائة سجية أخرى.

يقول أهل آفار: الصدق والكذب يتراهنان منذ الأزل. الصدق والكذب يتجادلان لمعرفة أي منهما أكثر نفعاً وأكثر ضرورة وأشد قوة.

الصدق يقول: أنا. والكذب يقول أنا.

والصراع لا ينتهي.

في يوم من الأيام قرر الصدق والكذب أن يذهبا إلى الناس ويسألاهم. الكذب ركض على طول الدروب الضيقة والمتعرجة، ونظر في كل شق، وشم كل ثقب. ودار في كل منعطف. ومشى الصدق رافع

الرأس في الطرق العريضة المستقيمة. وضحك الكذب طول الوقت، وبقي الصدق مفكراً حزيناً. وهكذا زارا كل الطرق، والمدن والقرى، ذهبا إلى الملوك والشعراء والخانات والبائعين والعرافين والناس البسطاء. كل الناس يشعرون أنهم أكثر حرية، أكثر راحة إذا ظهر الكذب. ينظر بعضهم إلى بعض في العيون وهم يضحكون، بينما هم يخدعون الآخرين في الوقت نفسه. ويعرفون أنهم يكذبون. ولكنهم يشعرون أنهم لا يحملون حرجاً ولا عبئاً وأنهم لا يتضايقون إذا خدع بعضهم بعضاً أو تبادلوا الأكاذيب.

فإذا ظهر الصدق اغبرت وجوه الناس، وطاشت أنظارهم، وخفضوا أبصارهم، وأمسكوا بالخناجر (باسم الصدق) وثار من أهين على من أهانه، وهاجم المشتري البائع؛ وثار الفلاح على الخان، والخان على الشاه، وقتل الزوج زوجته والمحب حبيبته، وسال الدم.

وقال أكثر الناس للكذب:

ـ لا تتركنا، أنت خير الأصدقاء. معك نستطيع أن نعيش في سهولة أكثر وفي بساطة أوفر. أما أنت أيها الصدق فلست تحمل إلينا غير القلق. أنت تجبرنا على التفكير والعذاب والنزاع. كم من المحاربين الشباب والشعراء والفرسان ماتوا من أجلك؟ أليس يكفيك ذلك؟

وعندئذ قال الكذب للصدق:

ـ إذن فقد رأيت أني أكثر منك قيمة وأجل نفعاً. في كل بيت زرناه كانوا يحتفلون بي، ويضيقون بك.

ـ نعم لقد زرنا بيوتاً كثيرة مأهولة. هيا الآن لنزور القمم، تعال نسأل الينابيع الباردة الصافية، ما رأيها، تعال نسأل الأزهار التي تتفتح في مرتفعات الجبال، تعال نسأل الثلج الذي يتوهج بالبياض الناصع الذي لا يزول. الألوف المؤلفة تعيش في القمم. المآثر الخالدة السامية للأبطال والشجعان والشعراء والحكماء والقديسين تحيا هناك، وتحيا هنالك

كذلك أفكارهم وأغانيهم ومبادئهم. إن كل ما هو خالد لا يخشى ما في الأرض من اضطراب يعيش في القمم.

وقال الكذب:

ـ لا . . لن أذهب إلى هناك.

ـ ولِمَ تخاف الأعالي؟ انظر: الغربان وحدها تعشش في الحفر، أما النسور فإنها ترقى فوق قمم الجبال، أتحسب أن كونك غراباً يليق بك أكثر من أن تكون نسراً؟ نعم. أنا أعلم أنك خائف. أنت وغد على العموم. أنت تجلس إلى مائدة العرس وقد سالت عليها أمواج الخمر، ولكنك تخشى أن تخرج إلى الساحة لتستمع إلى رنين الخناجر لا إلى رنين الكؤوس.

ـ لا . . لست أخاف قممك. ولكن ليس لي فيها عمل، لأنه ليس فيها أحد.

مملكتي هنا تحت، حيث تعيش الناس. أنا أسيطر عليهم دون منازع. إنهم كلهم أتباعي ورعيتي. بعض أصحاب المبادئ الشجعان يجرؤون وحدهم على عصياني، ويتكلمون بصوتك، صوت الحق. ولكن هؤلاء الناس يعدون على أصابع اليد الواحدة.

ـ حقاً إنهم يعدون على أصابع اليد، ولكن الناس يدعونهم أبطالاً، والشعراء يخصونهم بأحلى أغانيهم.

أحجية: هذه الأحجية قصها علي أبو طالب. عاش في إحدى البلاد شعراء كثيرون يذهبون من قرية إلى قرية وينشدون أغانيهم، بعضهم على الربابة وآخرون على الدف، أو الكران أو القيثارة. وكان الخان ـ إذا لم تشغله أعماله أو نساؤه ـ يجب أن يستمع إلى أغاني الشعراء.

وفي يوم من الأيام سمع أغنية تتحدث عن قسوة الخان واستبداده وجشعه. فأمر الخان وهو غضبان، بالبحث عن الشاعر الذي ألف هذه

الأغنية التي تحض على عصيانه، وأن يُؤتى به إلى القصر. ولم يستطع أحد العثور على مؤلِّف الأغنية. وعندئذ أمر الخان وزراءه وجنوده بالقبض على جميع الشعراء. وهجم حراس الخان مثل كلاب الصيد على القرى، والطرقات ودروب الجبال، والشعاب الموحشة، وقبضوا على كل من ألف أغنية، وألقوا بهم في سجون القصر.

وفي صباح اليوم التالي جاء الخان ليرى الشعراء المساجين:

ـ حسناً. على كل واحد منكم أن يغني أغنية واحدة.

وبدأ الشعراء يغنون واحداً بعد واحد، يمجدون الخان، وفكره النير، وقلبه الطيب، ونساءه الجميلات، وقوته وعظمته ومجده. وقالوا في أغانيهم إن الأرض لم تشهد قط مثل هذا الخان في عظمته وعدله.

وأطلق الخان سراح من غناه من الشعراء. ولم يبق في السجن غير ثلاثة شعراء لم يستمع إلى أغانيهم. وتركوهم في السجن، وظن الناس أن الخان نسيهم.

ومع ذلك فقد عاد الخان بعد ثلاثة أشهر ليرى الشعراء المساجين:

ـ حسناً. . على كل واحد منكم أن يغني أغنية واحدة. وجعل شاعر منهم يغني ويمجد الخان، وفكره النير، وقلبه الطيب ونساءه الجميلات وقوته وعظمته ومجده. وقال في أغنيته إن الأرض لم تشهد قط مثل هذا الخان في عظمته وعدله.

وأطلق الخان سراح الشاعر. وبقي شاعران رفضا الغناء، فأمر الخان بنقلهما إلى محرقة أعدت في الساحة العامة.

وقال الخان:

ـ سألقيكما في النار. هذا إنذار نهائي:

غنياني إحدى أغانيكما.

ولم يستطع واحد منهما أن يتماسك. وجعل يغني ويمجد الخان

وفكره النير وقلبه الطيب ونساءه الجميلات وقوته وعظمته ومجده، وقال في أغنيته إن الأرض لم تشهد مثل هذا الخان في عظمته وعدله.

وأفرجوا عن هذا الشاعر، ولم يبق إلا واحد، هو الأخير الذي أبى في عناد أن يغني.

وأمر الخان:

ـ اربطوه بالجذع وأشعلوا النار.

وعندئذ أنشد الشاعر، وهو مربوط بالجذع، أغنيته الشهيرة عن قسوة الخان واستبداده وجشعه، تلك الأغنية التي كانت سبباً في كل ما حدث.

وصرخ الخان:

ـ فكوا حباله. أخرجوه من النار. أنا لا أريد أن أفقد الشاعر الوحيد الحقيقي في بلدي.

وقال أبو طالب معلقاً على الحكاية.

الحق أني لا أعتقد كثيراً أن هنالك خانات في مثل هذا الذكاء وفي مثل هذا النبل، ولكن الواقع أن وجود بعض الشعراء من هذا النوع ضروري.

حدثني أبي قال: سألت الشيخ شاملاً العظيم يوماً بطانته:

ـ يا إمام. قل لنا لماذا منعت نظم الأشعار وتأليف الأغاني؟

وأجاب شامل:

ـ أريد أن يبقى الشعراء الحقيقيون وحدهم هم الشعراء. لأن الشعراء الحقيقيين يستمرون في نظم الشعر مهما حدث، أما الكاذبون، أما المنافقون الذين يدعون أنهم شعراء فسيخافون مني ويسكتون لأنهم جبناء. وهكذا يكفون عن خداع الشعب وعن خداع أنفسهم.

ـ يا إمام. قل لنا لماذا ألقيت في النهر بقصائد سعيد آراكان؟

ـ يستحيل أن تلقى في النهر قصائد حقيقية. إنها تعيش في قلوب

الناس. ولكن عندما تكون القصائد لا تساوي الورق الذي كتبت عليه، عندئذ يحدث لها ما يجب أن يحدث لها. وعوضاً عن أن يكتب سعيد آراكان شعراً خفيفاً يحمله النهر معه يجب أن يشرع في كتابة شيء مفيد.

قالوا: عندما مات الشاعر الكبير محمود، أخذ والده، وقد سحقته المصيبة، الحقيبة التي تضم مخطوطات محمود وألقى بها إلى النار.

ـ احترقي أيتها الأوراق اللعينة التي كانت السبب في موت ولدي قبل أوان موته.

واحترقت الأوراق ولكن قصائد محمود بقيت على قيد الحياة. لم تنس من أغانيه كلمة واحدة. لا تزال أغانيه تعيش في قلوب الناس لا سلطان للنار ولا للماء عليها.

كان أبي يسخر من هؤلاء الذين يخافون العين فيسافرون في الليل سراً، من هؤلاء الذين يملأون معاجنهم بالحصى ليظن الناس أن فيها خبزاً، من الصيادين الذين يرجعون من الصيد يحملون زاغاً عوضاً عن حجل.

حدثني أبو طالب قال:

هذه حكاية الفقير الذي يتخذ مظهر الغنيّ. كان أحدهم يأتي كل يوم إلى الندوة وهو مسرور، يتبسم، وشارباه يلمعان من الدهن كأنه قام الآن عن أكل حمل صغير طري اللحم. وكان يتبجح في صوت عال:

ـ آه، ما أسمن هذا الحمل الذي ذبحته اليوم عند الغداء، ما أطرى لحمه وما أطيبه.

وتعجب أهل القرية وتساءلوا.

ـ ومن أين يأتي كل يوم بحمل؟ يجب أن نتحقق. وتسلق بعض الفتيان المهَرة سطح بيته ونظروا إليه من ثقب في السقف معد لانطلاق

الدخان، ورأوا الرجل الفقير يغلي في قدر عظماً قديماً كان عنده من زمن بعيد، ثم يأخذ من سطح القدر شيئاً من الدهن ويمسح به شاربيه. ثم يمضغ قليلاً من الصعتر لأنه لا يملك غيره مما يمكن أن يؤكل في البيت.

وهبط الفتية سريعاً من السطح ودخلوا إلى منزله:

ـ السلام عليكم. كنا نمر من هنا فاغتنمنا المناسبة لنكون ضيوفاً عند رجل غني.

ـ لقد تأخرتم. الآن فرغت من أكل حمل سمين. كنت أهم بالخروج من البيت.

ـ قل لنا شيئاً خيراً من ذلك. من أين تقطف مثل هذا الصعتر الزكي؟

وأدرك الرجل الفقير أن الفتيان عرفوا كل شيء، وفقد شجاعته، ومنذ ذلك اليوم لم يره الناس وشارباه يلمعان بالدهن.

أتذكر عندما كنت صغيراً فرض علي أبي ذات يوم عقوبة قاسية. لقد نسيت طعم السوط منذ زمن بعيد، ولكني ما أزال أتذكر سببه.

تركت البيت صباحاً كأني ذاهب إلى المدرسة، ولكني في الواقع عرجت على درب صغير ثم على درب آخر ثم لم أصل إلى المدرسة. ولعبت طوال النهار بالطرة والنقش مع أولاد الشارع. أعطاني أبي بضعة قروش لأشتري كتباً، فضربت بها عدة ضربات ونسيت كل شيء في العالم، ورأيتني أضيع نقود أبي، وبدأت أفكر: كيف أستعيدها؟

اللاعبون في لعبة المصادفة عندما يضيعون آخر قرش معهم يشعرون أنهم لو وجدوا قطعة واحدة ذات خمسة قروش لكانت لهم الغلبة ولاستردوا كل ما فقدوا، بل لربحوا ربحاً وفيراً. وشعرت الشعور نفسه، لو وجدت قروشاً قليلة لكانت لي الكرة عليهم.

وطلبت من الأولاد الذين ألعب معهم أن يدينوني. ولم يقبل أحد.

ذلك أن الأسطورة تقول: إذا أقرضت مالاً في اللعب للاعب خاسر لأضعت نفسك.

عندئذ اخترعت الحل الآتي: درت على منازل القرية وقلت: إن فرقة بهلوانية ستصل قريباً وإنها كلفتني جمع مال لها.

ماذا يكسب كلب متشرد جائع يجري من بوابة إلى بوابة؟ عصا أو عظماً، هذا أو ذاك، وأنا أيضاً لم ألاق إلا الإعراض، ولكن بعض الناس دفعوا لي، ولا شك أن ذلك كان احتراماً لأبي.

وبعد أن طفت في القرية عددت ما حصلت عليه وعلمت أني أستطيع استئناف اللعب. ولكن المال الجديد لم يلبث أن لحق بصاحبه القديم. وزاد الطين بلة أن سروالي تمزق وتجرحت ركبتاي، لأن من شروط اللعبة أن من يخسر فقد وجب عليه أن يسير قافزاً على ركبتيه.

وفي أثناء ذلك افتقدني أهلي في البيت. وذهب إخوتي الكبار للبحث عني في كل القرية، ورجال القرية الذين حدثتهم عن وصول البهلوانات إلى القرية جاؤوا إلى البيت واحداً بعد واحد يطلبون مزيداً من التفاصيل. وبكلمة واحدة كانت كل مغامراتي قد انتشرت، بكل دقائقها، عندما عثروا علي وقادوني وهم يجرونني من أذني إلى البيت.

وقدمت إلى أبي. كنت أخشى محاكمته أكثر من كل ما أخشاه في العالم. ورازني أبي من رأسي إلى قدمي، وبدت ركبتاي العاريتان، الحمراوان وقد أصابهما الورم من الجراح كأنهما وسائد من ريش تسد بها النوافذ في المنزل.

وسألني والدي، وسحنته هادئة في الظاهر:

ـ ما هذا؟

وأجبت وأنا أحاول ستر الخروق بيدي:

ـ ركبتاي؟

ـ أنا أرى أنهما ركبتان، ولكن لماذا هما مكشوفتان للهواء؟ حدثني قليلاً عما مزق سروالك؟

ونظرت إلى سروالي كأني أكتشف الآن بعض ما فيه من سوء. تلك نفسية الكاذب المخادع: يعرف تماماً أن الكبار قد فهموا كل شيء، وأن من العبث ومن المضحك أن ينكر، ومع ذلك يحاول أن يتخلّص من الإجابة وأن يخترع ما لا يعرفه إلا اللّه.

وجعل صوت أبي يأخذ لهجة تهديد ووعيد. وجاء كل من في البيت لنجدتي وتحلقوا حولي، وهم يعرفون طباع رب البيت. ولكن أبي أوقفهم بحركة من يده وسألني؟

ـ إذن فأين مزقت سروالك؟

ـ في المدرسة.. علق بمسمار...

ـ كيف.. كيف.. أعد.

ـ علق بمسمار.

ـ أين؟

ـ في المدرسة.

ـ ومتى؟

ـ اليوم.

وصفعني أبي صفعة رنانة.

ـ قل لي الآن كيف مزقت سروالك؟

ولزمت الصمت فصفعني والدي صفعة ثانية على الخد الآخر.

ـ قل الآن.

وجعلت أبكي.

ـ اخرس. ومد يده إلى السوط.

وتوقفت عن البكاء ورفع أبي ذراعه:

ـ إذا لم تقص علي فوراً كل ما حدث في الواقع أخذت السوط.

أنا أعرف هذا السوط، وهذه العقدة في طرفه، قاسية كأنها الحجر. وكان الخوف من السوط أكبر من الخوف من الصدق وقصصت بالتتابع كل مغامراتي منذ الصباح.

وحوكمت وحكم علي. وظللت ثلاثة أيام أتشرد كأني روح قضي عليها بالعذاب. كانت الحياة في المدرسة وفي البيت تجري في مجراها العادي في الظاهر، ولكن قلبي كان في غير موضعه.

كنت أشعر أن يوم التفسير الكبير بيني وبين والدي سيأتي لا محالة. ومع ذلك فقد كنت أتمنى في أعماق قلبي أن يتم هذا الحوار، بل كنت أتمناه في لهفة. ولكن أصعب ما علي أن والدي كان لا يريد الحديث معي، كان صخرة حقيقية تنتصب على رأس جبل.

وفي اليوم الثالث استدعاني أبي وأجلسني قربه، وداعب شعري، وسألني عدة أسئلة عن عملي في المدرسة وعلاماتي التي أحرزتها، وفجأة سألني:

ـ أتعرف لماذا ضربتك؟

ـ نعم أعرف.

ـ ولماذا ضربتك في رأيك؟

ـ لأني لعبت بالدراهم.

ـ كلا، ليس هذا هو السبب. من ذا الذي لم يلعب منا عندما كان طفلاً؟ أنا أيضاً لعبت، وإخوتك الكبار لعبوا!

ـ لأني مزقت سروالي.

ـ كلا، ليس هذا هو السبب. من منا لم يمزق سرواله أو قميصه عندما كان صغيراً؟ نحمد اللّه أننا لم نفقد صوابنا حتى الآن! ثم إنك لست بنتاً لتمشي دائماً في منتصف الطريق.

ـ لأني لم أذهب إلى المدرسة.

ـ لقد كان ذلك خطأ كبيراً، كل مصائبك في ذلك اليوم أتتك من هنا. أنت تستحق من أجل هذا تقريعاً عنيفاً، وكذلك من أجل سروالك الممزق ولعبك بالمال. ولكني في مقابل ذلك كان من الممكن أن أكتفي بشد أذنيك. ولكني ضربتك لغير هذا كله، ضربتك يا ولدي بسبب كذبك علي. الكذب ليس أمراً يقع مصادفة، وليس خطأ ولا هفوة، إنه سيماء

تدل على خلق يمكن أن تكون له جذور. إنه عشب ضار في حقل روحك. إذا لم ينتزع في الوقت المناسب من جذوره يمكن أن يملأ الحقل كله، ثم لا يبقى فيها مكان صالح تنبت فيه حبة طيبة. ليس في العالم كله شيء أكثر هولاً من الكذب، إنه لا يمكن أن يطرد ولا أن يضرب.

إذا كذبت مرة أخرى قتلتك. منذ هذه اللحظة لا تقل أبداً غير الحق والصدق. تسمي الحديد الأعوج حديداً أعوج. وتسمي عروة الجرة العوجاء عروة الجرة العوجاء، والشجرة الملتوية شجرة ملتوية.

هل فهمت هذا؟

ـ نعم، فهمت.

ـ إذن فاذهب.

وخرجت وأنا أقسم إني لن أكذب أبداً. وفوق ذلك فقد عرفت أني إن لم أنفذ ما وعدت به، فإن أبي سينفذ وعيده ويقتلني مهما كان مقدار حبه لي.

وانقضت سنوات طويلة وقصصت قصتي هذه على صديق لي.

وصرخ بي.

ـ كيف. ألم تنس هذه الكذبة الصغيرة؟ هذه الكذبة التافهة؟

وأجبته:

الكذب هو الكذب، والصدق هو الصدق. لا يمكن أن يكونا صغيرين ولا كبيرين. هناك الحياة أو الموت. عندما يحل الموت ترحل الحياة. لا يمكن لهما أن يتعايشا معاً. أحدهما يطرد الآخر. وكذلك الأمر بالنسبة للصدق والكذب.

الكذب هو العار، والطين، والقذر. والصدق هو الجمال والبياض والسماء الصافية. الكذب هو النذالة والجبن، والصدق هو الشجاعة. هذا أو ذاك، ليس بينهما حد وسط.

واليوم عندما أقرأ مؤلفات كاذبة لمؤلفين كاذبين أتذكر سوط أبي. كم

كان هذا السوط مفيداً؟ وكم كان هؤلاء في حاجة إلى أب قاس ينذرهم في اللحظة الحاسمة: «إذا كذبت قتلتك».

أوه هل الكذب هو وحده الذي لا يحل به عقاب؟ أليس هناك حالات عوقب بها الصدق نفسه؟ هل هي قليلة في التاريخ الأمثلة التي تتحدث عن أناس تألموا باسم الصدق؟ والذين هددوا بالسوط بسبب الصدق؟

في طفولتي كنت أحتاج إلى كثير من الشجاعة لأتخلى عن الكذب وأنحاز إلى الصدق. ولكني كنت أشعر كلما فعلت ذلك أن عبئاً ثقيلاً ينزاح عن صدري.

ونحن نحتاج إلى قسط أوفر من الشجاعة لكيلا نتخلى عن كلمات الصدق. لأننا إذا فعلنا ذلك لم نشعر بالراحة، بل شعرنا بالآلام المخيفة، بآلام الضمير.

إن الرجال الحقيقيين لا يبدلون أبداً قناعاتهم. يعرفون أن الأرض تدور. يعرفون أن الشمس ليست هي التي تدور حول الأرض، بل إن الأرض هي التي تدور حول الشمس. يعرفون أن الصبح يعقب الليل حتماً، ثم يأتي النهار ثم يعود الليل... وأن الربيع يحل محل الشتاء ثم يأتي الصيف الجميل..

نستنتج من ذلك أخيراً أن سوط الضمير، سوط الشرف، سوط الصدق يقرع الكاذبين والمنافقين، وأن الكذب لا يمكن أن ينتصر على الصدق مدى الدهر.

سمعت ذلك في ندوة القرية: ـ ما هي المسافة الفاصلة بين الصدق والكذب ـ مقدار أنملة.

ـ وكيف كان ذلك؟

ـ لأن مسافة ما بين الأذن والعين أنملة.

إن ما تراه بعينيك هو الصدق، وما تسمعه بأذنيك هو الكذب.

كل ذلك صحيح. ومن الخير للإنسان أن يرى مرة واحدة من أن يسمع مائة مرة. ولكن على الكاتب أن يغترف الصدق من كل مكان، مما رآه ومما سمعه ومما قرأه، ومما عاشه هو نفسه.

هل يمكن للإنسان أن يثق بعينيه وحدهما؟ إنه يرى الحياة بعينيه، ولكنه يصغي إلى الموسيقى، يقرأ تاريخ بلاده، أما بعض الكتاب فلا يضعون في المقام الأول عيونهم ولا آذانهم، ولكنهم يؤثرون عليها حاسَّة الشم لديهم.

يجب أن يكون للكاتب يدان قويتان قادرتان على القيام بكل عمل، وقدمان راسختان وأسنان متينة، ولكن عليه أيضاً أن يمتلك الذكاء والمعرفة ليستطيع أن يميز بين الكذب والصدق، بين الذهب والرقائق الرخيصة، بين الحبة والحصاة في كل ما يسمعه أو يقرأه. والإنسان دون ذكاء ولا معرفة لا يمكن أن يطمئن إلى ما تراه عيناه.

سكان بعض القرى الجهلاء، الذين لم يروا الذهب قط ولكنهم طالما سمعوا الحديث عنه، وجدوا ذات يوم صندوقاً ثقيلاً جداً. فقال بعضهم لبعض «إنه من الذهب ما دام ثقيلاً إلى هذا الحد» وتنازعوا على الغنيمة وقتل بعضهم بعضاً ثم تبين لهم أن الصندوق من نحاس.

العبقرية نار. ولكن النار في يد الأحمق يمكن أن تأتي على كل شيء. الذكاء هو الذي يديرها. الذكاء يسرج حتى الجمال، كما يسرج الفارس الماهر الحصان الثائر.

سألوا جبلياً: أيهما تفضل؟ جمال الوجه أو حكمة الكهل؟

الأحمق يختار وجهاً جميلاً ويبقى أحمق. والخطيبة تهجر الأحمق وإن كان جميلاً. الذكي يختار الحكمة ويعرف بفضل حكمته كيف يحتفظ بزوجته إلى جانبه. هذا ما حدث في الحكاية التي ذكرت أن من اختار الحكمة نجح في وضع جميلته على سرج حصانه الجريء. ويتحدثون في الحكايات أيضاً عن ثلاثة إخوة، وثلاث طرق وثلاث نصائح حكيمة.

فمن سمع هذه النصائح عاد إلى بيته وإلى أهله، ومن لم يسمعها ترك رأسه في ديار الغربة.

أوه يا سمكتي الذهبية: هبي لي بعض العبقرية. هبي لي بعض الدأب، هبي لي قلباً صادقاً نشيطاً مثل قلب شاب، وحكمة باردة مثل حكمة شيخ، ساعديني على اختيار طريقي الصحيحة.

لتكن هذه الطريق ملأى بالحصى، كثيرة العثار، خطرة. ولكني لا أريد أن أزحف كالحية من طرف إلى طرف. يتساءل الجبليون: «لماذا كانت الأفاعي ملتوية؟» ويجيبون أنفسهم لأن الجحور والثقوب التي تضطر الأفاعي إلى المرور فيها ملتوية». أنا إنسان لا أفعوان، أحب الأعالي، الصفاء، الطرق المستقيمة.

احفظيني من المرض والرعب، والمجد الثقيل والأفكار الخفيفة.

احميني من النشوة لأن الإنسان يرى في النشوة ما هو جيد جيداً أكثر مما هو مائة مرة.

احميني أيضاً من البلادة لأن الإنسان يرى في البلادة ما هو سيئ أكثر مما هو مائة مرة.

أعطني إحساساً بالحق والصدق حتى أستطيع دائماً التمييز بين الأمور الملتوية والأمور المستقيمة، ثم أن أقول ذلك دون خوف.

ـ «كل ما في العالم شر، كل ما في العالم فوضى»
قال ذلك الشاعر قبل أن يغادر هذه الدنيا
ـ «العالم رائع» قال ذلك شاعر آخر.
وهو يغادر الدنيا في زهرة العمر.

شاعر ثالث، وهو يغادر هذا العصر الخبيث
وكان يحمل اسم الشاعر الكبير الخالد،
كان يسمي ما هو سيئ جداً سيئاً
وما هو جميل، جميلاً.

ذات يوم علق جبلي في أذني بقرته قرطين ليستطيع بهما تمييزها عن سائر البقرات. وذات يوم علق جبلي في عنق حصانه أجراساً لكيلا يختلط بخيل جيرانه. ولكن الفارس الذي لا يعرف حتى في الليل الأليل حصانه المفضل فارس سيئ جداً.

هذا هو كتابي، لا أريد أن أعلق عليه قروطاً، ولا أجراساً ولا زخارف. فأنا لا يمكن أن أخلطه بكتب أخرى كتبتها أنا أو كتبها غيري. أيمكن ألا يختلط على غيري من الناس. أيمكن أن يقول من يقرأ فوراً، حتى إذا كان غلافه منزوعاً، إن هذا الكتاب كتبه رسول، ابن حمزة، من قرية تسادا.

يقولون: الشجاعة لا تحتاج إلى صخرة عالية.

شكوك

الكتب، كتبي ـ إنها خطوط
تلك الدروب حين كنت خائفاً وشجاعاً،
اخطو فأصاعد القمة
وأتعثر فأسقط في الهاوية

الكتب، الكتب، انتصارات دامية،
هل تعرف وأنت تحلّق،
إن كنت ستتسربل بالمجد
أو إن كنت ستسفك دمك سدى

يا لداغستان المتعددة الألسن والألوان! لقد حافظت شعوبها على الكثير من عاداتها المتنوعة. ولقد روى لي الكاتب التاتي خيزغيل أفشالوموف واحدة منها.

عندما كان الجبليون لا يرزقون أطفالاً، كان الزوج يتمنطق بحزام من الصوف كي يميزه اللّه من بين غيره من سكان الجبال. وكان الجبلي أثناء ذلك يضرع إلى اللّه:

ـ اللهم لا تخذل عبدك المسكين، منّ عليه بغلام.

مثل هذا الحزام كان يتمنطق به من لم يولد له إلّا بنات، كذلك كل من رزق ولداً ضعيفاً أو أعمى أو أعرج أو أخرس، أو أحدب أو أعور

أو معتوهاً، وكان الجبلي يؤمن وهو يضع هذا الحزام أن اللّه سيبعث له في المرة القادمة ابناً صحيحاً وقوياً سيكون في المستقبل فارساً شجاعاً.

وها أنا ذا تمزقني الشكوك: هل أضع أنا أيضاً هذا الحزام العجائبي الذي يتمنطق به التاتيون حين يشكون في سلامة طفلهم العتيد؟ هل سيولد كتابي ابناً أم فارساً، أو أنه سيكون شيئاً مقوس الظهر، أحدب، أصم، أبكم؟

وبالمناسبة أقول إن كل أم تحسب ابنها رائعاً. وهي في الوقت نفسه ترى عيوبه ولا تراها. وأرجو أن لا يحدث هذا لي ولكتابي.

إني خائف. القلم يرتجف في يدي. والشكوك تتنازعني. ألست أصوب على قطة وأنا أحسبها نسراً؟ ألست أسرج حماراً وأنا أحسبه رهواناً؟ ألست أحاول أن أمد جذع الشجرة بالطول، كما أراد الأخالتشينيون أن يفعلوا مرة، دون أن يفكروا أن جذع الشجرة يجب أن يوضع لا على طول السقف، بل على عرضه؟ ألست أقتحم قلعة أندا، كما بدا ذلك لأحد الخاريكولونيين وهو يجلس قرب موقد بيته؟

قبيل الانتهاء من الكتاب تشعر أنك جزار، يسلخ خروفاً وقد وصل إلى ذنبه، لكن سكينه تكسرت. هل أستطيع أن أنهيه؟ وماذا سيكون من هذا كله؟ أأحمل من أعماق البحار إلى اليابسة صدفة فارغة. أم أن في الصدفة جوهرة ربداء كبيرة؟

قد يقصف الإعصار أغصان الشجرة، وقد يكسر جذعها، لكن الأغصان تعود في الربيع، وينمو جذع جديد من الجذور الباقية. أما إذا نمت في الشجرة جرثومة الفطر والتهمتها من الداخل، إذا أكلت هذه الجرثومة جذور الشجرة، فالقضاء عليها أمر محتم. وهكذا الإنسان: الجرح الخارجي، الظاهري، وحتى كسر العظام، يشفى بسرعة، أما المرض الذي يتطور في صميم جسده فينتهي بالموت المحتم. ترى هل كتابي سليم، وهل جذوره قوية مأمونة؟

كتابي مثل طفل في طور النمو. البيت يضيق به، يجب أن تبعث به

إلى الناس، أن توجهه في طريق ما إلى العالم الواسع، كيف سيُستقبل في الطريق: هل يُستقبل بالشتائم أو بالكلمات الحانية؟ هل سيطعمونه ويستبقونه للنوم، أو سيطردونه من العتبة؟ هذا لم يعد الآن يتعلق بي.

القصيدة انتهت والسجادة نسجت
لكن لا تتباه، بل انتظر:
سرّ الزوايا، تفحص الوشي،
وقص الخيوط المتدلية.

قصيدة كتبت، الأرض الربيعية
حرثت، لكن تفحص من جديد،
عمل الأمس ومر عليه بثلم آخر
فقد بقيت فيها قطع دون حرث

كتابي مثل سجادة تم صنعها، وفردت كي يراها الجميع كلها لأول مرة ودفعة واحدة. إني أرى كثيراً من الخيوط الملتوية والرسوم غير المنتظمة، والوشي المبهم، وأرى فيها الزخرفة غير دقيقة ومتعرجة هنا أو هناك، لكنه لم يعد في وسعي الآن أن أصحح هذه الأخطاء، فقد تم صنع السجادة. وحتى أصحح أي دقيقة من دقائقها مهما تكن صغيرة، لا بد من فك السجادة كلها.

كتابي مثل العودة إلى القرية من طريق بعيد وصعب. عامان مرا لم أكن موجوداً فيهما في بيتي. عامان لم يسمع خلالهما سكان القرية والجيران والأصدقاء والشيوخ والشبان شيئاً عني. وها أنا ذا أنزل عن حصاني عند أول بيت من بيوت القرية، وأقوده على مهل. الضوء الذي وضعته الجبلية في الشباك لينير طريقي صار بالإمكان رفعه. أنا عائد إلى بيتي. مرحباً يا أهل بلدي الأعزاء! أنا عائد من تطواف استمر عامين. حصاني هرم في هذين العامين. وأنا أيضاً زاد الشيب في رأسي. ها أنا ذا أقود حصاني في شارع قريتنا الصغير، وأقول لكل من ألقاه:

ـ السلام عليكم، يا جماعة!

ـ وعليكم السلام، يا رسول بن حمزة. كيف كان تطوافك؟ ألم تتعب؟ ما غنائمك؟ وماذا في قدورك؟

كان بودي أن أقول للناس إني أحمل لهم معي كتاباً جديداً. لكن الكتاب شيء لا يجوز أن يوضع بين أيدي أهل القرية أو بين يدي أي كان. الكتاب يجب أن يوضع بين يدي الناشر أولاً، وهو يقرر مصيره.

حين استلم الناشر المخطوط مني، رازه بيديه وقلبه يمنة ويسرة، ثم تصفحه قليلاً: ألقى نظرة على الصفحة الأولى ثم انتقل مباشرة إلى الصفحة السبعين ثم إلى آخره، ثم وضع المخطوط جانباً في مكان أمين.

ـ قد يكون كتابك جيداً، لكن خططنا للعامين القادمين قد أقرت. وكتابك غير مثبت في خططنا.

ـ وأنا ذاتي لم يكن هذا الكتاب في خطتي لقد أتى فجأة. فماذا علي الآن أن أفعل؟

ـ قدم طلباً. سندرس الموضوع ونناقشه ونقره في خطة هيئة التحرير. مر علينا أو اهتف لنا في مثل هذا الوقت من العام القادم.

رسالة أبي طالب إلى دار نشر: «إلى دار نشر داغستان المحترمة! أنا شاعر الشعب، وعضو رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في داغستان. متقاعد، سأبلغ الخامسة والثمانين من عمري في هذا العام. اعلم أنه إذا حدثت لي مصيبة ومت، فستتخذون قراراً بإصدار مجموعتي المؤلفة من جزئين. أرجوكم أن تنشروا جزءاً واحداً الآن، وأنا على قيد الحياة، بدلاً من الجزئين اللذين تستعدون لنشرهما بعد موتي. لكم تحيتي. أبو طالب».

هذا طلب مسالم يفيض طيبة. إنما هناك طلبات فيها يشكون، وطلبات فيها يلعنون، وطلبات فيها يتباهون، وطلبات فيها يتملقون. هناك طلبات فيها آهات، وطلبات فيها صرخات.

لكن أسوأ الطلبات ليست تلك التي توجه إلى الناشرين، بل تلك التي

نكتب بحق الناشرين. علينا أن نفهم الناشر أيضاً. إذا كان الكرسي لا يتسع إلا لشخص واحد، فلا يجوز أن يجلس عليه ثلاثة أو أربعة. وحتى إذا اقتسم شخصان الكرسي، فلن يشعرا بالراحة وعلى الأخص إن هما جلسا طويلاً. أحدهما يقول: «لماذا تنشرون لأحمد، ولا تريدون أن تنشروا لي، هل أنا أسوأ منه؟ ويصيح الآخر: «كتابي أفضل من كل الكتب التي نشرتموها في السنوات الماضية. فلماذا لم تضعوني في خطتكم من جديد؟».

لكني لا أريد أن أتشاتم مع الناشرين. إني على استعداد لأن أنتظر. أعرف أن الناشرين يعوزهم الورق دائماً. أين اختفى الورق؟ الكتاب يستهلكونه وأنا واحد منهم. فلماذا أشتم؟ الحقيقة أنه ينشأ أحياناً إلى جانب ما هو مستهلك شيء يبقى بعد الكاتب والناشر. آه، كم أود لو تسقط مني على قصاصة ورق كلمات تتحول الورقة بفعلها كما يفعل ماء الحياة إلى شجرة خضراء يانعة، كتلك الشجرة التي صنعت منها هذه الورقة.

كلا، لا أريد أن أشتم الناشر، بل أريد أن أقول له بهدوء:

ـ أنت تقف بيني وبين أهل قريتي، بيني وبين قرائي في موسكو، بيني وبين قرائي في المدن الأخرى.

فأنت الوسيط وحلقة الوصل بيننا. عفواً، أرجوك، اعمل على أن تلتقي أيدينا في مصافحة صداقة. عفواً، أرجوك...

وينزل الناشر عند توسلاتي الهادئة، فأجد نفسي في الحال بين يدي المحرر.

المحرر: «الاختصار» ـ هكذا كتب على بابه.

لقد قال لي الناشر «عد بعد عام»، أما المحرر فقد عين لي فترة ثلاثة أسابيع. وقد سررت بهذه المدة لأني أستطيع أن أروي لكم فيها ثلاث قصص.

كيف رموا محرراً من النافذة: حمل أحد الشعراء الآفاريين إلى هيئة تحرير إحدى الصحف أشعاراً لينشروها له في العدد الذي سيصدر في أول العام. أعجبت الأشعار هيئة التحرير، ونشرت الصحيفة الأشعار.

في هذا الوقت بالذات كان أصدقاء الشاعر مجتمعين عنده. نشر الشاعر الصحيفة بكل مهابة وأخذ يقرأ أشعاره بصوت عال. وفجأة شحب لونه، ووضع يده اليسرى على قلبه كما لو أن سهماً نفذ إليه، وسقطت الصحيفة من بين يديه. أسرع إليه أصدقاؤه وسندوه وأعطوه ماء ليشرب. وحين عاد الشاعر إلى وعيه تبين ما الذي صعقه. فقد ظهر أن القصيدة قد سقطت منها أربعة أبيات.

وهرع الشاعر إلى هيئة التحرير.

ـ من ذبح أفضل أربعة من تلك الخراف التي أرسلتها ترعى في مروج صحيفتكم الرحيبة؟ من اختصر أبياتي الأربعة تلك؟

وأجاب محرر الصحيفة بهدوء:

ـ أنا حذفتها. . وماذا في الأمر؟

ـ لماذا حذفتها؟

ـ وصلت مواد مستعجلة، ولم يكن عندي مكان كاف.

ـ إذا كنت تستطيع بدون إذن الشاعر أن تسقط أبياتاً من قصيدته، فإني سأقذف بك الآن من النافذة.

كان الشاعر ذا دم جبلي حار. فأمسك المحرر من تلابيبه ورجليه وقذف به بالفعل من النافذة. جرت الحادثة في الطابق الثاني في الحقيقة، وكان تحت النافذة حوض زهور طري. وقال الشاعر في المحكمة:

ـ الدم بالدم، والسن بالسن. لقد «راجعني» المحرر وأنا «راجعته»!

يقال إن المحرر «المراجع» لا زال يقلص القصائد كسابق عهده (لولا

هذا لم يكن له، على ما يبدو، أن يكون محرراً) لكنه أصبح الآن يطلب إذناً من الشعراء.

من دفتر المذكرات: كتب والدي مسرحيتين: «الإسكافي» و«زفاف كودولاف» أمضت هاتان المسرحيتان بعض الوقت في المسرح، ثم في قسم الثقافة، ثم وصلتا إلى إدارة فنون داغستان. كان والدي يدرك بالتمام أنهما وصلتا هناك، ولم تخرجا من هناك أبداً. لكنه في الوقت نفسه لم يعثر عليهما هناك.

ذهب والدي يبحث عن مسرحيتيه، تماماً كما يتوجه راع إلى الجبال يبحث عن نعاجه المتخلفة على الرغم من الطقس الليلي الرديء.

كان يجلس في الإدارة شخص لا يهتم إلا بالمسرحيات. وكان يسمى هو الآخر محرراً. تحدث إليه والدي ما يزيد على الساعة، وفجأة شعر أنه ما إن يتطرق الحديث إلى الطقس، والمراعي والغنم والجياد والأبقار حتى يصبح الحديث حياً، وما إن يلامس الحديث موضوع الأدب والمسرحية حتى لا يعود والدي يفقه شيئاً. ومع هذا فقد كان المحرر يحاول طوال الوقت التحدث عن المسرحية، ويعطي والدي نصائح، ويعلمه كيف يجب أن تكتب المسرحيات الجيدة. فلم يتمالك والدي نفسه وسأله بصراحة من يكون، وما هو مستواه العلمي، وأين عمل قبل أن يصبح في إدارة فنون داغستان.

وأجابه المحرر بلهجة لا تخلو من اعتزاز:

ـ دراستي عليا، واختصاصي في الطب البيطري. والآن أنا معين في هذا العمل.

هل مسرحياتي بقرتان حتى تحاول أن تداويهما! لماذا لا يقدم الشاعر النصائح أبداً إلى الأطباء البيطريين، في حين يقدم له النصائح كل من يريد؟

هل من الممكن أن يقع كتابي في يد محرر كان في السابق طبيباً بيطرياً؟

أبو طالب والمحرر: نقر المحرر مخطوط أبي طالب كما ينقر الغراب جسم محارب سقط في ساحة الوغى. ولما وصلت المسودة بشكلها «المنقور» إلى أبي طالب، قرأها واستغرب:

ـ لقد داست خيول مرجي الأخضر. وحيث كانت الأزهار، حلت المستنقعات. إذا كان التلميذ يقترف بعض أخطاء في الإملاء، فمعلمه يصحح له هذه الأخطاء. فمن هو ذلك المعلم الذي يعرف ما هو الصحيح في حياتي وما هو الخطأ؟

وعاد أبو طالب إلى المسودة يقرأها بتمعن، ثم صاح فجأة:

ـ آه، أنا أعرف من أي قرية صاحبنا المحرر هذا. إنه يريد أن يصحح كتابي وفق لهجة قريته. لكن اللهجات كثيرة، أما اللغة فواحدة، والشعب واحد! وإذا كان كل محرر يريد أن يجذب الحبل باتجاه قريته فلن نبني أبداً قرية شعرنا.

تذكر، يا محرري، أنه توجد الدنيا كلها إلى جانب قريتك، والناس كلهم إلى جانبك. وفي الحق أنه لا يمكن أن يقوم خلاف بيننا. سآخذ ملاحظاتك بعين الاعتبار إن وجدتها نافعة. أما أنت فيجب أن تذكر أن أغنيتي عزيزة علي، كما كان الثأر عزيزاً على المتعطش له. أنا لم أختلق هذا الآن، بل كان مطلع قصيدة لي نظمتها في صباي.

حملت دفء الأبيات وقرها
في صدري، كما الرغبة في الثأر،
وحفظت أغنيتي كما الحب المحرّم،
بعيداً عن الأعين المتطلعة

كنت أرعاها ضعيفة،
وأسمع صوتها البعيد،
وكنت أسوي القوافي المذوية
كما يسوي الساعاتي المسننات

حاولت أن أختار للبيت
أفضل الإيقاع
هكذا نختار للضيف
من قبونا أفضل الزقاق

في الليل كنت أتجول
وكنت أمزج الألوان منذ الصباح
كما النساء في تانا سارنا
يخلطن الغزل الملون للسجادة

كان في وسع الآخرين أن يغنوا أفضل،
أما أنا، ويا للأسف، فلم أستطع
لست أدري إن كنت بلغت الهدف
وإن كنت غنيت كل ما كنت أريد

لنفرض أن أشعاري أسوأ الأشعار
كل حياتي في كلماتي
فلماذا، يا محرري، لماذا
تسعى إلى أن تزيدها، سوءاً على سوء

هل تريد التغلب على أنجالي؟
الآباء الغرباء لا يستطيعون ذلك
قل لي أي شيء لا يعجبك فيهم
وأنا بنفسي أفرك لهم آذانهم

في ذلك الوقت كتبت مسرحية «الجبلية»، وقد عرضت في عدة مسارح من مسارح داغستان، وإليكم ما حدث لهذه المسرحية.

في آخر مشهد يقتل البطل البطلة. كنت مشفقاً على جبليتي هذه، وكانت يدي ترتعش وأنا أكتب مشهد قتلها. كان قلبي ينزف دماً، لكنه

لم يكن في وسعي أن أغير في الأمر شيئاً، فمجرى الأحداث كان يؤدي بذاته إلى حتمية مقتل البطلة. وعرض المسرح الآفاري المسرحية كما هي، ومع أن النظارة حزنوا وأشفقوا على البطلة أكثر مني، إلا أنهم أدركوا أن الأمر لا يمكن إلا أن يكون على هذه الصورة.

وفي المسرح الدرغيني حورت المسرحية قليلاً. فبدل أن تقتل الفتاة، قصت لها جديلتها. هذا شيء معيب بالطبع حين تقص جديلة جبلية. قد يكون هذا أسوأ من الموت نفسه لكنه ليس الموت على أي حال.

وفي المسرح الكوميكي تقرر أن لا تقتل الفتاة وأن لا تقص جديلتها، بل أن تحرم بصرها. هذا شيء مرعب بالطبع. قد يكون هذا أسوأ من قتلها أو من قص جديلتها. لكن الجبلية بقيت مع هذا حية وبجديلتها، لأن هذا ما أراده القائمون على المسرح الكوميكي.

أما التشيتشينيون في مسرحهم فقد سلكوا أبسط السبل. «لماذا نقتلها، لماذا نقص جديلتها، لماذا نحرمها بصرها؟ ـ قرروا في أنفسهم ـ لتبق البطلة حية معافاة».

وهكذا أعاد كل مخرج صياغة المسرحية على صورته ومثاله. ولم يقل لهم أحد إنهم بإشفاقهم على البطلة وبإنقاذهم لها، إنما يقتلون المسرحية ولا يشفقون على المشاهدين، بله المؤلف.

قال والدي حين وصلت القرية الصحيفة التي نشرت فيها أبياته:

يبدو أن قصيدتي مرت بين أيدي أهل تيلتل فلم يبق فيها موضع واحد حي.

أما محمود... فلم يقل شيئاً، لأنه لم ينشر أي كتاب في حياته. لكنه لو رأى ما فعل بأشعاره محرر كهذا لمات ثانية.

في سيارة حديثة، في الدروب الجبلية لا يمكنك أن تسافر، فكيف أستطيع أن أقول للمحررين أن لا يلمسوني، ما داموا لا يوفرون حتى الأموات؟

لكن، يا محرري، لا تأخذ كل ما رويته لحسابك، فأنا أعرف محررين من نوع آخر، محررين يأتون الكاتب كناصحين حكماء ومرهفين. أعرف أنك واحد منهم. العمل معك يبدو راحة لذيذة وسكينة. فكن مطمئناً، لن أهمل إشارة تعجب رسمتها على هوامش مخطوطي معبراً فيها عن إعجابك، ولا إشارة استفهام معبراً فيها عن حيرتك، ولا إشارة معبراً فيها عن إرادتك بأن أصحح البيت ليكون الكتاب أفضل.

في كتابي على الأرجح أبيات غير مستقرة كما يجب تتأرجح كسنّ مريضة وقديمة. وقد يكون هناك تكرار؟ أتوسل إليك أن تجده. وتشير إليه، وتقوله لي. رأس واحد ـ جيد، ورأس ونصف ـ أفضل. فكيف لا تسير أمورنا على ما يرام، وعندي وعندك، كما آمل، رأسان متكافئان وأربع أيد! الأفضل أن نتعارك اليوم من أن نتشاجر غداً. الأفضل أن يتعارك الإنسان مرة واحدة من أن يتشاجر طوال حياته. والأهم من هذا وذاك: حذار من الإفراط في الثناء علي.

مدح أحد الصيادين الأرنب لأنه لم يذعر، بل قفز إلى التلة المكشوفة. حتى إن هذا الصياد لم يفكر في إطلاق النار عليه. فاغتر الأرنب وقفز فوق الرابية أمام صياد آخر لكن هذا كان ذا طباع مختلفة. وليس من العسير عليك بعد هذا، أن تعرف ما حصل.

أعرف أن عملك في الحقيقة جاحد. فحين يمسك القارئ الكتاب في يده، ينظر إلى من كتبه ومن رسم لوحاته، لكنه لا ينظر أبداً إلى من حرر الكتاب. هكذا الإنسان.

من الشائع أن الشاعر يتكلم باسم الشعب. إنما يتبين أن المحرر أيضاً يتكلم باسمه أحياناً.

حملت إلى هيئة التحرير ذات مرة قصيدة غنائية في محبوبتي. وضع المحرر قصيدتي جانباً، وقال إنه لا يستطيع أن يطبعها.

ـ لماذا؟

ـ لأن الشعب لن يقرأ هذا. ما حاجة الشعب إلى أشعارك في زوجتك؟

وللحال نظمت هذه الأبيات:

ومرة أخرى لم تقبل الصحيفة شعري فيك،
قال المحرر، إن الناس لن يقرأوه.
لكنه، بالمناسبة، لم يعده إلي،
بل قال المحرر إنه يأخذه ليقرأه لزوجته.

قال والدي: يشبه الكتَّاب والشعراء السائقين. فهؤلاء يعرفون كيف يسيرون. وأنهم يسيرون أحياناً بشكل صحيح، وأحياناً أخرى يخطئون «ويخالفون» وفي هذه الحالة يكون المحررون كالشرطة. ثم كان والدي يستغرق في التفكير ويقول:

ـ كيف ترى، أليس كثيراً أن نجد ثلاثة رجال من الشرطة لسائق واحد؟

لكن الأمر غير ممكن بدون رجال شرطة على الإطلاق، حدث في إحدى الجماعات أن أخذوا يرفعون نخب كل إنسان بمفرده. وكان هناك شرطي. فأعلن المتقدم فيهم نخبه. وفجأة شحب وجه ممثل اتحاد استهلاكي وترك كأسه قائلاً:

ـ لن يوجد رجال شرطة في عهد الشيوعية. هذه ظاهرة فات أوانها. فلماذا نشرب نخبه؟

وأجابه الشرطي:

ـ وجود الشرطة في عهد الشيوعية يتوقف على وجود اتحادات استهلاكية.

لكن هل أقول لك يا محرري، بعد أن ندع المزاح جانباً، أي لحظات أحبها أكثر من سواها؟ لحظة نجلس معاً لا إلى منضدة العمل،

بين الأوراق، بل إلى منضدة عادية مدت بمعرفة ودراية. وبالمناسبة، أكون قد خلفت ورائي لحظات لطيفة، لحظة تكتب على المخطوط: «ينضّد». ثم حين لحظة تكتب: «يطبع».. ثم لحظة تكتب: «ينشر» وها هو ذا الكتاب يسرع فعلاً بإشارة من يدك إلى التنضيد، ثم إلى الطبع، ثم إلى النشر.

يا لكلمتك التي تكتبها حين يفكر المرء فيها: «ينشر» أي يخرج إلى النور. إلى النور! لهذا وحده يمكن أن تغفر كل خطاياك ولهذا وحده تستحق أن يرفع نخبك. اكتب هذه الكلمات بأسرع ما يمكن، وسأهديك أول نسخة من كتابي يذيّله توقيعي.

بودي، طبعاً، أن يأتي بأسرع ما يمكن اليوم الذي تغيب فيه من العالم كل الأسرار. لكن هل يسمى شاعراً ذلك الذي لا يكشف للناس سراً. أي شيئاً لم يعرفوه من قبل؟ فأنا الشاعر، وحين آتي إلى العالم، أرفع الستار عن المكان والزمان، كما يرفع العريس الطرحة عن وجه عروسه. العريس وحده يملك أن يفعل هذا في حفلة الزفاف. ثم يرى الجميع وجه العروس. والشاعر وحده هو القادر على أن يفعل هذا في الحياة، فيعرف الناس الواقع، ويدهشون له، ويدهشون لما لم يروه في السابق: لجمال العالم أو جمال النفس الإنسانية اللذين يقفان في وجه قوى الشر.

أرجوك أيها المحرر، لا تسمح للثرثارين أن يتقولوا ما لا يجوز تقوّله، لكن لا تغط ما أكشفه أنا كشاعر. لا تشكك في وشيي، زينتي، رسومي! حتى لو وجدت في وشي سجادتي خطأ ما، فلا تجعلهم يخفونها بالحبر أو بالقص ـ فسيكون في مكانها لطخة أو خرقة.

ثم، لا تقل عن فكرة إنها خاطئة لمجرد أنها لا تشبه فكرتك.

ثم، الخبز والسكر والزبدة والمسامير توزن بالميزان ولكن ليس الحب.

ثم، بالمتر يقاس القماش وارتفاع الغرفة والسياج على القبر، ولكن

ليس الجمال.

ثم من يحاول أن يكون الأذكى، يبدو أغبى مما هو في الواقع.

ثم، إني شخص بالغ، فثقوا بي ولو قليلاً، ولو في شيء مهما يكن!

أفهم أن بعض الناس يملكون أسراراً أكثر، وبعضهم أقل.

قال أبو طالب: إذا تعفن الماء، فلن تستطيع أن ترى القاع، مع أن الماء لا يتجاوز الركبة.

من دفتر المذكرات: عندما كنت صغيراً، كنت أعتبر أكثرأعضاء الأسرة ثرثرة. فما كنت أسمعه خارج البيت، كنت أرويه لأهل البيت حتماً، وما كنت أسمعه في البيت كنت أرويه لمن هم خارجه حتماً.

كان يتردد على والدي من آن لآخر شيخ عجوز. كان يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ثم يهمس بوقار في أذن والدي:

ـ حمزة، هل نستطيع أن نذهب إلى الغرفة الثانية لأقول لك كلمتين؟

وكانا يذهبان إلى الغرفة الثانية ويتهامسان في أمر ما من أمورهما. حدث هذا عدة مرات. وذات مرة أتى الشيخ من جديد.

ـ حمزة هل نستطيع الذهاب إلى الغرفة الثانية لأقول لك كلمتين.

وأجابه والدي:

ـ أي، كفى، ما تهمسه في السر، يمكنك أن تقوله في العلن حتى بحضور رسول، تكلم إذا بصوت عال ولا تخف.

نعم، منذ طفولتي لم أكن أحب الأسرار.

الأغاني يغنونها بصراحة وبصوت عال، وهم يقفون في مكان مرتفع، ليسمعها أكبر عدد من الناس.

ثم إني لست مسؤولاً بالذات عن كل كلمة. فهناك مترجمي.

المترجم: أنا آفاري. هكذا ولدت، ولن أكون إلا كذلك. عندما

فتحت عيني كان الآفاريون أول من رأيت من الناس. والكلمات الآفارية كانت أولى الكلمات التي سمعت. أول أغنية غنتها لي أمي فوق مهدي كانت أغنية آفارية. اللغة الآفارية صارت لغتي الأم. وهذا أغلى ما عندي، ليس فقط عندي وحدي، بل عند الشعب الآفاري كله.

الآفاريون قلة، لا يتجاوزون الثلاثمائة ألف. لكن هذا العدد ليس باليسير. ففي داغستان شعراء يكتبون شعراً بلغة لا يتكلمها إلا ألفا إنسان.

الحدود تفصل بين الناس، لكن اللغات تفصل بينهم أكثر. الحدود قد تتغير، وقد تلغى تماماً، أو تتحول إلى مجرد شكليات. أما اللغة فهي ملك الشعب إلى الأبد، يستحيل تغييرها أو إلغاؤها.

يصعب على المرء أن يتصور تلك الأزمنة التي كان الآفاريون فيها يعيشون بدون بوشكين، والتي لم يكونوا يقرأون فيها ليرمنتوف، ولم يسمعوا فيها شيئاً عن تولستوي، ولم يتمتعوا فيها بقراءة تشيخوف.

كان والدي يقول: إنها لسعادة عظيمة أن تكون شجرة بوشكين قد نمت في الجبال، شجرة لا تنضب ثمارها اللذيذة اليانعة مهما هززتها.

كان أبو طالب يقول: شكراً لمن أتى إلي في هذا القبو نصف المظلم بتشيخوف العزيز، وشكراً لمن أخرج أغاني من القبو وحملها إلى جدران الكرملين في موسكو.

وأقول أنا: لم ينحن القفقاس أمام الجنرال، لكنه انحنى أمام أشعار الملازم الشاب.

جرت لي حادثة غريبة، كان يجب أن يصدر في داغستان كتابي مترجماً إلى اللغة الروسية. وكان الكتاب عبارة عن مختارات شعرية قلب المحرر المخطوط وقال:

ـ لماذا لا تدرج «بولتافا» هنا؟

ـ لكنها ليست قصيدة لي، بل لبوشكين، وجل ما فعلته أن ترجمتها إلى اللغة الآفارية. فكيف أستطيع أن أضم قصيدة بوشكين إلى مجموعتي الصادرة باللغة الروسية!

لا تقسون على المحرر. ففي الحقيقة لقد اعتاد الآفاريون على مؤلفات جيدة كثيرة ترجمت من لغات أخرى واعتبروها وكأنها مؤلفاتهم، كأنها مؤلفات آفارية، ولم يعد من الممكن أن يتصوروا أدبنا الآفاري بدونها.

أعلم أن بعضهم يقول عني في غيابي: «وماذا، رسول، إنه بالطبع إنسان موهوب، ولكن ليس إلى هذا الحد. لقد فعل المترجمون الموسكوفيون الكثير من أجله».

أنا لا أنكر ذلك. والواقع أنه لولا المترجمين لما كان لي وجود.

فهم، أولاً، قد مكنوني من التعرف على هايني وبيرنس، وشكسبير، والسعدي، وسرفنتس وغوته وديكنس ولونفل، وأويتمن وكل الذين قرأتهم في حياتي، والذين ما كان لي أن أصبح كاتباً لولاهم.

وهم، ثانياً، شقوا الطريق أمام أشعاري. لقد نقلوها عبر الأنهر الهادرة، والجبال الشاهقة، والجدران السميكة، ومراكز الحدود، وعبر أعتى الحدود ـ عبر حدود اللغة الأخرى: عبر الصمّ وعبر العمي وعبر البكم..

جرت عام 1937 في ماخاتشكالا مسابقة لاختيار أفضل ترجمة لقصيدة بوشكين «القرية». أربعون شاعراً ترجموا هذه القصيدة إلى اللغة الآفارية، وكان معظمهم يعرف اللغة الروسية. لكن الجائزة الأولى كانت من نصيب حمزة تساداسا الذي لم يكن ضليعاً في اللغة الروسية آنذاك.

يجب أن يكون المترجم شاعراً، كاتباً، فناناً هو الآخر. يجب أن يشعر أنه ابن شعبه، كما أشعر أنا أني ابن شعبي.

يوجد أناس روس يتقنون القراءة بالآفارية لكنهم ليسوا شعراء ويا

للأسف. وهناك شعراء روس لا يعرفون القراءة بالآفارية مع الأسف؟ فما العمل؟ كيف نتصرف؟ نضطر عندها للجوء إلى الترجمة الحرفية.

شاهدت في القرى الروسية كيف تنقل البيوت المصنوعة من جذوع الأشجار من مكان إلى آخر. البيت يتعذر عليهم أن ينقلوه دفعة واحدة، فتراهم يفكونه أولاً جذوعاً صغيرة وقدداً، ثم يركبونها في مكان جديد.

الترجمة الحرفية هي بيت فك لينقل. إنها كومة من الجذوع والألواح والصفائح والقرميد. ومن هذه الكومة العديمة الشكل يركب المترجم بيتاً جديداً فإذا أصاب الجذع بعض العفن، استبدله بآخر، وإذا فقد لوح في الطريق، وضع لوح آخر جديد، وإذا تحطمت الزخارف على إطار النافذة المنقوش، جدد الزخارف.

زجاج النوافذ يمسح، والنار تضرم في الموقد كي يتصاعد الدخان، والأطفال يخرجون إلى المدخل، والسنونو يعشش في السقف.

ما الترجمة الحرفية؟ إنسان انطفأ النور في عينيه وتوقف وجيب قلبه.

ويأتيه طبيب فيحقنه حقنة وينقل إليه دماً، ويدلك عضلة قلبه، فإذا الحياة الدافئة تعود إلى جسده.

ما هي الترجمة؟ قص لي حلاق شعري، وحلق لي ذقني وصفف شعري ثم قال:

ـ أتيت إلي كترجمة حرفية، وتخرج من عندي كترجمة.

وبما أن الحديث تطرق إلى الحلاق، فسأروي لكم هذه الحادثة.

كان ذلك في كوبا، في مدينة سانتياغو. قررت، وأنا في الطريق، أن أذهب مباشرة إلى الحلاق أقص شعري وأحلق ذقني. ودخلت صالون حلاقة وأفهمت صاحبه بالإشارات ما أنا في حاجة إليه.

في كوبا، حين يحلقون لك ذقنك يجلسونك في كرسي كأنه سرير. أجلسوني إذاً، وأخذوا يرغون الصابون. جرى كل شيء على ما يرام إلى أن مست موسى الكوبي خدي. كدت أصرخ وقتها من ألمي، إما لأن الموسى كانت غير حادة أو لأن الحلاق لم يكن ماهراً. صبرت بعض

الوقت لكني أدركت أني لا أستطيع الصبر حتى النهاية على أي حال، فأخذت أشير إلى خدي متحدثاً بالروسية تارة وبالآفارية أخرى. ذعر الحلاق وخرج راكضاً ثم عاد بعد حين برجل لبس رداء أبيض. فتح الرجل حقيبته وراح يصفف أدوات قلع الأسنان. وفجأة وجدتني على كرسي طبيب الأسنان بدلاً من كرسي الحلاق. هذا ما جرى لي لأننا لم نستطع أن نتفاهم أنا والحلاق. لم يبق لي إلا القليل حتى أفقد أسناني السليمة.

والمترجمون كثيراً ما يقلعون أسنان القصيدة ويرمونها بفم فارغ أهتم.

من دفتر المذكرات: عندما يذهب الإنسان إلى بلاد غريبة، يأخذ معه بعض المصنوعات القومية ليهديها علامة شكر على الحفاوة التي يلقاها. وقد أخذت معي إلى اليابان مثلاً بعض الجرار الجميلة من صنع المعلمين البلخاريين البارعين.

وفي هيروشيما زارني فنانان يابانيان زوج وزوجته ـ تحدثنا طويلاً وشعرنا بأننا أصبحنا أصدقاء. وفكرت في نفسي «من أهدي هذه المصنوعات الفنية البلخارية إذا لم أهدها للفنانين». قمت إلى حقيبتي ففتحتها بكل ثقة، لكني روعت ـ فلم يبق من الجرار السابقة إلا شقف. كأنما كسرت بمطرقة لشدة ما كانت الشقف صغيرة. قد يكون الحمالون في مطار موسكو، أو في الهند أو في طوكيو قد قذفوا حقيبتي بقلة اكتراث مفرطة، لست أدري. المهم أني كنت مستعداً أن أغور في باطن الأرض، لأني كنت قد وعدت اليابانيين بالهدايا، وكانا يجلسان إلى المنضدة جلسة ترقب وانتظار. أخذ اليابانيان ينظران إلي في حيرة، وقد رأيا أني جمدت فوق حقيبتي كأنما سمرت إليها. وهكذا لم يكن في وسعي أن أقوم بنأمة أو أن أنطق بكلمة.

وأخيراً فهم صاحباي أن مصيبة حلت بي. فاقتربا ورأيا الشقف. فهزا رأسيهما وأخذا يربتان على كتفي معزيين. هذه الحركة غير واردة بالنسبة

لليابانيين في ظرف آخر، لأنهم مهذبون تهذيباً رائعاً ولا يسمحون برفع الكلفة. لقد كنت، إذاً، مخزوناً ومرتبكاً جداً.

لملمت الشقف في جريدة وأردت أن أرميها في سلة المهملات. لكن الفنانين لم يمكناني من ذلك، بل لفا الشقف كلها بعناية وحملاها معهما إلى البيت.

وبعد عدة أيام دعيت لزيارتهما. وكم كانت دهشتي عظيمة حين رأيت جراري سليمة لم يمسها سوء كأنها خرجت للتو من الفاخورة.

يقال إن الجرة التي انشقت لا يمكن أن تعود سليمة، فالماء سيرشح منها حتماً. أما الجرار التي ألصقها اليابانيان فقد سكبنا فيها الكونياك الداغستاني والساكي الياباني، ولم ترشح منها قطرة واحدة.

تذكرت، وأنا أنظر إلى الفنانين اليابانيين، أفضل مترجمي. كانت الترجمة الحرفية لأشعاري تبدو كأنها شقف جرة مكسورة. ثم ألصقت هذه الشقف فبدت جديدة، تزينها الزخارف الآفارية وكأن شيئاً لم يكن.

بالطبع، يجب أن لا يضيف المترجم إلى الجرة يداً لم تكن موجودة، أو أن يجعل لها بدل القاع قاعين.

منذ مدة ليست بالبعيدة صدرت عن دار نشر داغستانية، رواية «الحاج مراد» في ترجمة جديدة إلى الآفارية. وأخذت أقرأها فإذا بي أرى أن رواية «الحاج مراد» زادت فصلين.

سألت المترجم:

ـ ومن أين لك بهذين الفصلين؟

أجابني:

ـ لقد كتب تولستوي هذه القصة قبل ثورة أوكتوبر. وهناك نظرات غير صحيحة إلى الأشياء. زد على ذلك أنه يجب أن نروي للقراء عن مصير رأس الحاج مراد وأحفاد الحاج مراد.

من دفتر المذكرات: ترجمت إحدى قصائد والدي إلى اللغة الروسية،

وصدف، على ما يبدو، إن مترجمها لم يكن ذا خبرة. طلب والدي إلى إنسان يعرف الروسية والآفارية أن يترجم له هذه القصيدة، وأن يخبره مضمونها، فلما فعل صاح والدي:

ـ عاد ولدي من سفر بعيد ولم أعرفه. كلا، الأفضل أن يبقى أولادي في بيتهم في الجبال على أن يصيبهم هذا التغيير.

نعم، ترجمات الأشعار تشبه الأبناء الذين يرسلهم أهلهم من القرية للدراسة أو للعمل. وبالطبع يعود الأولاد في كل الأحوال متغيرين قليلاً عما كانوا حين تركوا عشهم.

ربما عاد الولد وقد أحرز شيئاً أو فقد شيئاً، يعود بشهادة أو بمحكومية، يعود رياضياً قوياً أو إنساناً نحيفاً مريضاً، يعود بصيت عالم أو بصيت زير نساء، يعود محملاً بالهدايا الثمينة لكل أقاربه، أو يعود وهو لا يملك شروى نقير.

وها أنا ذا أيضاً أرسل كتابي في طريق بعيدة إلى المدن الكبيرة، إلى الناس. فكيف سيتصرف في الأماكن الغريبة؟ هل سيخون شعبه، قلبقه؟

إني أدرك أن الإنسان السيئ (يمان) الذي يجلس على رأس الجبل، لن يتحول إلى إنسان جيد (ياكشي) لمجرد أنه هبط الوادي. ولهذا أرجو من يترجم كتابي وأقول له: إذا كان كتابي «يمان» فليبق كما هو. إذا كنت أعرج وأعمى فلا تخرجوني من بيتي ممسكين بيدي، بل دعوني أجلس قرب موقدي، عند عتبة بيتي. لا تطلوا بالقصدير أواني النحاسية، ولا تطلوا بالذهب أواني الفضية.

روى أبو طالب: عندي ابنة وابن. الابنة مهذبة منضبطة، مثالية، أما الابن فشقي وطائش. عن ابنتي يتحدثون بالراديو ويكتبون في الصحف لأنها عاملة متقدمة. أما ابني فتصلني شكاوى عليه يومياً، من المدرسة تارة ومن الشرطة تارة أخرى، يقولون عن ابنتي إن المدرسة، وفصيلتها

الطلائعية والكومسمول والبلد هو الذي رباها. ويقولون عن ابني إن الذي رباه هذه التربية السيئة هو أبو طالب شاعر شعب داغستان.

وفكرت حين سمعت هذه القصة: الأمر نفسه يحدث في ترجمات الشعر. إذا كانت الترجمات جيدة مدحوا المؤلف ونسوا المترجم. وإذا كانت الترجمات سيئة شتموا المترجم، وحاولوا أن لا يذكروا اسم المؤلف.

كلا يا صديقي المترجم ولنسأل معاً عن الجيد والسيئ. عندنا الآن عربة واحدة لنا معاً تعال ندفعها إلى الجبل معاً، لا أن يشدها كل منا إلى جهته. وإلا، فلا العربة، ولا نحنْ سنتحرك من مكاننا.

جرت عندنا ذات مرة حادثة عجيبة، جبل كبير تحرك فجأة وأخذ يزحف إلى أسفل، ثم توقف غير بعيد عن قرية موخوتش ساداً الطريق أمام نهر جبلي صغير. فانتقلت مع الجبل قطعان الأغنام والرعاة ونقل الرعاة وأكواخ الرعاة بسلام ودون أن يلحقها أي ضرر. والآن ينتصب الجبل كما كان، وقد تشكلت عند سفحه بحيرة، وفي البحيرة تكاثر سمك النقط. إلى هذا الجبل حين كان في مكانه القديم، لم يذهب أحد إطلاقاً، أما الآن فترى حوله دائماً السواح والرحلات العلمية، وصيادي الأسماك والرحلات المدرسية.

لينتقل كتابي أيضاً إلى لغة جديدة دون أن يمسه ضرر. وليجذب إليه الناس فيما بعد كما فعل ذلك الجبل القريب من قرية موخوتش.

وعلى أي حال، كما يقول المسلمون: المكتوب ليس منه مهروب. وهذا يناسب على الأغلب القول الروسي: علينا التفكير، وعلى اللّه التدبير، أو باختصار أيضاً: لا مفر للإنسان من مصيره.

الناقد: من أصعب الأمور التكلم عنه. إذا شتمته ظن الناس أنك غير راض عن ملاحظاته النقدية. إنك تريد أن تصفي الحسابات معه. وإذا مدحته حسبوا أنك تتزلف إليه تحسباً للمستقبل.

كان والدي يقول: أنا والناقد كلانا شاعر أنا أكتب شعراً، وهو يكتب عن شعري.

وقال أبو طالب لأحد النقاد الداغستانيين:

ـ أنا أصنع خمراً من عنبي، وأنت تتذوق خمري.

أما أنا فأمسك نفسي عن قول شيء في الناقد، إنما بودي أن أقدم له بعض النصائح.

1 ـ السيئ سمّه دائماً سيئاً، والجيد سمّه جيداً.

2 ـ إذا مدحت شيئاً، فلا تعد إلى ذمه، وإذا ذممته فلا تعد إلى مدحه.

3 ـ لا تحاول أن تصنع من الحبة قبة، فضلاً عن تحويل القبة إلى حبّة.

4 ـ تكلم عما في الكتاب، لا عما ليس فيه.

5 ـ لا تستنجد بالثقاة ذوي الكلمة المسموعة بدءاً من بيلنسكي لتؤكد أفكارك. إذا كانت أفكارك هي أفكارك حقاً، فحاول تثبيتها بعقلك وحده.

6 ـ عبر عن أفكارك الواضحة بلغة مفهومة وواضحة. أما أفكارك غير الواضحة فلا تعبر عنها إطلاقاً.

7 ـ لا تكن دوارة تميل مع الريح.

8 ـ لا تحاول أن توحي للآخرين بما لم تفهمه أنت بعد.

9 ـ إذا لم يكن في جيبك مائة روبل، فلا تتظاهر بأنك تملكها.

10 ـ إذا لم تكن في قريتك منذ مدة بعيدة، ولا تعرف كيف تسير الأمور هناك، فلا تؤكد للناس أنك عائد لتوك من هناك.

تمنياتي هذه ليست جديدة. إنها تشبه أول سطر من جدول الضرب. إنما لو حققها كل ناقد بأمانة، لكان ما أنجزه النقد عندنا أكثر بكثير.

القارئ: تحدثت إلى المحرر، وإلى الناشر، وإلى المترجم وإلى الناقد. وأريد الآن أن أقول بضع كلمات للشخص الرئيسي الذي يكتب من أجله أي كتاب ـ إلى القارئ.

أيها القارئ يا صديقي! عندك بالطبع كتبك المفضلة. وعندنا نحن الكتاب مثلها. يقال إن أهم كتب الكاتب ذلك الذي لم يكتبه بعد، لكنه سيكتبه حتماً. لا أعرف مقدار صحة هذا القول بالنسبة للآخرين، لكنه فيما يخصني أصاب كبد الحقيقة.

نعم، منذ فترة طويلة وأنا أحلم بوضع كتاب عن أرض بلادي. كنت دائماً أحمل معي هذه الفكرة، لكني لم أستطع أن أحققها بأي شكل. قد تكون الموهبة هي التي تعوزني، وقد تكون الهموم اليومية هي التي تعيقني، وقد يكون الصبر هو الذي ينقصني وقد تكون الجرأة.

مع الأيام تكبر مسؤولية الكاتب أمام نفسه وأمام قارئه، فلا تعود اليد تمتد بهذه الجرأة إلى القلم ولأي سبب. إن كتاباً عن أرض الوطن لهو أكثر كل الكتب مسؤولية.

هذا الكتاب لم أكتبه بعد، لكني فكرت فيه كثيراً، وأعرف الآن جيداً كيف يجب أن يكون. ولقد قررت أن أسجّل على الورق أفكاري حول هذا الكتاب ـ الكتاب الرئيسي في حياتي.

إنها ليست القفطان، بل القماش الذي يصنع منه. إنها ليست السجادة، إنما الخيوط المعدة للسجادة. إنها ليست الأغنية بل خفقان القلب الذي منه تولد الأغنية.

يقال: حتى إذا أنت لم تصلّ، وإنما فكرت في أنه يحسن أن تصلي، فإنك لهذا وحده لن تذهب إلى جهنم.

يقال يكون سرور الصديق بصديقه على قدر غناه. إذا لم تكن في

البيت إلا البوزا، ترى هل يستاء الضيف لأنه لم تقدم له خمر أجنبية ما دامت غير موجودة لا في البيت، ذاته، ولا في أي مكان آخر قريب؟

يقال: حتى إذا لم تفعل شيئاً حسناً إلى الآن، فشكراً لك على أي حال لأنك تتهيأ لأن تفعله.

أيها القارئ، يا صديقي! كل كتاب إنما يكتب من أجلك. أستطيع أن أقنع الناشر، وأستطيع أن أناقش المحرر والنقاد، لكن حكمك وحده هو الحقيقي وهو الأخير. إنه، كما يقول القضاة، حكم لا يقبل الطعن.

الكاتب يعيش فقط ليلتقي بك. ثلاثة ضروب من القلق والاضطراب الكبيرين ترافقني طوال حياتي. أضطرب أولاً قبل اللقاء بك، في انتظاره في توقع هذا اللقاء وكيف سيكون. ثم أضطرب وأقلق أثناء اللقاء ذاته، وهذا أمر طبيعي ومفهوم. وأضطرب أخيراً وأقلق بعد اللقاء وأنا أعيش ذكراه، وأحاول أن أتصور الانطباع الذي أحدثته.

أرى القراء بوجوه مختلفة. أحدهم غضن جبينه. فمن أين لي الكلمات التي تزيل هذه الغضون؟ وهذا ثان له سخنة من وقع في فمه شيء كريه لا يؤكل. وهذا ثالث على وجهه إمارات الملل، أي أكثر ما يمكن أن يكون إثارة للرعب واليأس.

سئل جبليون: لماذا تبنون قراكم بعيدة، في الجبال المنيعة؟ يكاد يستحيل الوصول إليكم، فضلاً عن خطر الطريق: هذه الدروب فوق المهاوي، هذه الجلاميد وهذه الانهيارات! وأجاب الجبليون: «الأصدقاء الجيدون يصلون إلينا في الطرق الوعرة مستهينين بالمخاطر. أما الأصدقاء السيئون فلا حاجة لنا بهم».

أيها القارئ، يا صديقي! عمري أربعة وأربعون عاماً. وفي هذا العمر يمكن للإنسان أن يكلف أعمالاً ذات مسؤولية. وفي هذا العمر يجب أن يكون الكاتب مسؤولاً عن كل كلمة من كلماته.

فإذا رأيت في كتابي فكرة كانت سابقاً في كتاب شخص آخر، فانزعها من وعيك وارمها كما كانت تُرمى العروس في الجبال بعد ليلة الزفاف إذا لم تكن قد حافظت على شرفها.

وإذا وجدت في كتابي فكرة صحيحة فأشر إليها. وإذا وجدت فكرة خاطئة فأشر إليها مرتين.

وإذا وجدت ولو مثقال ذرة من الكذب فارم الكتاب كله دون إبطاء، فإنه لا يصلح لشيء.

سأروي لكم مثلاً آخر قبل أن أودعكم.

مثل الخان الغني وابنه والخنكل المصنوع من ألية الغنم والثوم: عاش في قديم الزمان في آفارستان خان غني. تزوج هذا الخان ثلاث مرات كي يكون له ابن، لكن زوجاته لم يلدن له وارثاً، ولا حتى ابنة. فاضطر أن يتزوج للمرة الرابعة.

وأخيراً ولد للخان ابن. لم يكن للسرور الذي عم حدود. دقت الطبول وعلا صوت الأبواق، وعقدت حلقات الرقص والغناء وأقيمت الولائم ثلاثة أيام بلياليها.

لكن الفرح لم يدم طويلاً في قصر الخان المترف. فما لبث الصغير أن مرض، ولم يستطع أحد أن يحدد نوع مرضه. لم يكن يغفو مهما شدوا له، ولم يكن يأكل مهما قدموا له. كان الجميع يرون أن أيامه أصبحت معدودة. فلا الأطباء الذين قدموا من البلاد البعيدة، ولا التعاويذ الهندية ولا أعشاب التيبت استطاعت أن تشفي هذا الوارث الوحيد. وكان مؤكداً أن الخان لن يعيش بعد ابنه.

في هذا الوقت أتى إلى الخان من قرية قريبة صعلوك بسيط لم يكن أحد يحسبه في مقام البشر، وأعلن أنه يعرف وسيلة يستطيع أن ينقذ بها الوارث. أراد المقربون من الخان أن يدفعوا بهذا الصعلوك إلى الخارج،

لكن الخان أوقفهم وفكر الخان. «على أي حال سيموت ابني، فلماذا لا نجرب آخر وسيلة».

ـ ماذا يلزمك حتى تنقذ ابني؟

ـ أريد أن أجلس مع زوجتك على انفراد.

ـ كيف؟ على انفراد؟ مع زوجتي!! هل جننت! اغرب عن وجهي.

استدار الصعلوك لينصرف، لكن الخان فكر: «على أي حال سيموت ابني. فأي ضرر إذا تكلم مع زوجتي على انفراد؟».

ـ إيه، عُد أيها الصعلوك، لقد غيّرت رأيي. لقد سمحنا لك بأن تكلم زوجتي.

سأل الصعلوك الزوجة حين أصبحا على انفراد:

ـ هل تريدين أن يعافى ابنك؟

وبدل أن تجيبه زوجة الخان، ارتمت على ركبتيها وأخذت تعصر يديها.

ـ قولي لي إذاً: من والده الحقيقي.

أخذت عينا زوجة الخان تنتقلان من ناحية إلى أخرى في قلق.

ـ لا تخجلي. حديثنا هذا سيبقى سراً بيننا. وإلا فلن يشفى طفلك.

ـ كان الخان يريد كثيراً أن يكون له ولد. وكنت أعرف أني سأطرد كما طردت الأخريات، إذا لم أنجب له ولداً. فذهبت إلى الجبال ونمت هناك مع راع شاب بسيط، وبعدها ولد الوارث. . .

عاد الصعلوك بعد هذا اللقاء إلى الخان يبشره:

ـ أيها الخان السامي المقام، أعرف وسيلة تنقذ بها ابنك. من هذه الدقيقة يجب أن يوضع سريره قرب نار كتلك التي يوقدها الرعاة في الجبال، كما يجب أن تفرش له في سريره جلد غنم، أما طعامه فيجب أن يكون فقط كذلك الذي يأكله رعاتك.

ـ لكن. . . لكنهم يأكلون الخنكل المصنوع من ألية الغنم السمينة بالثوم. فكيف يستطيع وارثي. . ابن العام الواحد. .

استدار الصعلوك وخرج. فكر الخان «على أي حال سيموت ابني» وأمر بأن يحضر الخنكل لابنه.

أخذت زوجة الخان تعد طعام ابنها بنفسها. أعدت له خنكلاً كالذي أعدته آنذاك في الجبال لراعيها العملاق قبيل تلك الليلة، أجمل كل لياليها. ثم وضعت الصحن الخشبي وفيه الخنكل أمام ابنها، كما وضعته آنذاك أمام الراعي.

كانت قطع الخنكل كبيرة ومدورة كبلاطة، وكان الدهن ينسكب من الأليات المطبوخة. كما وضعت أمه إلى جانب الصحن إبريقاً مملوءاً ماء من ينابيع الجبل.

ما إن لامست رائحة الثوم والدهن المطبوخ خياشيم الصغير حتى فتح عينيه ونهض وانتعش ثم أمسك فجأة بيديه الصغيرتين أكبر قطعة خنكل. ومن هذه اللحظة بدأت قوة والده تنتقل إليه. كان يلتهم قطعات الخنكل كأسد جائع. وكان ينمو لا بالأيام، بل بالساعات، وسرعان ما تحول إلى شاب قوي معافى. أما مرضه فلم يبق له بطبيعة الحال أثر.

قد لا تكون هذه الحادثة قد جرت بالفعل، لكنني أعرف شيئاً واحداً هو أن الأدب، حين يتوقف عن التغذي بغذاء آبائه ويتحول إلى أنواع أخرى، مترفة، غريبة، حين يغير أعراف شعبه وعاداته، لغته وخلقه، حين يخونها، يعتل ويذوي، ولا تستطيع كل الأدوية أن تقدم له أي عون.

لعلي أنتهي عند هذا. بدأت في صيف حار، وها نحن أولاء في الخريف البارد. بدأت في قرية جبلية، وأنتهي الآن في مدينة كبيرة تزدحم بالسكان. السطر الأول كتبته ذات صباح باكر، والآن يقترب منتصف الليل، وحتى بل إن الأنوار في المدينة تنطفئ.

إني أعود من سفر بعيد. ترجلت عند طرف القرية وقدت حصاني في الشارع الطويل الملتوي. أفضل شيء الآن أن أنزع سرجه، وأربت على عنقه، وأطلقه إلى المرج الفسيح.

أما أنا فلعلي أجلس قرب النافذة، ولعلي أخرج لفافة وأدخنها. يقال إن اللّٰه ذاته يدخن حين ينتهي من إلقاء موعظة دورية. يدخن ثم يأخذ نفساً ويفكر.

فلنفكر نحن أيضاً. ما كل طريق ينتهي نهاية سعيدة، وما كل كتاب يكون ناجحاً. مع بزوغ الفجر الجديد سأبدأ كتاباً جديداً، وسأتهيأ للانطلاق في طريق جديدة.

أما الآن فقد تعبت. سألف نفسي بعباءتي وأنام. ليلة سعيدة، أيها الناس الطيبون! بالسلام بدأت، وبالسلام أنهي. وسلام وكلام، آمين.

انتهى الكتاب الأول

الكتاب الثاني

«الشعوب الصغيرة في حاجة إلى خناجر كبيرة»
هكذا قال شامل عام 1841.
«الشعوب الصغيرة في حاجة إلى أصدقاء كبار»
هكذا قال أبو طالب عام 1941.

كان والدي يقول أحياناً: «تستطيع بمفتاح صغير أن تفتح صندوقاً كبيراً». وكانت أمي تحكي لنا حكايا مختلفة: «البحر كبير؟ كبير. ومن أين أتى؟ عصفور صغير نقر الأرض بمنقاره الأصغر منه، فتفجر ينبوع. ومن الينبوع تشكل البحر العظيم».

وكانت أمي تقول لي أيضاً؟ حين كان وجهي يحمر من كثرة اللعب والركض: «يجب أن ترتاح ولو مقدار ما تسقط على الأرض باباخا(*) قذفتها إلى فوق، اجلس واسترح».

يعرف الناس أيضاً أنك حين تنتهي من حراثة حقل مهما كان صغيراً، وتستعد لحراثة آخر، يجب أن تستلقي على التخم وتجلس قليلاً.

والفترة الفاصلة بين كتابين، أليست تخماً؟ لقد استلقيت عنده، وبدأ الناس يمرون بي، ينظرون إلي ويقولون: «فلاح عمل ما عليه، ثم غفا».

يشبه تخمي وادياً بين قريتين، أو قرية على رابية بين واديين.

وتخمي هو الحد الفاصل بين داغستان وبين بقية العالم. كنت مستلقياً عنده، لكني لم أكن نائماً.

كنت مستلقياً، كما يستلقي ثعلب قديم ذو شارب أشيب، ترعى على مقربة منه صغار الحجل. كانت إحدى عيني نصف مغمضة وعيني الأخرى نصف مفتوحة وكانت إحدى أذني تتوسد كفي، بينما وضعت كفي الأخرى على أذني الثانية. وكنت من حين لآخر أرفع خلسة هذه

(*) غطاء رأس من الفرو.

الكف قليلاً وأنصت. ترى، هل وصل كتابي الأول إلى الناس؟ هل قرأوه؟ هل يتحدثون عنه؟ وماذا يقولون؟

منادي القرية، ذلك الذي يصرخ من فوق السطح العالي معلناً للأهالي الإعلانات المختلفة، لا يعلن أمراً جديداً، ما لم يقتنع بأن إعلانه السابق قد بلغ أسماع الناس.

والجبلي، إذا رأى، وهو يسير في الطريق، ضيفاً يخرج عابساً، ساخطاً، غاضباً من أحد البيوت، أتراه يدخل هذا البيت؟

كنت متمدداً عند التخم الفاصل بين الكتابين أسمع أن الناس استقبلت كتابي الأول استقبالات مختلفة.

وإنه لأمر مفهوم: بعضهم يحب التفاح، وبعضهم يحب الجوز. التفاح ينزع عنه قشره عند أكله، أما الجوز فيجب أن يكسر، كما يجب تنظيف البطيخ الأحمر والبطيخ الأصفر من بزره. وهكذا الكتب، كل منها يحتاج إلى مقاربة خاصة. الجوزة، وهي التي تحتاج إلى كسارة، لا تجوز معالجتها بسكين، والتفاحة الطرية العطرة لا تجوز معالجتها بكسارة.

كل إنسان، حين يقرأ كتاباً، يرى فيه عيوبه هو. وماذا في الأمر! يقال إنه حتى ابنة الملا نفسها لا تخلو من عيب. أما كتابي فحدث عنه ولا حرج.

ومع هذا فقد انتهت فترة استراحتي، وها أنا ذا أبدأ كتاباً جديداً. لست أدري عدد القراء الذين أكتب من أجلهم. إن عدد النسخ لا يعني هنا شيئاً. هناك كتب صدرت بمائة ألف نسخة لكن أحداً لا يقرأها، بل تراها مكدسة على الرفوف في المتاجر والمكتبات، وقد ترى نسخة من كتاب تنتقل من يد إلى يد ويقرأها أناس كثيرون. أما أنا فلست في حاجة إلى هذا أو ذاك. حسبي أن يقرأ كتابي إنسان واحد، ولسوف أكون مسروراً. فأنا أريد أن أحدث هذا الإنسان عن بلدي الصغير

والبسيط والأبي. أين يقع؟ وبأي لسان يتكلم أهله، وعم يتحدثون، وأية أغان يغنون.

لن أستطيع أن أروي كل شيء. لقد علمنا شيوخنا «إن الجميع وحدهم يستطيعون أن يتحدثوا في كل شيء». أما أنت فتحدث عن شيء خاص بك، حينئذ يصبح لدينا كل شيء. كل واحد منا بنى بيته فقط، ونتيجة لذلك كانت القرية. كل واحد منا حرث حقله فقط، ونتيجة ذلك حرثت الأرض كلها.

وها أنا ذا أنهض اليوم في الصباح الباكر. اليوم يوم ثلمي الأول. ثلم جديد في حقل جديد. في يوم كهذا يجب أن توجد على المنضدة، كما يقضي العرف القديم، سبعة أشياء تبدأ كلها بحرف واحد. وها أنا ذا أتأمل منضدتي فأرى هذه الأشياء السبعة وإليكموها:

1 ـ الورق (الأبيض).

2 ـ قلم الرصاص (المبري جيداً).

3 ـ صورة (والدتي).

4 ـ مصور (بلدي).

5 ـ قهوة (سوداء ثقيلة).

6 ـ كونياك (داغستاني ذو النجوم الخمس).

7 ـ (سجائر)(*).

إذا لم أكتب الآن كتابي الثاني، فمتى أكتبه؟

اضطرمت النار في الموقد. والقدر المتدلية تغلي فوق النار. وفي الخارج أشرقت الشمس من خلال الرذاذ القليل المتفرق. يقال إن كل الوحوش في الجبال ترقص في مثل هذا اليوم على قوس قزح ذي الألوان السبعة، وكأن الوحوش راقصو الحبال. وحين كانت تأتي مثل هذه الأيام، كانت أمي تقول إن السماء خيطت بخيوط من المطر، وإن أشعة الشمس هي الأبر.

(*) هذه الأسماء تبدأ كلها بحرف ك في اللغة الآفارية.

اليوم في الجبال ربيع، أول يوم من أيام الربيع. وهو مثلي، يبدأ ثلمه الأول.

ـ قل لي، يا ربيع داغستان، ما هي هداياك السبع التي تبدأ كلها بحرف واحد؟

أجاب الربيع:

ـ عندي مثل هذه الهدايا. لقد حملتها إلى داغستان، سوف أذكرها، وأنت عدها على أصابعك.

1 ـ النار. من أجل الحياة. من أجل الحب والحقد.

2 ـ الاسم. من أجل الشرف. من أجل الشجاعة. ولمناداة الإنسان.

3 ـ الملح. لتذوق الحياة، لقياس الحياة.

4 ـ النجم. للطموحات والآمال السامية. للأهداف النيرة والطريق المستقيم.

5 ـ النسر. للمثل، للنموذج.

6 ـ الجرس. لجمع شمل الناس في مكان واحد.

7 ـ الغربال(*) لفصل الحبوب المتلئة ذات الوزن عن القشر الخفيف. الذي لا نفع له.

يا داغستان هذه الأشياء السبعة هي الأغصان السبعة لشجرتك القصيرة والعريضة. وزّعيها كلها على بنيك، واهديني شيئاً منها. فأنا أريد أن أكون ناراً وملحاً، نسراً ونجماً، جرساً وغربالاً.

وأريد أن يكون لي اسم شريف.

أتطلع إلى أعلى فأرى السماء المنسوجة من شمس ومطر، ومن نار وماء. وكانت أمي تقول لنا دائماً: إن داغستان ذاتها خلقت من نار وماء أثناء النوم.

(*) هذه الأسماء تبدأ كلها بحرف تس باللغة الآفارية.

الأب والأم. النار والماء

ـ كان أبي يقول: لا تمزح مع النار!
ـ كانت أمي تقول: لا ترم الحجارة في الماء.

يذكر الناس أمهاتهم بصور مختلفة. أما أنا فأذكرها صبحاً وظهراً ومساء.

في الصباح تعود من النبع بجرتها المملوءة ماء. إنها تحمل الماء وكأنه أثمن ما في الوجود. ها هي ذي تصعد الدرجات الحجرية وتضع جرتها على الأرض، وتبدأ في إشعال النار في الموقد. تشعلها وكأنها أثمن ما في الوجود. توقدها، وهي ترنو إليها في وجل أو انبهار، لا أدري. وإلى أن تشتعل النار كما يجب، تهز والدتي السرير. تهزه وكأنه أثمن ما في الوجود. ظهراً تأخذ أمي الجرة الفارغة لتأتي بالماء من النبع. ثم تشعل النار، ثم تهز السرير. وفي المساء تجلب أمي الماء في الجرة، وتهز السرير وتشعل النار.

هكذا كانت تفعل كل يوم من أيام الربيع والصيف والخريف والشتاء. كانت تفعله في تؤدة ووقار كأنه أثمن وألزم ما في الوجود. تجلب الماء، تهز السرير، تشعل النار. تشعل النار، تجلب الماء، تهز السرير. تهز السرير، تشعل النار، تجلب الماء. هكذا أذكر أمي. كانت تقول لي دائماً، وهي ذاهبة لجلب الماء: «انتبه للنار». وعندما كانت تهتم بالنار،

كانت توصيني قائلة: «لا ترق الماء» وكانت تقول أيضاً، وهي تهدهدني: «أبو داغستان، النار، وأمها الماء».

وجبالنا تشبه في الواقع ناراً تحجرت. وهكذا، فلنتحدث قليلاً عن النار.

اضرب حجراً بحجر، تومض شرارة نار.
اصدم صخرة بصخرة، تومض شرارة نار.
اضرب كفاً بكف، تومض شرارة نار.
اصدم كلمة بكلمة، تومض شرارة نار.
انقر بإصبعك على أوتار المزمار(*) تومض شرارة نار.
انظر إلى عيني النافخ في المزمار والمغني ترى شرارات نار.

حتى القلبق الجبلي المصنوع من جلد الخروف ينقلب شرارات نار، خصوصاً إذا مررت عليه بيدك.

حين يخرج الجبلي إلى سطح منزله. وهو يضع على رأسه مثل هذا الغطاء، تأخذ الثلوج في الجبل المجاور في الذوبان.

والثلج ذاته يلتمع كالنار. قرنا التيس الجبلي، الذي يقف على قمة الجبل عند الشروق، يتألقان تألق النار. والصخور عند المغيب تسبح في نار حمراء.

والنار في أمثال أهل الجبال وفي دمعة الجبلية. والنار في طرف سبطانة البندقية، وعلى نصل الخنجر المسلول من غمده. لكن أطيب نار وأدفأها تكمن في قلب الأم وفي موقد كل بيت.

حين يريد جبلي أن يقول شيئاً حسناً عن نفسه أو، بكل بساطة، أن يتباهى يقول: «لم أطلب من أحد جذوة نار».

(*) (الزورنا) نوع من المزمار.

حين يريد الجبلي أن يقول في إنسان شرير، ذميم شيئاً ما، يقول: «الدخان المتصاعد من مدخنته ليس أكبر من ذنب جرذ».

حين تتشاجر جبليتان مسنتان، تصرخ إحداهما: «لا كانت نار في موقدك».. وتجيبها الأخرى: «فلتنطفئ النار المشتعلة الآن في موقدك».

حين يود أحدهم أن يقول شيئاً في شجاع، يقول: «هذا ليس بشراً، إنه نار».

قال والدي بعد أن استمع إلى أبيات شعر باردة ومملة ألقاها شاب: «يبدو وكأن كل شيء موجود في هذه الأبيات. يحدث أن يوجد بيت، ويوجد موقد، ويوجد حطب، ويوجد قدر، ويوجد حتى لحم في القدر. لكن لا توجد نار. فإذا البيت بارد، والقدر لا يغلي، واللحم غير لذيذ. حيث لا توجد نار لا توجد حياة وهكذا، أشعارك في حاجة إلى نار».

سئل شامل ذات مرة: «قل لنا، أيها الإمام، كيف حدث أن استطاعت داغستان الصغيرة نصف العارية أن تقاوم قروناً دولاً قوية وأن تصمد في وجهها؟ كيف استطاعت أن تحارب ثلاثين سنة كاملة القيصر الأبيض الكلي القدرة؟

أجاب شامل قائلاً: «لم يكن في وسع داغستان أبداً أن تصمد في صراع كهذا، لو لم تتقد في صدرها شعلة الحب والحقد. هذه النار هي التي اجترحت المعجزات، وصنعت المآثر. هذه النار هي روح داغستان، هي داغستان ذاتها».

وأردف شامل يقول: «وأنا ذاتي من أكون؟ ابن بستاني من قرية غمرا البعيدة. لست أطول قامة وأعرض منكباً من غيري. لا بل كنت في صغري في غاية الضعف والسقم. وحين كان الكبار ينظرون إلي، كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون: «إني لن أعيش طويلاً». كان اسمي في أول الأمر علياً. لكنني حين مرضت، استبدلوا اسمي هذا باسم شامل رغبة منهم ورجاء في أن يذهب المرض مع الاسم القديم. لم أرَ العالم

الواسع، ولم أنشأ في المدن الكبيرة، ولم أكن أملك ثروة ولا ممتلكات كبيرة. تعلمت في مدرسة قريتنا. وكان والداي يحملان حمارنا من دراق قريتنا غمرا، ويرسلانني أبيعه في سوق تيمور خان شورا. كنت أسير طويلاً مع حماري في الممرات الجبلية الصخرية. وإليكم ما حدث لي ذات مرة. حدث هذا منذ أمد بعيد، لكني لا أنساه، ولا أريد أن أنساه. لأنه في هذه الدقيقة استيقظت روحي، ناري، في هذه الدقيقة بالذات أصبحت شاملاً.

التقى بي على مسافة غير بعيدة من تيمور خان شورا، عند طرف إحدى القرى صبية أشقياء، خطر لهم أن يسخروا مني. خطف أحدهم غطاء رأسي وهرب به. وبينما كنت أعدو وراء المسيء، أخذ الباقون ينزلون سلال الدراق عن ظهر حماري. كانوا كلهم يقهقهون ويتسلون بمنظري العاجز والذاهل. لم يعجبني مزاحهم، وشعرت بنار لم أعهدها من قبل تضطرم في داخلي. فاستللت خنجري ذا المقبض العاجي من غمده. لحقت بذاك الذي هرب بغطاء رأسي عند مدخل القرية، فرميته في ساقية قذرة، ووضعت حد خنجري على نحره. فطلب الرحمة.

«وأنت لا تمزح مع النار».

تركت هذا الهازل في الساقية القذرة وتلفت حولي. كان الآخرون الذين بعثروا دراقي قد تراكضوا في جهات مختلفة. حينئذ صعدت إلى أقرب سطح وهتفت:

«إيه، أنتم! إذا كنتم لا تريدون أن تلهبوا بطونكم بنار خنجري فأرجعوا كل شيء إلى ما كان عليه».

ولم يضطرني هؤلاء المازحون إلى أن أكرر كلماتي. في اليوم ذاته سمعت في السوق الشيوخ يقولون: «سنسمع ذات يوم باسم هذا الشاب».

أملت قبعتي على حاجبي وحثثت حماري الطيب وتابعت سيري. ترى

هل أنا الذي كنت أبحث عن الضجة والعراك؟ إنهم هم الذين أخرجوني عن طوري وأضرموا النار في قلبي؟

ومرت الأعوام. وصباح ذات يوم كنت أعمل في الحديقة. كنت مشمراً عن ساعدي أحمل التربة السوداء من الأسفل إلى أعلى الصخرة وأنثرها حول كل شجيرة، كنت أحمل التراب بقبعتي القديمة. في هذا الوقت كنت قد أصبت بعدة جروح في جسمي. أصبت بها في معارك مختلفة. فإذا بأناس يقتربون مني. جبليون من أهلينا أتوا من قرى أخرى، منها البعيد جداً، أتوا وقالوا لي: اسرج حصانك وتنكب سلاحك. لم أكن أريد أن أحمل السلاح، فرفضت لأني كنت أحب العمل في البستان أكثر من الحرب.

عندئذ قال لي رسل القرى:

«يا شامل! جياد غريبة تشرب من ينابيعنا، وأناس غرباء يطفئون قناديلنا. فهل تمتطي وحدك صهوة جوادك أو نساعدك على ذلك؟».

«وشبت في صدري النار، كما شبت آنذاك، حين أهانني أولئك الفتيان الذين نزعوا غطاء رأسي ونثروا دراقي. شبت نار مثل تلك لا بل أكثر تأججاً. فنسيت بستاني، نسيت كل شيء. فلا المطر، ولا الريح، ولا الزمهرير بقادر أن يطفئ النار التي تحملني منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً من مكان إلى مكان آخر في هذه الجبال. القرى تلتهب، والغابات يتصاعد منها الدخان، والنار تومض من خلال الدخان أثناء المعارك، القفقاس كله يشتعل. هذه هي النار!».

يروى أنه في قديم الزمان، حين كان الأعداء يخترقون حدود داغستان، كانت توقد على أعلى جبل نار عالية كأنها قلعة. وكانت كل القرى توقد مشاعلها لدى رؤيتها هذه النار.

كان هذا النداء الملحّ يدفع أهل الجبال إلى امتطاء صهوات جيادهم. فكان يخرج من كل بيت فرسان، ومن كل قرية فرقة جاهزة. كان الخيالة والمشاة ينفرون على دعاء النار. وما دامت المشاعل تضيء على رؤوس

الجبال، كان الشيوخ والنساء والأطفال الذين بقوا في قراهم يعرفون أن العدو ما زال داخل حدود داغستان. وعندما كانت المشاعل تخبو، كان ذلك معناه أن الخطر زال، وأن أيام الهدوء والسلام عادت من جديد إلى أرض الآباء. لقد اضطر أهالي الجبال خلال تاريخهم الطويل أن يشعلوا مرات ومرات هذه الإشارات النارية على قمم جبالهم.

هذه الشعل كانت رايات وأوامر حربية.. كانت بمثابة التقنية المعاصرة بالنسبة لأهالي الجبال: بمثابة برق وهاتف. وحتى يومنا هذا ترى على سفوح الجبال أماكن عارية من الغابات. كأنها جواميس هائلة الحجم.

يقول أهل الجبال: إن آمن مكان للخنجر غمده، وللنار موقدها، وللرجل بيته. لكن إذا انطلقت النار من الموقد، وأخذت تشتعل فوق قمة الجبل، فالخنجر الراقد في غمده ليس بخنجر، والرجل القابع عند موقد بيته ليس برجل.

والواجبات موزعة توزيعاً صارماً بين رعاة الأغنام الداغستانيين. بعضهم يرعى الأغنام في النهار، وبعضهم يحتلون مكانهم في الليل ويحرسون القطيع من الذئاب. لكن بينهم شخصاً ليست مهمته الأغنام ولا الذئاب، بل الحفاظ على النار وإذكاؤها، إنه حافظ النار. ويسمونه أيضاً حارس النار، راعي النار. لا نستطيع أن نقول إن هذا اختصاص ـ أن يكون العمل الوحيد للإنسان هو الحفاظ على النار. ولكن الرعاة كانوا قبل حلول الظلام بقليل يختارون حتماً مثل هذا الإنسان ويوكلون إليه أمر النار.

وإنه لأمر ضروري وصعب! فعلى النار يتوقف إعداد الطعام، والدفء، والثياب الجافة، والنور، والحديث، والتدخين الضروري جداً أثناء الحديث الرزين بين الرجال.

أما في إخصاص رعاة الغنم فلا توجد مواقد. النار هنا تعيش في الخارج وتتطلب عناء واهتماماً خاصين: إذ يتوجب عليك أن ترد عن

النار نزوات الطقس الرديء: المطر، الثلج، وأحياناً العاصفة الثلجية بكفيك أو بقبعتك أو بطرف عباءتك.

لكن، ألا يحق لنا أن نسمي الشجعان، والشعراء، والمغنين، والرواة، والراقصين والموسيقيين الأمناء على النار وحرّاسها؟ وإنهم لكثر عندنا، أولئك الذين يحملون في قلوبهم النار الخالدة، نار الشعر، نار التقاليد المأثورة، نار حب الوطن، ويرعونها وينقلونها إلى الآخرين.

إني أحس في قلبي شرارة هذه النار الخالدة. وأرى من واجبي أن لا أدع هذه الشرارة تخبو، بل أن أذكيها وأجعلها تضيء وتبعث الدفء كيما يستلمها مني من يأتي أثري ويتابع السير.

النار في صدرك يجب أن تحافظ عليها تماماً كما تحافظ على نفسك من النار الخارجية، العادية، النار بالمعنى الأصلي للكلمة.

أثناء احتفالات العيد في القرية يأتي دائماً بعد الأغنية دور المزاح. وبعد الموسيقى والرقص دور الحديث. وبعد هذه الكلمات الرقيقة التي قلناها في النار، لنرو لكم كيف تم البحث عن إنسان الثلج عندنا في داغستان.

لقد كنت شاهد عيان على تلك التسلية العظيمة التي وفرها لجبليينا عاملون في الأبحاث العلمية قدموا إلينا بحثاً عن إنسان الثلج.

قال لهم الآفاريون: «اذهبوا إلى الدرغينيين، فقد يكون ذلك الذي تبحثون عنه يعيش هناك عندهم». والدرغينيون بدورهم أرسلوهم إلى اللاكيين، واللاكيون إلى الليزغينيين، والليزغينيون إلى الكوميكيين، والكوميكيون إلى النوغائيين إلى السهب، والنوغائيون إلى التباسارانيين، طاف العلماء أرجاء داغستان كلها، ثم توقفوا، وقد هدهم التعب، في قرية كيكوني حيث يعيش، بالمناسبة، ماردنا عثمان عبد الرحمن. قد يكون بعض من سيقرأ هذه الأسطر رأى عثمان في فيلم «جزيرة الكنوز»، حيث أمسك هناك دفعة واحدة بثلاثة رجال وقذفهم إلى المحيط من على ظهر السفينة إلى البحر.

صدف أن غاصت السيارة التي كانت تحمل العلماء في نهر صغير على مقربة من قرية كيكوني وتوقفت في وسطه. فأخذ العلماء يدفعون السيارة إلى أمام وإلى وراء، ولكن دون جدوى.

كان عثمان يجلس في هذه الأثناء على سطح منزله. فلما رأى عجز هؤلاء الناس الذين كانوا يدورون حول السيارة، نزل إلى الأرض واقترب منهم بخطوات المارد الوئيدة. أمسك بالسيارة ورفعها كصرصور لا يستطيع الخروج من قصعة فخارية طليت بدهن زلق، ووضعها في مكان جاف.

أخذ العلماء يتهامسون فيما بينهم، فقد بدأ الشك يتسرب إلى قلوبهم كما يبدو: أليس إنسان الثلج ذاك الذي أتى يغيثهم؟ وفهم عثمان حديثهم فقال لهم:

ـ عبثاً تبحثون، فنحن، أهالي الجبال، صنعنا من نار وليس من ثلج. فلو لم تكن النار فيّ، كيف كان لي أن انتشل سيارتكم من الوحل؟

بعد ذلك لف بهدوء سيجارة ثم أخرج قداحة ببطء وأوقد الفتيلة وأشعل السيجارة ثم نفث من فيه سحابة كاملة من الدخان. آنذاك فقط خرجت من صدر عثمان الواسع ومع الدخان ضحكة تشبه قصف الرعد. هكذا تدوي الجبال وهي تنهار ويهدر الماء وهو يشق الصخور، وتزلزل الجبال هزة أرضية.

أضاف أبو طالب، حين سمع هذه القصة، قائلاً: «لا تستطيع إلا أن تغوص في الوحل سيارات أناس يهتمون بهذه الأشياء الفارغة».

حضرت في الهند عيد النار. ما أجمل أن يكون للناس مثل هذه الأعياد! هناك أهدوني قنديلاً مضاء فحملته معي إلى داغستان تحية من بلد بعيد إلى بلدي الصخري. فنحن كثيراً ما نقول: تحية ملتهبة، تحية حارة! انقلوا إليهم تحيتنا الحارة، الملتهبة! قد تكون مرت فترات كان الناس فيها يبعثون ناراً، شعلة بدلاً من التحية التي تعبر عنها الكلمة.

شعلة السلام، لا شعلة الحريق والحرب، بل شعلة الموقد، شعلة الدفء والنور.

عندنا عرف يقضي بأن تضرم القرى الجبلية مساء أول يوم من أيام الشتاء (وأحياناً مساء أول يوم من أيام الربيع) شعلاً فوق الصخور تحية للشتاء أو للربيع. كل قرية تضرم شعلة. كانت الشعل ترى من بعيد. من خلال الفجاج، والمهاوي والصخور، كانت القرى تتبادل التهاني بمقدم الشتاء أو الربيع. تحيات متقدة، تمنيات متقدة! وأنا شخصياً أوقدت مراراً كثيرة مثل هذه الشعلة فوق صخرة خاميرخو التي كانت تنحني فوق قرية تسادا.

ليس من قبيل الصدفة أن أول مصنع في داغستان أطلق عليه اسم: «أنوار داغستان» كما أضيف إلى الشعل الآن الكثير من النور الجديد. فالعصافير أصبحت تحط الآن على الأعمدة التي تنقل الكهرباء بالبساطة التي كانت تحط بها على الأشجار. والحمام لا يخشى المصابيح الكهربائية المضاءة فوق الصخور.

رأيت ذات مرة بحر قزوين تندلع فيه النار. أسبوع كامل مر دون أن تستطيع الأمواج أن تطفئ ناره. حدث هذا على مقربة من مدينة إيزبيرباش. وحين أخذت النار تهمد، ثم انطفأت تدريجياً، كان المنظر يذكرني بسفينة تغرق.

قد تخبو نار البحر، أما النار المضطرمة في صدر داغستان، فلا. ترى، هل تخاف النار المشتعلة في صدر الإنسان الماء؟ لا بل إنها تبحث عن الماء، لا بل إنها تطلب الماء. والشفاه التي أيبستها، وشققتها ولفحتها، وكوتها نار داخلية ألا تهمس: «ماء، قليلاً من الماء»؟

الماء والنار متلازمان إذاً.

كانت أمي تحب أن تردد: الموقد قلب البيت، والنبع قلب القرية.

الجبال تطلب النار، والسهول تطلب الماء. وداغستان جبال وسهول، فهي تطلب النار والماء كليهما.

إذا نظر الإنسان الخارج في سفر أو العائد إلى بيته إلى نفسه في النبع عند طرف القرية، كما ينظر إلى نفسه في المرآة، فهذا الإنسان يحمل في قلبه الحب، النار. هكذا كانت عقيدتنا القديمة.

لكن، ألا تنظر داغستان كلها إلى نفسها في مرآة بحر قزوين الصافية؟ ألا تشبه شاباً رشيقاً متوقداً خرج لتوه من الماء؟

ينحني بلدي داغستان فوق قزوين كجبلي فوق نبع، يصلح هندامه ويفتل شاربيه.

تقول لعنة أهل الجبال: «ليفطس حصان من يدنس النبع». وتقول أيضاً: «لتجف كل الينابيع حول بيتك». وإليكم إطراء أهل الجبال: «لا بد أن أهل هذه القرية طيبون: فالنبع والمقبرة مرتبان. نظيفان».

كثير من الينابيع والآبار حفر عندنا على شرف الذين سقطوا في ساحة الوغى. حتى إن هذه الينابيع والآبار تحمل أسماءهم فهناك نبع علي، ونبع عمر، وبئر الحاج مراد، ونبع محمود.

وحين تذهب الصبايا إلى النبع في الصباح وفي المساء وجرارهن على أكتافهن، يأتي الشبان أيضاً يتطلعون إليهن وينتقون منهن عروساً لهم. كم من عواطف الحب بدأت تتأجج قرب الينابيع، وكم من الروابط العائلية المقبلة عقدت ها هنا!

ألا تعلم من أنشد لها أغنيتي؟
تعال إلى النبع وانظر إليها بعينيك

هكذا كتب شاعرنا محمود.

توقفت ذات مرة، وأنا في طريقي إلى الجبال، قرب نبع غوتساتلين، فإذا أنا أرى مسافراً انحنى فوق النبع وهو يعبّ الماء الشفافة براحة كفه ويردّد:

ـ آه، يا للغبطة!

ـ خذ قدحاً، اقترحت عليه.

أجابني:

ـ لا آكل وأنا ألبس القفاز في يدي.

كان والدي يحب أن يردّد: لا موسيقى أعذب من صوت المطر وخرير الغدير. فأنت لا تمل أبداً من الإصغاء إلى صوت المياه الجارية والنظر إليها.

في الربيع، حين تبدأ الثلوج في الجبال بالذوبان، كانت أمي تقضي ساعات وساعات في النظر إلى السواقي المنطلقة إلى الوادي. كانت منذ الشتاء تأخذ بإعداد براميل صغيرة لتضعها في الصيف تحت الميازيب وتجمع ماء المطر.

كان أحب الأشياء إلى نفسي الغوص حافياً في البرك المملوءة بماء الأمطار. كنا، دون أن نخشى المطر، ننشئ سدوداً صغيرة فنقطع الطريق على السواقي ونجبرها على أن تتجمع بحيرات صغيرة.

ما أطيب النشوة التي تشعر بها العصافير حين تشرب ماء المطر من الكؤوس المنقورة في الصخر.

كان شامل يقول لرجاله: «لنفرض أن العدو استولى على قريتنا كلها، وعلى حقولنا كلها فيبقى النصر لنا، ما بقي النبع في أيدينا».

كان إمامنا الصارم يأمرنا بالدفاع عن نبع القرية قبل كل شيء حين كانت فصائل العدو تهاجمنا، ويأمرنا بالاستيلاء على النبع قبل كل شيء حين كنا نهاجم الأعداء.

فيما مضى، حين كان صاحب ثأر يلقى خصمه يغتسل في نهر، لم يكن ليتعرض له، إلى أن يخرج عدوه من الماء ويتنكب سلاحه.

لكني أذكر في أغلب الأحيان تقليداً آخر، سلمياً تماماً يتصل هو الآخر بالماء. هذا التقليد يسمى «حمار المطر» أو «الحمار المطري».

ليس عبثاً قول القائل: «في قيظ الظهيرة في وادي داغستان». فقيظ

الظهيرة عندنا قاس ويجفف كل شيء. الأرض تتشقق، والصخور تنفث الحرارة كالمدافئ المتوهجة. الأشجار تتهدل والحقول تيبس. وكل شيء يصبح في شوق إلى ماء السماء، إلى المطر: النباتات، والعصافير، والنعاج، والناس طبعاً. حينئذ يأخذون طفلاً صغيراً من أطفال القرية ويلبسونه، كما تلبس الهنود، لباساً من أعشاب متنوعة ذبلت تحت وهج الشمس. هذا هو «حمار المطر». ثم يقوده برسنه أطفال مثله في أنحاء القرية، وهم ينشدون معاً أغنية هي بمثابة صلاة ودعاء:

اللهم اللهم أرسل علينا مطراً
لينهمر الماء من السماء إلى الأرض
لتزقزق وتسقسق ينابيعنا
اللهم اسقنا الغيث
أيتها الغيوم غطي السماء
أيها المطر انهمر علينا كالنهر
فتغتسل بك أرضنا الطيبة
وتخضر بك حقولنا من جديد

ويتدفق الكبار إلى الطرقات، ويهرعون إلى «حمار المطر» يصبون عليه الماء، بعضهم من الجرار، وبعضهم من الطاسات، مرددين أثر أغنية الأطفال: «آمين، آمين!».

قمت ذات مرة بدور «حمار المطر» ذاك. وقد انصب عليّ من الماء آنذاك ما يبلغ، فعلاً، نصف المطر المطلوب.

لكن السماء نادراً ما كانت تسمع أغنياتنا. كانت الشمس تستمر في لفحها، كانت كأنما تكوي داغستاننا بمكواة حارقة. كانت الشمس تولد الحزن. كنّا نسميها «الشمس الحزينة». وهكذا استمرت الأرض مسترخية تحت الشمس الحزينة مئات السنين وآلافها. إذا أخذنا أوروبا، فإنما يصيب قرية غونيب الداغستانية من الأيام المشمسة أكثر مما يصيبها.

وقريتي تسادا لا تقل عنها شأناً في هذا المضمار. وكذلك القرى الأخرى أيضاً. وليس عبثاً تسميتها «بالظامئة إلى الماء».

أذكر وجه أمي المتعب، حين كانت تعود من النبع وهي تحمل جرّة ماء على ظهرها، وجرة أخرى في يدها. لقد كانت الماء على بعد ثلاثة كيلومترات من قريتنا.

وأذكر وجه أمي المغتبط، حين كان المطر يهطل، حين كانت الأرض تبتل، ويقرقر الماء في الميازيب، وتطفح البراميل الموجودة تحتها، فيأخذ الماء يفيض عن حوافيها.

أذكر القروية العجوز المحدودبة حبيبة. كانت تخرج كل صباح خارج القرية ومعولها على كتفها، وتأخذ تحفر الأرض هنا وهناك. يمتلكها هوس العثور على الماء، .وكانت تبحث عنه باستمرار.

كان الجميع يعلمون أنها عبثاً تحاول، لكن أحداً لم يكن ليقول لها شيئاً، إلا أنا الفتى الغبي فقد قلت لها ذات يوم:

ـ عبثاً تسعين، أيتها الخالة حبيبة، عبثاً تعملين، فلا مياه هنا.

غضب والدي مني غضباً شديداً.

ـ لكن، الحق أن لا ماء هناك.

ـ يحدث أن لا يكون عند الناس خبز. فهل يحق لنا أن نسخر منهم لهذا السبب؟ اذكر يا بني أنه لا يجوز لنا أن نسخر لا من الفقراء، الذين يبحثون عن الخبز ولا من الذين يبحثون عن الماء.

ـ لكن أنت ذاتك قلت شعراً مرحاً في الأنكواتشولينيين الذين حاولوا توسيع الجسر ليتدفق عليهم ماء أكثر.

ـ هذا ضحك من خلال الدموع. والشباب لا يستطيعون فهمه. أنت لا تعرف بعد ما يعني الماء بالنسبة لداغستان. أي حلم يجب أن يهدهد الخالة حبيبة حتى يجعلها تبحث عن الماء حيث لا وجود له. لكن الأفضل أن تصمت ـ بدأ المطر يهطل.



في هذا الوقت كان المطر يهطل قليلاً، مسقسقاً.

- أيتها العصافير، ما لك صامتة منذ الفجر؟
- المطر يهطل، نحن نسمع صوته!
- ولماذا تصمتون أنتم، أيها الشعراء؟
- المطر يهطل ونحن نسمع صوته!

كان والدي يردّد باستمرار أن أبهج يوم في حياته كان يوم وصول الماء إلى القرية في القساطل من الجبل البعيد. قبل هذا اليوم كان والدي يخرج يومياً مع الجميع ليشتغل بمعوله في شق خطوط أنابيب المياه. أذكر جيداً يوم الماء هذا! حين تدفق الماء، منعنا والدي من أن نرمي فيه حتى الأزهار.

اختار أهالي القرية عجوزاً في المائة من عمرها لتملأ أول جرة. ملأت الجبلية العجوز جرتها، وقدمت أول قدح من جرتها إلى والدي.

قال والدي، وهو الذي مُنح الكثير من الأوسمة والجوائز، إنه لم ينل مكافأة أثمن من هذه. وفي اليوم نفسه كتب أبياتاً في الماء. قال للعصافير أن لا تتباهى بعد اليوم، فنحن أهل الجبل نشرب الآن ماء ليس أسوأ من مائها. وقال إنه لم يسمع في حفلات الزفاف وفي الأعياد كلها نغمة أشجى من خرير الماء. وأكد أنه لا رهوان ولا مهر يمشي تلك المشية المنسابة التي تمشيها المرأة الآن وهي في طريقها إلى الماء. وشكر الرفش والمعول وقساطل المياه والثورة. وتذكر كيف كانوا يذيبون الثلج قرب المواقد في الشتاء ليؤمنوا مؤونتهم من الماء: آنذاك كانت ظهور جبلياتنا تتقوص قبل الأوان بفعل حمل الجرار الثقيلة المستمرة. أجل، كان هذا اليوم يوماً عظيماً عند والدي.

أذكر قيظ تموز في ماخاتشكالا. كان والدي مريضاً دنفاً يحيط به الأطباء والأدوية. وقال والدي: «إني أتألم. عشرات الملاقط والكماشات تشد جسدي في مختلف الاتجاهات».

كان قد انقطع عن تناول الأدوية، اعتقاداً منه أن تناولها أصبح متأخراً ولا نفع فيه. حتى مخدته لم يكن يسمح لنا بتسويتها، لأنه لم يكن يرى في ذلك فائدة. وحين ألحّ عليه المرض، دعاني إليه وقال:

ـ هناك دواء... بتناوله تتحسن حالتي.

ـ وأي دواء هذا؟

ـ في فجّ بوتسارب بئر صغيرة... نبع... لقد اكتشفته بنفسي... إليّ بجرعة ماء من هناك.

وفي اليوم التالي أتت جبلية بماء من هذا النبع في جرتها. شرب والدي الماء وهو مغمض العينين.

ـ شكراً لك، يا طبيبي.

لم نسأله من يقصد: الماء، الجبلية، النبع في الفجّ البعيد، أو وطنه الذي فيه هذا النبع.

كانت أمي تقول لي: كل إنسان يجب أن يكون له نبعه المنشود. وكانت تقول أيضاً: إن الحاصدة لا تكلّ أبداً، إذا كان يسمع بقرب الحقل خرير ماء بارد.

ما زالت تعيش حتى الآن رواية متوارثة تقول إن الأعداء أحاطوا بشامل في أيام شبابه وبمعلمه القاضي محمد في فج غمرا، وفي قلعة حربية. قفز شامل من علُ على حراب الأعداء، وشقّ بخنجره درباً له. خمسة عشر جرحاً جرح آنذاك، لكنه هرب مع ذلك والتجأ إلى الجبال. اعتقد الجبليون أنه هلك. وحين ظهر في القرية سألته أمه التي كانت قد ارتدت ثياب الحداد عليه في دهشة وسرور:

ـ شامل، بني، كيف بقيت حياً؟

وأجابها شامل:

ـ صادفت نبعاً في الجبال.

حين سمع أهالي الجبال أن إمامهم، أن شاملاً العجوز سقط من على

ظهر ناقته في صحراء الجزيرة العربية ومات، قالوا وهم جالسون على عتبات بيوتهم في قراهم:

ـ لم يكن بالقرب منه نبع داغستاني.

ذهبت في نوخا إلى قبر الحاج مراد، ورأيت الشاهدة وقد كتب عليها: «هنا يرقد أسد داغستان». كما رأيت رأس هذا الأسد المقطوع.

ـ كيف انفصلت أيها الرأس عن جسدك؟

ـ تهت، تهت وأنا في طريقي إلى داغستان، إلى وطني، إلى نبعي.

تقع قريتي عند سفح جبل. وأمامها تمتد هضبة مستوية ترى عليها من بعيد قلعة خونزاخ، وحولها القرى من كل جانب تترامى على مسافة غير قليلة منها.

كانت القلعة التي تفتقت كل جوانبها عن كوى وشقوق تتوعد وتصد وتتطلع.

وكثيراً ما كان الرصاص ينطلق من هذه الكوى إلى صدور الجبليين العصاة والمزعجين. وأكثر من مرة انطلقت أسراب الحمام في قريتي تسادا، تضرب بجناحيها وتحوم هلعة من صوت الرصاص. كان الجبليون يسألون: من صاحب أخطر نظرة وأعلى صوت؟ وكان الجواب: قلعة خونزاخ.

لكنه لم يبق من هول خونزاخ في أيامنا إلا ما تتناقله الأساطير والروايات عنها. فقد كنا نحن التلامذة نتراشق من كواها بقراضات التفاح أبو بكرات الثلج. لا بل كنا أحياناً ننفخ في أبواق الطلائع، ونجعل الحمام، بالمناسبة، يحوم أيضاً فوق الصخور المجاورة. فقد كانت تقوم في خونزاخ المدرسة التي درست فيها سبع سنوات.

حيثما حللت الآن، وحيثما وجدت، من خلال السيمفونيات الهادرة، وخلال الأنغام الراقصة أسمع موسيقى طفولتي المرنانة، وجرس المدرسة بصوته المرح، والمرح خاصة حين كان يعلن انتهاء الدرس. وها أنا ذا أسمعه الآن يدعوني لا إلى الممر، ولا إلى الخارج ولا إلى الانطلاق

بعيداً عن المدرسة، بل عكس ذلك، إلى المدرسة، إلى الصف، إلى بيت الطلبة.

كنا ثلاثين تلميذاً في الصف. وكان كل واحد منا يعفى مرّة واحدة في الشهر من الدروس ليصبح سقّاء. وكان من الممكن أن يجبر أحدنا بهذا العمل مرتين إذا اقترف ذنباً ما. وعلى أي حال كنت دائماً أجلب الماء ليومين متتاليين دون ذنب اقترفته، لأن صديقي وصاحب الدور بعدي عبد الجبور يوسف كان دائماً يمرض حين يأتي دوره. وأذكر أن يوميّ كانا يقعان في السابع والثامن من كل شهر.

كان النبع يقع خارج حدود القلعة. كان الذهاب إليه سهلاً: أولاً، الدلو فارغ، وثانياً الطريق ينحدر بشكل حاد إلى أسفل. ليس من العسير على المرء أن يحزر أن كل شيء في طريق الإياب كان يختلف اختلافاً جذرياً. زد على ذلك أن أفواج التلاميذ كانت تنتظرني في العطفة الضيقة مسلحة بأقداحها من الألمنيوم. كانوا يريدون أن يشربوا. فكانوا يرتمون على دلوي يعبون نصفه ويهدرون نصفه الآخر على الأرض هباء. لم يكن التخلص منهم بالأمر السهل، أنا الذي كان من واجبي أن أوصل الماء إلى المدرسة.

هنالك كثير من الأساطير حول هذا النبع. إليكم واحدة منها كما رواها لي والدي.

جدران القلعة منقطة بآثار الرصاص. وعلى أبراجها تبدلت الأعلام مرات كثيرة: خضراء حيناً وحمراء حيناً آخر. فقد كانت القلعة في أيام الحرب الأهلية تنتقل من يد إلى أخرى: تارة يستولي عليها البيض، وتارة أخرى يطردهم منها الحمر، تارة يقيم فيها غوتسينسكي، وطوراً الأنصار من جماعة مسلم عطا. دافع الأنصار ستة أشهر عن القلعة في وجه الأعداء. وفي كل يوم كانت الرماية تتوقف مدة ساعتين. في هاتين الساعتين كانت نساء المدافعين عن القلعة يخرجن خارج أسوارها سعياً وراء الماء. وذات مرة قال العقيد علي خان للعقيد جعفر.

ـ تعال نمنع النساء من الذهاب إلى النبع. ولتفطس فصيلة عطا من العطش.

وأجابه العقيد جعفر:

ـ إذا كنا سنطلق النار على النساء الذاهبات لجلب الماء، فإن داغستان كلها ستتحول عنا.

وهكذا كان الطرفان يحترمان هذه الهدنة غير المعلنة، حتى تعود النساء من النبع..

حين قيل لأمي، وكانت مريضة آنذاك، إن ابنها منح جائزة لينين، تنهدت وقالت: «بشرى سارة. لكن سروري يكون أعظم، لو سمعت أن ابني ساعد فقيراً أو يتيماً. عليه أن يخصص هذه الأموال لجر الماء إلى القرى العطشى. عندئذ يمدحه الناس. عندما نال أبوه الجائزة، كرّس قيمتها كلها للبحث عن ينابيع جديدة. فحيث النبع، هناك الدرب الجبلي، وحيث الدرب هناك الطريق. والطريق ضروري للجميع ولكل واحد بمفرده. الإنسان لا يجد بيته بدون طريق، بل يسقط في الهاوية».

كان والدي يردّد دائماً أني ولدت في العام الذي شقت فيه أول قناة في داغستان.. شقت من سولاك إلى ماخاتشكالا. «لا حياة بلا ماء» ـ هذا الشعار الذي كتب على لوحة من قشر الخشب كان يحمله البناة معهم.

الماء! ها هو ذا يتسرب من الصخور كأنما تعصرها قبضة جبارة. وها هي ذي الجداول تندفع من الجبال، وتقفز فوق الحجارة وتلقي بنفسها من فوق الصخور، وترغي وتزبد في المضايق كوحوش جريحة، وترتع في الأودية الخضر كالحملان.

بأربعة أحزمة يتمنطق بلدي داغستان ـ وبأربعة كويسو. وكأخوات شقيقات يلقاهن سولاك وسامور. ومن ثم تعانق كلها ـ أنهر داغستان ـ البحر.

النار والماء مصير الشعوب، النار والماء أبو داغستان وأمها، النار والماء هو الخرج الذي يضم كل ثروتنا.

عندنا في داغستان يخف الشبان والصبايا إلى الناس الوحيدين والطاعنين في السن ليساعدوهم، ويقدموا لهم خدمة سواء في البيت أو في زراعتهم. فما هو أول شيء يفعلونه؟ يقطعون الحطب للنار ويأتون بالماء في الجرار. والغربان السود تعرف بحسها البيت الذي انطفأت فيه نار موقدة، فتتطاير إليه وتأخذ بالنعيق.

النار والماء هما التوقيعان، الرمزان على اتفاقية خلق داغستان.

نصف الأساطير الداغستانية تتصل بالفتى الشجاع الذي قتل التنين وأتى بالنار ليعم القرية الدفء والنور.

ونصف الأساطير الداغستانية الآخر عن الفتاة الحكيمة التي خدّرت التنين بدهائها وأتت بالماء كي يرتوي الناس في القرية وتسقى الحقول.

التنانين التي قتلها الفتى الشجاع والفتاة الحكيمة تحولت إلى جبال، إلى سلاسل جبال صخرية سمراء داكنة.

داغ تعني الجبل، وستان تعني البلد. فداغستان هي بلد الجبال، البلد ـ الجبل، البلد الجبلي، البلد الأبي، هي داغستان.

مثل طفل يتعلم التهجي
لا أسأم، تمتمة، ترداد، قول:
دا ـ غـ ـ ستان، دا ـ غـ ـ ستان
من وماذا؟ داغستان
عمن؟ عنها دائماً
وطن؟ لداغستان

كان على هذا الشعب الصغير أن ينتصر على عدد غير قليل من التنانين، حتى يظفر دائماً بالنار والماء. الأنهار تعطي الآن النور، والماء يتحول إلى نار. والرمزان الأولان يندغمان في واحد.

الموقد والنبع أعز كلمتين على قلب الجبلي. عن الإنسان الشجاع يقولون: «ليس إنساناً، بل ناراً»، وعن الإنسان التافه غير الموهوب يقولون: «قنديل مطفأ». ويقولون عن الإنسان السيئ: «إنه من أولئك الذين يستطيعون أن يبصقوا في النبع».

أما نحن فنقول ونحن نرفع كؤوس الخمر:

المجد لمن يستطيع التغني كما يجب
بالموقد والنبع: العنصرين العظيمين
المجد ثلاثاً لمن يشعل ولو عوداً
ومن يفجر الماء برفشه

سأل جبلي شيخ جبليا شاباً:

ـ هل رأيت في حياتك ناراً، وهل مررت فوقها؟

ـ رميت بنفسي فيها كما رميتها في الماء.

ـ وهل صدف أن عرفت الماء المثلج، وهل قدر لك أن ترمي بنفسك فيه؟

ـ رميت فيه بنفسي كما رميتها في نار.

ـ أنت إذاً جبلي بالغ. اسرج حصانك، وتعال معي إلى الجبال.

قال جبلي لآخر وقد تخاصما:

ـ هل خيوط الدخان فوق سطحي أرق من خيوط دخانك؟ وهل ذهبت أستعير ماء من أحد؟ إذا كنت تظن ذلك، فتعال معي إلى تلك الصخرة، هناك نتحدث على انفراد.

وعلى الأبواب رأيت نقشاً: «الماء يشتعل في الموقد، تفضل» وا أسفاه ليس لدى داغستان مثل هذه الأبواب التي كان من الممكن أن ينقش عليها: «النار تشتعل في الموقد، تفضل».

والنار تشتعل بالفعل. ونحن ندعوكم على سبيل المزاح، ولا لأجل الكلمة الجميلة: لا تستحوا، تفضلوا، النار في الموقد مضرمة، والماء في الينابيع رقراق، تفضلوا.

البيت

تأتي كلمة «ريغ» الآفارية بمعنيين مختلفين: العمر والبيت. لكن هذين المعنيين بالنسبة لي يندمجان في معنى واحد. العمر هو البيت. إذا بلغت عمراً معيناً، يجب أن يكون لك بيتك. فإذا لفظنا هذا المثل بالآفارية (وعندنا هذا المثل) نحصل على تلاعب بالألفاظ تتعذر ترجمته: «الريغ هو الريغ» العمر هو البيت.

وماذا في الأمر؟ لقد بلغت داغستان، وعلينا أن نفترض ذلك، سن النضج، ولهذا السبب لها مكانها المشروع والثابت تحت الشمس.

كنت كثيراً ما أسأل أمي.

ـ أين داغستان؟

ـ وكانت أمي الحكيمة تجيبني:

ـ في مهدك.

وسئل آندي:

ـ أين بلدك داغستان؟

والتفت الآندي حوله حائراً.

هذه الربوة داغستان، هذا الشعب داغستان، هذا النهر داغستان، هذا الفج في الجبل داغستان، هذه السحابة فوق الرؤوس أليست هي

داغستان أيضاً؟ وهذه الشمس فوق الرؤوس أليست هي إذاً، داغستان كذلك؟

وأجاب الآندي:

ـ بلدي داغستان في كل مكان!

في عام 1921، بعد الحرب الأهلية، كانت قرانا مدمرة، وكانت المجاعة تفتك بالناس الذين لم يكونوا يعرفون مصيرهم. في ذلك الوقت بالذات قصد لينين وفد من الجبليين وفي غرفة لينين أخذ رسل داغستان يبسطون مصوراً كبيراً للعالم دون أن ينبسوا بكلمة.

قال لينين مدهوشاً:

ـ لماذا أتيتم بهذا المصور؟

فجميعهم على حق.

ـ عندك كثير من الهموم بخصوص شعوب مختلفة، ولا تستطيع أن تذكر أين يسكن كل منها، ونحن نريد أن نريك أين تقع داغستان.

لكن الجبليين لم يستطيعوا أن يعثروا على مسقط رأسهم رغم ما بذلوه من جهد، لقد أربكهم وشوَّشهم هذا المصور الكبير، وأضاعوا قطعة الأرض الصغيرة. عندئذ دلهم لينين فوراً ودون تردد على ما كانوا يبحثون عنه في المصور.

ـ هذه هي داغستانكم. وانفجر في ضحكة مرحة. «إنسان ذكي بالفعل». قال الجبليون في أنفسهم، ثم أخبروا فلاديمير إيلتش كيف كانوا قبل ذلك عند المفوض الشعبي، وكيف كان هذا يتوجه إليهم بين الحين والآخر، بنفس السؤال: ولكن، أين تقع داغستان؟ أما معاونو المفوض الشعبي فقد افترضوا الفرضيات المختلفة. أحدهم قال إنها في مكان ما من جيورجيا، وقال آخر إنها في تركستان. حتى إن ثالثاً أكد أنه إنما حارب البسماتشيين(*) في داغستان بالذات.

---

(1) أعضاء حركة معادية للثورة في آسيا الوسطى أثناء الحرب الأهلية (المترجم).

وازداد ضحك لينين:

ـ أين أين، في تركستان؟ شيء مدهش، لا مثيل له.

ورفع على الفور سماعة الهاتف، وأوضح لهذا المفوض الشعبي أين تقع داغستان، وأين تقع تركستان، أين يتواجد البسماتشيون وأين المريدون.

لا يزال ذلك المصور الكبير للقفقاس معلقاً حتى الآن في غرفة لينين في الكرملين.

وداغستان جمهورية الآن. سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، إنها تماماً كما يجب أن تكون. إنك لن تجد الآن في البلد عندنا من يقول لك إن داغستان تقع في تركستان، لكنه كان علي في أكثر من بلد بعيد أن أجري مثل هذا الإيضاح:

ـ من أين وصلتم؟

ـ من داغستان.

ـ داغستان. . داغستان. . أين تقع داغستان هذه؟

ـ في القفقاس.

ـ في الشرق أو في الغرب؟

ـ على شاطئ بحر قزوين.

ـ آه باكو!

ـ كلا، ليست باكو! بل إلى الشمال قليلاً.

ـ ومن جيرانكم؟

ـ روسيا، جيورجيا، أذربيجان. .

ـ لكن، أليس الشركس هم الذين يعيشون في هذا المكان؟ كنا نظن أنهم الشركس.

ـ الشركس يعيشون في تشركيسيا، والداغستانيون في داغستان. تولستوي. . الحاج مراد. . هل قرأتم تولستوي؟ بيستوجيف مارلينسكي. . ليرمنتوف، وأخيراً: «في قيظ الظهيرة في وادي داغستان».

ـ هناك حيث جبال البروز؟

ـ البروز، في كاباردينا بلكاريا، والكزبيك في جيورجيا، أما عندنا.. عندنا فقرية غونيب.. وقرية تسادا أيضاً.

هكذا كنت أضطر أحياناً لإجراء مثل هذا الحديث في بعض البلدان النائية.. وكما يقول المثل: أكلمك يا جارة لتسمعي يا كنة. فقد يوجد حتى عندنا إلى الآن من يحسب أن الشركس يعيشون في داغستان، أو على الأصح لا يحسب شيئاً.

لقد أتيح لي أن أسافر بعيداً، وأشارك في مؤتمرات وندوات مختلفة.

يلتئم أناس من قارات مختلفة: من آسيا، من أوروبا، من أفريقيا، من أمريكا، من أستراليا. وهناك حيث كل شيء بمقياس القارات، أردد مع هذا: إني من داغستان.

ويسألونني وهل تمثل آسيا أو أوروبا؟ حدِّد من فضلك في أي قارة تقع داغستانك هذه؟

ـ إحدى قدمي في آسيا والأخرى في أوروبا. يحدث أن يضع رجلان أيديهما في وقت واحد على عنق الجواد، كل من جانب. هكذا تماماً وضعت القارتان أيديهما من الجانبين على سلسلة جبال داغستان. وتشابكت أيديهما على أرضي، وأنا مسرور بذلك.

الطيور والأنهار، والتيوس البرية والثعالب وكل الوحوش الأخرى تنتمي في آن إلى أوروبا وآسيا. ويبدو لي أنها شكلت لجنة وحدة أوروبا وآسيا. وكم أود لو أصبح أنا وأشعاري عضواً في هذه اللجنة.

إلا أن بعض الناس يقولون لي كأنما يقصدون النكاية: «وماذا تريدنا أن نفعل؟ أنت آسيوي». أو على عكس ذلك يقول لي بعضهم في مكان ما في أعماق آسيا: «وماذا تريد أن نقول لك؟ أنت أوروبي». أنا لا أكذب لا هؤلاء ولا أولئك. تبدأ أحياناً في مصارحة امرأة بحبك، فإذا هي تهز رأسها وتقول لك:

ـ آه من هذا الشرقي الماكر الغادر!

ويأتيك أحياناً أخرى ضيوف داغستانيون فيلحظون شيئاً ما في تصرفك فيهزون رؤوسهم قائلين:

ـ آه من هذه «الحركات» الأوروبية!

وماذا في الأمر؟ داغستان تحب الشرق، لكن الغرب غير غريب عنها. إنها كشجرة تضرب بجذورها في تربة القارتين.

في كوبا أهديت فيديل كاسترو فروة من فرائنا.

سأل كاسترو مستغرباً.

ـ ولماذا ليس لها أزرار؟

ـ كي يرميها الإنسان عن كتفيه في سرعة أكبر، وقت الحاجة ويمتشق سيفه.

وأجاب فيديل كاسترو موافقاً:

ـ إنها لباس فدائي حقيقي.

إن مقارنة داغستان بالبلدان الأخرى أمر ليس له معنى. فداغستان في خير حيث هي. السقف لا يرشح، والجدران غير مائلة، والأبواب لا تصر، والريح لا تنفخ من خلال النوافذ. المكان ضيق في الجبال، لكنه رحب في القلوب.

قال آندي لأحدهم:

ـ تقول إن أرضي صغيرة. وأرضك كبيرة؟

تعال إذاً نتراهن: أي أرض سنقطعها مشياً في سرعة أكبر، أنا أقطع أرضك أم أنت تقطع أرضي؟ سأرى كيف تصعد قممنا، وتتسلق صخورنا، وتزحف في مضائقنا وتتقلب في أوديتنا!

صعدت إلى أعلى قمة في داغستان ونظرت إلى كل الجهات من حولي. الدروب تتراكض إلى البعيد، وفي البعيد تلتمع أنوار، وفي مكان ما أبعد تسمع أجراس، والأرض تختفي في الدخان الأزرق.

كم يلذ لي أن أنظر إلى العالم وأنا أشعر بأرض الوطن تحت قدمي.

الإنسان لا يختار وطنه حين يولد، فالأمر لديه سيان. وأنا أيضاً لم

يسألني أحد إن كنت أريد أن أكون داغستانياً. يلوح لي أني لو ولدت في مكان آخر من الكرة الأرضية ومن أب وأم آخرين، لما كانت أرض أغلى على قلبي من تلك التي ولدت فيها. لم أسأل آنذاك، لكن لو سئلت الآن فماذا يجب علي أن أجيب؟

أسمع صوت طنبور(*) في البعيد. اللحن أليف، والكلمات أيضاً أليفة.

السواقي تحن دائماً إلى البحار
والبحار تحن إلى السواقي.

يمكن للراحتين أن تسعا القلب
لكن القلب لا يتسع لكل العالم.

البلاد الأخرى جيدة جداً
لكن داغستان أغلاها على النفس.

لم يكن هذا عازف الطنبور بل كانت داغستان هي التي تتكلم بلسانه.

من رآني ولم يرض بي،
فليعد سريعاً إلى بيته!

عندنا عادة قديمة جداً: في ليالي الشتاء الطويلة، يجتمع الشباب في أحد البيوت ويكون أرحبها، ويقومون بألعاب مختلفة. يجلسون على سبيل المثال، شاباً على منضدة. ثم تأخذ فتاة تدور حوله وهي تغني، وعليه أن يرد عليها. بعد ذلك يُجلسون الفتاة على المنضدة ويأخذ الشاب يدور حولها ويغني. هذه الأغاني لا تشبه تماماً الزجل الشعبي

(*) الطنبور آلة موسيقية شعبية داغستانية.

وإن كان فيها بعض ملامحه. ويدور نتيجة لذلك نوع من الحوار بين المغنين. الكلمة اللاذعة يجب أن يرد عليها بألذع منها، والسؤال المحكم يتطلب جواباً محكماً. أما الفائز في المباراة فيعطى قرناً مملوءاً خمرة.

مثل هذه الألعاب كانت تجري في بيتنا، في الطابق الأسفل منه. كنت صغيراً ولم أكن أشارك في اللعب، بل كنت أصغي. أذكر أنه كانت إلى جوار الموقد الخمرة المزبدة والسجق البيتي المقلي. وفي وسط الغرفة وضعت منضدة بثلاث قوائم. كان الشبان والشابات يتبادلون الأدوار، وكانت الأحاديث الغنائية التي تجري بينهم متنوعة. وقبيل الختام كان الحوار يكرس لداغستان. وكل الذين كانوا في الغرفة، كانوا يجيبون عن هذه الأسئلة بصوت واحد:

ـ أين أنتِ يا داغستان؟

ـ على صخرة شاهقة قرب نهر كويسو.

ـ وماذا تفعلين يا داغستان؟

ـ أفتل شاربي.

ـ وأين أنتِ يا داغستان؟

ـ ابحث عني في الوادي.

ـ ماذا تفعلين يا داغستان؟

ـ أنتصب حزمة شعير.

ـ من أنت يا داغستان؟

ـ أنا لحم عالق بخنجر.

ـ من أنت يا داغستان؟

ـ أنا خنجر اخترق اللحم.

ـ من أنت يا داغستان؟

ـ أنا أيّل يشرب من مياه النهر.

ـ من أنت يا داغستان؟

ـ أنا نهر، أنا أغني للأيّل.

ـ وما تكونين يا داغستان؟

ـ أنا صغيرة، حفنة اليد تسعني كلي.

ـ إلى أين تتجهين يا داغستان؟

ـ أريد أن أجد شيئاً أكبر.

هكذا كان الشباب يغنون، أحدهم يجيب الآخر. ويبدو لي أحياناً أني لا أجد في كتبي كلها مثل هذه الأسئلة ـ الأجوبة، لكن ليست هناك فتاة على المنضدة أدور حولها. فأنا أسأل نفسي وأنا أرد عليها.

ثم لا يأتيني أحد بقرن مملوء بالخمرة إذا كان جوابي ناجحاً.

ـ أين أنت يا داغستان؟

ـ أنا حيث أهل جبالي كلهم.

ـ وأين أهل جبالك؟

ـ آ ! وفي أي مكان ليسوا موجودين.

ـ العالم طبق كبير وأنت لست إلا ملعقة صغيرة. أليست صغيرة جداً بالنسبة لطبق كهذا؟

كانت أمي تقول: إن الفم الصغير يستطيع أن ينطق كلمة كبيرة.

وكان أبي يقول: إن الشجرة الصغيرة قد تزين حديقة كبيرة.

أما شامل فكان يقول إن الرصاصة الصغيرة تثقب سفينة كبيرة. وأنت نفسك قلت في أشعارك إن القلب الصغير يسع العالم الكبير والحب الكبير.

ـ لماذا تقول دائماً حين ترفع كأسك: «نخب الخير»؟

ـ لأني أنا نفسي أبحث عن الخير.

ـ لماذا تبني البيوت على الأحجار والصخور؟

ـ أنا أشفق على الأرض اللينة. هناك استنبت بعض القمح. حتى على السطوح المنبسطة استنبت قمحي. أحمل التربة إلى الصخور، وهناك استنبت قمحي. ذلكم هو قمحي.

كنوز داغستان الثلاثة

الجبليون دائماً على سفر. بعضهم يرتحل طلباً للثروة وبعضهم سعياً وراء المجد، وآخرون بحثاً عن الحقيقة.

الذين ارتحلوا طلباً للثروة، عادوا بعد أن نالوها، وها هم أولاء الآن يتمتعون بنتائج سفرهم.

والذين خرجوا طلباً للمجد أحرزوه، وها هم أولاء يعيشون الآن وقد فهموا أنه لا يساوي شيئاً، وأنهم عبثاً بذلوا كل هذه الجهود.

لكن الذين خرجوا بحثاً عن الحقيقة، تبين أن طريقهم هي أطول الطرق، وأنها لا حدود لها.

من خرج يبحث عن الحقيقة، حكم على نفسه بأن يبقى دائماً في الطريق.

حين يخرج الجبلي في سفر، يأخذ طبعاً، معه حماره. وعلى ظهر هذا الحيوان الطيب ترى دائماً ثلاثة أشياء مربوطة: كيساً كبيراً مملوءاً، قربة صغيرة وإبريقاً.

منذ مئات السنين والجبلي في الطريق ينتقل من قرية إلى قرية ومن منطقة إلى منطقة. وحماره الأمين يسير أمامه وعلى ظهره الكيس والقربة والإبريق.

في إحدى المناطق الغنية ابتعد الجبلي عن حماره فأخذ متسكعون متخمون يعذبون الحيوان المسكين. أخذوا يخزنونه بعصا حادة، بأشواك ويجبرونه على الرفس. وكان يبدو لهؤلاء اللئام أن الحمار يرقص من وخزاتهم.

رآهم الجبلي يستهزئون بصديقه الصدوق فاستل خنجره:

ـ الأفضل أن تهيجوا دباً، لا جبلياً.

ذعر المتعطلون الشباب فاعتذروا، ثم أفلحوا بطريقة ما وبالكلام الطيب أن يجعلوا الجبلي يخفي خنجره. وحين بدأ بينهم حديث سلمي، تساءل الشباب:

ـ وماذا على ظهر حمارك؟ بعنا إياه.

ـ ليس عندكم من الذهب ولا من الفضة ما يكفي لشرائه.

ـ اذكر الثمن وسنرى.

ـ ليس لهذا ثمن.

ـ وما هذا الشيء في أكياسك الذي لا ثمن له؟

ـ وطني، داغستان.

انفجر الشبان يقهقهون:

ـ وطن محمول على حمار. هيا، هيا أرنا وطنك.

فك الجبلي كيسه فرأى الشبان تراباً عادياً.

إلا أن التراب لم يكن عادياً، كان ثلاثة أرباعه من الحجارة.

ـ وهل هذا كل شيء؟ هذا هو كنزك؟

ـ أجل، هذا هو تراب جبالي. إنه صلاة أبي الأولى ودمعة أمي الأولى، وقسمي الأول، وآخر ما خلفه جدي، وآخر ما أورثه حفيدي.

ـ وهذا أيضاً ما هو؟

ـ سأربط الكيس أولاً.

بعد أن ربط الجبلي كيسه ورفعه على ظهر حماره، وفتح الإبريق فرأوا ماء عادياً، وعلى قدر من الملوحة.

ـ إنك تنقل ماء يتعذر حتى شربه!

ـ إنه ماء من قزوين. كما في المرآة تنظر داغستان إلى نفسها في هذا البحر.

ـ وماذا في القربة؟

ـ تتألف داغستان من ثلاثة أجزاء: الأول هو الأرض والثاني هو البحر، والثالث كل ما عداهما.

ـ يعني، عندك في القربة كل ما عداهما.

ـ نعم، إنه لكذلك.

ـ ولماذا تأخذ معك هذا الحمل؟

ـ كي يكون وطني دائماً معي. فإذا مت وأنا في الطريق، يرشون على قبري التراب ويغسلون الشاهدة بماء البحر.

أخذ الجبلي قليلاً من تراب الوطن، فركه بين أصابعه ثم غسلها قليلاً بماء الإبريق.

ـ ولماذا تفعل هذا؟

ـ اليد التي لامست أيادي المتسكعين، لا يمكن غسلها إلا هكذا.

وتابع الجبلي طريقه، ولا يزال في الطريق حتى الآن.

كنوز داغستان الثلاثة هي، إذاً، الجبل والبحر وكل ما عداهما.

للجبلي أيضاً ثلاث أغنيات، وللمصلي ثلاث صلوات، وللمسافر ثلاث غايات: الثروة والمجد والحقيقة.

كانت أمي تلقننا في طفولتنا أن داغستان طائر ذو ثلاث ريش ثمينة في جناحه.

وكان أبي يقول: ثلاثة معلمين ماهرين، خاطوا داغستاننا من ثلاث جواهر.

بالطبع إن المواد والأشياء التي تتكون منها داغستان بالفعل هي أكثر من هذا بكثير. وقد اقتنعت بهذا الأمر بتجربتي المرة.

عهد إلي منذ خمس وعشرين سنة بكتابة (سيناريو) عن داغستان فكتبته. وبدأت مناقشة (السيناريو). لقد ألقي العديد من الكلمات آنذاك.

بعضهم قال: السيناريو تعوزه الأزهار، وبعضهم قال: يعوزه النحل، وآخرون قالوا لا بل تعوزه الأشجار. كان كل شخص يرى أن (السيناريو) يفتقر إلى شيء ما. فتارة، الماضي لم يعرض إلا قليلاً، وطوراً الحاضر معروض بشكل ضعيف. وتبين في النهاية أنه لا توجد في (السيناريو) حمارة مع حمار، وأي داغستان هذه دونهما!

لو أردنا أن نعرض كل ما قيل وقتها، لما انتهينا حتى الآن من تصوير الشريط.

ومع هذا داغستان تتكون من ثلاثة أجزاء: الجبال (الأرض)، البحر (قزوين) وكل ما عداهما.

أجل، الأرض ـ إنها الجبال والمضائق والشعاب الجبلية والصخور. إنها أرض الوطن، سقاها الأجداد بعرقهم وبدمهم، لست أدري أيهما سال أكثر هنا: العرق أم الدم. حروب طويلة، واشتباكات قصيرة وثارات دموية.. خناجر أهالي الجبال لم تبق طوال قرون تتدلى على خصورهم لأجل الزينة فقط.

تقول الأغنية الشعبية:

هناك حيث زرع ساخ(*) من الحبوب
سفح دم عشرة من الفرسان
وحيث زرع كالي(**) من الحبوب
يمكنك أن تعد حتى مائة من الفرسان

وكتب والدي يذكر أرضنا:

كثير من الأموات دفنوا هنا،
لكن القتلى منهم أكثر ممن ماتوا حتف أنوفهم.

(*) ساخ: وحدة وزن تساوي ثلاثة كيلوغرامات تقريباً.
(**) كالي: وحدة وزن تساوي خمسة عشر كيلوغراماً تقريباً.

في كتاب الجغرافيا يقال في اختصار إن ثلث أرضنا مغطاة بصخور جرداء وأنا أيضاً كتبت هذا:

هناك الأودية الذابلة،
وهناك الأشجار عارية كالقرون،
وهناك الجبال العالية كأنها ظهور الجمال
وشطآن السيول الجبلية.
هناك أمواج النهر الهائج
غاضبة كذئاب أنشبت مخالبها في قطيع.
هناك الشلالات لها لبدة أسد
والينابيع كأنها عيون العصافير
هناك الطريق بين الصخور الراسية
كأنما تخرج من بين الحجارة.
وهناك تنطلق الأغنية من وراء الرابية
لتسبق الناس إلى المدى البعيد.

تعلن الإذاعة في الصباح أن الثلج يهطل في خونزاخا، والمطر في اختاخ، وأن أشجار المشمش تزهر في ديربينت، وأن الجو في كوموخا حار.

الشتاء والخريف والربيع والصيف تلتقي معاً في داغستان الصغيرة في آن واحد. وبين «فصول السنة» هذه تنتصب الجبال الصوانية، الهادئة، الراعدة، الأنوفة تفصل فصلاً عن فصل.

تأتي الكلمة الآفارية «ميير» بمعنين: جبل وأنف.

وكان والدي يحب استعمال مثل هذا الجناس: الجبال تشم ما في العالم، كل حدث فيه وكل تغيير في طقسه.

هبت السهول لترى من القادم إليها، فكانت الجبال، هذا ما كان يقوله الحاج مراد.

كانت أمي تهمس فوق سريري: انمُ كبيراً كالجبل.

يا ماء النهر الجبلي الغبي،
الصخور بدونك تتشقق،
فلماذا تسرع إلى حيث
المياه بدونك وفيرة،
أيها القلب يا قلبي! مصيبتي
إنك لا تريد أن تحب الذين يحبونك،
فلماذا تصبو إذاً إلى من
لا حاجة كبيرة به إلينا

كانت أمي تقول دائماً حين ترى البلخاريين يبيعون الجرار والأصص والصحون: «كيف لم يأسفوا على هذا القدر من التراب يبددونه؟ لا رأت عيناي من يبيع تراباً!

بالطبع، البلخاريون معلمون ماهرون، ولكن في الجبال حيث التراب قليل قليل، كان يعتبر دائماً أن التراب أغلى من جرارهم.

في قديم الزمان اندفع رسول داخل القرية. كان الرجال كلهم في المسجد يصلون. اندفع الفارس (وكان راعي غنم) إلى داخل المسجد دون أن يخلع حذاءه.

وصرخ الشيخ به قائلاً:

ـ إيه، أيها الغبي، أيها المارق، يجب أن تخلع حذاءك قبل دخول المسجد؟

ـ على حذائي تراب، غبار من الوادي، وادينا إنه أغلى من كل هذه السجاجيد لأن العدو هاجمه.

أسرع الجبليون من المسجد وانطلقوا فوق جيادهم.

«الضيف القادم من بعيد هو الأغلى» هذا ما كان أبو طالب يحب ترداده. فالضيف لا يأتي به من بعيد إلا فرح كبير أو حب كبير أو حزن كبير. الإنسان اللامبالي لا يأتي من بعيد.

هناك عادة: إذا أعجب الضيف بشيء ما في بيتك ومدحه، فانتحب

أسى كما يطيب لك ولكن قدمه إليه. يقال: إن شاباً أهدى صديقه خطيبته لأنها أعجبت الصديق حين كانت عند نبع القرية. لا بدّ أن ذلك الشاب كان جبلياً مئتين بالمائة، جبلياً أكثر من اللازم.

يستطيع الضيف الوقح دائماً أن يستغل عادتنا القديمة، لكن الجبليين أيضاً أصبحوا أفطن، إذ صاروا يخفون الأشياء الجميلة عن أعين الضيوف.

هبط القرية ضيف من كوموخ (وقد جرى هذا منذ أمد بعيد) وأخذ يمدح كل شيء بالتتابع، فأهديَ كل ما اشتهاه، لكنهم أجبروه قبل رحيله على أن ينفض التراب عن جزمته.

وقال الجبليون آنذاك: «التراب لا يهدى، فنحن أنفسنا يعوزنا التراب. فإذا حملوه على جزماتهم، فأين سنزرع قمحنا؟».

لقد أسمى أحد الغرباء أرضنا كيساً حجرياً.

أجل، الرقة فيها قليلة. فنادراً ما تقع عيناك على أشجار في الجبال، والجبال نفسها تشبه رؤوس المريدين الحليقة، وظهور الحمير الملساء المائلة. التربة قليلة والمحصول فيها ضئيل.

كان يقال فيما مضى: «غلّة هذا المسكين لا تكفي ليملأ بها خياشيم جاره».

والحقيقة أن أنوف الجبليين أنوف بارزة وعظيمة. كان العدو يعرف عن بعد أن الجبليين نائمون من شخيرهم، وكان أحياناً يباغتهم بسبب ذلك.

قال أبو طالب وقد رأى وجهاً ترك فيه الجدري ندوباً: كل الحبوب في حقل والدي اخترقت وجه هذا المسكين لتترك آثارها فيه.

قليلة أرض الجبليين وفقيرة. هناك قصة في هذا الشأن ربما سمعتموها أكثر من مرّة لأنها تطوف العالم منذ القديم منتقلة من لغة إلى أخرى،

ومن سطح إلى آخر. لكني لا أستطيع إلا أن أرويها أنا أيضاً. وليشتمني من سمعها:

قرر جبلي أن يحرث حقله وكان على مسافة بعيدة قليلاً من القرية، فتوجه إليه مساء كي ينهض مع الصباح الباكر إلى عمله.

وصل الجبلي إلى المكان المقصود، فمدّ عباءته واستلقى عليها. نهض باكراً إلى عمله، لكنه فوجئ بعدم وجود أي حقل. التفت ذات اليمين وذات اليسار، لكن الحقل لم يكن له أثر. ترى هل سلبه اللّه حقله قصاصاً على ذنوبه، أم أن الشيطان أخفاه ليهزأ من إنسان شريف.

ولكن ليس في الأمر حيلة. حزن الجبلي وقرّر أن يعود إلى بيته. رفع عباءته عن الأرض و ـ يا إلَهي! ـ ها هو ذا الحقل، حقله تحت العباءة!

سأروي لكم الآن حادثة أخرى، إنها ليست مثلاً بل واقعة حقيقية.

حين شُرع في تنظيم الكولخوزات في الجبال، كما في كل مكان آخر من البلاد، كان هناك كثير من التردّد والشكوك والأقاويل والأفكار. كثير من الماشية ذبح آنذاك ولسان حال ذابحيها يقول: الأفضل أن نأكلها نحن من أن نعطيها هذا الكولخوز غير المفهوم.

وكان عناد الجبليين في قراهم البعيدة ونقاشهم عنيفين بشكل خاص. «ما يخصك لك، وما يخصني لي، فماذا تريدون منا أيضاً: أن يكون ما يخصني ملكاً لك؟».

جاء إحدى القرى الصغيرة مائتا مفوض مطلقو الصلاحية وكلهم عادوا بخفي حنين. بعضهم لم يظهر للناس، وبعضهم الآخر كان يدير نقاشاً مع الأهلين. كان الجبليون يقولون: «وهل الأشياء المشتركة قليلة على ظهر هذه البسيطة. السماء مشتركة، الشمس مشتركة، المطر، الثلج،

النهر، الطريق، المقبرة. تكفينا هذه الأشياء المشتركة والباقي ليكن لكل منّا ما يخصّه».

وحين قيل للجبليين إن الكولخوز سيعطي آليات، هزوا رؤوسهم أيضاً وقد تذكروا مثل الثعلب.

رأى ثعلب وهو سائر في الوادي إلية شاة دسمة ملقاة على الطريق لو أنه يسرع ويلتهمها! «كلّا ـ قرّر الثعلب ـ ألية الغنم لا يمكن أن تلقى على الأرض جزافاً. لا بدّ أن في الأمر شيئاً ما مريباً».

وقيل للجبليين إنه ستخصص للكولخوز مراع واسعة في الأسفل، في السهل. هنا نهض شيخ طاعن في السن، وقال وهو يستند إلى عصاه:

ـ لن نبدل بكل سهول العالم أعشاشنا الجبلية، وقطع حقولنا الصغيرة والقليلة، وشعابنا المتعرجة. الأرض هنا أرضنا. مئات الأعوام رعيناها كما نرعى طفلاً مريضاً. نقلنا التراب وكسونا الصخور بطبقة متساوية منه. ثم جررنا الماء لسقيه. قمحنا شحيح، لكن كل حبة منه لا تقدر بثمن. وهذا هو السبب في أن الإنسان هنا يقسم بكسرة الخبز...

وعلى الرغم من هذا كله، تم تنظيم كولخوز في تلك القرية العنيدة. فكيف تم إقناع الجبليين الجهلة؟

لقد علموا أخيراً أن الأرض كلها لن تكون للكولخوز، وأن قسماً منها سيبقى تحت تصرفهم الشخصي في شكل قطع أرض تابعة لبيوتهم.

ـ وهل سيكون حجمها كبيراً؟ تساءل الجبليون العنيدون.

ـ خمسون وعشرون سوتكا للفرد الواحد حسب قانون الجمعيات الزراعية.

ـ وما هي السوتكا؟ أوضح.

وحين أوضح المفوض المطلق الصلاحية لهم ما هي السوتكا، انطلقوا في صوت واحد:

ـ إيه، سجّل أسماءنا في الكولخوز، لم يعد هناك مجال للكلام!

وتبين أن حقل كل جبلي أقل بكثير من المساحة المقررة لقطعة الأرض الخاصة بعضو الكولخوز.

أرض الجبليين الصخرية العالية لا تقدر بثمن بالنسبة لهم، مع أن الحياة صعبة فيها. والمسافرون يدهشون وهم ينظرون إلى مدرّجات الحقول اللاصقة بسفوح الجبال أو حتى بالصخور، وإلى الجنائن النامية بين الأحجار، وإلى الأغنام المتناثرة على الدرب الجبلي المعلق فوق الهاوية تجتاز الجروف الشاقولية بحذاقة راقصي الحبال.

هذا كله جميل في العين بشكل غير عادي، ووجد ليغنّى في قصائد، لكن إصلاحه وإحياءه شاقان.

ومع هذا، اقترح على الجبلي أن ينتقل إلى السهل، فسينظر إلى اقتراحك على أنه إهانة.

يروى أن ابن أحدهم وصل من المدينة وأخذ يقنع أباه الشيخ بهجر القرية.

ـ «الأفضل أن تشق بطني بضربة خنجر من أن تعذبني بأقوالك هذه» ـ هكذا أجاب الوالد الشيخ.

المشكلة هذه موجودة، وهي معقدة جداً. وقد طرح في القرى منذ أمد بعيد شعار جميل: «لنخرج من الأكياس الصخرية وننتقل إلى السجاجيد المزهرة».

وصل هذا الشعار أيضاً إلى تلك القرية العنيدة التي أتى إليها في ذلك الوقت المفوضون المائتان لينظموا فيها كولخوزاً. حين تنظيم الكولخوز لم تحدث فيها ضجة كالتي حدثت الآن، حين سمعوا شعار النزوح. وقد كانت لكل قروي كلمته في هذا الموضوع. إليكم بعض أقوالهم: «حتى لو جرّونا بالسلاسل، فلن نذهب إلى السهل». «نحن كالمسمار مدقوقون إلى هذه الصخور. ولا يملك أحد الحق في إخراجنا من أعشاشنا» «لتنشق قبور آبائنا، إن نحن هجرناها إلى مكان آخر». «لا

يوجد مكان يرتاح إليه رأسي، كما يرتاح على مخدته». «النوم على حجارتنا أعذب منه على رياش الآخرين». «وأين أجد هناك حجراً أرمي به الكلب؟». «أن نكون في الجبال قرب الموقد المدخّن أفضل من أن نكون تحت، قرب مدفأة جيدة». «من يهتم ببطنه، فليذهب إلى هناك، ومن يهتم بقلبه فليبق هنا». «نحن لم نقتل أحداً، ولم نحرق بيت أحد، فلماذا يحكم علينا بالنفي». «تستطيع الآلات أن تعمل هنا» «المصابيح الكهربائية يمكن أن تتدلى على الأعمدة هنا». «البرقية تصل من هنا أيضاً». «نحن لم نولد لنكون غذاء للبرغش والذباب». «دخان الزبل أفضل من رائحة المحروقات». «الزهور الجبلية أزهى». «ماء الينابيع أعذب من ماء القساطل». «لن نذهب إلى أي مكان!».

وهكذا ردّ كل جبلي بطريقته على شعار: «لنخرج من الأكياس الصخرية وننتقل إلى السجاجيد المزهرة!».

وذهب الجبليون إلى والدي أيضاً يطلبون المشورة: هل ينزحون أم يبقون؟ وخشي أبي أن يعطيهم جواباً محدداً.

«إذا نصحتهم بالبقاء، فربما علموا فيما بعد أن الحياة تحت جيدة، عندئذ سوف يشتمونني. وإذا نصحتهم بالنزوح وتبين أن الحياة هناك لا نفع فيها، فسوف يشتمونني أيضاً». ـ أنتم فكروا وحدكم، قال لهم آنذاك حمزة تساداسا.

الأيام تتغير والحياة كذلك. لم تتغير أغطية الرأس وحسب (السدارة بدلاً من القلبق)، وإنما أفكار الشباب تحت قبعاتهم. الدماء المختلفة والقبائل والشعوب المختلفة تختلط. وقبور أبنائنا تزداد بعداً عن قبور آبائنا. . حجارة وصفائح، أحجار ضخمة، أحجار صغيرة، أحجار مستديرة، أحجار حادة. التراب ينقلونه من تحت بالقفف حتى يستنبتوا أي شيء فوق هذه الحجارة. كانوا يحرقون السفوح المعشوشبة في

الخريف والشتاء، ليعطي العشب محصولاً أوفر. أذكر عيد أول تلم. الربيع. كان الشيوخ يتراشقون بحفنات التراب.

يقال عندنا في الإنسان النشيط: «قطع كثيراً من الجبال والقمم» وفي الإنسان الخامل: «إنه لم يضرب مرّة الصخر بمنقره».

«لتتزاحم السنابل في حقلك» أغلى دعاء عند الجبليين.

«لتيبس أرضك ولتمت» أكبر لعنة عندهم.

«أقسم بهذه الأرض» أوثق قسم.

كان بالإمكان قتل الحمار الذي يدوس في حقل الآخرين دون عقاب. وكان أحد الجبليين يصرخ: «حتى لو داس حمار الحاج مراد أرضي، فحذار فالأمر سيان!».

كانت لكل قرية قوانينها. لكن إفساد الحقل، إفساد الأرض كان يعاقب بأكبر الغرامات.

وحتى تاريخ جبالنا يعاقب في النهاية، على إفساد داغستان ذاتها.

أذكر أن أمي روت لي ما يلي:

«حين هزم شاه إيران نادر في جبال داغستان، بعثوا بعجوز منهم، وكان أعرج ومن أكثرهم قبحاً وفقراً، على ظهر بغل يماثله هرماً إلى الشاه ليفاوضه في شروط الهدنة.

ـ ألم يجد الآفاريون من هو أنبل منك وأليق منك يبعثونه إلي؟

ـ الأنبل مني والأهم منّي يعدون بالألوف، ـ أجاب الجبلي الشيخ، ـ لكن الناس الهامين مشغولون بأعمال أهم من هذه. ولذا قرروا أنه يكفي إرسالي إلى إنسان مثلك.

قال الشاه محاولاً المزاح:

ـ كم عمر بغلك؟

أجاب الجبلي:

ـ يصعب تحديد عمر الملوك والبغال.

ـ ومن قائدكم؟ ـ سأل الدخيل.

ـ هؤلاء هم قوادنا، أجاب الشيخ بهدوء، وأشار بحركة واسعة من يده إلى الصخور والجبال الشامخة من حولهم، وإلى الحقول والمقابر ـ هؤلاء هم الذين يقودوننا إلى الأمام.

ـ شروطك؟

ـ شرط واحد: أن تترك أرض الجبليين للجبليين، وأن ترينا ظهرك، لأنه يعجبنا أكثر من وجهك.

واضطر الشاه إلى أن يدير ظهره ويقفل راجعاً إلى إيرانه.

لقد حذروه قائلين: «نترككم أحياء أنت وجيشك، فقط لتتحدثوا عن نصرنا. نتركك لتخبر ـ هكذا يقولون عندنا. سنقطعكم إرباً إرباً، حتى آخر واحد فيكم مرة أخرى».

في شهر آب من عام 1859 وفي جبل جونيت ترجّل الإمام شامل عن ظهر جواده، ومثُل بين يدي الأمير بارياتينسكي أسيراً عظيماً. وقال شامل وقد قدم رجله اليسرى قليلاً ووضعها على الحجر، بينما وضع يده اليمنى على مقبض سيفه وألقى نظرة غائمة على الجبال المجاورة:

ـ أيها السردار(*) لقد حاربت خمساً وعشرين سنة أدافع عن شرف هذه الجبال وهؤلاء الجبليين. جروحي التسعة عشر تؤلمني ولن تلتئم أبداً. إني أستسلم الآن وأضع أرضي بين يديك.

ـ يكفيك حزناً وإشفاقاً! ما أطيب أرضك: ليس فيها إلا الصخور والحجارة!

ـ قل لي، أيها السردار، من كان على حقّ أكثر في هذه الحرب: نحن الذين كنّا نموت في سبيل الأرض ونعتبرها رائعة، أم أنتم الذين كنتم تموتون أيضاً في سبيلها، وتعتبرونها سيئة؟

بقي شامل الأسير شهراً كاملاً في الطريق إلى بطرسبرغ.

وفي بطرسبرغ سأله الإمبراطور قائلاً:

(*) النائب.

ـ كيف بدت لك الطريق؟

ـ بلاد واسعة. بلاد واسعة جداً.

ـ قل لي، أيها الإمام، لو كنت عرفت أن دولتي على هذا القدر من العظمة والجبروت، هل كنت تناصبها العداء طوال هذا الوقت، أم كنت ألقيت السلاح تعقلاً وفي الوقت المناسب؟

ـ لقد حاربتمونا كل هذا الوقت الطويل، وأنتم تعرفون أننا بلد صغير وضعيف!

كان أبي يحتفظ برسالة من شامل، أو على الأصح برسالة وداع منه ها هي ذي:

«يا رجالي الجبليين! أحبوا صخوركم العارية المتوحشة. لقد جلبت لكم جبالكم القليل من الخير، لكن أرضكم بدون هذه الصخور لن تكون أرضكم، وبدون أرض لا حرية للجبليين الفقراء! قاتلوا من أجلها وحافظوا عليها. وليهدهد صليل سيوفكم نومي الأبدي».

لقد سمع شامل أكثر من مرّة صليل سيوف الجبليين وجلجلتها، وإن كانوا قد أصبحوا يحاربون من أجل قضية أخرى. وطن الداغستانيين أصبح الآن أرحب. وأعمالهم وأسماؤهم أصبحت معروفة بعيداً خارج حدود جبالهم، وقبورهم متناثرة في حقول أوكرانيا وروسيا البيضاء وضواحي موسكو وهنغاريا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وفي الكربات والبلقان وعلى مشارف برلين أيضاً.

أجل، وعلى صخور داغستان العالية حفرت أسماء أعضاء الكومونة الروس والهنغاريين، وجنود الثورة الذين قدموا من بلدان كثيرة واستشهدوا من أجل حرية جبالنا. أغنية كل واحد منهم أصبحت أغنيتنا، وأغانينا المشتركة أصبحت أغنياتهم...

ـ لماذا كان سكان القرية الواحدة يتقاتلون فيما مضى؟

ـ من أجل شبر أرض بين حقلي جبليين، من أجل منحدر صغير، من أجل حجر.

ـ ولماذا كان سكان قريتين متجاورتين يتقاتلون فيما مضى؟

ـ من أجل شبر أرض بين حقول القريتين.

ـ لماذا كانت داغستان تحارب الشعوب الأخرى؟

ـ من أجل شبر أرض على حدود داغستان ذاتها.

ـ لماذا حاربت داغستان بعد ذلك؟

ـ من أجل شبر أرض على حدود بلد السوفيات العظيم.

ـ ولماذا تناضل داغستان الآن؟

ـ من أجل السلام في العالم كله.

أُسر مع شامل ولداه، وكان مصيرهما مختلفاً. أصغرهما، وهو محمد شافي. أصبح من جنرالات القيصر، أما أكبرهما وهو غازي محمد فقد مضى إلى تركيا.

جاءتني ذات مرة امرأة متقدمة في السن في لباس تركي. كانت جيورجية تزوجت في صباها تركياً وأمضت معه أربعين عاماً في إستمبول. ثم توفي زوجها، فعادت المرأة إلى جيورجيا، بعد أن أصبحت وحيدة. وها هي ذي تأتي إليّ. كان سبب مجيئها هو التالي: تبين أنها كانت لها حين كانت تعيش في إستمبول، علاقات صداقة بأحفاد شامل من أصغر ولديه.

وسألتها:

ـ كيف أحوالهم؟

ـ سيئة.

ـ لماذا؟

ـ لأن داغستان ليست عندهم. آه لو تدري ما أكثر سأمهم هناك وما أكثر شوقهم! أحياناً يهينهم الموظفون ويهددونهم بانتزاع أرضهم. ويجيبهم أحفاد الإمام: «خذوها، داغستان على أي حال غير موجودة، وأي أرض غيرها غير عزيزة علينا». وأردفت الجيورجية تقول: حين عرفوا أني عائدة إلى الوطن، طلبوا مني أن أزور داغستان، وأذهب إلى

قرية شامل في الجبال حيث حارب، وأن أبحث عنك وأجدك. لقد أعطوني هذا المنديل، لتضع فيه قليلاً من تراب داغستان وتبعث به إليهم.

وفضضت المنديل. كان عليه اسم «شامل» مطرزاً بأحرف عربية مزخرفة.

تأثرت بحديث الجيورجية، فوعدتها بأن أبعث بالتراب. ثم طلبت رأي شيوخ كثيرين في الأمر.

ـ هل يستحق الأمر أن نبعث لأناس يعيشون في الغربة حفنة من ترابنا؟

وكان جواب الشيوخ:

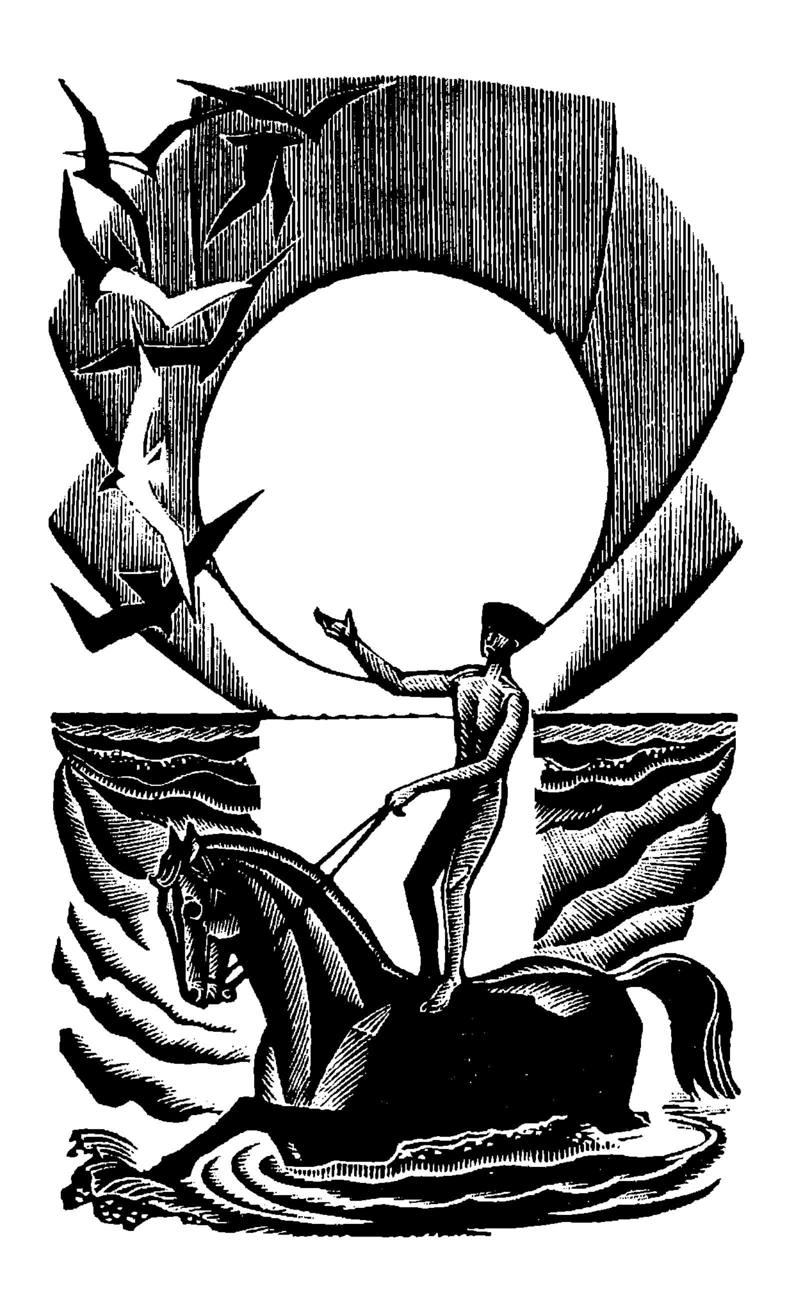
ـ الآخرون يجب أن لا ترسل إليهم التراب، أما أحفاد شامل فأرسل إليهم.

حمل إليّ أحد الشيوخ حفنة من تراب من قرية شامل، فلففناها في المنديل الذي كتب عليه اسمه. وقال الشيخ:

ـ ابعث إليهم بترابنا، لكن قل لهم إن كل ذرّة منه لا تقدر بثمن. واكتب لهم أيضاً أن الحياة فوق هذه الأرض قد تغيرت وأنه قد جاء زمن جديد. أكتب لهم عن كل شيء، وليعرفوا ذلك.

لكني لم أضطر للكتابة، فقد سافرت بعد مدة إلى تركيا، وحملت معي الهدية الثمينة.

بحثت عن أحفاد شامل، لكني لم أفلح في الالتقاء بهم. قيل لي إن ابن حفيد الإمام سافر إلى مكان ما، ربما كان مكة. وابنتا حفيده نجوات ونجية لم تحضرا إليّ. قيل لي إن إحداهما مصابة بصداع، والأخرى بنوبة قلبية فمن أعطيه ترابي؟ وكان هناك آفاريون أيضاً، لكنهم هجروا داغستان طوعاً.



ها أنا ذا في تركيا البعيدة أمسك حفنة تراب من بلدي داغستان، وفي حفنة التراب هذه أرى قرانا: غونيب، تشيركي، آختني، كوموخ، خونزاخ، تسادا، تسونتا، تشارادا... هذه هي أرضي، عنها كتبت وسأكتب. والآن لا يمكن تغطيتها بعباءة، كما حدث لذلك الجبلي السيئ الحظ في تلك القصة القديمة المضحكة.

وكنز داغستان الثاني هو البحر

تجري مثل هذه الأحاديث الهاتفية بين موسكو وغونيب.

ـ آلو، آلو، غونيب؟ عمر، هذا أنت؟ أتسمعني؟ كيف نهاركم، كيف حالتكم؟

ـ أسمعك. الأمور جيدة. نحن اليوم منذ الصباح نرى البحر!

ـ آلو، غونيب؟ هذه أنت يا فاطمة؟ كيف أحوالك، كيف مزاجك؟

ـ لا بأس. ضباب. لا نرى البحر.

وقال جمال الدين ابن شامل لأبيه:

ـ أنا لا أرى البحر، يا والدي.

كان رهينة عند القيصر، تربى في الكلية الحربية، وحين عاد إلى الوطن، كان ينظر إلى كفاح أبيه والجبليين ضد القيصر الأبيض كأمر لا طائل تحته.

وأجابه شامل:

ـ ستراه يا بنيّ، إنما انظر بعيني.

المسافة بين جبل غونيب والبحر مائة وخمسون كيلومتراً. فكم يجب أن يكون النهار صافياً، والبحر لازوردياً وساطعاً، والعينان ثاقبتين، والجبل عالياً كي يستطيع إنسان أن يقول ببساطة: «أرى البحر».

حتى في القرى التي لا يمكن أبداً رؤية البحر منها، يجيبون حين يُسألون عن المزاج بقولهم: المزاج رائع، كأن البحر أمام عيني.

من يجمّل الآخر: بحر قزوين داغستان أم داغستان بحر قزوين؟ ومن يعتزّ بالآخر؟ الجبليون بالبحر، أم البحر بالجبليين؟

حين أرى البحر، أرى العالم كله. وحين يهيج، يبدو لي أن الطقس في العالم مضطرب وعاصف. وحين يصمت، يبدو لي أن الهدوء يخيم في كل مكان.

أتيته طفلاً بعد أن قطعت إليه الدروب الجبلية الصعبة والشديدة الانحدار. ومنذ ذلك الحين ونوافذ بيتي مشرعة دائماً صوب البحر. لكن نوافذ داغستان نفسها تتطلع هي الأخرى إلى هناك.

حين لا أسمع هدير البحر، أغفو بصعوبة.

ـ وأنت، يا داغستان، لماذا لا تنامين؟

ـ البحر لا يهدر، فلا نوم لي.

نقول في اللون الزاهي إنه كالبحر، وفي الصوت القوي نقول إنه كالبحر، ونقول في حقول الشعير الواسعة إنها كالبحر.

ونقول في الحكمة العميقة والنفس الكبيرة إنها كالبحر.

لا بل نقول في السماء الصافية إنها كالبحر.

حين كانت بقرتنا تدر كثيراً من الحليب، كانت أمي تناديها: «يا بحري».

أذكر أمي على الشرفة وإبريق القشدة الرائعة بين يديها. إنها تخفق الزبدة لتطعم أبناءها الذين يلعبون قربها. كان عنق ذلك الإبريق الفخاري مزيناً بعقد من الأصداف البحرية.

ـ حتى نحصل على كمية أكبر من الزبدة ـ قالت ماما توضح الأمر ـ ثم إن الأصداف تحمي من العين.

وصدر داغستان الصخري يزينه هو الآخر عقد من الأصداف، عقد من الحجارة المتناثرة على الشطآن، عقد يأتي به الموج المضطرب.

ألفت داغستان هدير أمواج قزوين، ونومها قلق حين يرين الصمت. يبدو لي أنها لن تستطيع النوم أبداً، إذا حرمت البحر.

يا أمواج البحر الناصعة كالثلج،
قولي لي بأية لغة تكلمينني؟

أنت تهدرين هائجة عند أقدام الصخور
كأنما هناك سوق قائمة في قريتنا الجبلية،

حيث لا يستطيع حتى الله أن يفهم
جبليينا الذين يتصارخون بأربعين لساناً.

النهار يمضي ولا أثر لأية حلبة
فهسهسي كعشب في السهل.

ربما أخذت تزبدين وترغين
كأم تنتحب على ابنها القتيل

كوالد شيخ يتفجع على ابنه،
أو كجواد كبا يغرق في فيضان

إنك تتكلم بلغتك أيها البحر
مسقسقاً، ملاطفاً حيناً، وحيناً آخر هائجاً غاضباً

لكن قلبي ألف أعماقك
وكل تحولاتك أفهمها

ألا يغلي قلبي أحياناً
ويتكسر أمواجاً على الصخور البليدة

ثم يلعق عاجزاً الشاطئ المنحدر
في انبساطه الأهدأ والأخفض

ألا تحتفظ الأعماق بأية أسرار؟

الحزن عندنا أيها البحر والفرح واحد.

لكني سأتكلم عن وجعي أنا.
أتعطش لأن أروي غليلي من مائه. لا يجوز. مالح

القطار القادم من موسكو يصل ماخاتشكالا عند الفجر. والليلة التي تسبق وصوله أطول ليل بالنسبة لي. أنهض في منتصف الليل وأحدق في النافذة المعتمة. لا يزال السهب يمتد خلف النافذة. القطار يقعقع والريح تصفر خارج جدار العربة. أنهض مرة ثانية وأحدق في النافذة ـ السهب. وأنهض أخيراً للمرة الثالثة فأرى البحر. إذاً ها هي ذي داغستاني.

شكراً لك، أيها البحر الأزرق، أيها المدى المائي! إنك أول من ينبئني بوصولي إلى بيتي.

كان والدي يحب أن يقول: «من عنده بحر، يأتيه كثير من الضيوف».

وكان أبو طالب يردد إثره «من عنده بحر يعيش حياة جميلة وغنية. الجبال وحدها يمكن أن تكون أجمل من البحر، ونحن عندنا جبال أيضاً».

كان هذان العجوزان، والدي وأبو طالب، كثيراً ما يخرجان إلى البحر بمجرد أن يلتقيا، هكذا دون اتفاق سابق بينهما. كانا يصعدان تلة ترى منها كل المراكب القادمة إلى المرفأ. هناك كانت رائحة السمك والملح الآتية من البحر تزكم أنفي العجوزين. كانا يجلسان الساعات الطويلة في صمت، تاركين البحر وحده يتكلم.

ليتكلم البحر، أما أنت فالزم الصمت،
لا تبد فرحاً ولا حزناً.
دانتي العظيم كان يصمت في الليل،
حين كان البحر يزبد عند قدميه.
إذا كان الشط يعج بالناس أو كان خالياً،
فاترك البحر يغني، دون أن تردد رجع أمواجه،

نبوشكين ـ ذلك العظيم الذهبي الفم،
كان يصمت دائماً، حين كان البحر يغني

كان والدي يقول: تعلم، وأنت تنصت إلى البحر، أن تفهم ما يقول. لقد رأى الكثير، ويعرف الكثير.

ـ قل لي، أيها البحر، لماذا أنت مالح؟
ـ الدمع الإنساني في أمواجي غير قليل!
ـ قل لي، أيها البحر، بماذا أنت ملون؟
ـ المرجان في أعماقي دفين!
ـ قل لي، أيها البحر، لماذا هذا الاضطراب؟
ـ في لجتي هلك الكثير من الشجعان:
بعضهم كان يحلم بأن لا أكون مالحاً،
وبعضهم غطس يبحث عن المرجان!

على رابية يجلس جبليان أشيبان شاعران، كأنهما نسران قديمان. يجلسان دون حراك صامتين يصغيان إلى البحر. والبحر يهدر، ويدفع الإنسان للتفكير في الحياة التي تشبهه، والتي يجب على الإنسان أن يمخر عبابها من الشاطئ حتى الشاطئ المقابل، مهما يكن الطقس الذي قد تتعرض له في مداها الواسع والخطر. إلا أن الحياة ليس فيها كما في البحر موانئ هادئة ومراسٍ. عليك أن تمخرها شئت أم أبيت. هناك مرفأ واحد أخير فقط، ومرسى واحد أخير فقط.

قزوين يهدر، وبحر خفالين يهدر. الأنهار تصب فيه: الفولغا والأورال من جانب، وكوار وتيريك وسولاك من الجانب الآخر. لقد اختلطت كلها، فصار من المستحيل الآن تمييز أحدها عن الآخر. البحر بالنسبة لها أيضاً نوع من المرسى الأخير، مع أن مياهها لا تغيب، لا تموت، لا تهدأ، بل ستظل تجري وترتفع أمواجاً زرقا. وستشق هذه الأمواج سفن كبيرة تمضي إلى أرجاء المعمورة.

أيها الجبليون، يا أبناء داغستان، ألا يشبه مصيركم مصير هذه الأنهر؟ لقد اتحدتم كلكم، وانصهرتم في بحر واحد هو بحر إخوتنا العظيمة.

قزوين يهدر. ورجلان أشيبان، شاعران يقفان في صمت، وإلى جانبهما يافع هو أنا. وقال أبو طالب لوالدي، حين اتجهنا إلى البيت:

ـ ابنك يصبح بالغاً. لقد عرف اليوم شعوراً كبيراً جديداً.

وكان جواب أبي:

ـ لا يجوز لأحد أن يكون صغيراً في المكان الذي كنا نقف فيه.

يقال: إن قزوين يضحل عاماً بعد عام. وإن مباني المدينة تنتصب، حيث كان الماء من قبل. الأرجح أن الأمر هكذا، لكني لا أؤمن أن البحر يكف عن كونه بحراً. قد يضحل، لكنه لا يصغر.

وأنا أقول للناس دائماً: لا تكونوا صغاراً، حتى وإن كان عددكم قليلاً.

العالم يهز رأسه.
الشاعر حزين، والكاتب يأسف،
لأن قزوين، عن خطه المرسوم
يتراجع مع الأيام ويضحل.

يبدو لي أحياناً أن هذا هراء،
وأن قزوين القديم لا يمكن أن يتضاءل،
فتضاؤل بعض النفوس
أكثر إزعاجاً لي وأشد صعوبة.

ولماختش أيضاً أقوال في البحر. كان ماختش رئيس أول لجنة ثورية ـ والآن أطلق اسمه على عاصمة جمهوريتنا. كانت المدينة تسمى في السابق بوربيتروفسك. وقد حولها ماختش أثناء الحرب الأهلية إلى قلعة منيعة.

إليكم ما قاله ماختش في البحر:

«مهما يكن عدد الأعداء كبيراً، فسنرميهم جميعاً إلى البحر. البحر عميق، في قاعه مكان لهم جميعاً».

حين يجتمع الجبليون قرب الجامع أو تحت الشجرة القديمة ليتحدثوا في شؤون الحياة وشجونها، يسمى هذا عندنا ندوة (غوديكان).

سئل الجبليون مرة في إحدى هذه الندوات:

ـ ما أعذب الأصوات؟ فكر الجبليون قليلاً، ثم أخذوا يجيبون:

ـ رنين الفضة.

ـ صهيل الحصان.

ـ صوت الفتاة المحبوبة.

ـ وقع حوافر الخيل على صخور المضائق.

ـ ضحكة الطفل.

ـ غناء الأم عند المهد.

ـ خرير الماء.

إلا أن أحد الجبليين قال:

ـ صوت البحر، ففيه كل الأصوات التي ذكرتم.

وسئل الجبليون مرة أخرى في إحدى هذه الندوات: ما أحلى الألوان في النفس؟ فكر الجبليون قليلاً، ثم أخذوا يجيبون:

ـ السماء الصافية.

ـ قمة الجبل المكللة بالثلج.

ـ عينا الأم.

ـ شعر الابن.

ـ الدراق المزهر.

ـ صفصاف الخريف.

ـ ماء العين.

إلا أن أحد الجبليين قال:

ـ لون البحر، ففيه كل الألوان التي ذكرتم.

وحين كانوا يسألون في الندوات عن العطور والمشروبات أو أي شيء آخر، كان الأمر ينتهي دائماً إلى البحر.

البحر ألهم الشعب الحكايا الرائعة عن الشاب وملكة البحر، وعن العصفور الأزرق الذي يفجر نبعاً في كل مكان ينقره بمنقاره.

بالطبع، كل واحد في الندوات يمدح حصانه. ألا أفعل الشيء ذاته حين أمتدح بحري، بحر قزوين؟ يقال لي أحياناً: ما لك ولقزوين، إنه يكاد لا يكون بحراً، بل بحيرة كبيرة. البحر الحقيقي هو البحر الأسود.

صحيح أن قزوين ليس مخملياً ولطيفاً كالبحر الأسود أو الأدرياتيكي أو الأيوني مثلاً. فالناس يذهبون إلى هناك للراحة والسباحة في الدرجة الأولى، أما إلى قزوين فيذهبون للعمل. البحر صياد سمك، البحر عامل نفط، البحر كادح. لذلك كان طبعه أقسى. ما العمل؟ لكل طباعه، لكل ثور عاداته، لكل رجل خلقه، ولكل بحر وجهه وعاداته.. وجبال داغستان، ألا تختلف هي الأخرى في طابعها عن جبال جيورجيا وأبخازيا وغيرها من الجبال؟

لكن يبدو لي، إذا أردتم الحقيقة، إن البحار كلها متشابهة. فحين أقطع البحر الأسود أذكر قزوين، وحين أقطع قزوين، يمكن أن أذكر حتى المحيط. فبحرنا ليس أسوأ من غيره في شيء. فيه أيضاً يرمون قطع النقود للذكرى، ليعودوا من جديد كما تقول التقاليد.

كان والدي يقول: إذا ظهر البحر قبيحاً للإنسان، فمعنى ذلك، أن الإنسان نفسه قبيح.

قال أحدهم لأبي طالب:

ـ البحر يهدر اليوم في شكل كريه.

ـ أنصت إليه بأذني.

هكذا إذاً، انظروا إلى قزوين بعيني داغستان يبدو لكم رائعاً.

الأسطول البحري الحربي يعرف كله مأثرة بحار الغواصة المجيد النقيب محمد حادجييف من قرية ميغيب الداغستانية. لقد قاتل في بحر

البلطيق وبحر الشمال وبحر بارنتس. وأكثر من سفينة فاشستية، كان قبرها في المياه الباردة بفعل طرابيده. كان زورقة أول زورق في تاريخ الحرب الوطنية يلتحم التحاماً مباشراً مع أسطول الفاشست. وكانت قاعدته في ذلك أن لا يحلق شاربيه حتى يغرق سفينة معادية.

مرة واحدة رأيت محمد حادجييف. كنت أدرس آنذاك في دار المعلمين في بويناك المسماة باسم أباشيلوف. كان محمد حادجييف في إجازة فدعوناه إلى معهدنا. سألناه:

ـ كيف حدث أن من نشأ بين الصخور أصبح بحاراً؟

ـ رأيت في صباي بحر قزوين من قمة جبل، ولم أصدق عيني. دعاني إليه فأتيت. لم أستطع مقاومة ندائه.

لقد استشهد بطل الاتحاد السوفياتي، الجبلي محمد حادجييف في بحر بارنتس. والتمثال الذي أقيم له أمام المصنع الذي يحمل اسمه في ماخاتشكالا يتطلع إلى رحاب قزوين. وفي مدينة سيفيرا مورسك مدرسة تحمل اسمه.

الشجعان يمضون إلى البحر لكنهم لا يعودون جميعاً ولهذا السبب يلقي الجبليون في البحر أولى أزهار الربيع: لكل من قضى فيه. وأزهاري أنا أيضاً طفت أكثر من مرة بين أمواجه.

في بحر بارنتس، وفي المربع الذي استشهد فيه حادجييف ورفاقه تقف السفن لتحيي ذكراه.

وفي بحر قزوين مثل هذا النظام. توقف، وثلاث دقائق من الصمت لذكرى الذين استشهدوا.

مدينتنا ماخاتشكالا كسفينة في ميناء. إلى البحر ينظر بوشكين من الحديقة الممتدة على الشاطئ وغير بعيد منه ينتصب سليمان ستالسكي، ومن الساحة يتطلع والدي.

يقال: فيما مضى كانت مكان البحر الآن، صحراء قاحلة كئيبة، رأت الجبال فيما بعد ففاضت خضرة عند أقدامها من الفرح.

ويقال: فيما مضى كانت الجبال تنانين متصارعة، رأت بعد ذلك البحر فجمدت دهشة وتحجرت.

كانت أمي تغني فوق سريري:

نم يا بني،
كبيراً كالجبل،
نم يا بني
واسعاً كالبحر

والصبية كانت تغني لفارسها الشاب:

في الجبل العالي
ولدت، كما يبدو،
أزحت قبعتك بجرأة
دون أن تنظر إلينا.
لقد أصبحت متكبراً.

والفارس الشاب غنى للجبلية الحسناء:

ألم تأتي إلينا
من أعماق البحر؟
مثل هذا الجمال
لم أرَ من قبل.

سمعت هذا الحديث في أحد الاجتماعات:

ـ ما هذا؟ ليس لنا من حديث إلا حديث البحر والجبال، الجبال والبحر؟ عندنا جبال وبحار أخرى يجب الكلام عنها. عندنا بحر من حدائق الليزغينيين، وبحر من القطعان وجبال من الصوف.

صحيح ما يقال: «لا تغن بنفسك الأغنيات الثلاث كلها، اترك لنا واحدة. ولا تؤد بنفسك الصلوات الثلاث، اترك لنا واحدة».

تكلمت عن الجزأين الرئيسيين اللذين تتكون منهما داغستان. أما الجزء الثالث فهو كل ما عداهما. ولكن: هل ما نستطيع أن نقوله في الطرق والأنهار، في الأشجار والأعشاب قليل؟ إن حياة كاملة لا تكفينا لنتحدث عن هذا كله.

وهكذا أمر الأغنيات. في العالم ثلاث أغنيات فقط: الأولى أغنية الأم، والثانية أغنية الأم، والثالثة كل ما عداها من الأغاني.

يدعوك الجبليون إليهم بقولهم: «تعال إلينا. جبالنا وبحرنا وقلوبنا لك. الأرض عندنا أرض، والبيت بيت، والفرس فرس والإنسان إنسان، ولا شيء آخر بينهما».

الإنسان

الإنسان والحرية يسميان في اللغة الآفارية باسم واحد «أوزدن» هو الإنسان، و«أوزدنـدلي» هي الحرية، فحين تقول «الإنسان» تقول «الحرية».

كتابة على شاهدة قبر:

لم يكن حكيماً،
لا ولم يكن شجاعاً،
لكن انحن له:
فقد كان إنساناً

كتابة على خنجر:

أيا كان الذي تقابله في الطريق،
عدواً كان أو صديقاً،
فهو مثلك تماماً، إنسان
فلا تنس هذا وأنت تحمل خنجرك!

عاد جبلي إلى وطنه بعد غياب طويل، فسئل:
ـ كيف الأحوال هناك؟ أي أرض هي تلك الأرض؟ أي أنظمة هناك؟
أجاب الجبلي:

ـ هناك يعيش أناس.

حين تخاصم الحاج مراد وشامل، أخذ بعض الناس يذمون شاملاً طمعاً في رضى نائبه. لكن هذا أوقفهم بحركة عنيفة وقال لهم:

ـ لا تتجرأوا على قول مثل هذا الكلام. إنه إنسان، وخصامنا نعرف كيف نفضه بأنفسنا.

ومع أن الحاج مراداً انفصل عنه، إلا أن شاملاً قال أثناء آخر معركة في جبل غونيب، وقد تذكر جرأة نائبه وشجاعته:

ـ لا مثيل له الآن لقد كان إنساناً.

عاش الجبليون كثيراً من القرون في الجبال، وكانوا يشعرون دائماً بحاجتهم إلى إنسان. يلزمهم إنسان. الحياة غير ممكنة دون إنسان.

قَسَمُ الجبلي هو: إنساناً ولدت وإنساناً أموت!

قاعدة الجبليين هي: بع الحقل والبيت، وافقد كل ما تملك. لكن لا تبع الإنسان فيك ولا تفقده.

لعنة الجبليين هي: لا كان في عشيرتك إنسان ولا حصان.

حين يتطرق الحديث إلى إنسان حقير، تافه منحط، يحسمه الجبليون بقولهم:

ـ لا تهدروا الكلمات سدى. إنه ليس إنساناً.

وحين يتطرق الحديث إلى هفوة، إلى ذنب، إلى نقيصة، يحسمه الجبليون بقولهم:

ـ إنه إنسان، وهذا الذنب يمكن أن يغفر له.

يقولون في القرية التي تعمّها الفوضى، القرية الضيقة، القذرة، الميالة للخصام، الطائشة:

ـ ليس هناك إنسان.

ويقولون في القرية التي يسود فيها النظام والسلام:

ـ هناك إنسان.

الإنسان هو الضرورة الأولى، الكنز الأول، والمعجزة العظيمة. من

أين ظهر الإنسان في داغستان؟ كيف نشأ؟ أين بداية قبيلة الجبليين الأصيلة هذه وأين جذورها؟ حول هذا كثير من القصص والحكايا والأساطير. وقد سمعت واحدة منها في طفولتي:

ظهرت على الأرض مختلف الوحوش والطيور، وكانت لها آثارها على الأرض، لكنه لم يكن هناك أثر للإنسان. وكانت تسمع مختلف الأصوات، لكنه لم يكن يسمع صوت الإنسان. كانت الأرض بدون الإنسان تشبه فماً دون لسان، وصدراً دون قلب.

وفي السماء فوق هذه الأرض كان تحلق النسور وهي طيور قوية وجريئة. في ذلك اليوم الذي نتحدث عنه كان يتساقط ثلج، كما لو أنك نتفت كل الطيور الموجودة في الدنيا وذروت ريشها في الهواء. كانت السماء مغطاة بالغيوم، والأرض مغطاة بالثلج، كان الحابل يختلط بالنابل، ولم يكن بالإمكان أن يعرف أين الأرض وأين السماء، في هذا الوقت كان يعود إلى وكره نسر جناحاه أشبه بسيفين ومنقاره أشبه بخنجر.

أهو الذي نسي القمة أو أن القمة هي التي نسيته، لست أدري. المهم أنه اصطدم في تحليقه بصخرة صلدة. يقول الآفاريون إن هذا حدث على جبل غونيب، واللاكيون يقولون: هذا كان على جبل تورتشيداغ، والليزغينيون يؤكدون أن هذا جرى على جبل شاخ داغ. ولكن أياً كان المكان الذي حدث فيه ما حدث، الصخرة تظل صخرة، والنسر نسراً. وليس عبثاً ما يقال: «ارم عصفوراً بحجر يمت العصفور، إرم حجراً بعصفور يمت العصفور».

لم يكن أول نسر، على الأرجح، يقع على صخرة ويتحطم. لكن هذا الذي كان جناحاه أشبه بسيفين وكان منقاره أشبه بخنجر لم يتحطم حتى الموت. لقد تكسر جناحاه، لكن قلبه بقي ينبض، وظل منقاره الحاد ومخالبه الحديدية سالمة.

كان عليه أن يكافح في سبيل البقاء. كان من الصعب عليه أن يحصل

على قوته دون جناحين، وكان من الصعب عليه أن يتخلص من أعدائه دون جناحيه. لكنه كان مع كل يوم جديد ينتقل من حجر إلى حجر، ومن صخرة إلى أخرى، شاقاً طريقه إلى فوق، إلى الصخرة التي كان يحب أن يجلس عليها فيما مضى ويتطلع إلى الجبال المجاورة.

كان من الصعب عليه أن يحصل على قوته، وأن يدافع عن نفسه وأن يصعد القمة ويبني وكره. وأثناء هذه الأعمال الصعبة كلها تغيرت عضلات النسر، كما أخذ مظهره الخارجي يتغيّر. وحين انتهى بناء الوكر تبين أنه بيت، وأن النسر الذي فقد جناحيه جبلي.

نهض على قدميه، ونبتت له مكان الجناحين المهيضين يدان، وتحول نصف المنقار إلى أنف عادي، كبير بالفعل، ونصفه الآخر إلى خنجر معلق على خصره. القلب وحده لم يتغير. لقد ظل كما في السابق، ظل قلب نسر.

وأردفت أمي وهي تنهي قصتها:

ـ أترى، يا بني، كم كان الأمر صعباً على النسر حتى تحوّل إلى جبلي. عليك أن تقدر هذا.

لست أدري إن كان هذا كله قد حدث كما قيل، لكن هناك شيئاً واحداً لا ريب فيه، وهو أن النسر أغلى ذوات الريش بالنسبة للجبليين. فالإنسان الطيب، الشجاع يسمونه نسراً، وإذا رزق أحدهم بابن يعلن أبوه قائلاً:

ولد لي نسر. وحين تعود فتاة من مكان ما إلى بيتها بسرعة وبخفة، تقول أمها: عادت كالنسر.

وأثناء الحرب الوطنية كان عنوان كتاب يتحدث عن أبطال داغستان «نسور الجبال» على أبواب البيوت القديمة، وعلى المهود، وعلى الخناجر كثيراً ما ترى مسكوكات وطلعة نسر صارمة.

الحقيقة أن هناك أساطير أخرى. حين يفكرون في تقلبات الزمان في هذه الدنيا، وحين يذكر الآباء أبناءهم الذين استشهدوا بعيداً عن أرض

الوطن، أو يذكر الأبناء آباءهم الذين استشهدوا، يعتبرون أن النسور انحدرت من الجبليين، وليس الجبليون هم الذين انحدروا من النسور:

ـ أيتها النسور المحومة فوق المنحدرات والأنهار،
من أين أنت، وأي دم في عروقك؟
ـ استشهد الكثير من أبنائك
إنّا نحن قلوبهم، وقد نبتت لها أجنحة!

ـ أيتها النجوم في السماء المظلمة،
المتلألئة بين الأبراج، من تكونين؟
ـ استشهد الكثير من الجبليين الفتيان،
ونحن عيون الذين يبكون الشهداء.

هذا هو السبب في أن الداغستانيين يتطلعون إلى السماء دائماً بحب وأمل. وهكذا يتطلعون أيضاً إلى العصافير العابرة أو المهاجرة. الجبليون يحبون السماء الزرقاء.

أذكر عام 1942. جيوش الفيلد مارشال تحتل بعض مرتفعات القفقاس. الطيران يقصف آبار النفط في غروزني. ودخان الحرائق يرى من قمم داغستاننا.

اجتمع في تلك الأيام في غروزني ممثلو شبيبة شعوب القفقاس كلها. وكنت في عداد الوفد الداغستاني. تكلم في الاجتماع الطيار الليزغيني المعروف، بطل الاتحاد السوفياتي فالنتين إيمروف. لن أنسى خطابه ولا الحديث الذي جرى بيننا بعد الاجتماع. قال عند ذهابه وهو يشير بعينيه إلى السماء:

ـ أنا مسرع. فقد أكون هنالك أنفع مني ها هنا.

وبعد أسبوعين وصل خبر مصرعه. لقد استشهد، احترق ابن داغستان المجيد. لكنني كلما رأيت نسراً يمرُّ صائحاً فوق رأسي، أوقن أن فيه قلب فالنتين المتوثب.

عام 1945. موسكو. كنا كل يوم نذهب نحن الطلاب إلى الممثلية الداغستانية نتسقط الأخبار الآتية من الجبال، من ماخاتشكالا. كانت جمهوريتنا تتهيأ آنذاك للاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لقيامها. فالتقيت هناك ذات مرة بنبي أمينتايف. يصعب أن يكون في داغستان آنذاك إنسان لا يعرف هذا اللاكي. فارساً من فرسان الجو كان. لقد هبط هذا الشاب المتواضع مرات كثيرة بالمظلة في أرض العدو، وكان يعود سالماً كل مرة.

قلت له:

ـ انتهت الحرب الآن، عد إلى داغستان.

ـ بقيت السماء.

بعد عدة أيام نشرت صحيفة البرافدا صورته وتحتها هذه الكلمات: «نبي أمينتايف ـ بطل العالم في القفز بالمظلة. لقد كرس أمينتايف رقمه القياسي الأخير لداغستان».

وألتقي بعد عدة أيام بنبي.

ـ فلنذهب إلى داغستان.

السماء تنتظر. لا أستطيع شيئاً دون سماء.

لكن الحياة قصيرة. ذات مرة خانته مظلة فهوى صريعاً، تماماً كالنسر ذي الجناحين المحطمين. مرت على هذه الحادثة أعوام عديدة، لكنني في كل مرة أسمع فيها صياح النسر في السماء، يخيل إلي أن فيه قلب نبي المتوثب.

وأذكر أيضاً رشيدة الجميلة. لقد قفزت من سماء داغستان إلى جبل غونيب. كم طنبور تأوه تحت شباكها يومئذ! ما من شاعر شاب لم يكرس لها أبياتاً من الشعر. أيها البيت القرميدي الصغير في مدينة بويناكسك، كم عيناً تطلعت إلى شبابيك! ما أكثر ما أسرجوا الخيل في

خونزاخ وفي غونيب وفي كوموخ ليخطفوا الحسناء ذات الجدائل الطويلة. وفي أحد الأيام حضر لينينغرادي فوضع حسناءنا في الطائرة وحملها معه. في الجو لوحت رشيدة بيدها لمحبيها الذين بقوا على الأرض. تطلع شعراؤنا في أثرها وهم فاغرو الأفواه. ثم أخذوا يكتبون شعراً في الحمامة التي اختطفها النسر.

أدركت الحرب رشيدة في لينينغراد. وقد كتبت تقول: «في هذه المدينة لا يوجد الآن ليال بيض، بل إن النهارات ذاتها أصبحت سوداً. لينينغراد في النار. وأنا أيضاً في النار. من خلال الدخان والنار أنظر إلى السماء. لكن الحرب في السماء أيضاً. هبط زوجي سيّد مرات كثيرة خلف مؤخرة العدو. وقد تلقيت حتى الآن ثلاثة إشعارات بموته. كان طبيباً في قوات الإنزال. وإليّ يأتي الذين أنقذهم من الموت».

لقد عادت رشيدة إلى داغستان وحين تسمع صياح النسر في سماء وطنها، يخيل إليها أن فيه قلب سيّد المتوثب.

أخي أخيلتشي. . لقد درست في معهد زراعي عادي جداً. لكنك في الحرب اخترت السماء، فأصبحت طياراً. لقد لقيت مصرعك فوق البحر الأسود، وكان عمرك اثنين وعشرين سنة. لن تعود أبداً إلى بيتك، أنا أعرف هذا. لكني أوقن كل مرة يصيح فيها النسر فوق رأسي أن قلب أخيلتشي يبعث إلي تحية أخوية.

النسور تحلق في سماء داغستان. وإنها لكثيرة. لكن الشجعان أيضاً الذين استشهدوا في سبيل الوطن ليسوا قليلين. ففي كل صيحة نسر خبر عن مأثرة، وعن عمل شجاع. وكل صيحة أغنية معركة.

أعرف أن هذه قصة جميلة، نسج خيال، وأن الناس يريدون أن يكون الأمر هكذا. لكني أعرف أيضاً أن أنديّا قال صيحة الإنسان استكبر أكثر من اللازم:

ـ حتى النسر ينزل إلى الأرض كي يصبح إنساناً. فانزل أنت من عليائك. الناس كلهم ولدوا هنا. على الأرض. والجبلي يسمى جبلياً،

لأنه بالضبط إنسان الجبال، إنسان الأرض. فليطر الناس وليحلقوا في الأغاني والأساطير. يحبون عندنا هذه الكلمة «طار» إذا انطلق الفارس يقال «طار» والأغنية تطير. إن معظم أغانينا عن النسور.

انتقدت مراراً لأني أذكر كثيراً النسور في أشعاري. ولكن ما العمل، إذا كانت هذه الطيور تعجبني أكثر من غيرها. إنها تطير بعيداً وعالياً، في حين أن الطيور الأخرى تسعى دائماً وتزقزق قرب حبات الذرة. ثم أن صوتها عال وواضح. الطيور الأخرى ما إن يهب البرد حتى تخون داغستان وتغادرها إلى مناطق أخرى. أما النسور فلا تغادر قممها أياً كان الطقس، ومهما كانت الطلقات التي ترعبها. إنها لا تبحث عن أماكن استجمام. الطيور الأخرى تلتصق دائماً بالأرض، وترفرف من سطح إلى سطح. الفجّ الصغير عندنا يسمى فجّ العصافير، والصخرة الكبيرة تسمة صخرة النسور.

نسور الجبال

. . . بلدي، يفيض قوة وعظمة
تملأه الطيور ذات الأغاني المرحة،
وتحوم كالآلهة فوقه
النسور التي طالما تغنيت بها.

إنا نراها في السماء دائماً
تحرس أوكارها في الأيام العاصفة
لقد اختارت الصخور المنيعة
مساكن مرعبة لها.

قد يحلق أحدها ذات مرة
فيشقّ الضباب بجناحيه في كبرياء
وقد تنطلق كأنها في غارة
لتمخر عباب المحيط الأزرق.

إنها تحلّق عالياً فوق الأرض
كأنها حراس ساهرون،
تفرّ أسراب الغربان أمامها
فزعة إذا سمعت صرخاتها.

أنا مستعد للجلوس
ساعات وساعات كما جلست في طفولتي
أنظر، إلى القمم البيض الأزلية
بعينين مولهتين وأرقب كيف تحوم النسور الجبارة

قد تقف فوق الجبال كأنها في دورية
وقد تتحرك في السهوب..
وطني يسمي أشجع الشجعان
نسور الجبال

أعز الطيور بالنسبة لليابانيين هي الغرانيق. ويعتقد اليابانيون أن المريض يشفى إذا صنع ألف غرنوق من الورق. ويربط اليابانيون الفرح والحزن، الفراق واللقاء، الأحلام والذكريات الغالية بالغرانيق الطائرة، خصوصاً إذا كانت طائرة فوق فوجنياما.

الغرانيق تعجبني أنا أيضاً. ولكن حين سألني اليابانيون عن أحب طير إليّ، ذكرت النسر، فلم يعجبهم هذا.

حدث بعد هذا بوقت قصير أن أصبح مصارعنا علي علييف بطل العالم في مباريات طوكيو. وقال لي صديق ياباني عندئذ:

ـ نسوركم أيضاً لا بأس بها، إنها ليست بالطيور السيئة.

رويت لجبليينا قصة المعركة التي دارت بين النسور واللقالق في سماء تركيا. حين قلت لهم إن النسور خسرت المعركة ذهلوا، لا بل استاؤوا. فلم يكونوا يريدون أن يصدقوا كلماتي لكن ما كان كان.

وأخيراً قال لي أحد الجبليين:

ـ ليس كلامك صحيحاً، يا رسول. النسور، على الأرجح، لم تخسر المعركة، لكنها فنيت كلها، وهذا شيء آخر.

كان لي صديق معروف هو أحمد خان سلطان الفائز بلقب بطل الاتحاد السوفياتي للمرة الثانية. كان أبوه داغستانياً وأمه تترية، وكان يعيش في موسكو. الداغستانيون كانوا يحسبونه بطلهم والتتار بطلهم.

سألته ذات مرة:

ـ بطل من تكون؟

وأجابني أحمد خان:

ـ لست بطلاً تترياً ولا بطلاً لاكياً. أنا بطل الاتحاد السوفياتي. وابن من أكون؟ أنا ابن أبي وأمي. ترى هل من الممكن فصل أحدهما عن الآخر؟ أنا إنسان.

سأل شامل ذات مرة أمين سره محمد طاهر الكرخي:

ـ كم إنسان يعيش في داغستان؟

أمسك محمد طاهر سجلاً بعدد السكان وأجابه.

لكن شاملاً غضب وقال له:

ـ أنا أسألك عن الناس الحقيقيين.

ـ ولكن ليس لديّ مثل هذه المعطيات.

فأمره الإمام قائلاً:

ـ لا تنسَ أن تحصيهم في أقرب معركة.

يقول الجبليون: «حتى تعرف قيمة الإنسان الحقيقية، يجب أن تسأل سبعاً:

1 ـ المصيبة.

2 ـ الفرح.

3 ـ المرأة.

4 ـ السيف.

5 ـ الفضة.

6 ـ القنينة.

7 ـ هو ذاته».

أجل، الإنسان والحرية، الإنسان والشرف، الإنسان والشجاعة تذوب كلها في مفهوم واحد. الجبليون لا يتصورون أن النسر يمكن أن يكون ذا وجهين. إنهم يدعون الغربان ذات الوجهين. والإنسان ليس مجرد تسمية، بل هو لقب ولقب رفيع. والحصول عليه ليس بالأمر اليسير.

منذ مدة سمعت في بوتليخ امرأة تغني أغنية عن رجل حقير:

فيك شيء من الحصان
وفيك شيء من النعجة،
وشيء من الحدأة فيك،
فيك شيء من الثعلب،
ومن السمك فيك شيء،
لكن، لكن أين الرجولة؟
وأين، أين الشرف؟

وسمعت منها أغنية أخرى عن رجل تبيّن أنه كذّاب:

حسبت أنك إنسان
فبحت لك بسري.
الجوزة كانت فارغة،
وها أنا ذا أقف في الطريق وحيدة.
إني أنا المخطئة، واأسفاه،
لأني لم أعرفك إلا في وقت متأخر:
أنت ثوب بلا جسد،
وقلبق دون رأس.

شكت صبية كانت تبحث عن عريس فقالت:

ـ لو كنت أبحث عن معتمر بالقلبق لوجدته منذ زمن طويل، ولو كنت

أبحث عن ذي شاربين، لوجدته منذ زمن طويل، ولكنني أبحث عن إنسان.

حين يشترون نعجة في الجبال، ينظرون إلى إليتها وصوفها واكتنازها. وحين يشترون جواداً ينظرون إلى بوزه، قوائمه وكل قوامه الخارجي. ولكن كيف نقوم الإنسان؟ إلى أي شيء يجب أن ننظر؟ إلى اسمه وأفعاله.. وعلى كل، لكلمة «اسم» في اللغة الآفارية معنيان، أولهما الاسم بما هو كذلك، وثانيهما عمل الإنسان، فضائله مآثره. يقولون عند ولادة الطفل: «تسيار بوغيب، تسيار باتاغي» أي ما معناه: «ليحمل إليه المجد اسماً». والاسم بدون عمل صوت أجوف.

كانت أمي تلقنني ما يلي: «لا مكافأة أكبر من الاسم، ولا كنز أغلى من الحياة. فحافظ على هذا».

كتابة على قرن:

لم يكن الطريق من الطريق إلى الإنسان
طريقاً بسيرة قصيرة
لكن السكير سار في طريق معاكسة
وسرعان ما انقلب في ساعة إلى حيوان.

حين تحصّن شامل في جبل غونيب، أصبح من المستحيل القبض عليه. ولكن خائناً دلّ العدو على درب جبلي سري يقود إليه، فكافأ الفيلد مارشال الأمير بارياتينسكي هذا الجبليّ الخائن بإغداق الذهب عليه.

وفيما بعد، حين أصبح شامل في كالوغا، عاد هذا الخائن إلى بيت أبيه. لكن أباه قال له:

أنت خائن، ولست جبلياً. أنت لست ابني.

قال هذه الكلمات وقتله، ثم قطع رأسه ورماه مع الذهب من أعلى الصخرة إلى النهر. أما الوالد نفسه فلم يعد يقوى على العيش في قريته

بعد هذا، وأن يظهر أمام الناس. فقد كان شديد الخجل مما اقترفه ابنه، فاختفى في مكان مجهول، ولم يسمع عنه شيء بعد هذا.

حتى الآن، حين يمر الجبليون قرب المكان الذي سقط فيه رأس الخائن، يرمونه بالحجارة. يقال: حتى الطيور تزعق، وهي تمر فوق هذه الصخرة «خائن، خائن!».

إليكم ما حدث مرة لأبي طالب. حمل أبو طالب ذات يوم ساعته إلى ساعاتي ليصلحها.

كان الساعاتي مشغولاً آنذاك بإصلاح ساعة شاب كان جالساً هناك.

قال الساعاتي لأبي طالب:

ـ إجلس.

ـ أرى عندك أناساً. سأمر عليك مرة أخرى.

ـ وأين رأيت الناس؟ قال الساعاتي متعجباً.

ـ وهذا الشاب؟

ـ لو كان إنساناً، لنهض فور دخولك وقدم لك مقعده.. داغستان لا يهمها أمر هذا العاطل، وهل تقدم ساعته أو تؤخر، لكن ساعتك يجب أن تعمل في انتظام.

كان أبو طالب يردد فيما بعد أنه لم يسرّ يوم منح لقب شاعر داغستان الشعبي قدر سروره آنذاك بكلمة الساعاتي.

ذات مرة وصل ماخاتش داخادايف قرية ليجند فيها مقاتلين، فرأى في الندوة جبليين يلعبان الورق.

السلام عليكم. أين رجالكم، هيا اجمعوهم.

ـ لا يوجد في القرية رجال سوانا.

ـ آه! ما هذه القرية التي ليس فيها رجال. أين هم؟

ـ يحاربون.

ـ ها! يظهر أن جميع من في القرية رجال ما عداكما أنتما الاثنان.

تعيش في داغستان ثلاثون قومية، لكن بعض الحكماء يؤكدون أن داغستان لا يعيش فيها إلا إنسانان.

ـ وكيف ذلك؟

ـ هكذا. إنسان جيد وإنسان سيء.

ويصحح بعضهم هذه الكلمة فيقول:

ـ إذا كان ذلك كذلك، فلا يعيش في داغستان إلا إنسان واحد، لأن الإنسان الرديء ليس بإنسان.

حرفيو كوشين يصنعون القلابق لكن بعضهم يضعها على رأسه، وبعضهم يعلقها على المشجب.

وحدادو أمفوزين يصنعون الخناجر. لكن بعضهم يعلقها على خصره، وبعضهم يعلقها بالمسمار على الجدار.

ومعلمو أندي يصنعون الفروات. لكن بعضهم يلبسها في الطقس السيء، وبعضهم يدسّها في الصندوق.

وهكذا الناس. بعضهم دائماً مشغولون، في العمل، في الشمس، في الريح، وبعضهم أشبه بالفروة في الصندوق وبالقلبق في المشجب، وبالخنجر على المسمار.

كان هناك ثلاثة شيوخ حكماء يراقبون داغستان. لقد عاشوا قروناً طويلة، ورأوا كل شيء وعرفوا كل شيء. يقول أولهم، وهو يحدق في التاريخ القديم وينظر إلى المقابر القديمة، ويتأمل الطيور المحلقة في الجو: «كان هناك أناس في داغستان». ويقول الثاني، وهو يرى عالم اليوم، ويشير إلى الأنوار المشعة في داغستان، ويردّد أسماء الشجعان: «يوجد أناس في داغستان». ويقول الشيخ الثالث، وهو يتطلع بفكره إلى المستقبل ويقوم الأساس الذي أرسيناه اليوم للغد: «سيكون هناك أناس في داغستان».

الثلاثة كلهم على حق في رأيي.

استضافت داغستان منذ بعض الوقت رائد الفضاء المجيد أندريان نيقولايف. ولقد زارني في بيتي. تساءلت بنيتي الصغيرة:

ـ أليس لداغستان رجل فضائها؟

وأجبتها:

ـ كلا.

وهل سيكون.

ـ سيكون.

سيكون، لأن أطفالاً يولدون، ولأننا نعطيهم أسماء، ولأنهم ينمون ويخطون جنباً إلى جنب مع بلدهم. ومع كل خطوة يقتربون من هدفهم المنشود. وليتردد في الأماكن الأخرى عن داغستان ما نقوله نحن في القرية التي يعمّ فيها النظام والسلام: هنا يعيش إنسان.

الشعب

«قل لي، هل أمريكا بلد كبير كبلدنا؟ وهل عدد سكانها أكثر من عدد السكان عندنا؟ هكذا سألتني أمي عام 1955 بعد عودتي من أمريكا.

إنسان يستطيع أن يمرح دون ضوضاء أو جلبة.
إنسان يستطيع أن يبكي بعيون جامدة.
إنسان يستطيع أن يموت دون أنين بائس ـ
ذلكم هو الإنسان الذي ولدته الجبال.

في الليل، في القرية الهادئة، النائمة، في الطقس الماطر وفي الطقس الجيد، قد يسمع طرق على النافذة:

ـ إيْ، هل هناك رجل؟ انهض وأسرج حصانك.

ـ ومن أنت؟

ـ إذا كنت تسأل «من أنا»، فأبق في بيتك. فما فيك نفع.

ويتكرر الطرق من جديد.

ـ إيْ، هل في البيت رجل؟ أسرج الحصان.

ـ إلى أين؟ لماذا؟

ـ إذا كنت تسأل «إلى أين» و«لماذا»، فابق في بيتك. فما فيك نفع.

ويسمع الطرق للمرة الثالثة:

ـ إيْ، هل في البيت رجل؟ أسرج حصانك.

ـ حاضر.

ها هو ذا الرجل، ها هو ذا الجبلي. وانطلقا معاً.

طرقة ثم أخرى. «هل في البيت رجل؟ أسرج حصانك». إنهم لم يعودوا اثنين أو ثلاثة أو عشرة، بل مئات وآلافاً. نسر قصد نسراً. وإنسان قصد إنساناً. هكذا تشكل شعب داغستان. رياح الفجاج تهزّ الأراجيح، وأنهار الجبال تنشد أغاني المهد:

ـ أين كنت يا دنفير دانفارتشو؟
ـ في الغابة كان دنفير دانفارتشو.

حين يولد صبي، يوضع تحت مخدته خنجر. وعلى الخنجر مكتوب: «كانت لوالدك يدٌ لا أرتجف فيها، فهل لك مثل هذه اليد؟».

وحين تولد بنت يعلقون فوق سريرها جرساً صغيراً كتب عليه: «ستكونين أختاً لسبعة إخوة».

في الشعاب تهتز الأراجيح فوق جبال مدّت بين صخرتين. الأبناء يكبرون والبنات يكبرن. لقد كبر شعب داغستان ونما شارباه، يستطيع الآن أن يفتلهما.

أصبح شعب داغستان مليوناً ومائة ألف. وترددت في الجبال البعيدة أصداء مجده. أوغر هذا المجد قلوب الغزاة النهمة، فامتدت إلى داغستان الأيادي الطامعة.

قال الداغستانيون: «دعونا في هدوء قرب مواقدنا ومع أهلنا ونسائنا. نحن قلة، قلة حتى دون حرب».

وأجاب الأعداء: «إذا كنتم قلّة، فسنعدُّ الواحد منكم اثنين، فيزداد عددكم».

وبدأت الحروب.

شبّت النار في داغستان واضطرمت. على سفوح الجبال وفي الشعاب وفوق الصخور سقط مائة ألف من خيرة أبناء داغستان، سقط أكثرهم شباباً وقوة وشجاعة.

لكن بقي مليون. كانت الرياح لا تزال تهزّ الأراجيح كما في السابق، وكانت أغاني المهد لا تزال تتردّد. وشبّ مائة ألف من أبناء داغستان الجدد، أعطوا أسماء الأبطال الشهداء. وعندئذ اقترب الفتح العربي من داغستان.

جرت موقعة عظيمة، وكان لها صدى عظيم. الرؤوس المقطوعة كانت تتدحرج في الفجاج كأنها حجارة. سقط مائة ألف من خيرة أبناء داغستان. مائة ألف من المحاربين، مائة ألف من الفلاحين، مائة ألف من الفرسان، مائة ألف من الآباء.

لكن بقي مليون، والأراجيح ما زالت تهتزّ، وأغاني المهد ما زالت تتردد:

- أين كنت يا دنفير دانفارتشو؟
- في الغابة كان دنفير دانفارتشو

وشبّ مائة ألف جدد، فأتى من إيران وقتها ملك الملوك وحامل الموت، نادر. كان يستعد لإخضاع العالم، أما داغستان فكان يريد أن يقضي عليها بضربة واحدة. «سأنفخ فيهم فأذروهم غباراً». وضرب خيامه. «أحقاً أن هذه الفئران تستعد للوقوف في وجه قططي؟» هكذا قال أيضاً ملك الملوك قبل بدء المعركة. لكنه قال في نهايتها: «أنا مستعد أن أستبدل بجيشي بطلهم مورتوزالي وحده». وقال الشاه نادر كثيراً من الكلمات الجميلة الأخرى. لكن قوة الثور لا تعرف بخواره، بل بعمله. للريح جعل الجبليون ملك الملوك يطلق ساقيه، كما تطارد الريح الرماد طاردوا جيشه، ورووا بدمائهم ودماء غيرهم وادي تشوخا المحروق

والقاحل. ومنذ ذلك الوقت ذاع في إيران المثل الذي يقول: «إذا كان الشاه غبياً، يذهب لغزو داغستان».

رأيت في طهران عرش الشاه نادر الذهبي الذي جلبه من الهند. ورأيت غنائمه التي أتى بها من بلدان مختلفة، ورأيت سيفه المعقوف.

وقال لي الأصدقاء الإيرانيون:

ـ هذا الشيء الصغير أخضع نصف العالم وألقى الرعب فيه.

ـ لكنه لم يستطع أن يمتد إلى داغستان الصغيرة.

في ميشخيت نقشت على جدران متحف الشاه نادر أبيات شعراء إيران الفحول الذين كانوا يمدحون الشاه بما كان يفعل. لكن الشعب الداغستاني يغني منذ ثلاثة قرون هو الآخر أغنية عن هذا الشاه:

اهربوا، انجوا بأنفسكم، لن نقتلكم
لن نجهز عليكم
سنترككم أحياء لتخبروا من وراءكم
ولتحدثوهم عن هربكم.

يروون في إيران أن الشاه نادراً وحّد شعوباً متفرقة، وجعل منها دولة إيران القوية. قد يكون الأمر كذلك. إنما بودّي أن أضيف إلى هذا أنه ساعد أيضاً الشعوب الداغستانية المتفرقة، ساعد قلوبنا على أن تتحد. إن الذي وحّدها هو بغضها المشترك للشاه الغازي.

فقدت داغستان مائة ألف من خيرة أبنائها في حربها مع الشاه. لقد استشهد فيها رعاة أغنام، وصيادون وناحتو حجارة وضاربو عملة وحارثو أرض وشعراء. . .

لكن بقي مليون. الأراجيح كانت تهتز، والأغاني تتردّد، وظلّ الفرسان يخطفون محبوباتهم ويتدفأون تحت فروة واحدة ويتعانقون ويواصلون نسل داغستان.

وولد مائة ألف جديدة من البنين والبنات، مائة ألف من المناجل والخناجر والمزامير والدفوف.

عندئذ بدأت حرب أخرى جديدة. دوت المدافع في الشعاب والطرقات الحجرية، ورنت الفؤوس في الغابات على سفوح الجبال، ولمعت الحراب وأزّ الرصاص.

من الأورال إلى الدانوب
وإلى النهر الكبير
تتحرك الجحافل
تتماوج وتتلألأ
تخفق الرياش البيض
مثل العشب في السهوب
وتمرُّ الخيالة المرقشة
وهي تثير الغبار
كتائب القتال
تسير في صفوف متراصة
أمامها ترفرف الأعلام
وتقرع الطبول
والمدافع، صف من نحاس
تقفز وتعصف
القنابل تحترق
والدخان يعلو
يقود هذه الجحافل
قائد أشيب ذو نظرات فيها تهديد ووعيد
حنكته عواصف الحروب
الكتائب تسير في جبروت
هادرة كالتيار
وبطيئة كالغيوم السود
وتتجه نحو الشرق
أخذ كازميك يحصي الأعداء متجهم الوجه

وقد أضنته فكرة شريرة سوداء
وغمرته أحلام سود
ومع ذلك فلم يستطع إحصاءهم.

أجل، كان من الصعب عليه أن يحصيهم. وفي أغنياتنا أنه كان على كل واحد أن ينازل مائة. ويخبرنا الشيوخ عن هذه الحرب قائلين: «حين كانت إحدى يدينا تقطع كنّا نحارب باليد الأخرى، وحين كانت رؤوسنا تقطع، كانت أجسادنا تستمر في القتال. بالجياد المقتولة كنا نسدّ الطرق والشعاب، ومن الصخور العالية كنا نقفز على الحراب. كانوا يقولون لنا: يكفيكم سفك دماء. المقاومة لا جدوى منها: أين المفرّ؟ ليس لديكم أجنحة تطيرون بها في الجو، وليس لكم أظافر تنبشون بها التراب.

لكن شاملاً كان يجيب:

ـ الجناح موجود وهو سيفي. وأظافرنا هي خناجرنا وسهامنا.

خمسة وعشرون عاماً ظل الجبليون يحاربون بقيادة شامل. في تلك السنين لم يتغيّر مظهر داغستان الخارجي وحسب، بل تغيّرت حتى أسماء الأمكنة والأنهار. أفاركويسو أصبح يسمى كاراكويسو أي النهر الأسود. وظهرت تسميات مثل الصخور الجريحة، وشعب الموت، كما اشتهر نهر فاليريك، وبقي في ذاكرة الشعب ممر شامل وطريق شامل ورقصة شامل.

أصبح جبل غونيب الخاتمة المأساوية للحرب. على قمته صلى الإمام صلاته الأخيرة. أثناء الصلاة استقرت رصاصة في يده المرفوعة. لم يرتعش شامل، بل استمر في صلاته. ضرّج الدم ركبتي الإمام والبلاطة التي كان يقف عليها. أنهى الإمام الجريح صلاته. وحين نهض، قال له مقربوه:

ـ لقد جرحت أيها الإمام.

ـ هذا الجرح تافه. إنه سيلتئم. قطع شامل حزمة صغيرة من العشب، وأخذ يمسح بها الدم عن ساعده ـ داغستان تنزف دماً. الأصعب هو تضميد ذلك الجرح.



في هذه الساعة العصيبة جداً طلب الإمام العون من رجاله الشجعان الذين واراهم الثرى منذ زمن بعيد. أولئك الذين سقطوا في أخولغو، وأولئك الذين استشهدوا في خونزاخ، أولئك الذين رقدوا في الأرض الحجرية قرب قرية سالتا، وأولئك الذين دفنوا في غرنجيل، وأولئك الذين خروا في دارغو.

تذكر ابن قريته وسلفه الإمام الأول القاضي محمداً والحاج مراد الأعرج، وعلي بيكو إيلافا، وأخبر ديلوف وكثيراً من الرجال الشجعان الآخرين. إنهم يرقدون الآن في أرض داغستان، بعضهم دون رأس، وبعضهم دون يد، وآخرون برصاصة في القلب. الحرب تعني الموت. مائة ألف من خيرة أبناء داغستان.

داغستان صغيرة وشعبنا صغير. ولكن بودي أن أحصل على ألف سيف آخر على الأقل.

في غونيب الأعلى بقي حجر عليه هذه الكتابة: «على هذا الحجر جلس الأمير بارياتنسكي وهو يتقبل استسلام شامل».

وقال بارياتنسكي لأسيره.

ـ عبثاً كانت كل جهودك، كل جهادك.

وأجابه شامل:

ـ كلا، لم تكن عبثاً. وستبقى ذكراها في قلب الشعب. لقد جعل جهادي من أعداء كثيرين أخوة، ووحّد قرى كثيرة كانت تتنازع فيما بينها، وأصبحت شعوب داغستان الكثيرة، التي كانت تتعادى فيما بينها ويردّد كل منها «شعبي» «أمتي»، شعباً داغستانياً واحداً. لقد غرست الشعور بالوطن، الشعور بداغستان الواحدة، وهذا الشعور أخلفه لأحفادي. فهل هذا شيء قليل؟

سألت والدي:

ـ لماذا هاجمنا العرب وتيمورلنك والشاه نادر. وسفكوا دماءنا

وزرعوا الشر والحقد؟ لماذا كانت تلزمهم داغستان التي تشبه ذئباً صغيراً لم يعرف طعم الحنان أو اللطف؟

ـ سأروي لك قصة عن أحد الناس الأغنياء جداً. أجل، كان غنياً جداً. وقد رأى هذا الرجل، حين صعد إلى الرابية، أن الوادي كله من أسفل الجبل حتى شاطىء البحر يزدحم بقطعان ماشيته التي لم تكن ترى لها نهاية. كان ثغاء الحملان يملأ الجو. وسرّ قلب الرجل الغني لأن الأرض كلها أرضه، ولأن القطعان التي عليها كلها قطعانه.

وفجأة وقع نظر الغني على قطعة صغيرة من الأرض خالية من قطعانه.

توجع قلب الغني آنذاك كما لو أن أحدهم جرحه جرحاً بالغاً وصرخ بصوت غاضب: «إيْ! ما هذه القطعة الصغيرة من الأرض التي تشبه جلداً أقرع؟ أليس لديّ من رؤوس الضأن ما يكفي لملئها؟! سوقوا القطعان إلى هناك، سوقوا الماشية!».

لكن والدي كان يحب الحديث أكثر ما يكون عن شامل ذاته. وعلى سبيل المثال كيف تغلب شامل على قاطع الطريق الشجاع.

ذات مرة وصل الإمام مع مريديه إلى إحدى القرى فاستقبله وجهاؤها في عداء. قالوا له:

ـ لقد سئمنا الحرب. نريد أن نعيش في سلام. لولاك كنا تصالحنا نحن والقيصر.

ـ آه منكم، أنتم الذين كنتم جبليين فيما مضى! ماذا حدث لكم؟ أتريدون أن تأكلوا خبز داغستان وتخدموا أعداءه؟ هل أنا الذي نغصت عليكم هدوءكم وسلامكم؟ إني، على عكس ذلك، أدافع عنه.

ـ أيها الإمام، نحن أيضاً داغستانيون، لكننا نرى أن هذه الحرب لا تعطي داغستان، ولن تعطيها شيئاً طيباً. وبالعناد وحده لن تنجح طويلاً.

ـ أنتم داغستانيون؟ حقاً إنكم تعيشون في داغستان، لكن قلوبكم

قلوب أرانب، يروق لكم أن تقلبوا الجمر في الموقد في حين أن داغستان تنزف دماً. افتحوا الأبواب، وإلا فتحناها بسيوفنا!

طويلاً تفاوض كبار القرية مع الإمام، وأخيراً قرروا السماح له بدخول القرية وتمّ استقباله في سلام ضيفاً كبيراً وجليلاً. وبالمقابل قطع لهم شامل عهداً بأن لا يقتل أي إنسان في هذه القرية، وأن ينسى الذنوب القديمة. نزل في بيت صديقه الأمين، وأمضى هناك عدة أيام يدير المفاوضات مع وجوه القرية.

في ذلك الوقت كان في القرية وضواحيها قاطع طرق رهيب، جبار، يتجاوز طوله المترين. كان ينهب الجميع على التوالي، ويسلبهم الحبوب والماشية والخيول، ويقتل أهالي القرية ويرعبهم. لم يكن شيء بالنسبة له مقدساً. اللّه والقيصر والإمام كانوا بالنسبة له كلمات جوفاء.

عندئذ توجه كبار القرية إلى شامل بهذا الرجاء:

ـ أنقذنا، أيها الإمام، من قاطع الطريق هذا.

ـ وماذا عليّ أن أفعل.

ـ اقتله، أيها الإمام، اقتله. لقد قتل هو نفسه مرّات ومرات.

ـ لقد قطعت عهداً لجماعتكم أن لا أقتل إنساناً في هذه القرية. وعليّ أن أكون عند كلمتي.

ـ جد طريقة، أيها الإمام، أنقذنا من هذا المجرم!

بعد عدة أيام طوّق مريدو شامل قاطع الطريق وقبضوا عليه وأوثقوه، ثم أتوا به إلى القرية وألقوه في قبو. ولمعاقبة المجرم على ما اقترفت يداه، اجتمعت محكمة خاصة ـ الديوان ـ وقرّرت فقأ عينيه. وبعد أن تمّ تنفيذ الحكم فيه، أعادوه إلى القبو وأقفلوا الباب عليه.

مرّت عدة أيام. وذات مرة في الليل، قرب الفجر، وحين كان شامل ينام نوماً عميقاً، سمعت في غرفته جلبة وضوضاء. وثب الإمام من فراشه وتطلع حوله، فرأى جبلاً يتقدّم نحوه، إنساناً أشبه بوحش وقد

فتّت الباب بفأسه، يتقدّم وهو يرغي ويزبد ويصبّ اللعنات. وقتها أدرك الإمام أن المجرم نجح بطريقة ما في الهرب، وأنه أتى الآن ينتقم.

كان المجرم العملاق يتقدّم وهو يصرّ بأسنانه، ممسكاً خنجراً ضخماً بيد وفأساً باليد الأخرى. استلّ الإمام أيضاً خنجره، وأخذ ينادي مريديه، لكن قاطع الطريق كان قد تمكّن من القضاء عليهم. كانت القرية نائمة، ولم يسمع أحد نداء الإمام.

كان شامل يحاول، وهو يتراجع، أن يغتنم اللحظة المناسبة للهجوم على خصمه، أما هذا فكان يقفز عشوائياً إلى هنا وهناك ويلوّح بفأسه مبعثراً كل ما في الغرفة.

كان العملاق يصرخ:

ـ أين أنت أيها الشجاع، يا من تتحدث عنه الكتب؟ أين تختبىء؟ تعال أوثق لي يدي وأمسكني، وافقأ لي عيني.

ـ أنا هنا! ـ صرخ الإمام صرخة مدوية ووثب للحال جانباً. كانت الفأس قد انغرزت عميقاً في الحائط، وبالضبط في المكان الذي كان يقف فيه شامل منذ ثانية. عندئذ اغتنم شامل الفرصة ووثب على عدوه. لكن هذا كان أقوى وأشد، فأخذ يقذف شاملاً ويطرحه، وتمكّن عدة مرات من إصابته. ولكن خفة شامل وحذاقته كانتا تنقذانه كل مرة، فاستطاع أن يتحاشى الإصابة بجرح قاتل. استمرت المعركة ساعتين تقريباً. وأخيراً أمسك اللص بشامل، ورفعه فوق رأسه، وأراد أن يهوي به على الأرض ثم يحزّ رأسه، لكن شاملاً اغتنم هذه الفرصة فضربه عدة ضربات بالخنجر على رأسه. ارتخى هذا فجأة وخارت قواه وترنّح قليلاً ثم هوى كبرج من قرميد، وسقط الخنجر من يده. وفي الصباح وجدوهما كليهما يسبحان في بركة من الدم. وتبيّن أن شاملاً أصيب بتسعة جروح، واضطر إلى البقاء شهراً كاملاً في تلك القرية ليعالج جراحه.

إن صراع شامل ضد العدو الخارجي الجبار يذكرنا في الكثير منه بهذه

المعركة. كان العدو يبدو وكأنه يتصرف في الجبال الغريبة عنه تصرفات عشوائية. أما شامل فكان يتجنّب الضربات بذكاء، ثم يهاجم فجأة من المؤخرة مرة، ومن المجنبة مرة أخرى.

عند كل جبلي على الأرجح تصور لشامل وأنا أيضاً أراه على طريقتي.

في صباه أراه جاثياً على ركبتيه على صخرة أخولغو الملساء ورافعاً إلى العلاء يديه المغسولتين للتو في ماء نهر كويسو الآفاري. كما قفطانه مرفوعان، وشفتاه تتمتمان كلمة ما ـ بعضهم يؤكد أنه حين كان يهمس أثناء صلاته بكلمة «اللّه»، كان الناس يسمعون كلمة «الحرية»، وحين كان يهمس كلمة «الحرية» كانوا يسمعون «اللّه».

وأراه شيخاً، على شاطىء قزوين يودّع داغستان إلى الأبد. إنه أسير القيصر الأبيض. صعد إلى صخرة ورمق مياه بحر قزوين المزبدة. شفتاه تتمتمان «الوداع» بدلاً من «اللّه»، و«الحرية». يقال إن قطرات دمع شوهدت على خدي شامل آنذاك. لكن شاملاً لم يبك أبداً. ربما كانت هذه رذاذاً من ماء البحر.

أتصوره أوضح ما تكون الصورة، في قصة والدي، في ذلك البيت الضيق وجهاً لوجه مع ذلك المجرم الهائج في تلك المعركة الطويلة، الدامية.

عاش هو والحاج مراد تارة في سلام، وتارة في خصام، وهناك الكثير من الأساطير حولهما وكثير من القصص الحقيقية.

ذات مرة، حين حوصرت قوات شامل، وتبيّن أنه لا مجال للخلاص، دعا الإمام الشيخ الحاج مراداً وقال له: إبحث عن مخرج.

قبل الحاج مراد هذه المهمة الصعبة؛ لكنه اشترط على شامل شرطاً واحداً: على الإمام أن يبعد عنه الثمانين المأجورين الذين خدعوه. ووعده بذلك شامل..

دلّهم الحاج مراد على الطريق، وخرجت قوات الإمام من المصيدة. وبرّ شامل أيضاً بوعده.

لكن لم يمض شهران حتى كان الإمام محاطاً بنواب مأجورين. وبحاسدين وكذابين كان قد رفعهم إلى مرتبة الأشراف، وها هم أولاء يضلّلونه ويخدعونه، يفكرون في مصلحتهم الخاصة قبل أن يفكروا في مصلحة الشعب والوطن.

ولقد قال شامل فيما بعد، في كالوغا، حين أصبح أسير القيصر، في هؤلاء الناس ما يلي: «لم أكن لأظن أن فماً ينمو فوقه شاربان يمكن أن يتلفظ بكلمات كاذبة... كان في جهادي ما يكفي من الأخطاء، لكن من المؤسف أن أشياء غير قليلة في هذا الجهاد كانت مرتبطة بنزاهتي الشخصية».

بعد أن رقّى شامل الحاج مراداً إلى مرتبة نائب، أرسله إلى خيداك وتاباساران يدعوهما إلى صفه، أو، على الأصح، يدعوهما للانخراط في الحرب. كان شامل يأمل أن يؤدي الحاج مراد مهمته عن طريق الإقناع، إلا أن نائبه الجديد استعمل في خيداك وتاباساران لغة السوط والنار.

كان الحاج مراد يهزّ قبضته في وجه كل من كان يجرؤ على التلميح بوجود قانون ويقول: «ها هو ذا قانونكم. أنا الحاج مراد من خونزاخ. أنا هو قانونكم الرئيسي».

وصلت إلى مسامع شامل شائعات عن مظالم الحاج مراد. فبعث إلى نائبه رسولاً يستدعيه. عاد هذا بغنائم كبيرة. كانت فصيلة تسوق أمامها قطعاناً من الماشية والضأن والخيل. وكان الحاج مراد نفسه يسند خلفه على سرج الحصان حسناء مخطوفة. كان يميل إلى اللهو والمزاح.

ترجّل الحاج مراد عن فرسه وحيّا قائده: ـ السلام عليكم، أيها الإمام!

ـ وعليكم السلام، أيها النائب! أهنئك بسلامة العودة وماذا تحمل إلينا من الأخبار الطيبة؟

ـ لم أعد صفر اليدين، معي فضة وضأن وخيول وسجاجيد. السجاجيد في تاباساران جيدة.

ـ ما معك حسناء؟

ـ وكيف لا، معي ويا لها من حسناء! لقد حملتها إليك، أيها الإمام.

حدّق المحاربان أحدهما في عيني صاحبه بعض الوقت، ثم قال شامل:

ـ قل لي، أبهذه الحسناء سوف أذهب للقتال؟ أنا لست في حاجة إلى أغنام، بل إلى أناس. أنا لست في حاجة إلى خيول، بل إلى فرسان. لقد سلبتهم ماشيتهم، وبهذا جرحت قلوبهم وجعلتهم يعرضون عنا. كان يجب أن يكونوا من مقاتلينا وأن يحلّوا محل القتلى والجرحى. وبمن تعوّضهم الآن؟ ترى، هل كان يحدث لنا ما حدث في سالتي وغرنجيل، لو كان الخيداكيون والتاباراسانيون معنا؟ وهل من المقبول أن يخرّب داغستانيون بيوت داغستانيين آخرين؟

ـ لكنهم لم يفهموا لغة غير هذه اللغة أيها الإمام!

وهل حاولت أنت أن تفهم لغتهم؟ لو فهمتها، لما كانت بك حاجة إلى السوط والنار. هل نوابي قطاع طرق؟

ـ أيها الإمام، أنا الحاج مراد من خزنزاخ.

ـ وأنا أيضاً شامل من غمرا، وكيبيد محمد من تيلتيل، وحسين من تشيركي. أي شيء في ذلك؟ الآفاريون والخنداليون والكوميكيون والليزغينيون واللاكيون، والخيداكيون والتاباسارانيون الذين نهبتهم، كلنا أبناء داغستان واحدة. يجب أن يفهم أحدنا الآخر فنحن أصابع يد واحدة. فلكي تتجمّع اليد في قبضة، يجب أن تتحد الأصابع كلها بقوة عظيمة. شكراً لك يا حاج مراد على شجاعتك التي تستحق عليها كل مكافأة تريد. العمامة تكلّل رأسك. لكني الآن لا أوافقك.

ـ عندما كان آخرون ممن لهم نفس العمائم ينهبون، لم تقل لهم شيئاً، أيها الإمام. والآن لا يكاد يقصف الرعد، حتى يتساقط كل شيء على رأسي.

ـ أعرف من تقصد، يا حاج مراد: أخبر ديلاف، وابني القاضي محمد أو حتى أنا ذاتي. لكن أخبر ديلاف نهب عدوّنا في موزدوكا، وأنا سلبت أموال الخانات الذين لم يريدوا أن يسيروا معنا، لا بل حاولوا مقاومتنا. كلا، يا حاج مراد. كي يكون الإنسان نائباً، لا يكفيه قلب شجاع وخنجر حاد. ويجب أن يكون أيضاً صاحب رأس جيد.

مثل هذه المشادات كانت تحدث كثيراً بين شامل والحاج مراد. وكانت الشائعات تضخم من أمر هذه المشادات وتبالغ فيها. وأخيراً فرّق عداء حاقد بينهما. ترك الحاج مراد شاملاً إلى الجانب الآخر، ثم تدحرج. ووري جسمه التراب في نوخ. ويا لها من قسمة ذات معنى: كان رأسه من نصيب الأعداء، أما قلبه فبقي في داغستان. يا له من مصير!

رأس الحاج مراد

أرى رأساً مقطوعاً
وأسمع هدير المعارك،
والدم يسيل على الصخرة العارية
بين القرى الهائجة

السيوف التي رأت الأعاجيب
والمشحوذة على الصخور تتطاير
ويخب المريدون الأوفياء للقفقاس
على طول الطريق الوعر.

سألت الرأس الدامي:

«رأس من كنت؟ قل لي من فضلك؟
وكيف وأنت المكلل بالغار
أصبحت في أيد غريبة؟».

وأسمع فجأة: «ليس هناك ما أخفيه: أنا رأس الحاج مراد».

سقطت عن كتفيه
لأني ضللت ذات يوم،
فلم أختر أفضل الطرق،
والسبب في ذلك غروري..
أنظر إلى الرأس الضال
الذي قطع في معركة غير متكافئة.

أيها الرجال الذين ولدوا في الجبال
علينا، أحياء أو أمواتاً،
أن نعود إلى قممها
عبر الدروب الممتدة في الأفق البعيد.

نقل الإمام خارج داغستان. وزرعوا الأرض قلاعاً ذات كوى.
وكانت المدافع والبنادق تنظر من الكوى إلى كل الاتجاهات، مع أنها لم تكن تطلق نيرانها، كأنما كانت تقول: «اجلسوا في سلام أيها الجبليون، وتصرفوا في هدوء وتعقل».

يغمر الحزن سكان هذه الجبال،
ويغمر الحزن الأنهار والوحوش والطيور،
كأن ليس لهم طريق إلى الحرية،
فهم يرون في الموت وحده خلاصاً لهم من سجونهم.

قال أحد الحكام: «أرض متوحشين»، وهو يغادر داغستان، وكتب آخر: «إنهم لا يعيشون على ظهر أرض، بل في قعر هاوية».

وأكد ثالث: «هؤلاء السكان المتوحشون، تلك الأرض التي لهم زائدة عليهم».

لكن حتى في ذلك العصر المتخلّف دوت أصوات ليرمنتوف ودوبرولوبوف وتشرنيشفسكي وبيستوجيف مارلينسكي وبيروغوف.. أجل كان في روسيا القيصرية أناس فهموا نفس الجبلي، وقالوا كلمات طيبة في شعب داغستان. لو كان في استطاعة الجبليين آنذاك أن يفهموا لغتهم!

لم يكن الداغستانيون هم الذين حاربوا وحدهم ضد القيصر في صفوف شامل، بل كان هناك روس وبولونيون هربوا إلى القفقاس بعد انتفاضة عام 1863. وكان الفلاحون الروس الذين هربوا إلى هناك من نظام القنانة يعدّون السلاح لقوات شامل. يروى أن شاملاً التقى بجنوده السابقين ـ الروس فيما بعد في كالوغا التي نفاه إليها القيصر..

فوق جبال داغستان الثلج الأبيض الأبدي
وفوقها، كذلك، ظلام الليل الأبدي

هكذا قال في وقت من الأوقات سليمان ستالسكي وهو ينظر إلى أرض آبائه.

كتب والدي في وقت من الأوقات يقول: «منذ ألقوا داغستان في السجن، أصبح كل شهر من أشهر السنة يعدّ واحداً وثلاثين يوماً».

وقال أبو طالب: «أيتها الجبال، إننا نجلس معاً في قبو».

وغنّت أنخيل مارين: «حتى التيس في الجبال يحزن لهذه المصيبة».

وضرب محمود بيده في الهواء قائلاً: «ليس هناك ما يستدعي التفكير في هذه الدنيا. منْ خنكله أدسم يكون مجده أكبر».

واستنتج الكوباتشاني أحمد منجي الذي جاب العالم: «ليس هناك مكان فيه سعادة».

لكن إرتشي كازاك كتب يقول: «رجل داغستان يجب أن يظل في كل مكان رجل داغستان».

لكن باطيراي نفسه كتب قبل موته: «لا ولد للشجعان أبناء جبناء».

ومحمود نفسه أنشد:

إذا ضلّ التيس في الجبال حيث يسود الظلام،
فلا بد أن يجد دربه أو موته.

وأبو طالب نفسه قال: «لن يلبث هذا العالم أن يرعد. فليرعد كأقوى وأعنف ما يكون».

وأتى وقت، وقصف الرعد. قصف بعيداً، فلم يبلغ صداه داغستان على الفور. لكن كل شيء كان قد انشطر شطرين بخط أحمر جلي: تاريخ المصير، حياة كل إنسان، البشرية كلها. الغضب والحب، الفكرُ والأحلام ـ كل شيء انشطر شطرين.

ـ دوّت!..

ـ أين دوّت؟

ـ في روسيا كلها.

ـ وماذا دوى؟

ـ الثورة.

ـ ثورة من؟

ـ ثورة أبناء الشعب الكادح.

ـ هدفها؟

ـ من كان لا شيء يصبح كل شيء.

ـ لونها؟

ـ الأحمر.

ـ أناشيدها؟

ـ «هذه هي معركتنا الأخيرة والفاصلة».

ـ جيشها؟

ـ كل الجياع والمحزونين. جيش العمل العظيم.

ـ لغتها، أمتها؟

ـ كل اللغات، كل الأمم.

ـ زعيمها؟

ـ لينين.

ـ وماذا تقول الثورة لجبليي داغستان. ترجموه لنا.

ونقل الأبطال والمغنون لغة الثورة إلى كل لهجات داغستان:

«يا شعوب داغستان المضطهدة منذ قرون! لقد جاءت بيوتنا وحقولنا على الدروب الجبلية المتعرجة ثورة عظمى. استمعوا إليها واخدموها. إنها تقول لكم كلمات لم تسمعوها من قبل أبداً، إنها تقول لكم:

ـ أيها الأخوة! إن روسيا الجديدة تمدّ لكم يدها. فخذوها، ولتنعقد أيديكم في مصافحة قوية، فيها قوتكم وعليها اعتمادكم.

ـ يا أبناء الأودية والجبال! افتحوا نوافذكم على العالم الواسع. الآن يبدأ يوم جديد، بل مصير جديد. فاخرجوا للقاء هذا المصير!

ـ الآن لم تعودوا مجبرين على أن تحنوا ظهوركم أمام الأقوياء. ومنذ الآن لن يمتطي غريب صهوة جوادكم. الآن خيولكم هي خيولكم، وخناجركم هي خناجركم، وحقولكم هي حقولكم، وحريتكم هي حريتكم».

هكذا ترجمت لغة «الأفرورا» إلى لغات شعوب داغستان. ترجمها ماختش وأولوبي وأوسكار وجلال والقاضي محمد ومحمد ميرزا وهارون وغيرهم من مريدي الثورة الذين خبروا جيداً مآسي داغستان.

وخرجت داغستان للقاء مصيرها، فاتخذ الجبليون لون الثورة وأناشيدها. لكن أعداءها ذعروا. فالرعد الذي قصف كان فوق

رؤوسهم، والأرض التي ترنحت كانت تحت أقدامهم، والبحر الذي أزبد كان أمامهم، ووراء ظهورهم انهارت الصخور.

لقد اهتزّ العالم القديم وتداعى. وانشقت هوّة عميقة.

ـ هاتي يدك. أخذ يتوسّل أعداء الثورة الذين أطلقوا على أنفسهم اسم أصدقاء داغستان.

ـ أيديكم ملوّثة بالدم.

ـ قفي، لا تبتعدي، التفتي يا داغستان!

ـ إلام ألتفت، ماذا ورائي؟ العوز، الكذب، الظلام والدم.

ـ إلى أين؟ يا داغستان الصغيرة؟

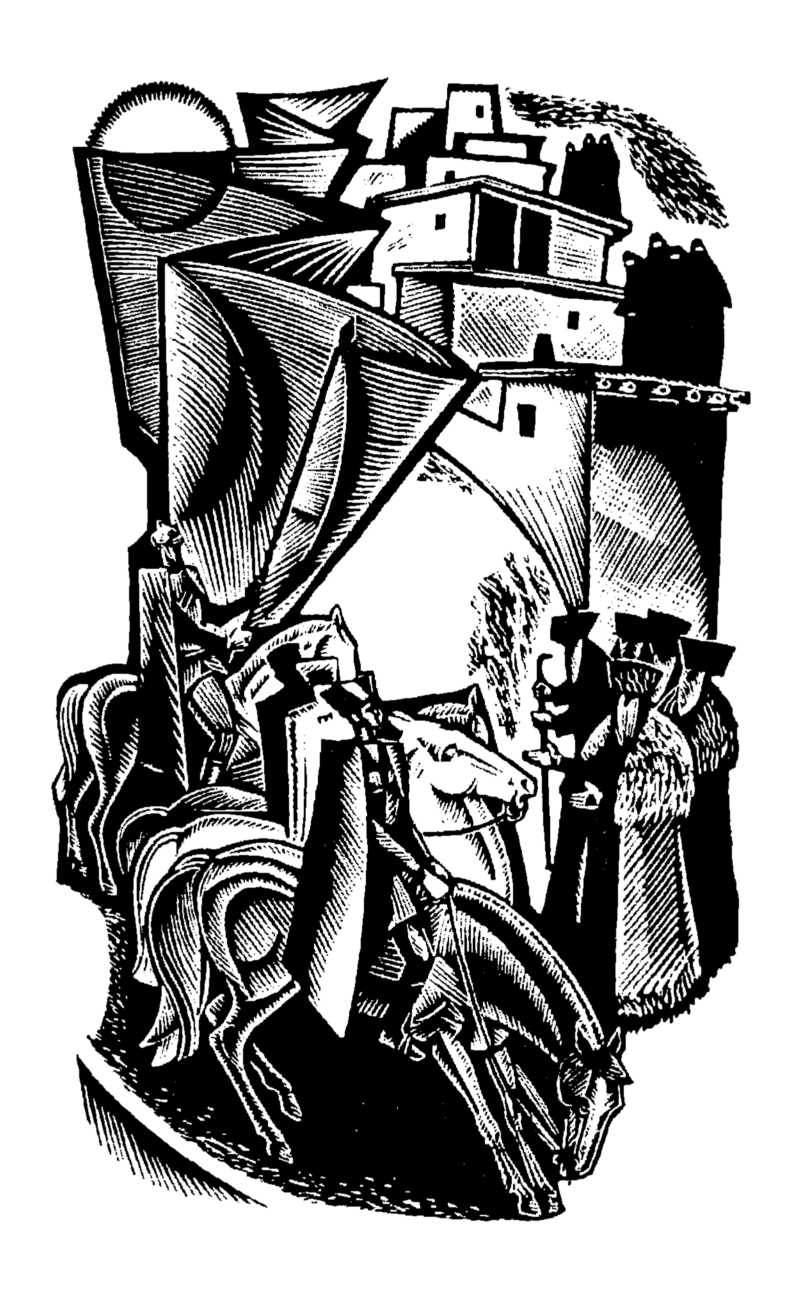
ـ للبحث عما هو كبير.

ـ ستبدين كقارب صغير في المحيط الواسع. ستهلكين ستختفي لغتك ودينك وعاداتك وقلبك ورأسك ـ قالوا متوعدين.

ـ لقد اعتدت السير في الدروب الجبلية الضيقة. فهل يعقل أن أكسر رجلي الآن، في الطريق الرحب؟ لقد بحثت جداً عن هذا الطريق. لن تسقط شعرة من رأسي.

ـ داغستان مارقة. إنها تهلك. أنقذوا داغستان! هكذا نعقت الغربان وعوت الذئاب. صرخوا، هدّدوا، توسلوا، قتلوا، خدعوا. من منهم لم يرم المصباح المشتعل بحجر! من منهم من لم يحاول حرق جسر عظيم! الراية كانت تستبدل بأخرى، واللص يخلف لصاً. كمعطف فرو كانوا يتنازعون داغستان الصغيرة في الليل البارد، وكانوا يمزقونها إرباً إرباً. أما هي فقد انطلقت كتيس تخلص من قيده. فانطلقوا إثرها في نهم الضواري، كل يريدها لنفسه. أي صيّاد لم يطلق عليها ناره!

«أنا نجم الدين غوتسينسكي إمام داغستان. الذي اختاره الشعب عند بحيرة آندي، سيفي يبحث عن قلابق معقودة بشرائط حمراء!». وقال آخر بصوته الجهوري وكان اسمه أوذون حاج: «أيها الإخوة في الدين، أيها المسلمون! اتبعوني. أنا الذي رفعت راية الإسلام الخضراء».



«لن أعلّق سلاحي على مسمار، ما لم أعلّق رأس آخر بلشفي وأعرضه فوق أعلى جبل في داغستان! ـ كان الأمير نخبيك تاركوفسكي يبعق.

حدث في ذلك العام بالذات أن بنى العقيد في الجيش القيصري كايتماز علي خانوف قصراً له في خونزاخ. دعا العقيد ذات يوم أحد الجبليين ليريه مسكنه الجديد.

وقال كايتماز مزهواً بنفسه وبالقصر:

ـ كيف ترى، أليس قصري جميلاً؟

أجابه الجبلي:

ـ لا بل أجمل مما يجب بالنسبة لإنسان يموت...

ـ ولماذا أموت؟

ـ الثورة..

ـ لن أدعها تصل خونزاخ. قال العقيد علي خانوف ووثب إلى ظهر جواده الأبيض.

«أنا سعيد بيك، حفيد الإمام شامل، أتيت إلى هنا باسم السلطان العثماني كي أحرر داغستان بمساعدة عسكره». هكذا صرّح أيضاً أحد الدخلاء، ومعه كل ما يمكن تصوره من باشوات وبكوات.

و«نحن أصدقاء داغستان». صرخ المتدخلون الأجانب، واتبعوه بإنزال بريطاني على أرض داغستان.

«داغستان هي باب باكو. وسأضع في هذا الباب قفلاً متيناً!». كان عقيد الجيش القيصري بيتشيراخوف يتباهى بقوله هذا، ثم هدم بورت بيتروفسك.

كان هناك كثير من الضيوف غير المدعوين. أي يد قذرة لم تمزق القميص عن صدر داغستان؟ وأي أعلام لم تخفق هنا؟ وأي رياح لم تعصف؟ وأي أمواج لم تتحطم على الصخور؟

وتوعّد الدخلاء: «إذا لم تخضعي يا داغستان، فسندفعك إلى البحر ونغرقك!».

كتب والدي آنذاك ما يلي: «تشبه داغستان حيواناً تنقره الطيور من كل جانب».

وكان قصف، وكانت نار، وكان دم، الصخور دخنت، والقمح احترق، والقرى دمرت، والأمراض حصدت الناس، والقلاع كانت تنتقل من يد إلى أخرى. استمر هذا كله أربع سنوات.

كان الجبليون يقولون حينئذ: «كنّا نبيع الحقل ونشتري حصاناً، ونبيع البقرة ونشتري سيفاً».

كانت الخيل تحمحم حين تفقد فارسها. وكانت الغربان تنقر عيون القتلى.

شبّه والدي داغستان في ذلك الوقت بصخرة يهدر عبرها عديد من الأنهر المختلفة. وشبهتها أمي بسمكة تسبح ضد تيارات متدافعة كثيرة.

ويتذكر أبو طالب: «أي عازفي مزمار لم يرهم بلدنا!». وقد كان هو نفسه عازف مزمار في إحدى فصائل الأنصار.

الآن يكتبون بالقلم القصة أو التاريخ الذي كتب بالسيوف. والآن يزنون بالميزان، وهم يدرسون تلك الأيام، الأمجاد والمآثر. العلماء يتناقشون فيما بينهم، بل يمكن القول إنهم يتحاربون، وهم يقيّمون الأبطال.

لكن الأبطال حاربوا وانتهوا. والحقيقة أنه لا يهمني من كان الأول، ومن الثاني ومن الثالث. ما يهمني هو شيء آخر: أن الثورة أعادت خنجرها إلى غمده، بعد أن مسحت بطرف قفطانها دم آخر عدو قتيل. ولقد صنع الجبلي من هذا الخنجر منجلاً، وجربته الحادة غرزها في الحجارة على السفح. ثم أخذ يفلح أرضه ضاغطاً على محراثه ومستحثّاً نيرانه، محملاً الحشائش المجففة على العربة من حقله.

وفتلت داغستان شاربيها بعد أن ركّزت علم الثورة الأحمر على قمة

الجبل. وصنعت من عمامة الإمام الدجال غوتسينسكي فزّاعة. أما الإمام نفسه فقد أنزلت الثورة به القصاص. أمام المحكمة أخذ غوتسينسكي يتوسل: «القيصر الأبيض ترك شاملاً حياً. لم تسقط شعرة من رأسه. فلماذا تقتلونني أنتم؟».

وكان جواب داغستان والثورة: لو كان شامل لقطع رأس إنسان مثلك، ولقال: «خير للخائن أن يكون في باطن الأرض، لا على ظهرها». أجل، لقد نزل القصاص به، فلم ينتفض جبل، ولم تدمع عينا إنسان، ولم يضع أحد شاهدة على قبره.

عبر غابات تسونتين كان كايتماز علي خانوف يفر على جواده الأبيض، ومعه ولداه. لكن رصاصات الأنصار الحمر أدركتهم. وعاد جواد العقيد الأبيض إلى قلعة خونزاخ منكس الرأس يعرج.

قال مسلم أتايف للحيوان المسكين: «لقد ساقوك في طريق الضلال. وداغستان أيضاً أرادوا سوقها في هذه الطريق».

وطرد بيتشيراخوف هو الآخر. في أمواج قزوين غرقت فصائله الممزقة. «آمين» ـ قالت الأمواج وهي تنطبق عليها، وقالت الجبال «آمين، فليذهب إلى الجحيم كل من ينشىء على الأرض جحيماً».

خرجت في إستمبول إلى السوق. وهناك دلّني الآفاريون السابقون الذين كانوا يحيطون بي على شيخ كان يسير في الزحام كان أشبه بكيس تتساقط منه الحبوب.

ـ إنه كاظم بيك.

ـ أي كاظم بيك هذا؟

ـ الذي ذهب إلى داغستان على رأس جيوش السلطان.

ـ أيعقل أنه لا يزال حياً.

ـ جسمه، كما ترى، حي.

عرّفوا أحدنا بالآخر.

ـ داغستان. . . أنا أعرف هذا البلد. قال الشيخ الهرم.

ـ وفي داغستان يعرفونك أيضاً. قلت له.

ـ أجل، لقد كنت هناك.

وسألته متعمداً:

ـ وهل ستعود إلينا أيضاً؟

ـ لن آتي أبداً. قال هذا وأسرع إلى دكانه.

أحقاً أن هذا التاجر الصغير في سوق إستمبول نسي كيف قتل في كاسومكينت وفي الحقل مباشرة ثلاثة فلاحين مسالمين؟

أحقاً أنه لا يذكر تلك الصخرة في الجبال التي ألقت بنفسها منها جبلية شابة كي لا تقع في أيادي انكشارييه؟ أحقاً نسي هذا التاجر كيف أتوا له من الحديقة بطفل صغير، وكيف انتزع الكرزة من بين يديه، ثم بصق بزرتها مباشرة في عينه؟ لكن، على أي حال، لم ينس كيف هرب بملابسه الداخلية وكيف صرخت الخادمة في إثره: «اي، لقد نسيت القلبق!».

فرّ من داغستان اللصوص، وفرّ جنود الإنزال البريطانيون، وفرّ كاظم بيك. وفرّ سعيد بيك حفيد شامل.

سألت في إستمبول:

ـ أين سعيد بيك الآن؟

ـ ذهب إلى العربية السعودية.

ـ لماذا؟

ـ بسبب أعماله التجارية. عنده هناك بعض الأراضي.

أيها التجار! لم تسنح لكم الفرصة لأن تتاجروا في داغستان. قالت الثورة: «أغلقت السوقُ». ثم كنست بمكنسة مدمّاة كل القذارة من أرض الجبل. والآن لم تبق من «المدافعين عن داغستان ومنقذيها» إلّا أجسامهم الواهنة تهيم في بلاد غريبة.

انعقد في بيروت منذ أعوام مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا. وأرسلت أنا أيضاً إلى هذا المؤتمر. كان علينا لا أن نتحدث في المؤتمر فقط، بل

أحياناً في أمكنة أخرى كنّا ندعى إليها. في إحدى هذه الأمسيات تحدثت عن بلدي داغستان، أهله وعاداته، وألقيت قصائد شعراء داغستانيين مختلفين ولي.

بعد الأمسية استوقفتني على الدرج امرأة جميلة شابة.

ـ سيّد حمزاتوف، هل لي أن أتحدث إليك، ألا تستطيع أن تعطيني قليلاً من وقتك؟

خرجنا إلى شوارع بيروت المسائية.

ـ حدثني عن داغستان. عن كل شيء من فضلك. رجتني مرافقتي غير المنتظرة.

ـ لكني ضللت ساعة كاملة وأنا أتحدث.

ـ أريد المزيد، المزيد.

ـ وماذا يهمك أكثر من سواه؟

ـ آه، كل شيء. كل ما يتعلق بداغستان؟

وأخذت أتحدث.

ـ اقرأ لي أشعارك باللغة الآفارية.

ـ لكنك لن تفهمي شيئاً!

ـ افعل على أي حال.

وقرأت لها أشعاري. ماذا يفعل الإنسان حين تطلب منه ذلك امرأة جميلة شابة. زد على ذلك أنك كنت تشعر في صوتها برنّة اهتمام مخلص بداغستان كان يتعذّر معها أن ترفض.

ـ ألا تغني لي أغنية آفارية؟

ـ أوه، كلا. أنا لا أقدر على الغناء.

وخطرت لي فكرة: «والآن ستجبرني على أن أرقص».

ـ أتريد أن أغني لك.

ـ تفضلي.

في هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى شاطىء البحر وقد أضاء القمر الساطع بنور ضارب إلى الخضرة.

وها هي ذي حسناء مجهولة تغني لي في بيروت البعيدة وبلغة غير مفهومة أغنية «دالالاي» الداغستانية. لكنني أدركت حين بدأت تغني الأغنية الثانية أنها تغني باللغة الكوميكية.

قلت مدهوشاً:

ـ من أين تعرفين اللغة الكوميكية؟

ـ لا أعرفها مع الأسف.

ـ لكن الأغنية...

ـ هذه الأغنية علمني إياها جدي.

ـ وهل كان في داغستان؟

ـ نعم، بمعنى ما، كان.

ـ منذ أمد بعيد؟

ـ تعرف، جدي هو نوخبيك تاركوفسكي.

ـ العقيد؟ أين هو الآن؟

ـ عاش في طهران. وتوفي هذا العام. كان وهو يموت يلحّ عليّ طوال الوقت أن أغني له هذه الأغنية.

ـ عن أي شيء تتحدث؟

ـ عن الطيور المهاجرة... وعلمني أيضاً رقصة داغستانية. أنظر!

أشرقت المرأة كلها كالهلال ورفعت يديها بخفة وانطلقت تدور كبجعة في بحيرة.

رجوتها بعد ذلك أن تعيد أغنية الطيور المهاجرة. فغنتها وترجمت لي كلماتها. وحين عدتِ إلى الفندق سجّلت الأغنية كما وعتها ذاكرتي، لكن بعد أن ترجمتها إلى اللغة الآفارية.

... أجل، ها قد عاد الربيع إلى داغستان، لكنني ما زلت أفكر: ما علاقة الأمير نوخبيك تاركوفسكي بهذه الأغنية عن الطيور المهاجرة؟

ولماذا كان له وهو العقيد الهارب من البلد الثائر ومن انتقام داغستان، والعائش في طهران الشاه، أن يذكر شمس الجبال الحمر؟ وكيف استطاع أن يشعر بالحنين إلى أرض الوطن؟

في أول الأمر كان تاركوفسكي يقول وهو يعيش في إيران «ما حدث لي ولداغستان غلطة القدر، وسأعود إلى هناك لأصحح هذه الغلطة؟».

وكان يخرج كل يوم إلى شاطىء قزوين مع غيره من المهاجرين ليتسقطوا أخبار داغستان. لكنهم كانوا يرون في كل مرة الأعلام الحمر تخفق على صواري السفن المبحرة في قزوين. وفي الخريف كانت زوجه التي أمضها الحنين تنظر إلى الطيور الآتية من الشمال وتغني. ومن بعض ما كانت تغنيه هذه الأغنية عن الطيور المهاجرة.

لكن هذه الأغنية لم ترق للأمير تاركوفسكي في البداية.

ومرّت الأعوام، وكبر الأولاد، وشاخ العقيد. لقد أدرك أنه حُرم داغستان إلى الأبد. أدرك أنه قدّر لداغستان قدر آخر، وأن هذا البلد اختار بنفسه ولنفسه الطريق الصحيحة الوحيدة. عندئذ أخذ الأمير العجوز يغني هو الآخر أغنية الطيور المهاجرة.

كان أبي يقول:

ـ داغستان لن تسير مع من لم يسر معها.

وأردف أبو طالب:

ـ من يمتطي حصاناً غريباً سقط بسرعة. وخنجرنا لا يناسب ثياباً مفصلة تفصيلاً غريباً.

وكتب سليمان ستالسكي: «كنت أشبه بنصل طمر في الأرض. السلطة السوفياتية انتزعتني وأماطت الصدأ عني فأخذت ألمع».

وقال أبي أيضاً:

ـ مع أننا كنا دائماً جبليين، إلّا أننا لم نصعد قمة الجبل إلّا الآن.

وأردف أبو طالب:

ـ أيْ داغستان، أخرجي من القبو!

كانت أمي تغني وهي تهزّ السرير:

نم هادئاً فقد حلّ في الجبال السلام
سكت بين الصخور دوي الطلقات

وقال أبو طالب أيضاً:

ـ أقصر شهر هو شباط، ولكن ما أعظمه شهراً. في شباط خلع القيصر، وفي شباط تشكّل الجيش الأحمر، وفي شباط استقبل لينين وفد الجبليين.

في تلك الأثناء وفي قرية روغود جاب النائية، ألّفت النساء أغنية عن لينين:

أنت أول من أتى ودعانا أناساً،
سلاحاً ظافراً وضعت في أيدينا.
وكما يتطاير الأوز حين يسمع صوت النسر،
هكذا تبدد الليل الأسود أمام لينين الشمس

للشعب الصغير مصير كبير. طيور داغستان تغني، وتدوي كلمات أبناء الثورة. عنهم يتحدّث الأطفال، وأسماؤهم منقوشة على شواهد القبور. وبعض الأبطال قبورهم مجهولة.

أحب أن أتسكع في الليل الهادىء في شوارع عاصمة داغستان. وحين أقرأ أسماء الشوارع، يبدو لي أن المجالس الثورية في الجمهورية تعقد من جديد. ماختش داخادايف! أسمع صوته: «نحن محاربو الثورة. لغاتنا وأسماؤنا وطباعنا مختلفة. لكن هناك شيئاً واحداً مشتركاً بيننا: ولاؤنا للثورة ولداغستان. لن يضنّ أي منا بدمه أو بحياته من أجل الثورة وداغستان».

وقتل ماختش على يد قطّاع الطرق من فصائل الأمير تاركوفسكي.

أولوبي بويناكسكي. إني أسمع صوته: «سيقتلني الأعداء. وسيقتلون

أصدقائي أيضاً. لكن أصابعكم المضمومة في قبضة واحدة لن يستطيع أي عدوّ أن يفكّها. وهذه القبضة ثقيلة وأمينة، لأن مصائب داغستان وأفكار الثورة هي التي صنعتها. ولسوف تمسك هذه القبضة بخناق الظالمين. أدركوا هذا».

وقتلت جماعة دينيكين هذا الشيوعي الداغستاني الشاب، قتلوا أولوبي ذا الثماني والعشرين عاماً. قتلوه في الصحراء. وهناك ينمو الآن زهر الخشخاش.

وإني لأسمع صوت أوسكار ليشنسكي والقاضي محمد أغاسيف وهارون سعيدوف وعلي بيك باغاتيروف، وصفر دوداروف، وسلطان سعيد كازبيكوف وباتيرمورزايف وابنه، وعمروف تشوخسكي... وإنهم لكثيرون من القتلى.

لكن كل اسم من أسمائهم نار، نجم، أغنية. إنهم جميعاً أبطال بقوا شباباً إلى الأبد. إنهم تشابايفو وشورسو وشاوميانو داغستان. لقد سقطوا في آختا، وفي وادي آيا كاكا وقرب مسيل كاسوم كينت، وتحت جدران قلعة خونزاخ، وفي كاسافورت المحترقة، وفي دربند القديمة. في وادي آراكان لا يوجد حجر لم يضرّج بدم مفوضي داغستان. في سلسلة جبال موتشوخ نصب شرك لفصيلة باغاتيروف، ورأت الدم تيميرخان شورا وبورت بيتروفسك وأنهر كويسو الأربعة التي ينثرون عليها الأزهار الآن في ذكرى الشهداء. مائة ألف من الداغستانيين، من شيوعيين وأنصار لقوا مصرعهم. لكن الشعوب الأخرى سمعت بداغستان. فمدّ ملايين الأصدقاء أيديهم لداغستان الحمراء. وقال الداغستانيون وقد خبروا دفء هذه الأيدي الصديقة: «الآن نحن قليلون».

الحرب لا تنجب أناساً. لكن داغستان الجديدة ولدت في نار المعارك الثورية.

في الثالث عشر من عام 1920 اجتمع المؤتمر الاستثنائي الأول لشعوب داغستان. في هذا المؤتمر تكلم ستالين باسم حكومة روسيا

الاتحادية السوفياتية، فأعلن الاستقلال الذاتي لبلد الجبال ـ لداغستان. اسم جديد، طريق جديد ومصير جديد. هذا اليوم يشار إليه في تقاويم داغستان باللون الأحمر.

وبعد ذلك بقليل. استقبل لينين في موسكو وفي غرفته بالكرملين رسل داغستان. وبعد حديث طويل ومشهود، ونزولاً عند طلب هؤلاء الجبليين، أهداهم لينين صورته وقد كتب تحتها: «من أجل داغستان الحمراء». وإنها لأعزّ هدية...

وصنع حدادو كوباتشين المهرة ونجارو أونتسوكول البارعون إطاراً لهذه الصورة لم يُرَ له شبيه...

وفي هذا العام بالذات غادرت مرفأ ماخاتشكالا سفينة جديدة هي «داغستان الحمراء». لقد أصبحت داغستان الآن تشبه سفينة جبّارة تخرج في رحلة طويلة جديدة.

«نجم الصباح» هكذا سميت أول مجلة داغستانية. لقد طلّ الصباح على داغستان وشرعت النوافذ على العالم الكبير.

حين كانت فصائل غوتسينسكي تعيث في الجبال في تلك الأيام الصعبة من أيام الحرب الأهلية، تلقى والدي رسالة من زميل له في المدرسة.

تحدّث زميله السابق في هذه الرسالة عن نجم الدين غوتسينسكي وقواته. وفي نهاية الرسالة قرأ والدي ما يلي: «نجم الدين غير راض عنك. وقد بدا لي أن بودّه كثيراً أن تتوجّه إلى فقراء الجبل بأبيات تقول فيها الحقيقة عن الإمام. ولقد أخذت على عاتقي أن أتصل بك، ووعدته بأنك ستفعل هذا. أرجوك، لبّ رجائي ورغبة الإمام. إن نجم الدين في انتظار كلمتك».

وأجاب أبي: «إذا أخذت على عاتقك مثل هذا الأمر، فاكتب إذن أنت قصيدة في نجم الدين. أما ما يتعلق بي، فإني لا أنوي أن أجرّ الماء إلى طاحونته.

وسلام وكلام...».

في هذا الوقت استدعى البلشفي محمد ميرزا خيزرويف والدي إلى تيميرخان شورا، وعرض عليه التعاون في جريدة «الجبال الحمر» وفي هذه الجريدة نشرت قصيدة والدي «نداء إلى فقراء الجبل».

كان أبي يكتب عن داغستان الجديدة، وكان يساهم في تحرير جريدة «الجبال الحمر». ومرّ الوقت. وولدت لمحمد ميرزا خيزرويف طفلة. استدعوا والدها ليختار لها اسماً. رفع الوالد طفلته عالياً وأعلن:

ـ زاغرا!

زاغرا معناها نجم.

وولدت نجوم جديدة. وكبر أطفال يحملون أسماء أبطال قضوا. وأصبحت داغستان كلها مهداً كبيراً.

كانت مياه قزوين تغني لها أغاني المهد. وانحنى البلد الجبار فوق داغستان كما تنحني الأم فوق طفل.

كانت أمي آنذاك تغني أغنيات عن السنونو وعن الأعشاب النابتة تحت الحجارة، وعن الأزهار المتفتحة في الخريف.

على أنغام هذه الأغاني ترعرع في بيتنا ثلاثة أبناء وبنت.

ومن جديد شبّ في داغستان مائة ألف ابن وابنة. شبّ فلاحون ورعاة وبستانيون وصيادو أسماك، ونحاتون وسكاكون ومهندسون زراعيون وأطباء ومعلمون ومهندسون وشعراء وفنانون. فأبحرت سفن وحلقت طائرات وتوهجت مصابيح لم تكن معروفة من قبل.

قال سليمان ستالسكي:

ـ الآن أصبحت صاحب ثروة كبيرة.

قال والدي:

ـ والآن أصبحت مسؤولاً لا عن القرية وحدها، بل عن البلد كله.

وهتف أبو طالب:

ـ أيْ أغنياتي، طيري إلى الكرملين!

ورسمت الأجيال الجديدة ملامح جديدة للشعب. بلاد السوفيات العظيمة شجرة جبارة. وداغستان غصن فيها.

ولكي تجتث هذه الشجرة ويحرق جذعها وغصونها هاجمنا الفاشيست.

في ذلك اليوم كان يجب أن تجري الحياة مجراها العادي. في خونزاخ سوق الأحد. وفي قلعتها معرض لمنجزات المنطقة في الزراعة. فريق من الشباب خرج لاقتحام قمة جبل سيدلو. والمسرح الآفاري يعدّ مسرحية والدي «صندوق المصائب» للعرض. وكان من المقرّر لها أن تعرض مساء ذلك اليوم للمرّة الأولى.

في صباح ذلك اليوم فتح صندوق مصائب أنسانا كل مصائبنا الأخرى. في صباح ذلك اليوم بدأت الحرب.

وامتدت فوراً من القرى المختلفة صفوف من الرجال والشبان، كانوا حتى أمس دعاة وفلاحين مسالمين، وها هم أولاء اليوم أصبحوا حماة الوطن. كان العجائز والأطفال والنساء يقفون على أسطح كل قرى داغستان، وينظرون طويلاً في إثر الذاهبين. كانوا يذهبون لفترة طويلة، كان كثيرون منهم لا يعودون. ولم تكن تسمع إلا:

ـ الوداع، يا ماما.

ـ مع السلامة، يا والدي.

ـ إلى اللقاء، يا داغستان.

ـ سفراً طيباً، أيها الأبناء، عودوا إلينا منتصرين.

من ماخاتشكالا تنطلق القطارات دون انقطاع كأنها تفصل الجبل عن البحر. إنها تحمل شباب داغستان وجمالها وقوتها. لقد احتاجت البلاد كلها إلى هذه القوة. وكنت تسمع:

ـ إلى اللقاء، يا عروستي.

ـ الوداع، يا زوجتي.

ـ لا تتركني، أريد أن أذهب معك.

ـ سنعود بالنصر!

القطارات تنطلق، تنطلق دون انقطاع.

أذكر دار المعلمين. قرب المقبرة الجماعية لضحايا الثورة انتظم لواء الخيالة الداغستاني الذي يقوده النصير الأحمر كارا كارايف المجيد. وجوه عابسة، مستغرقة. اللواء يقسم اليمين.

أحد الجبليين وقد بلغ من العمر تسعين عاماً يلقي أمام اللواء الذاهب خطاباً:

ـ آسف لأني لست اليوم ابن ثلاثين. لكنني أستطيع أنا الآخر أن أذهب مع أولادي الثلاثة.

ثم ظهر سرب المقاتلات «داغستان». ورتل الدبابات «شامل»، والقطاع المدرّع «كومسومول داغستان». الآباء والأبناء يقاتلون معاً في صف واحد. وأشرقت شجاعة المقاتلين فوق الجبال من جديد. الأساور والأقراط والزنانير والخواتم وهدايا الخاطبين والأزواج والآباء، الفضة والذهب والأحجار الكريمة وفن داغستان القديم العريق وهبته نساؤنا للبلاد الكبيرة كي تصنع النصر.

أجل، لقد مضت داغستان إلى الجبهة. وحاربت مع البلاد كلها. وفي كل قطعة عسكرية: عند البحارة، وعند المشاة، وعند رجال الدبابات، وعند الطيارين، وعند المدفعيين كان بإمكانك أن تصادف الداغستاني رامياً وطياراً وقائداً ونصيراً. وكانت الرسائل الكئيبة تنهال على داغستان الصغيرة من كل الجبهات العريضة.

في قريتنا تسادا سبعون بيتاً. مثل هذا العدد تقريباً ذهب إلى الحرب. كانت أمي تقول أثناء الحرب: «كثيراً ما أرى في نومي كأن فتياننا التساديين يجتمعون في نيجنايا بوليانا». وأحياناً كانت تقول إذا رأت نجماً في السماء: «قد يرى فتيان قريتنا الآن أيضاً هذا النجم في مكان

ما قرب لينينغراد». وحين كانت الطيور المهاجرة تصل إلينا من الشمال، كانت أمي تسألها: «ألم تري فتياننا، فتيان تسادا؟».

كانت جبليّاتنا يحفظن عن ظهر قلب، وهن يقرأن الرسائل أو يستمعن إلى الإذاعة، أسماء صعبة عليهن وغير مفهومة مثل كيرتش، برست، كورسون شيفتشنكوفسكي، بلويشتي، كونستانسا، فرانكفورت ناميني، براندنبورغ. وكان هناك اسمان يستوقفان جبلياتنا بنوع خاص: بوخارست وبودابست، وكن يدهشن لكونهما اسمين لمدينتين مختلفتين.

أجل، أي مكان لم تطأه أقدام الفتيان من قرية تسادا!

في عام ثلاثة وأربعين ذهبت مع والدي إلى مدينة بالاشوف. هناك، في مستشفاها العسكري مات أخي الأكبر. وعلى حافة نهرها الصغير وجدنا قبراً قرأنا عليه كلمات: «محمد حمزاتوف».

غرس والدي على القبر شجيرة، بتولا روسية، وقال: «لقد اتسعت الآن مقبرتنا، مقبرة تسادا، وكبيرة أصبحت قريتنا».

مقبرة تسادا

في مقبرة تسادا...
وفي الأكفان البيض
ترقدون، أيها الجيران، تلفكم الظلمة.
لقد عدت إلى بيتي من بعيد
لكنكم لن تعودوا إلى بيوتكم رغم أنكم قريبون منها.

لم يبق في القرية إلا قليل من الأصدقاء
الأقرباء تناقصوا في قريتي...
وأنت يا ابنة أخي الأكبر،
أنت أيضاً لم تخرجي اليوم للقائي.

ماذا حدث لك أيتها المرحة الخالية من الهم؟
السنون، كما الماء، تمر فوقك.

أتراب الأمس أنهوا دراستهم
أما أنت فستبقين على الدوام تلميذة الصف الخامس.

لقد بدا لي سخيفاً وغريباً
في هذه المنطقة حيث لا يوجد أحد
أن يدوي مزمار بياسلان،
ابن بلدي، فجأة عند قبره.

نقر دف صديقه أبي الصمد،
سمع من جديد، كما في الأيام البعيدة تلك،
وخيل لي من جديد، أنهم يمرحون
كما مرحوا آنذاك، في عرس جارهم.

كلا.. السكان هنا ليسوا بالصاخبين،
ومن تناديه لا يردّ النداء..
مقبرة تسادا يا موطن الصامتين،
ويا بيت أبناء بلدي الأخير.

أنت تكبرين وتوسعين حدودك،
والمكان يضيق بالشواهد أكثر مما كان قبل عام.
إني أدرك: سيأتي يوم أكون
فيه أنا أيضاً ضمن حدودك.

لقد كتب علينا هنا في النهاية
أن نلتقي مهما تشعبت بيننا الدروب.
لكني هنا لا أرى كثيرين من التساديين،
مع أني أعرف أنهم ماتوا منذ زمن بعيد.

الجنود الشباب والمحاربون الشيب
لم تدركهم الظلمة الحالكة في بيوتهم.
أين دفنت أنت يا إسحق بياسلانوف،
وأين أنت يا رفيقي حاجي ماغوما؟

أين أنتم، أيها الأخوة الأعزاء الذين صرعوا،
أعرف أننا لن نلتقي أبداً.
لكني لا أستطيع أن أعثر على قبوركم
في مقبرة قريتنا تسادا.

في ساحة المعركة البعيدة اخترق الرصاص قلوبكم
وفي ساحة المعركة البعيدة ضممتم يداً إلى يد،
يا مقبرة تسادا كيف قذفت
القبور، قبور بنيك إلى هذا البعد!

والآن في الأمصار، الباردة والحارة،
حيث الشمس تحرق والعواصف الثلجية هوج،
لن تحمل الآفاريات إلى قبورك
الأزهار في حب ولن ينثرنها فوق التراب.

أثناء الحرب كانت تعلّق عندنا على الحائط في مجلس القرية خريطة كبيرة. كانت تعلّق في البلد كله آنذاك كثير من هذه الخرائط. وفي العادة كانوا يشيرون عليها بأعلام صغيرة حمر إلى خط الجبهة. مثل هذه الأعلام كانت على خريطتنا أيضاً، لكنها كانت تعني شيئاً آخر. لقد غرزت في الأمكنة التي سقط فيها أبناء تسادا. كان هناك الكثير من هذه الأعلام على الخريطة، بعدد قلوب الأمهات التي جرحتها هذه الدبابيس الحادة.

أجل، لقد تبيّن أن مقبرة تسادا لم تكن صغيرة، وأن قريتنا لم تكن صغيرة هي الأخرى.

كانت الأمهات اللواتي ذوبهن الشوق يذهبن إلى البصارات، وكانت البصارات يهدئن من روع الجبليات: «ها هو ذا طريق. ها هي ذي نار. ها هو ذا النصر. سيعود إليك ابنك. وسيحلّ السلام والهدوء».

البصارات كنّ يراوغن. لكنهن لم يخطئن فيما يخص النصر. توجد

على جدار الرايخستاغ بين جملة كتابات أخرى واحدة حفرت بنصل تقول: «نحن من داغستان».

وعاد الشيوخ والنساء والأطفال يقفون على سطوح البيوت وينظرون إلى بعيد. لكنهم لم يكونوا الآن يودعون، بل كانوا يستقبلون نسورهم. لم تكن ترى على طرقات الجبل طوابير الناس. لقد ذهبوا كلهم دفعة واحدة، لكنهم يعودون الآن واحداً بعد آخر. بعض النساء يضعن مناديل زاهية على رؤوسهن، وبعضهن يضعن مناديل سوداً. وتسأل النساء العائد:

- أين ابني عمر؟

- هل رأيت ابني علي؟

- وهل يعود قريباً ابني محمد؟

وعصبت أمي رأسها بمنديل أسود. فولداها، أخواي محمد وأخيلتشي لم يعودا. لم يعد كثيرون من أولئك الذين رأتهم أمي في أحلامها يلعبون في نيجنايا بوليانا. ولم يعد أولئك الذين توقعت لهم البصارات عودة قريبة. مائة رجل لم يعودوا إلى قريتنا الصغيرة. ومائة ألف رجل لم يعودوا إلى بيوتهم في داغستان كلها...

أنظر إلى الأعلام الصغيرة على الخريطة، وأقرأ أسماء الأماكن وأتذكر أسماء مواطني. في بحر بارنتس بقي محمد غادجيف، وفي سيمفيروبول جندي الدبابات محمد زاغيد عبد المنان. في ستالينغراد خرّ رامي الرشاش، التشاشاني، وفي الوقت نفسه ابن داغستان خان باشا نوراديلوف. وفي إيطاليا قاد الأنصار وسقط هناك البطل كمالوف...

في كل قرية من قرى الجبل نصب هرمية، وعليها أسماء، أسماء، أسماء. الجبلي يترجّل عن حصانه حين يقترب منها، والراجل يخلع قلبقه.

وفي الجبال تسقسق ينابيع تحمل أسماء الذين استشهدوا. قرب هذه الينابيع يجلس الشيوخ لأنهم يفهون لغة الماء.

وفي كل بيت، وفي مكان الصدارة منه تعلق صور أولئك الذين سيبقون دائماً محافظين على جمالهم وشبابهم.

حين أعود من بعض أسفاري، تسألني بعض الأمهات يراودهن أمل خفيّ: «ألم تلتق صدفة بإبني؟». وينظرن بأمل وألم إلى الغرانيق التي تمر أسراباً طويلة. وأنا أيضاً لا أستطيع أن أرفع عنها عيني حين تمرّ.

الغرانيق

يبدو لي أحياناً أن الفرسان
الذين لم يعودوا من المعارك الدامية
لم يدفنوا في مقابر الشهداء
وتحوّلوا إلى غرانيق بيض.

ما زالوا حتى الآن، ومنذ تلك السنين الخوالي
يطيرون ويرسلون لنا أصواتهم.
أليس هذا هو السبب في أننا أحياناً كثيرة
نصمت حزانى ونحن نحدّق في السماء؟

وأرى الآن: فوق الأرض الغريبة
وفي ضباب ما قبل المساء، الغرانيق
تطير بنظامها المعتاد
كما لو كانت بشراً تهيم في الأرض.

إنها تطير، تكمل دربها الطويل
وتهتف بأسماء.
أليس اللسان الآفاري منذ الأزل، ومن أجل ذلك
يشبه صوت الغرانيق؟

السرب التعب في السماء يطير، يطير -
أصدقائي القدامى وأهلي

في صفهم متسع،
قد يكون هذا المكان لي.

سيأتي يوم أسبح فيه
مع أسراب الغرانيق في تلك الظلمة الزرقاء،
وأناديكم كعصفور من تحت قبة السماء
أنتم الذين تركتكم على هذه الأرض.

الغرانيق تطير، الأعشاب تنمو، الأسرّة تهتز. ثلاث ضمّهن السرير في بيتي أيضاً، ثلاث بنات ولدن لي، وولد لآخر أربعة صبيان، ولآخر عشرة وأحياناً خمسة عشر. مائة سرير يهتزّ في قرية تسادا، مائة ألف سرير يهتزّ في داغستان. إن داغستان تحتل المكان الأول في روسيا الاتحادية من حيث نسبة مواليدها. أصبحنا مليوناً ونصف المليون. وبقدر ما يزداد الناس، تزداد الأعراس، وبقدر ما تزداد الأعراس يزداد الناس.

يقول الجبليون: ثلاث حالات لا يجوز الإبطاء فيها: دفن الميت، وإطعام الضيف، وتزويج الصبية البالغة.

وهذه الأمور الثلاثة كلها لا يحدث فيها إبطاء في داغستان. ها هو ذا الطبل يدق، والمزمار يصدح، والأعراس تبدأ. وحين يرفعون أول كأس يهتفون: «لتلد العروس صبياً».

وهناك أيضاً ثلاثة أشياء على الجبلي أن ينفذها دون قيد أو شرط: أن يشرب القرن حتى آخره، وأن يحافظ على اسمه، وأن لا يفقد رباطة جأشه في ساعة المحنة.

والمحن التي حلّت بالجبليين غير قليلة. ومطرقة القدر قرعت كثيراً صخور داغستان تريد أن تفتتها، لكنها صمدت.

ومع هذا فالعالم، اليوم كما بالأمس، لا يسوده الهدوء. فتارة هنا

وطوراً هناك يدوي الرصاص فوق البسيطة، وتتفجّر القنابل، وكما هي الحال دائماً تضم الأمهات أطفالهن إلى صدورهن.

حين تظهر في السماء غيوم تبشر بالمطر، يسرع الفلاح إلى حقله ليجمع بسرعة ما حصده. وحين تتجهّم السماء فوق العالم، تسعى الشعوب إلى الدفاع عن السلام وحمايته من خطر الحرب.

يقولون في داغستان: الثور الذي يحب الخصام، يُجَمُّ قرناه، والكلب الذي يعضّ يربط بالسلسلة. لو كان في العالم مثل هذه القاعدة، لأصبحت الحياة ميسورة. إن داغستان الصغيرة أخذت تحمل الآن هموم العالم الكبير.

في السابق كان الجبليون، إذا خرجوا في غزو، لا يأخذون معهم الفرسان الصغار في السن. لكن شاملاً قال: يجب أخذهم. الخنصر غير كبير، ولكن القبضة بدونه لا يمكن أن تكون قوية.

فلتكن داغستان خنصراً في القبضة الكبيرة والقوية للبلد بأكمله. عندئذ لن يستطيع الأعداء، مهما حاولوا، أن يفكّوا هذه القبضة.

وهذه القبضة هي على الأعداء، أما الأصدقاء، فهي على كتفهم ليست إلّا راحة واسعة مبسوطة. والخنصر في الراحة موجود على أي حال.

حين أزور البلدان الأخرى، أتعرّف أول ما أتعرّف على الشعراء. فالأغنية تفهم الأغنية جيداً. ثم أحاول أن أتعرّف أيضاً على مواطنيّ، إذا كان لهؤلاء وجود في ذلك البلد. بالطبع، أبناء البلد في الخارج مختلفون. لكني لا أطيق التعالي على أبناء البلد بالذات لأنهم مختلفون. لقد التقيت بهم في تركيا وفي سوريا وفي ألمانيا الاتحادية. بل هل هنالك مكان لم ألتق فيه بهم؟

بعض الداغستانيين تركوا الوطن منذ القديم منذ أيام شامل. هجروا مواقدهم بحثاً عن سعادة لم تتوفّر لهم في بيوتهم.

وبعضهم فهم الثورة أو لم يفهمها، لكنه غادر مذعوراً، وبعضهم

أخرجته الثورة ذاتها. كما توجد بقية باقية هي أخبثهم وأدعاهم للرثاء وأكثر ضياعاً. هؤلاء خانوا وطنهم في الحرب الأخيرة. لقد رأيت داغستانيين متنوعين. حتى أني زرت في تركيا قرية داغستانية.

قال لي سكان هذه القرية:

ـ لنا هنا أيضاً داغستان صغيرة.

ـ لا، أنتم مخطئون، داغستان واحدة فقط. ولا يمكن أن يكون هناك داغستانان.

ـ ومَن نحن، في رأيك، ومن أين؟

ـ أجل، مَن أنتم ومن أين؟

ـ من كارات، ومن بالتوخ، ومن خونزاخ، ومن أكوش، ومن كوموخ، ومن تشوخ، ومن سوغراتل. نحن من مختلف قرى داغستان، تماماً كهؤلاء الذين يرقدون في مقبرة القرية هذه. نحن أيضاً داغستان صغيرة!

ـ كنتم. وبعضكم يريد حتى الآن أن يكونه. ولعل هؤلاء أيضاً داغستانيون؟ سألتهم وأنا أشير إلى صور غوتسينسكي وعلي خانوف وأوذون حاجي.

ـ ومن يكونون إذاً؟ إنهم من أبناء شعبنا، ونحن وهم أصحاب لغة واحدة.

ـ داغستان لم تفهم لغتهم، ولا هم فهموا لغة داغستان.

ـ كل واحد يفهم داغستان على طريقته. وكل واحد يحمل داغستان في قلبه.

ـ لكن داغستان لا تعتبر أياً منهم ابناً لها.

ـ ومن تعتبر إذاً؟

ـ تعالوا إلى حيث أسرّة أطفالنا تهزّ!

ـ وماذا يقولون هناك عنا؟

ـ حجارة لم تقرب الحائط، وبقيت زائدة حين كانت داغستان تشاد.

أوراق حملتها ريح الخريف، وأوتار لم تتجاوب مع الوتر الأساسي في المزمار.

هكذا كنت أتحدث مع مواطني الذين يعيشون في الغربة. بينهم الغني والفقير، الطيب والشرير، الشريف وغير الشريف، المخدوع والخدّاع. رقصوا أمامي رقصة «الليزغينكا» لكن دفهم كان غريباً.

إننا لا نحسب هؤلاء الناس حين نقول إن عددنا مليون ونصف مليون نحن الداغستانيين.

عندما كنت أغادر سوريا، طلبت مني إحدى الآفاريات بإلحاح أن أبلغ تحيتها لشجرة المشمش في غرنجيل وأن أمرّ عليها بيدي.

وقال لي أطفال آفاريون على شاطىء بحر مرمرة ذهب والدهم إلى مكة للعبادة:

ـ مكة بالنسبة لنا هي داغستان. الذي يذهب إلى مكّة يسمونه «حاجاً». أما الآن فالحاج بالنسبة لنا هو كل من يتمكّن من زيارة داغستان.

ذات مرة أتى إليّ في ماخاتشكالا أحد هؤلاء الحجاج الذين لم يروا داغستان منذ أربعين عاماً.

ـ كيف؟ سألته. هل تغيرت داغستان؟

ـ إذا ذهبت أروي لهم هناك، فلن يصدقوا. لكني سأقول لهم شيئاً واحداً: داغستان موجودة!

داغستاني موجودة! الجمهورية موجودة! الشعب، اللغة، الأسماء، العادات موجودة. هذا هو مصير داغستان. الأعراس تقام، والأسرة تتأرجح والأنخاب ترفع والأغاني تعلو.

الكلمة

تأتي الكلمة الآفارية «ملّات» بمعنيين: الأمة والهمّ. كان والدي يقول: «من لا يهتم بأمته، لا يستطيع أن يهتم بالعالم كله».

وكان أبو طالب يتساءل: «هل على الأمة أن تهتم بمن لا يهتم بها؟».

وكانت أمي تقول: «الدجاج، والأوز، والجرذان، ليس لها أمة على ما يبدو، أما الناس فيجب أن تكون لهم أمة».

قد تكون هناك أمة واحدة وجمهوريتان مختلفتان، كما عند جيراننا الأسيتينيين.

«مجموعة هائلة من اللغات والشعوب». قال أحد عابري السبيل في داغستان.

وقال الأعداء في داغستان: «تنّين بألف رأس».

وقال الأصدقاء في داغستان: «شجرة كثيرة الأغصان».

وقال الرحّالة: «لو طفت العالم كله في وضح النهار ومصباحك في يدك، فلن تجد على وجه هذه الأرض مكاناً فيه هذا العدد القليل من الناس وهذا العدد الكثير من القوميات».

وكان أبو طالب يمزح قائلاً:

ـ نحن ساعدنا كثيراً في تطوير الثقافة الجيورجية.

ـ ماذا تقول؟ ثقافتهم تمتد إلى ما قبل ألف عام. شوتا روستافيلي عاش منذ ثمانماية عام، أما نحن فلم نتعلم الكتابة إلا بالأمس. فكيف كان بمقدورنا أن نساعدهم؟

ـ أنظر كيف: لكل قرية عندنا لغتها. فقرّر جيراننا الجيورجيون أن يدرسوا هذه اللغات ويقارنوا إحداها بالأخرى. ثم كتبوا في ذلك مقالات وكتباً علمية وأصبحوا علماء ومرشحين ودكاترة في علوم اللغة. أرأيت؟ هل كان من الممكن أن يكون بينهم هذا العدد من الدكاترة، لو لم تكن في داغستان كلها إلّا لغة واحدة؟ هذا هو لبّ الموضوع.

أجل، تُكتب الآن، وستكتب، كتب من مختلف الألوان في نحو لغات داغستان وصرفها وعلم أصواتها ومفرداتها. وفي هذا المجال أشياء يجب العمل فيها. فتعالوا أيها العلماء، فهنا ما يكفيكم أنتم وأبناؤكم.

النقاش دائر بين العلماء. بعضهم يقول: في داغستان كذا لغة وبعضهم يقول: لا، بل كذا. بعضهم يقول: نشأت اللغات على هذا النحو، وبعضهم يقول: لا بل على هذا النحو. أجل هناك الكثير من التناقضات في محاكماتهم وفي براهينهم.

لكن جلّ ما أعرفه أنا، هو أنه يستطيع أن يسافر في العربة الواحدة عندنا أناس يتكلمون خمس لغات، أما إذا توقفت في مفترق طرق خمس عربات فستسمع ثلاثين لغة.

حين جرى تنفيذ الإعدام بالمنظمة الحزبية السرية التي كان يرئسها أولوبي بويناكسكي ـ وكانت تتكوّن من ستة أشخاص ـ صبّ هؤلاء قبل موتهم اللعنات على أعدائهم بخمس لغات مختلفة:

الكومي أولوبي بويناكسكي.
الآفاري سعيد عبد الجميلوف.
الدارغيني عبد الوهاب حاخديف.
الكومي مجيد علي أوغلي.

اللیزغي عبد الرحمن إسماعيلوف.
الروسي أوسكار ليشنسكي.

للكاتب الداغستاني محمد سليمانوف خمس عشرة قصة مرحة عن خمسة عشر محمداً من خمس عشرة قومية داغستانية مختلفة. هذه القصص تحمل اسم «خمسة عشر محمداً».

وهناك تحقيق للكاتب الروسي ديمتري ترونوف عن كولخوز يعمل فيه أناس من اثنتين وثلاثين قومية.

كتب أفندي كابييف في مفكرته يصف كيف سافر هو وثلاثة من الكتاب الداغستانيين هم سليمان ستالسكي، وحمزة تساداسا، وعبيد اللّه محمدوف ـ في مقصورة واحدة بالقطار إلى موسكو لحضور مؤتمر الكتاب السوفيات الأول، وكيف أنهم بقوا ثلاثة أيام بلياليها، وهم شعراء داغستان الشعبيون، لا يستطيعون التحدث أحدهم إلى الآخر. فقد كانت لكل منهم لغته. وكانوا يتفاهمون بحركات أيديهم وإيماءات وجوههم، وبهذه الطريقة استطاعوا أن يتفاهموا إلى حد ما.

يقول أبو طالب وهو يتذكّر حياته مع الأنصار: «كنا نتكلم بعشرين لغة على قدر من طحين الشوفان، وكيس الطحين كنا نوزعه على عشرين قومية».

توجد عندنا دجونفوتاي السفلى ودجونفوتاي العليا. المسافة بينهما ثلاثة كيلومترات. في دجونفوي السفلى اللغة الكوميكية، وفي دجونفوتاي العليا اللغة الآفارية.

يقول الدرغينيون إن ميغيب يسكنها درغينيون، في حين يقول الآفاريون إن ميغيب يسكنها آفاريون. لكن ماذا يقول سكان ميغيب أنفسهم؟ يقولون: نحن لسنا درغينيين ولا آفاريين، نحن ميغيبيون، ولنا لغتنا الميغيبية، وإذا ابتعدت مسافة سبعة كيلومترات عن ميغيب، تصل تشوخ. لا تدخل تشوخ ومعك لغتك الميغيبية، فلتشوخ لغتها الخاصة.

ويروى أيضاً أن خان خونزاخ أرسل إلى غيداتلي مخبراً يستمع إلى أحاديثهم في أسمارهم وأسواقهم، وليعرف بماذا يفكر به أهالي غيداتلي.

وعاد المخبر أسرع مما يجب.

ـ هل عرفت كل شيء؟

ـ لم أعرف شيئاً.

ـ وكيف؟

ـ كل واحد منهم يتكلم بلغته الخاصة. ولغاتهم هذه نحن لا نفهمها.

عشق أحد الجبليين صبية حسناء فقرر أن يكتب لها كلمتين حميميتين «أنا أحبك» ولكن ليس في رسالة بل هناك حيث تروح الفتاة وتغدو، حيث تستطيع رؤية مصارحته هذه: على الصخر، على الدرب المؤدي إلى النبع، على جدار بيتها، على مزماره. وفي هذا كله لا يوجد أي ضير. إنما خطر لعاشقنا أن يكتب هاتين الكلمتين بكل اللغات الموجودة في داغستان؟ ولهذه الغاية خرج في سفر. كان يعتقد أن سفره لن يطول. لكن تبيّن له أن هاتين الكلمتين تقالان في كل قرية بشكل يختلف عن الأخرى.

دي مدن ايوكولا (الآفارية).
زازفون كياندا (الليزغينية)
تون ايناتشاي بورا (اللاكية)
خيوناب ايفورلا (الدرغينية)
مين سيني سومين (الكوميكية)
اوزوز اونو كوندوزو (تاباسارانية)
مي توري خوسدينوم (التاتية)

وما زال هناك البوتليخيون والتشوخيون والتسومادينيون والتسونتينيون.

ويقال إن هذا العاشق ما زال حتى الآن يضرب في الجبال. حبيبته

تزوجت منذ أمد بعيد، وشاخت منذ أمد بعيد، وما زال فارسنا يكتب كلمتيه الاثنتين.

سأل أحد الشيوخ شاباً:

هل تعرف كيف يقال: «أنا أحبك» بلغتكم.

عندئذ ضم الشاب فتاة تقف إلى جانبه وقال:

ـ هكذا يتكلمون عن الحب في لغتي.

لكل عصفور صغير، ولكل زهرة، ولكل ساقية في داغستان عشرات الأسماء.

بحسب الدستور عندنا ثماني قوميات رئيسية: الآفاريون، الدرغينيون، الليزغينيون، اللاكيون، التاتيون، التاباسارانيون والنوغائيون.

ونصدر خمسة تقاويم أدبية بخمس لغات وهي: دوفال، دوسلوك، تلماغديش، غودولتشي، وبالمناسبة أنها كانت ذات تسمية واحدة ـ «الصداقة».

تصدر الكتب في داغستان بتسع لغات، لكن بكم لغة تغنى الأغاني؟ لكل سجادة وشيها، وعلى كل سيف كتابته.

لكن كيف اتفق لليد هذا العدد من الأصابع؟ وكيف ظهر في داغستان هذا العدد من اللغات.

اتركوا لعلماء اللغة أن يفسروا هذا الأمر كما يرون. لكن والدي كان يروي القصة التالية:

أخذ رسول اللّه يجوب الأرض على بغله ويوزع على الشعوب لغاتها من خرج ضخم، زار الصينيين وأعطاهم اللغة الصينية زار العرب وأعطاهم اللغة العربية. اليونانيون أعطاهم اليونانية، الروس الروسية والفرنسيون الفرنسية. وكانت اللغات متنوعة: منها المموسق، ومنها القاسي، ومنها الجميل، ومنها اللطيف. سرت الشعوب بهذه الهبة، وأخذت تتكلم بلغة إنسانية، كل منها بلغته. وصار الناس بفضل لغاتهم

يتعرّف بعضهم على بعض بطريقة أفضل، وصار الشعب يفهم بطريقة أفضل الشعب الآخر، المجاور له.

وأخيراً وصل هذا الرسول على بغله إلى داغستاننا، بعد أن أعطى الجيورجيين اللغة التي سيكتب فيها شوتا روستافلي قصيدته، وبعد أن أنعم على الأوسيتينيين بلغتهم الأوستينية التي سيكتب فياكوستا خيتاغوروف. جاء دورنا الآن.

لكن صدف أن عاصفة ثلجية كانت تهب على جبال داغستان في ذلك اليوم. كان الثلج يدوّم في السفوح ثم يرتفع في الجو. لم يكن يرى شيء. لا طرق ولا سكن ولم يكن يسمع إلا الريح وهي تصفر في العتمة والصخور وهي تنهار بين الحين والآخر، وأنهرنا الأربعة، أنهر كويسو الأربعة وهي تهدر.

قال موزّع اللغات وقد بدأ شارباه يتجمدان، لا لن أتسلق هذه الصخور، وفي مثل هذا الطقس.

أخذ هذا خرجه، وكان لا يزال في أسفله مقدار حفنتين من اللغات التي لم توزع بعد، ونثر هذه اللغات كلها على جبالنا:

ـ ليأخذ كل منكم اللغة التي يريد ـ قال.

حملت العاصفة اللغات المنثورة وأخذت تذروها فوق الشعاب والصخور. ولكن في هذا الوقت بالذات أسرع الداغستانيون من بيوتهم مهرولين متدافعين للقاء المطر المبارك الخيّر الذي طال انتظارهم له آلاف السنين. وأخذوا يلتقطون هذه الحبات الثمينة، ويجمعونها كما تيسر. آنذاك حصل كل منهم على لغته الأم. وعاد الجبليون بغنائمهم إلى بيوتهم يترقبون هدوء العاصفة.

وينهضون في صباح اليوم التالي: الشمس مشرقة، والثلج لا وجود له. وينظرون حولهم ـ الجبل. الآن هذا «جبل» يمكن تسميته باسمه. وينظرون ـ البحر! الآن هذا «بحر» ويمكن تسميته باسمه. أصبح الآن بإمكانهم أن يسموا كل ما تقع عليه عيونهم. يا للفرحة. ها هو ذا

الخبز، ها هي ذي ماما، ها هو ذا البيت، ها هو ذا الموقد، ها هو ذا الابن، ها هو ذا الجار، ها هم أولاء الناس.

وتدفق الناس إلى الطرقات وصرخوا بصوت واحد «جبل» لكن الأصوات كانت مختلفة. ثم صرخوا بصوت واحد «بحر» لكن الأصوات كانت مختلفة.

وهكذا ظهر من ذلك الوقت الآفاريون والليزغينيون والدرغينيون والكوميكيون، والتاتيون واللاكيون... وهذا كله يسمى داغستان منذ ذلك الوقت. وتميّزت الناس عن النعاج والذئاب والجياد والجنادب... يقال «إن الجواد لم يكن ينقصه إلا قليل حتى يصبح إنساناً».

أي رسول اللّه! لماذا دغرت آنذاك من العاصفة الثلجية والجبال الشديدة الانحدار؟ لماذا نثرت علينا اللغات خبط عشواء؟ لماذا فعلت هذا؟ لقد فرقت وقسمت أناساً قريبين من بعضهم كل القرب روحاً وقلباً وأعرافاً وعادات ونمط حياة.

لكن حسناً، لك الشكر حتى على هذا.

فاللغات السيئة لا وجود لها. وسنتدبر أمورنا في الباقي. سنجد الطريق أحدنا إلى الآخر، وسنعمل حتى تكون اللغات المختلفة في نهاية الأمر صلة وصل بيننا، لا دليل تفرقة.

ثم أغار علينا تيمورلنك الأعرج والعرب وشاه إيران، وسعوا كلهم إلى فرض لغتهم علينا. لكن أصابعنا لم تبتر لأنهم هزوا يدنا، وأغصان شجرنا لم تتكسر لأنهم هزّوها.

قال شامل: «يجب أن نحافظ على لغتنا محافظتنا على تراب وطننا».

أردف الحاج مراد: «الكلمات كالرصاصات لا تهدرها سدى».

«حين يموت الوالد، يورث أبناءه بيتاً، حقلاً، سيفاً، مزماراً. لكن الجيل، حين يذهب، يورث غيره من الأجيال التالية اللغة. من عنده لغة بوسعه أن يبني بيتاً ويحرث حقلاً، ويصنع سيفاً أو مزماراً ويعزف عليه» هكذا كان يقول والدي.

إيه، لغتي الأم! لا أدري إن كنت راضية عني، إنما أنا أعيش بك، وبك أعتز. وكما يندفع ماء الينبوع من الأعماق المعتمة إلى النور حيث الخضرة، كذلك كلمات لغتنا الأم تتدافع من قلبي إلى لساني. لتهمسك شفتاي وأنصت إلى همسي أنا، أنصت إليك، يا لغتي، فيبدو لي أن نهراً جبلياً يهدر في مضيق شاقاً طريقه. أحب هدير الماء وأحب رنين الفولاذ الدمشقي حين يلتقي خنجران استلا من غمديهما. كل هذا موجود في لغتي. كما أحب أيضاً همسات الحب.

من الصعب عليّ، يا لغتي الأم، أن أجعل كل الناس يعرفونك، ما أغنى أصواتك، وما أكثر هذه الأصوات، وكم يصعب على غير الآفاري أن يتعلم لفظها، لكن ما أعذب لفظها حين يتقنه المرء! خذ على سبيل المثال هذا العد البسيط حتى العشرة: تو، كييفو، ليابغو، يونكفوا، شوفو، ميكفو، ايتشيفو، انتسيفو. حين ألتقي بإنسان يستطيع أن يعدّ حتى العشرة بشكل صحيح باللغة الآفارية، فهذا العد يشبه الرجولة اللازمة لإنسان كي يقطع نهراً فائضاً من الضفة إلى الضفة وهو يحمل صخرة عظيمة على كتفيه. إذا كنت تستطيع أن تعد حتى العشرة بشكل صحيح، تستطيع كل ما عدا ذلك. تستطيع أن تسبح. فتقدّم بجرأة.

ماذا أقول في القوميات الأخرى! حتى الشيوخ كانوا يقولون لأطفالنا الآفاريين: «حاول دون تعثر أن تردّد ثلاث مرات على التوالي: «كيودا غيورك كفيرك كفاكفادانا» أي ما معناه: «تنق ضفدعة تحت الجسر». إنها أربع كلمات فقط، لكننا كنا، نحن أطفال القرية، نتمرّن أياماً كاملة كي نلفظ هذه الجملة بشكل صحيح وسريع.

كان أبو طالب يعرف التحدث بالآفارية، وقد أرسل ابنه إلى قريتنا تسادا ليتعلم هو أيضاً اللغة الآفارية وحين عاد الابن، سأله أبو طالب:

ـ هل ركبت الحمار؟

ـ ركبت.

ـ وهل تعرف أن تعد حتى العشرة؟

ـ أعرف.

ـ قل لي ثلاث مرات على التوالي: «كيودا غيورك كفيرك كفاكفادانا».

قال الابن:

ـ أوه، يمكن أن تعتبر أني بلغت الهدف الذي أرسلتني من أجله.

هذه هي لغات قرانا المحصورة بين الصخور. ليس في لغة من لغات العالم من الأحرف ما يكفي لتسجيل لفظنا، أصواتنا أي ـ على حد تعبير العلماء ـ للتعبير بالرموز الصوتية عن أصوات لغتنا الحلقية والحلقية المرخمة. ولهذا السبب اضطررنا حين أنشئت أبجديتنا، لأن نضيف إلى حروف الأبجدية الروسية أحرفاً ومجموعات أحرف خاصة. وهذا يتعلق بنوع خاص بالأحرف الساكنة. وإليكم بعضاً منها: غي، خي، في، ليل.

وبسبب هذه الأحرف الزائدة على الأرجح، يبدو أي كتاب آفاري مترجم إلى اللغة الروسية أصغر مما هو عليه في الآفارية؟ ونستطيع أن نشبهه بقروي صام صيام المسلمين طوال ثلاثة أشهر متتالية.

سأل أحدهم شاملاً:

ـ وما حاجة داغستان إلى هذا العدد الكبير من القوميات؟

ـ كيما تهب الواحدة إلى نجدة الأخرى إذا أصابها مكروه، ولكي تستطيع الواحدة أن تساعد الأخرى إذا شرعت هذه في الغناء.

وأسأل الآن:

ـ وماذا؟ هل هبّ الجميع لنجدة الواحدة؟

ـ نعم.. ولم تبق أي منها لامبالية.

ـ وهل غنين بتناسق؟

ـ نعم فوطنهن واحد.

الأنغام كثيرة، لكنها تؤلف أغنية واحدة.

الحدود بين اللغات قائمة، لكن لا حدود بين القلوب. ومآثر مختلف الناس انصبت أخيراً في مأثرة واحدة.

ـ ومع هذا هناك فرق بين مختلف القوميات؟
وما هو هذا الفرق؟
ـ تصعب جداً الإجابة عن هذا السؤال.

يقال في قومياتنا إن بعضها خلق ليحارب، وبعضها ليصنع السلاح، وثالثها ليرعى الغنم، ورابعها ليحرث الأرض، وخامسها ليغرس البساتين... لكن هذا كلام فارغ. فلكل شعب محاربوه ورعاته، وحدادوه وبستانيوه. كما لها كلها أبطالها ومغنوها وصناعها المهرة.

الآفاريون: المحاربان القديمان شامل والحاج مراد، والشاعران حمزة ومحمود، والثائران ماخاتش وخزرويف، وبطلا الحرب الوطنية محمد غادجيف وسعدو الييف.

الدرغينيون: باطيراي، باغاتيريوف، أحمد منجي، ربدان نوروف، كاراكارايف.

الليزغينيون: سليمان، إيمين، تاغير، أغاسيف أجيروف.

الكوميكيون: إيرتشي كازاك، عليم باشا، أولوبي، سلطان سعيد، زين اللبيد، باطير مورزاريف، نوخاي.

اللاكيون: هارون سعيد، سعيد غابيف، أفندي كابيف، سورخاي، وصديقي أبو طالب أيضاً.

لم أذكر من القوميات الكثيرة إلا التي خطرت على بالي للوهلة الأولى. ولم أذكر من كل قومية إلا الأسماء التي خطرت على بالي للوهلة الأولى. لكن أمثالهم كثير عندنا وعند القوميات الأخرى، وكثيرة هي الأسماء المجيدة. بينهم محاربون قدماء وشعراء ومعلمو حرف، كما يوجد بينهم أبطال من هذا الزمان.

يقال في بعضهم: إنهم طائشون، وفي بعضهم: إنهم أغبياء، وفي آخرين، إنهم لصوص، وفي غيرهم إنهم خداعون. لكن هذا كله افتراء في رأيي.

فنحن نجد في كل قومية كرماء وأنذالاً، جميلين وقبيحين، كما نجد لصوصاً ونمامين. لكن هؤلاء نباتات طفيلية، وليسوا هم الأمة ذاتها.

كان أحد أصدقائي يقول:

ـ أستطيع دائماً أن أميز سلفاً قومية أي إنسان.

ـ وكيف ذلك؟

ـ الأمر بسيط جداً. أناس إحدى قوميات داغستان (ولن نذكر اسمها) يبحثون بعد وصولهم إلى ماخاتشكالا أول ما يبحثون عن مطعم وعن مكان يستطيعون أن يتعرّفوا فيه إلى فتاة جميلة. حين يجتمع ثلاثة منهم يؤلفون شلة صاخبة ومجلس أنس. وأناس قومية أخرى (ولن نذكر أيضاً اسمها) يسرعون إلى السينما، إلى المسرح، إلى الحفلات الموسيقية. حيث يوجد ثلاثة من هؤلاء، فهناك أوركسترا، وحيث خمسة ففرقة رقص وغناء كاملة، وبعضهم الآخر يندفعون إلى المكتبات، ويحاولون الانتساب إلى المعاهد، والدفاع عن الأطروحات. حيث يوجد ثلاثة منهم فهناك لجنة علماء، وحيث خمسة ففرع من أكاديمية العلوم، وآخرون (ولن نذكر الأسماء) لا يفكرون إلا بشراء سيارة، أو حتى بأن يصبحوا سائقي سيارة، أو في أسوأ الأحوال أن يجدوا لهم محلاً في مرآب. حيث ثلاثة من هؤلاء فمحطة سيارات وحيث خمسة فحظيرة لوسائل النقل. وآخرون يفضلون ورشة، أو محلاً للبيع، أو مطعماً، أو حتى كشكاً. حيث ثلاثة من هؤلاء فمحل تجاري، وحيث خمسة فمجمع صناعي.

لكننا نقول هذا على سبيل المزاح فقط. فهل يمكن أن توجد قوميات، لا يحب رجالها الفتيات الجميلات، أو لا يريدون الجلوس في مطعم؟

عند كل منهم مسارحه ورقصاته وأغانيه. كما عندنا فرقة مشتركة للقوميات كلها هي «ليزغينكا» وعندهم كلهم يوجد من يرغب في اقتناء سيارة «فولغا» أو في العمل في متجر. لكن هذا هو الطابع القومي؟ وقد

ذكر أبو طالب ذات مرة مرضاً لم يسمع به في داغستان من قبل هو السكر.

قال أبو طالب ما يلي: «فيما مضى كان في قريتنا سكير واحد، وقد اشتهر بهذا وأصبح معروفاً في المنطقة كلها. والآن لا يوجد في قريتنا إلا صاح واحد، ويأتي الناس من أماكن بعيدة لينظروا إليه كأنهم ينظرون إلى معجزة».

ويروي أبو طالب في هذا الصدد كثيراً من القصص المختلفة، لكني أخشى، إذا ما استرسلنا معه في قصصه، أن ننسى تماماً موضوع حديثنا. وقد كنا نناقش في السمات التي نستطيع أن نميز بها إنسان قومية داغستانية عن إنسان قومية داغستانية أخرى. أيمكن أن يكون اللباس شكل القلبق؟ أو طريقة وضع القلبق؟ لكنهم كلهم الآن يلبسون سترات واحدة وقمصاناً واحدة وأحذية واحدة، وقلبقاً واحداً. كلا، إذا بقي شيء يسم قومية ويميزها عن أخرى بشكل حاسم، فهو اللغة. ومن الطريف حقاً أنه حين يتكلم الليزغي أو التاتي، الآفاري أو الدرغيني باللغة الروسية، فمن الممكن فوراً تمييز الكومي عن اللاكي، والليزغيني عن الكومي وذلك من اللهجة فقط، أي من تشويه اللغة الروسية.

فالآفاريون على سبيل المثال، يضيفون في كلامهم حرف «إ» إلى كل كلمة تبدأ بحرف «س» فيقولون «إستمبول» (والأساس «ستمبول» بالروسية»). «استكان» (ستكان)، «استالسكي» ستالسكي.

ذات مرة كنا نتكلم عن لغاتنا بحضور أبي طالب، كان محدثي يريني الاختلاف في اللفظ بتقليده. أصغى إليه أبو طالب في أول الأمر، ثم قاطعه وقال:

ـ اجلس واصمت. لقد طبّلت كثيراً وطويلاً. والآن اسمع ما أقوله: عيوب إنسان ما، لا يجوز إسقاطها على الشعب كله. الغابة لا تكون من شجرة واحدة. ولا حتى من ثلاث شجرات. وحتى المائة شجرة ليست غابة بعد. مسألة لغاتنا مسألة معقدة. إنها عقدة من تلك العقد التي

تحصل حين يعقد حبل مبلل. كانوا يعتبرون في وقت ما أن أبسط حل للمسألة هو التظاهر بعدم وجود مثل هذه المسألة: أن لا تتكلم عنها أن لا تمسها ـ ذلكم هو الحل! لكن المسألة موجودة. في الأيام الغابرة لم يكن شيء يدفع الناس إلى إشهار السيوف بهذه الكثرة مثل العنعنات القومية؟

أذكر أحد المؤتمرات الصحفية التي جرت في ماخاتشكالا. فقد أتى إلى داغستان ثمانية وثلاثون مراسلاً معتمداً في موسكو ويمثلون تسعاً وعشرين دولة مختلفة. زار هؤلاء القرى في أول الأمر، وتحدثوا إلى جبليينا وجبلياتنا، ثم التقوا في المؤتمر الصحفي. طقطقت آلات التصوير، وآلات التصوير السينمائي، وبرى المراسلون أقلامهم، وأدنوا منهم ورقة بيضاء.

جلسنا جميعاً إلى منضدة كبيرة. وتبيّن أن أكبرنا سناً هو أبو طالب، فعهدنا إليه بافتتاح المؤتمر. قال أبو طالب:

ـ سيداتي، سادتي، أيها الرفاق.. (كنا قد علمناه أنه يجب افتتاح المؤتمر بهذه الكلمات. أما ما قاله بعد هذا فكان من بنات أفكاره). تعالوا نتعارف. ها هو ذا بيتنا. وها نحن أنفسنا. وهؤلاء هم شعراؤنا المشهورون...

وأشار أبو طالب إلى صور معلقة على الحائط. كان ينظر إلى الضيوف من هذه الصور باتيراي، كازاك، محمود، سليمان، حمزة، أفندي...

قال أبو طالب بضع كلمات في كل منهم: قوميته، لغته، ما كان يعيش من أجله، والمجد الذي بلغه. وحين وصل الدور إلى صور أبي طالب ذاته، قال دون أي حرج:

ـ وهذا أنا نفسي. لكن لا تظنوا أني أتيت إلى وراء هذه المنضدة، من الحائط، بل إني وصلت إلى الحائط من هنا، من وراء هذه المنضدة.

ثم قدم أبو طالب لضيوفه الشعراء الجالسين إلى المنضدة، وأردف يقول:

ـ قد يكون لبعضهم مكان على هذا الحائط في يوم ما. تعارفوا: أحمد خان أبو بكر، حداد ذو يدينِ ذهبيتين وكاتب داغستان الشعبي.

فازو وموسى. زوج وزوجته. كاتبان، روائيان، شاعران، كاتبان مسرحيان في أسرة واحدة. أحياناً يكتبان معاً، وأحياناً كل على حدة.

مطالب ميتاروف ـ صهر الشعب الآفاري، وشاعر تاباساراني.

شاه أمير مرادوف ـ «حمامة السلام» شاعر ليزغيني. يكتب دائماً عن الحمائم.

جام الدين كاتبنا الهجائي، مارك توين داغستان، والمسؤول في الوقت نفسه عن الليفوند.

أنور ـ شاعر داغستان الشعبي، والمحرر الرئيسي لخمسة تقاويم أدبية.

ترونوف ـ كاتب روسي يعيش في داغستان.

خزغيل أفشالوموف ـ كاتب تاتي يكتب بلغته الأم وباللغة الروسية.

واستمر أبو طالب في تقديم الكتاب لضيوفه، مما أجبر بدوي وسليمان وساشاغراتش وإبراهيم وأليرزا ومجيد وأشوغ روتولسكي على النهوض. ثم عرف الضيوف بمحرري التقاويم الأدبية، ثم قال:

ـ يحرم علينا بمقتضى قوانين الضيافة أن نسأل الضيوف عن أسمائهم...

لكن الضيوف نهضوا فوراً واحداً بعد واحد. معرفين بأنفسهم: البلد الذي أتوا منه والصحيفة التي أوفدتهم.

ثم بدأت الأسئلة والأجوبة كما يفترض في مؤتمر صحفي.

سؤال: عندكم منْ الألسنة بقدر ما عندكم من القوميات، بلبلة بابلية حقيقية. كيف تتفاهمون؟

أبو طالب يجيب: الألسن التي نتكلم بها مختلفة. أما الألسن التي في أفواهنا فواحدة (ثم وضع يده على قلبه) إنه يفهم جيداً. (ثم فرك أذنيه) أما هما فيفهمان سيئاً.

سؤال: أنا مراسل صحيفة بلغارية قل لي، هل توجد بين اللغات الداغستانية المختلفة درجة قرابة كتلك الموجودة مثلاً بين البلغارية والروسية؟

أبو طالب يجيب: البلغارية والروسية أختان توأمان. أما لغاتنا فلا تصل القرابة بينها حتى الدرجة الرابعة. لا توجد بينها كلمات واحدة أبداً. تحدث بين كتابنا أحياناً بعض الشللية، أما في مسألة اللغات فلا وجود لأي شللية. كل واحد قائم بذاته.

سؤال: من أي أرومة لغاتكم، وما هي أقرب اللغات إليها؟

أبو طالب يجيب: يقول التاتيون إنهم يفهمون اللغة التادجكية، ويستطيعون قراءة حافظ. لكني أسألهم: إذا كنتم تفهمون لغة السعدي والخيام، لماذا لا تكتبون مثلهم؟

كانوا يقولون في السابق أثناء الخطوبة وفي مدح الخطيب: «إنه يعرف اللغة الكومية»، وكان هذا يعني أن الخطيب واسع المعرفة، وأنه «نصيب» لا يفوّت.

وفي الواقع، حين تفهم اللغة الكومية، تفهم في الوقت نفسه التركية والأذربيجانية والتترية والبلكارية والكازاخية والأوزبيكية والكرغيزية والبشكيرية ولغات أخرى كثيرة متقاربة. وتستطيع دون حاجة إلى ترجمة قراءة حكمت وكايسين وكولييف موسى كريم... لكن لغتي؟ لا أحد سوانا نحن اللاكيين يفهمها، اللهم إلا علماء كرسوا لها سنين عديدة

بهدف الحصول على درجة الدكتوراه. أحد اللاكيين المعروفين دار العالم كله ووصل إلى الحبشة وأصبح هناك وزيراً. وقد كان يؤكد أنه لم يصادف في طريقه لغة واحدة تشبه لغتنا اللاكية.

عمر حاجي: ولغتنا الآفارية لا تشبه أي لغة أخرى.

أبو طالب: ولا توجد لغات تشبه الدرغينية واللزغينية والتاباسارانية.

سؤال: وكيف أتقنتم كل هذه اللغات المتباينة.

أبو طالب: في زماني تجوّلت كثيراً في داغستان. كان الناس في حاجة إلى الأغنية، وكنت في حاجة إلى الخبز. وحين تدخل قرية غريبة لا تعرف لغتها، حتى الكلاب تهاجمك بشراسة أكبر. الحاجة هي التي أجبرتني على تعلم لغاتنا الداغستانية.

سؤال: ومع هذا، ألا تستطيع أن تتحدث بتفصيل أكبر عن سمات القربى والاختلاف بين لغاتكم؟ وكيف حدث أن وجدت مثل هذه اللغات المختلفة في مثل هذا البلد الصغير؟

أبو طالب: لقد وضع الكثير من الكتب التي تتحدث عن الاختلاف وعن صلات القربى بين لغاتنا. أنا لست عالماً، لكني سأقول لكم كيف أتصور الموضوع. ها نحن نجلس هنا. بعضنا ولد ونشأ في الجبال، وبعضنا في السهول، بعضنا في الأماكن الباردة وبعضنا في الأماكن الدافئة، وقسم منا على ضفة النهر وقسم آخر على شاطىء البحر. بعضنا حيث يوجد حقل، إنما لا يوجد ثور، وبعضنا حيث يوجد ثور إنما لا وجود للحقل. بعضنا ولد في أماكن فيها نار، ولكن ليس فيها ماء،

وبعضنا في أماكن فيها ماء ليس فيها نار. هناك لحم، وهنا قمح، وفي مكان آخر فواكه أيضاً. حيث يحفظ الجبن توالدت الجرذان، وحيث ترعى الأغنام تكاثرت الذئاب: أضف إلى ذلك التاريخ، الحروب، الجغرافيا، مختلف الجيران، الطبيعة.

ولكلمة «الطبيعة» عندنا معنيان. أحدهما هو الأرض، العشب، الأشجار، وثانيهما هو خلق الإنسان. والطبيعة المختلفة في أماكن مختلفة ساعدت على ظهور أسماء وقوانين وعادات مختلفة.

الناس في الأماكن المختلفة يضعون القلبق على رؤوسهم بطرق مختلفة، ويلبسون بطرق مختلفة، وبطرق مختلفة يبنون بيوتهم. وعند سرير الأطفال يغنون أغاني مختلفة. محمود كان ينشد أغانيه على مزمار من وترين، ومزمار إيرتشاكازاك كان من ثلاثة أوتار. واللزغيني سليمان ستالسكي كان يعزف على «الطائرة»[1]... الأوتار في بعض الأدوات الموسيقية كانت تصنع من أمعاء الماعز، وفي بعضها من الحديد.

كثيرة هي الشعوب ولكل منها عاداته. وهنا كما في كل مكان، حين يولد طفل، بعض الشعوب تعمده، وبعضها يطهره، وبعضها يجهز له شهادة ميلاد. حين يبلغ الإنسان الرشد عادات أخرى. يخطبون له فتاة. على أي حال الخطوة أصبحت هي الأخرى عادة. أردت أن أقول حين يتزوج الإنسان ـ فهناك عادات أخرى تأخذ مجراها. وإذا أردنا أن نتكلم عن طقوس الزواج الداغستانية، فلن يكفينا يوم بكامله. ومن يريد الاطلاع عليها، فسوف نهديه كتاب «عادات شعوب داغستان» اقرأوه حين تعودون إلى بيوتكم.

سؤال: عاداتكم مختلفة ولغاتكم مختلفة، فما هو إذاً الشيء الذي يقربكم ويجمعكم؟

أبو طالب: داغستان.

---

(1) آلة عزف داغستانية (المترجم).

سؤال: داغستان. . قيل لنا إن هذه الكلمة تعني مترجمة «بلد الجبال» معنى ذلك أن داغستان ليست إلا اسم مكان؟

أبو طالب: ليست اسم مكان، بل اسم وطن، اسم جمهورية. هذه الكلمة واحدة لمن يعيش عالياً في الجبال، ولمن يعيش في الأودية. كلا، داغستان ليست مجرد مفهوم جغرافي. لداغستان وجهها، رغباتها، أحلامها. هناك تاريخ واحد، مصير واحد، وأتراح وأفراح واحدة. الألم في إصبع، ألا يمس الإصبع الآخر؟ وعندنا أيضاً كلمات واحدة مثل أوكتوبر، لينين، روسيا. هذه الكلمات لا تحتاج إلى أن تترجم إلى كل لغة. إنها مفهومة هكذا. يدور بيننا نحن الكتّاب مختلف أنواع النقاش. لكن بخصوص هذه الكلمات الثلاث لا يوجد بيننا أي خلاف. هل هذا مفهوم؟

سؤال: مفهوم. لكن إليك ما أريد أن أسأله: قرأت اليوم في إحدى الصحف شعراً لعادل علييف، وقد ترجمه إلى الروسية أناتولي زايتس. وقد أشير إلى أن الترجمة تمت من الداغستانية. فما هي هذه اللغة؟

أبو طالب: أنا أيضاً لا أعرف هذه اللغة، أمس رأيت عادل علييف وتحدثت إليه. أمس كان آفارياً. لا أعرف ماذا حدث له. لكن اطمئن، هذه ليست إلا غلطة.

سؤال: عندنا في أمريكا أيضاً كثير من القوميات واللغات المختلفة. لكن اللغة الأساسية، لغة الدولة هي الإنكليزية. بها تتم كل المعاملات وتسجل كل الوثائق. وعندكم؟ ما هي اللغة الأساسية؟

أبو طالب: اللغة الأساسية لكل إنسان هي لغة أمه. من لا يحب جباله، ليس أهلاً لأن يحب سهول الآخرين. والسعادة التي لا يجدها الإنسان في بيته، لن يجدها في الطريق، ومن يبصق على أمه، يبصق على كل النساء. كل أصابع اليد أساسية حين يجب أن تمسك السيف بقوة، أو تشد على يد صديق بقوة.

سؤال: قرأت قصيدة مطالب ميتاروف، وفيها يؤكد أنه ليس آفارياً،

ولا تاتياً، ولا تاباسارانياً، بل هو داغستاني، فماذا تقول بهذا الخصوص؟

أبو طالب (وهو يبحث عن مطالب بعينيه): اسمع يا ميتاروف، كونك لست آفارياً ولا كومياً ولا تاتياً ولا نوغائياً ولا ليزغينياً أمر أعرفه منذ أمد بعيد. أما أنك لست تاباراسانياً، فهذا شيء أسمعه لأول مرة. من تكون إذاً؟ قد تكون غداً وتقول إنك لست مطالب ولست ميتاروف. ها أنا ذا أبو طالب غفورروف مثلاً. أنا لاكي أولاً وداغستاني ثانياً وشاعر بلاد السوفيات ثالثاً أو يمكن أن نعد عكساً: أولاً أنا شاعر سوفياتي، وثانياً أعيش في جمهورية داغستان، وثالثاً أنا لاكي وأكتب باللغة اللاكية. هذه الأمور كلها لا يمكن نقضها. وهي كلها أعز كنز لديّ. ولا أريد التنازل عن واحد منها. وفي سبيلها أنا على استعداد أن أسير إلى النار.

سؤال: (مراسل من جمهورية ألمانيا الديمقراطية) ها هو ذا كتاب المرشح في العلوم الطبية، الرفيق علي كيشيف «طول العمر في داغستان»، بين يدي. يتحدث المؤلف فيه عن أناس تجاوزوا المائة من عمرهم، ويبرهن أن داغستان تحتل المكان الأول في الاتحاد السوفياتي من حيث طول الأعمار فيها. لكنه يؤكد فيما بعد أنه يلاحظ تقارباً تدريجياً بين القوميات، وأنه توجد الآن آفاق لقيام أمة واحدة في داغستان. ويدعي أن الآفاري والدرغيني والنوغائي سيحسبون أنفسهم داغستانيين بعد بضع سنوات، وسيسجل هذا في تذاكر هوياتهم، كما قرأت أيضاً مقالات أحد علمائكم يؤكد فيها أن أدبكم أخذ يحطم الحدود القائمة بين القوميات وهو في طريقه لأن يصبح أدباً داغستانياً. فإذا كان المرشحون في العلوم ودكاترتها يثيرون مثل هذه القضايا في كتبهم ومقالاتهم، فهل يعني هذا أن هذه المطالب هامة وعميقة؟

أبو طالب: أنا أيضاً أعرف الرفيق علي كيشيف. إنه من منطقتنا. لقد

طاف هذا العالم بشيوخ كثيرين حتى يخبروه عن حياتهم. لكنني أشك في أن يكون أحد هؤلاء الشيوخ الجبليين هو الذي أوحى له بفكرة إنشاء قومية واحدة من هذه القوميات المتعددة. إن هذا ثمرة تفكيره الخاص. لقد رأيت غير قليل من هؤلاء «الميتشوريين» الذين يحاولون استنبات أنواع جديدة من اللغات في «مخابرهم» بتهجين لغات مختلفة وإجراء تجارب عليها كما على الأرانب. استعدوا ليوحدوا في مسرح واحد سبعة مسارح قومية داغستانية، واستعدوا لينشئوا صحيفة واحدة من خمس صحف قومية داغستانية، واستعدوا ليوحدوا فروعاً عديدة من فروع اتحاد كتابنا في فرع واحد، لكن هذا أشبه ما يكون بتحويل شجرة كثيفة الأغصان إلى جذع منتصب.

سؤال: أنا مراسل صحيفة هندية. وعندنا أيضاً في الهند الكثير جداً من اللغات: الهندي والأوردو والبنغالي... بعض القوميين المتعصبين أرادوا أن تصبح لغتهم وحدها اللغة الرسمية لعموم الهند. وقد جرت بسبب ذلك نقاشات وصدامات دموية. فهل حدث شيء من هذا عندكم؟

أبو طالب: جرى مثل هذا النقاش عندنا ذات مرة بين ولدين. كانوا طفلين ـ أحدهما آفاري والآخر كومي ـ يركبان حماراً واحداً. كان الولد الآفاري يصرخ: «خيا، خيا، خياما» والكومي يصرخ: «ايش، ايش، ايشيك!». كلا الكلمتين تعنيان «حمار» لكن وطيس النقاش حمي بين الولدين، حتى أنهما سقطا معاً في نهاية الأمر عن ظهر الحمار وبقيا بدون (خياما) وبدون (ايشيك)، في رأيي أن هذا نقاش أطفال. نحن لا نحول لغاتنا إلى ذئاب، وهي لا تتعارك. «غبي البيت يشنع على جيرانه، وغبي القرية يشنع على القرية المجاورة، وغبي قومية ما يشنع على البلدان الأخرى» إن الذي يتناول بالسوء لغة أخرى، لا يحسب عندنا إنساناً.



سؤال: تريد أن تقول، إذاً، إنه لم يكن عندكم في هذه المسألة لا مناقشات، ولا اختلافات؟

أبو طالب: كانت مناقشات. لكن أحداً لم يتعرّض في أي وقت إلى لغاتنا بشكل جدي. وإلى أسمائنا أيضاً. لقد ترك كل واحد يكتب ويقرأ ويغني ويتحدث باللغة التي يريد. النقاش وارد في معرض البرهنة على أن هذا أمر جيد أو سيىء، صحيح أو غير صحيح، جميل أو قبيح. لكن هل يمكن أن تكون لغات أو شعوب أو قوميات بكاملها غير صحيحة، سيئة أو قبيحة؟ ولو صدف وحدثت مناقشات في هذا الموضوع، لما كان فيها غالب أو مغلوب.

سؤال: ومع هذا، أليس من الأفضل لو كانت في داغستان قومية واحدة ولغة واحدة؟

أبو طالب: هذا ما يقوله كثيرون «آه، لو أن لنا لغة واحدة!» قال رجب الدين للقيصر إيراكل أثناء إحدى غزواته لجورجيا: «المصيبة كلها في أننا لا يفهم بعضنا لغة بعض». وكتب الحاج مراد من خيداك ـ تاباساران إلى إمامه يقول: «لم يفهم أحدنا الآخر».

من الأفضل بالطبع أن يتفاهم الناس بيسر ومن الكلمة الأولى. فهذا أبسط ويوفر عليهم الكثير من الجهد. لكنه ليس بالأمر السيىء في نظري أن يكون في الأسرة كثير من الأولاد. وعلى الأسرة أن تعنى بكل واحد منهم. نادرون هم الآباء الذين يندمون، فيما بعد، لأن لهم كثيراً من الأولاد.

يقول بعضهم: «من يحتاج إلى لغتنا خارج حدود دير بنت؟ وعلى أية حال لن يفهمنا أحد».

ويقول بعضهم: «وما نفع لغتنا وراء ممر أراكين؟».

ويتذمّر آخرون: «لن تصل أغنياتنا حتى إلى البحر».

لكنهم يتعجلون جداً في إيداع لغتهم المتاحف.

سؤال: وماذا تقول في التكاتف؟

أبو طالب: التكاتف ضروري بين غرباء. أما بين الأخوة فليس له شأن.

سؤال: إلا أن الأخوين في حاجة إلى لغة واحدة كي يتفاهما.

أبو طالب: عندنا مثل هذه اللغة.

سؤال: أي لغة هذه؟

أبو طالب: تلك التي نتحدث الآن بها معاً. اللغة الروسية. يفهمها الآفاري والدرغيني واللزغيني والتاتي والكوميكي واللاكي، يفهمها الجميع. (يشير إلى صور ليرمنتوف وبوشكين ولينين) مع هؤلاء يفهم بعضنا بعضاً بشكل جيد.

سؤال: قرأت كتاب رسول حمزة الصادر في جزأين. في الجزء الأول وفي قصيدة «لغتي الأم» يمجد رسول اللغة الآفارية. وفي الجزء الثاني وفي قصيدة بنفس العنوان، يمجد اللغة الروسية. هل من الممكن أن نمتطي حصانين بوقت واحد؟ وأي حمزة يجب أن نصدق: حمزة الجزء الأول أو الثاني؟

أبو طالب: ليجب عن هذا السؤال رسول نفسه.

رسول: وأنا أيضاً أعتقد أنه لا يمكن امتطاء حصانين في آن واحد. لكن شدّ حصانين إلى عربة واحدة أمر ممكن ليجراها. حصانان، لغتان تحملان داغستان إلى الأمام. إحداهما اللغة الروسية، وثانيتهما لغتنا: الآفارية للآفاري، واللاكية للاكي. تعزّ عليّ لغتي الأم، وتعزّ عليّ لغتي الأم الثانية التي قادتني عبر الجبال وفي هذه الشعاب الجبلية إلى المدى الرحب، إلى العالم الكبير والغني. ما هو عزيز عليّ أدعوه عزيزاً، ولا أستطيع إلا أن أفعل ما فعلت.

سؤال: أريد بهذا الخصوص أن أوجّه سؤالاً آخر إلى حمزة. يقول رسول في قصيدته ما يلي: «إذا كان مقدراً للغة الآفارية أن تموت غداً، فلأمت أنا الآن فوراً بالسكتة القلبية». إنما يقولون عندكم أيضاً: «إذا حضر الكبير، فعلى الصغير أن ينهض» وها هي ذي اللغة الروسية قد

حضرت.. أفلا يجب على اللغات المحلية أن تخلي لها المكان؟ ألا تسير الأمور في هذا الاتجاه؟ وأقول مستخدماً كلماتكم: لا يمكنك أن تضع قبعتين على رأسك دفعة واحدة. أو: ما النفع في أن تضع في فمك سيجارتين دفعة واحدة؟

رسول: اللغات ليست قبعات، وليست سجائر. اللغة لا تعادي اللغة. والأغنية لا تقتل الأغنية. ولأن بوشكين أتى إلى داغستان، فلا يجب على محمود أن يغادر ربوعها. ليس هناك من معنى لأن يحل ليرمنتوف محل باتيراي. إذا شدّ صديق طيب على يدك، فإن يدك لا تذوب في يده، بل تصبح فقط أكثر دفئاً وقوة. اللغات ليست سجائر، بل مصابيح الحياة. وعندي مصباحان. أحدهما كان ينير لي الدرب في نافذة بيت والدي؛ كانت أمي هي التي أشعلته كي لا أضل الطريق. إذا انطفأ هذا المصباح، فستنطفىء حياتي فعلاً. ستغرق في الظلمة، حتى ولو لم أمت جسدياً. والمصباح الثاني أشعله بلدي العظيم، وطني الكبير، روسيا، كي لا أتيه في طريقي إلى العالم الكبير. وستكون حياتي بدونه مظلمة وتافهة.

أبو طالب: أيهما أسهل: أن ترفع الحجر عن كتفك بيد واحدة، أو عن صدرك بيديك الاثنتين؟

سؤال: ومع هذا، ألا يغادر الجبليون البيوت التي أشعلت فيها أمهاتهم المصابيح، وينتقلون إلى السهل؟

أبو طالب: لكنهم يأخذون معهم حين ينتقلون لغتهم وأسماءهم. كما لا ينسون أن يأخذوا القلبق. والنور الذي يشع في نوافذهم لا يزال هو هو.

سؤال: لكن الشباب في هذه الأماكن الجديدة يتزوجون فتيات من قوميات أخرى. فبأي لغة يتحدثون؟ وبأي لغة يتحدث أولادهم فيما بعد؟

أبو طالب: عندنا قصة قديمة، إليكموها. أحب شاب فتاة من قومية أخرى، وقرّر أن يتزوجها. قالت الفتاة:

«سأتزوجك، لكن يجب أن تحقّق مائة طلب من أجلي». أخذ الفتى ينفّذ كل أهوائها. أجبرته في أول الأمر أن يتسلق صخرة ملساء تماماً، ثم أن يقفز من تلك الصخرة. قفز الشاب وأصاب رجله، عندئذ أجبرته على أن يسير دون أن يعرج. وكان هذا الطلب الثالث. حسناً. كف الشاب عن العرج. كانت الطلبات متنوعة: أن يقطع النهر دون أن يبتل الخرج، وأن يوقف الجواد المنطلق، وأن يركع الحصان، وحتى أن يفلق تفاحة وضعتها على صدرها. نفّذ الشاب تسعة وتسعين طلباً. وبقي طلب واحد عندئذ قالت الفتاة: «والآن عليك أن تنسى أمك وأباك ولغتك». عندها وثب الشاب إلى حصانه، ولوح بسوطه وابتعد إلى الأبد.

سؤال: إنها حكاية جميلة. ولكن ماذا يحدث في الواقع؟

أبو طالب: في الواقع أنه حين يبدأ الشاب والفتاة حياتهما الزوجية، يأخذان على عاتقهما واجبات متعددة. لكن لا أحد منهما يجبر الآخر على أن ينسى لغته. بل على عكس ذلك، كل منهما يحاول أن يفهم لغة الآخر.

نحن في الواقع ننظر بحزن وباستنكار إلى الأطفال الذين لا يعرفون لغة أهلهم. وهؤلاء الأولاد أنفسهم لا يلبثون أن يلوموا والديهم لأنهم لم يعلموهم لغتهم. يا لهم من أناس يستحقون الرثاء.

وفي الواقع ها نحن أولاء نجلس أمامكم. ها هي ذي أشعارنا، قصصنا، رواياتنا، كتبنا. ها هي ذي صحفنا ومجلاتنا. إنها تصدر بلغات مختلفة. ويصدر منها مع كل عام أعداد متزايدة. البلد العظيم لم يرفض لغاتنا، بل أعلنت شرعيتها وثبتتها فتلألأت كالنجوم. «والنجم يتحدث إلى النجم» نحن نرى الآخرين، ويرانا الآخرون. ولو لم يكن هذا، لما سمعتم أنتم أيضاً عنا شيئاً، ولما اهتممتم بنا، لما كان هذا اللقاء. هذا هو الذي يجري في الواقع...

أسئلة وأجوبة، أسئلة وأجوبة. لو كان هناك متسع من الوقت، لما

انتهى هذا المؤتمر أبداً، على ما يبدو، عند كل الشعوب في كل الأزمان دار الحديث ويدور حول اللغة، لكن هذا الحديث لا ترى له نهاية.

ـ هذا المؤتمر يشبه حلقات الغناء عندنا، يسأل بعض ويجيب بعض. قال أبو طالب الذي أنهكه هذا الاجتماع الغريب جداً عليه.

السؤال سهم أُطلق اعتباطاً، حيثما اتفق. والجواب سهم يصيب الهدف. سؤال ـ جواب. إشارة استفهام ـ إشارة تعجب. الماضي سؤال والحاضر جواب.

كانت داغستان القديمة تشبه عجوزاً تجلس على حجر. كانت إشارة استفهام. وداغستان اليوم إشارة تعجب. إنها سيف مسلول من غمده ومرمى إلى أعلى.

حين أتت الثورة داغستان، قال الذين خافوها: إن القوميات واللغات والأسماء والألوان ستختفي عما قريب. ميسيود ستتحول إلى ماروسيا، وموسى إلى فاسيا. وقالوا إن الإنسان لن يكون لديه وقت حتى ليفكر من أي قومية هو أو من أين أتى. سينوّمون جميع الناس تحت لحاف واحد. الأقوى سيشد اللحاف إليه، والضعيف سيتجمّد من البرد.

ولم تعر داغستان أذناً صاغية لهؤلاء الناس. قال عضو حكومة الجبليين غيدار باماتوف وقد صعد إلى ظهر السفينة التي كانت تحمله إلى خارج الحدود: «لم تتقبل نفوسهم كلماتي. فلنر ما سيكون».

والذي حدث يراه الناس جميعاً. الكتب تتحدث عنه والأغنيات تردده. من له أذنان فليسمع، ومن له عينان فلير.

أحد هؤلاء الجبليين الذين خافوا اللحاف المشترك غادر داغستان إلى تركيا. وبعد خمسين عاماً عاد إلى الجبال ليرى ما يجري عندنا. دعوته لنتمشى قليلاً في ماخاتشكالا، بورت بتروفسك سابقاً. المدينة التي كانت تحمل اسم القيصر الروسي صارت تحمل اسم الثائر الداغستاني ماخاتش. أريت الضيف شوارع تحمل أسماء باتيراي وأولبي وكابييف. وشوارع سميت بأسماء أبناء داغستان تكريماً لهم. تطلع الضيف طويلاً

إلى مثال سليمان ستالسكي في الحديقة العامة المحاذية لشاطىء البحر. وفي شارع لينين رأى تمثال والدي حمزة تساداسا. وقد تبيّن أنه كان يعرف والدي قبل هجرته.

استقبله علماء من فرع أكاديمية العلوم، وتحدث إلى العاملين في معهد البحث العلمي الخاص بالتاريخ واللغة والأدب. وتجوّل في قاعات متحف التاريخ والفن الداغستانيين، وزار الجامعة حيث يدرس جبليون وجبليات شباب في كلياتها الخمس عشرة. وفي المساء ذهبنا إلى المسرح الحكومي في المسرح الآفاري المسمى باسم آفاري. كان آفاريون يشاهدون مسرحية، كتبها آفاري عن آفارية. كانت مسرحية حاجي زالوف «آنجيل مارين» وعندما غنت فنانة الشعب لجمهورية روسيا الاتحادية ـ فاطمة خيزرويفا على خشبة المسرح أغنية مارين، وهي أغنية آفارية قديمة، لم يتمالك ضيفي نفسه واغرورقت عيناه بالدموع.

وفي الساحة وقف طويلاً أمام تمثال لينين، ثم قال:

ـ ألست في حلم؟

ـ إرو هذا الحلم للآفاريين في تركيا.

ـ لن يصدقوا وأنا نفسي ما كنت لأصدق، لو لم أر هذا بعيني.

قال أبو طالب: «في المرة الأولى قطعت قصبة وصنعت منها زمارة ونفخت فيها. فسمعت القرية صوت زمارتي. ثم قطعت غصناً خشبياً وصنعت منه ناياً، وعزفت أغنية أخرى. فسُمع صوتي بعيداً في الجبال. ثم قطعت شجرة وصنعت منها زورناً، فسمع صوتها كل من في داغستان ثم أخذت قلماً صغيراً وكتبت به قصيدة على ورقة، فطارت إلى ما وراء حدود داغستان.

إذاً، شكراً لك مرة أخرى يا موزع اللغات، شكراً لأنك لم تنس جبلنا، قرانا وقلوبنا.

وشكراً لكل واحد فيكم يغني ويفكر بلغته الأم.

الأغنية

«باكيان» هذه الكلمة الآفارية تأتي بمعنيين: اللحن، النغمة، والحالة النفسية، المزاج عند الإنسان. وسلامة العالم. حين يطلب من إنسان أن يعرف لحناً ما، تقال كلمة «باكيان»، وحين يسأل إنسان عن حالة تقال كلمة «باكيان»، وهكذا فحالة الإنسان والأغنية تذوبان في كلمة.

كتابة على طنبور:

الخنجر يلقي الإنسان على سرير الموت،
والطنبور يبعثه حياً.

أنخل الكلمات، الحديث، تحصل على أغنية. وأنخل الحقد والغضب والحب، تحصل على أغنية. وأنخل الأحداث وشؤون الناس والحياة كلها، تحصل على أغنية.

«كانت إحدى الأغاني التافلينية تؤثر فيه بشكل خاص. كانت كلماتها قليلة، لكن سحرها كله كان في ترجيعها الحزين:

«آي، داي! دالالاي» وترجم إيروشكا لنفسه كلمات الأغنية: «ساق الفتى القطيع من القرية إلى الجبال، فأتى الروس وأحرقوا القرية، وقتلوا كل الرجال، وأخذوا كل النساء في الأسر. وعاد الفتى من الجبال: حيث كانت القرية، المكان قفر، لا أم ولا أخوة ولا بيت، لم تبق إلا شجرة واحدة. جلس الفتى تحت الشجرة وبكى. وحيداً، وحيداً بقيت،

ورفع الفتى صوته بالغناء: أي، داي، دالالاي» (ليف تولستوي) (القوزاقيون).

.. آي، داي، دالا ـ لاي، دالا، دالا، دولالاي دولالاي، يـــا أغاني الجبل الغالية، يا أغاني الجبل الحزينة، متى ولدت، أين وكيف؟

من أين أتيت مدهشة ورائعة بهذا الشكل؟

كتابة على طنبور:

أتظن أن الألحان من صنع الأوتار؟
كلا، إنها رجع الكلمات التي ولدت في القلب

كتابة على خنجر:

أغنيتان، نصلان، حدان:
موت الأعداء وحرية الوطن

كتابة على مهد:

ليس في هذا العالم إنسان.
لم تغن له في مهده
أغان لطيفة.
أغاني الأم

كتابة على معلم:

الطريق والأغنية، قدر الفتى.
الطريق والأغنية لا نهاية لهما.

كتابة على شاهدة قبر:

كان يغني والآخرون يستمعون،
أما الآن فهو يستمع حين يغني الآخرون

أغنيات قديمة وأغنيات جديدة.. أغنيات مهد وأغنيات أعراس ومعارك، طويلة وقصيرة. حزينة وفرحة. في مشارق الأرض ومغاربها تغنى! كلمات تنظم في خيط فضي كأنها خرز. وكلمات تدق بقوة كأنها مسامير. كلمات تفيض وتسيل بيسر. كما تبكي الحلوة، دمعة دمعة. كلمات تنطلق وتصيب الهدف. كسهام صوبتها يد دربة. كلمات تتلوّى

وتأخذك إلى البعيد البعيد، كأنها دروب جبلية قد تصل بك إلى آخر الدنيا.

المسافة بين سطرين مثل شارع يقع فيه بيت الحبيبة. إنها كثلم في حقل والدك. إنها كساعة الشروق أو المغيب تباعد ما بين النهار والليل.

أغنيات مكتوبة على الورق، وأغنيات غير مكتوبة على الورق. ولكن أياً كانت الأغنية، فيجب أن تغنى. والأغنية التي لا تغنى طائر لا يطير، وقلب لا ينبض، لا يخفق.

يقال عندنا في الجبل: حين لا يغني الرعاة، تكف النعاج عن قضم العشب. لكن حين تعلو الأغنية فوق السفح الأخضر، ترعى العشب حتى الحملان الجاهلة التي ولدت تواً.

طلب أحدهم إلى صديقه أن يغني أغنية بلغته الأم. قال هذا، ربما لأنه لم يكن يعرف أي أغنية أو لأنه لم يكن يعرف الغناء، ما عندنا أغنية.

ـ في هذه الحالة يجب أن نرى إذا كنت أنت أيضاً موجوداً أم لا؟ لا يمكن أن يوجد شعب بدون أغنية!

آي، داي، دالالاي، دولا لاي. الأغنيات هي مفاتيح تفتح بها صناديق اللغة المحرمة. آي، داي، دالالاي! دالا دالا ـ دولا لاي.

سأحكي لكم كيف ولدت الأغنية. وقد كتبت في هذا قصيدة، فإليكموها:

الخنجر والقيثارة

في القديم القديم كان فتى قروي
يعيش وراء الممر الجبلي
لم يكن له إلا خنجر واحد
وشجرة تين واحدة.

عنزته الوحيدة كان يرعاها
في المرج الأخضر.
وذات يوم أحب الفتى
إحدى بنات الخان.

كان الفتى ذكياً وشجاعاً.
لكن الخان قهقه
حين تقدّم الفتى المسكين
يطلب يد ابنته.

ليحلب عنزته أولاً
صاحب الشجرة الواحدة
والخنجر الواحد
وأعطاها،
أعطى الشاه ابنته
صاحب الأراضي الواسعة
والقطعان الوفيرة.

أخذ الحنين يلهب، كما النار،
صدر الفتى المسكين،
فامتدّت يده
إلى مقبض خنجره.
بعنزته ضحى للآلهة،
ومن جذورها
اجتث التينة.

من جذعها صنع قيثارة
كما أمرت ربة الشعر،
ومن أمعاء العنزة
أوتاراً لقيثارته.

وما كاد يلمس أوتارها

في الضباب المليء بالأسرار
حتى ولدت كلمات
كما القسم على القرآن.

عندئذ صارت الحبيبة له،
لصاحب الكنزين دون عناء:
الخنجر والقيثارة.

في القمة تعشش القرية
ملتصقة بالصخور، يتصاعد منها الدخان.
يعلق الخنجر والقيثارة.

القيثارة والخنجر. المعركة والأغنية. الحب والبطولة. تاريخ شعبي. هذان الشيئان يخصهما الجبليون بأجلّ مكان.

في البيوت، وعلى السجاجيد الجدارية المتصالبة كما في شعار، يعلق هذان الكنزان. الأيدي تمسك بهما في حذر، في احترام، في حب. لكنهما لا يؤخذان حين لا تكون إليهما حاجة.

حين تريد أن تنزل الخنجر، فلا بد أن يهمس أحد الشيوخ خلف ظهرك: «انتبه. لا تقطع وتر الطنبور». وإذا أردت أن تنزل الطنبور، فلا بد أن يقول لك: «انتبه، لا تجرح أصابعك». على الخنجر يحفرون رسم الطنبور، وعلى الطنبور يرسمون الخنجر، وعلى زنار الفتاة الفضي، وعلى حليها الفضي المتدلي على صدرها يرسمون الخنجر والقيثارة كما هما معاً على الجدار وعلى السجادة. عندما كانوا يخرجون إلى الحرب، كانوا يأخذون معهم الخنجر والقيثارة. فيصبح الجدار المكرم في البيت، خالياً، عارياً.

ـ وما نفع الطنبور في المعركة؟

ـ ما إن تضرب على أوتاره، ما إن تلامس أوتاره، حتى تسرع إليك

أرض آبائك، قريتك، بيت والدك. وأنت هنا بالضبط لتحارب من أجل هذا كله، وهذا وحده هو الذي يستحق أن يموت الإنسان في سبيله.

«القرى تتقارب، حين تسلّ السيوف» كان الشجعان يقولون فيما مضى: لكن لا شيء يختصر الطريق إلى قرانا كصوت الطنبور.

آي، داي، دالا ـ لاي، دالا ـ دالا ـ دالا ـ لاي.

كان محمود يغني في جبال الكربات، وكانت معه قريته وجباله. كما كانت إلى قربه حبيبته مريم، ثم ترك محمود وصية يقول فيها:

أهيلوا قدراً أقل من التراب على قبري
كي لا تسدّ أكوامه سمعي،
كي تستطيع أذناي وقلبي
سماع أغنيات جبالنا في القرية.

ادفنوا معي طنبوري المحبوب
كي لا تغمض عيونهن من أغانيّ،
وكي تسمع صوتي المشتاق
كل الجميلات في قريتنا.

وكأنما قال محمود أيضاً:

الجبل ينحني حين أعزف،
ولكن كيف لي أن أجعلك ترقين، يا حبي،
يا مريم؟
الأفعى ترقص، حين يعلو صوت طنبوري،
ولكن كيف لي أن أجعلك ترقين، يا حبي.
يا مريم؟

أتريد أن تعرف من أين أتت الأغنية الجبلية؟

ولدت في أحلام الشعب،
لا أحد يعرف بدايتها،
انصهرت في الصدر الرحب،
وفي الدم الحار جاشت.

أتت من الجوزاء المرصعة بالنجوم،
من بيوت داغستان وقراها،
وقبل أن تسمعها أنت،
سمعتها مئات الأجيال.

الأغنيات سيول تتدفق من الجبال. الأغنيات رسل، بشائر تتدافع من ساحة الوغى. الأغنيات أصدقاء أوفياء زاروك فجأة. خذ الطنبور، التشونفور، التشاغان، الزمارة، الكمان، الزورنا، الدف، الهارمونيكا، الطبل، خذ مجرد طاس أو أي صحن نحاسي. اضرب كفاً بكف. اضرب الأرض بكعب حذائك. استمع إلى السيوف كيف تتقارع. واستمع إلى صوت الحصاة ترمي بها نافذة المحبوبة. غنّ واستمع إلى أغانينا. إنها رسل الحزن أو الفرح. إنها شهادة الشرف والشجاعة، ودليل الفكر والعمل. إنها تجعل الشاب مكتمل الرجولة وحكيماً، والشيخ والحكيم شابين. إنها تجعل الفارس ينزل عن ظهر جواده وينصت، والراجل يثب إلى ظهر الحصان ويطير كالعصفور. إنها تجعل الثمل يصحو ويفكر في مصيره، والصاحي تجعله متهوراً ثملاً. أي شيء في هذا العالم ليس له أغنياته؟ أجلس جبلياً قرب موقده الدافىء، وقدّم له قرناً من البراغا المزبدة واطلب إليه أن يغني أغنية. سيغنّيها. وسيغني إلى الصباح إذا شئت، ولكن أطلب ذلك إليه بالحسنى، واذكر له ما تريد أن يغنيه. في الحب؟ ستكون لك أغنية في الحب.

آي، داي، دالالاي
الحب أحمر كالدم والخزامى.
الحب أسود كالليل والخداع.
وأبيض كعقدة الصبية،
أبيض ككفن من الكتان.
أشد زرقة من السماء ومن الجليد.
الحب رائع كنجم.
الثلج يهطل والسيل يجف،
لكن زهرة الحب لا تذوي.

ـ ما أجمل شيء في هذا العالم؟
ـ البنفسجة في الجبال.
ـ وما هو أجمل من البنفسجة في الجبال؟
ـ الحب.
ـ وما هو أسطع شيء في هذا العالم؟
ـ الشمس في الجبال عند الصباح.
ـ وما هو أسطع من الشمس في الجبال عند الصباح؟
ـ الحب.
ـ آيْ، دايْ، دالالاي! وعمّن أغني لكم أيضاً؟
ـ عن العشاق الذين قتلهم الحب.
ـ روميو وجوليت، طاهر وزهرة، ترستان وإيزولدا..

وهل كان أمثال هؤلاء قلة عندنا في داغستان! ما أكثر هؤلاء العشاق الذين لم يمتلك أحدهما حبيبه، لم تتحقق أحلامهم، لم تمتزج شفاههم، لم تتشابك أيديهم! فتيان كثيرون ذهبت بهم الحرب، وكثيرون غيرهم ذهب بهم الحب. احترقوا في ناره، رموا بأنفسهم من الصخور العالية، وقفزوا إلى الأنهر الهادرة. ها هي ذي فتاة من آزيني وها هو ذا شاب من كوموخ. وها هي ذي قصتهما، ها هو ذا حبهما.



سأروي لكم نهاية حبهما التي تعرفها داغستان كلها:

أتى شاب من كوموخ إلى آزيني ليرى حبيبته. لكنها لم تكن لتطل عليه. أربعة أيام وأربع ليال انتظر الفتى. وفي اليوم الخامس امتطى جواده ليعود إلى بيته.

نظر إلى تحت ـ الأرض جافة
نظر إلى فوق ـ السماء زرقاء
فمن أين هطل المطر
وبلّل عباءة الفتى؟
على سطح البيت ميسيدو خطيبته
دموعها تنهال
كما الماء من الجبال.
أربع ليال انتظرت وأربعة أيام
فلمَ، لمَ كنت تختفين؟
حين سمع إخوتي وقع حوافر حصانك
حبسوني وراء أربعة أبواب، أربعة أقفال
أربعة أيام بلياليها جلست هناك
وفي اليوم الخامس حين اعتليت صهوة جوادك
لم يصبر قلبي
فحطمت الأقفال الأربعة كلها
من شدة حبي لك!
هنا صفقة تعقد، سوق قائمة،
هنا أباع كسلعة، مجرد سلعة.
يعطونني إنساناً لا أهواه
فابق هنا، حل سرج حصانك..
لكن فتى كوموخ لم يعد يريد البقاء..
لقد أسرجت حصاني. فهل أستطيع أن أحله؟
ماذا سيقول الأصدقاء، ماذا سيقول الجيران؟
صديقي تمنّى لي حين الوداع طريقاً مستقيماً
فهل أستطيع أن أعود إليه من جديد

ذاهب أنا. إنما قلبي أبقيه لك
سينقض عليه إخوتي وينقرونه كالغربان
سأكون مسروراً أن أترك لك عينيَّ
ـ سيمتصهما إخوتي كعنقود عنب.
إذا قررت أن تتركني،
فقد حصانك بهدوء حتى طرف القرية،
ثم التفت وانظر إليّ مرة أخرى،
واطعم في الوادي حصانك العشب الأخضر
واسقه الماء البارد عند النهر
وحين يأتي الليل نم تحت عباءتك
ثم اذكرني حين تستيقظ
وإذا هطل المطر فاعرف أنها دموعي
وإذا هطل الثلج فاعرف أنها آلامي.

ساط فتى كوموخ الأنوف حصانه ثلاثاً، وتطلّع إليها ثلاثاً، ثم غادر القرية. ومرّت ثلاثة أسابيع، وغطّى الثلج الجبال. أما ميسيدو التعسة فقد رمت نفسها من فوق صخرة، لأنها لم تشأ أن تتزوج من لا تحب. وفي اليوم السابق مساء كان والد ميسيدو وأخوتها قد طردوا العاصية وقد اشتداد العاصفة الثلجية.

في تلك الليلة غنت ميسيدو:

ليولد في البيت مائة ابنة
وليعقد والدي صفقاته في الحال،
حتى يرتوي تسكعاً في الأعراس
وحتى يشبع ذهباً
وليتزوج إخوتي غنيات،
وليعيشوا مع نساء لا يحبونهن
ليتحوّل الثلج الذي يصفعني
والماء الذي في النهر يجري تحت قدمي
إلى فضة لعينة.

يا حبيبي الثلج عاصف
أبحث لك عن مكان أدفأ
يا حبيبي، الجليد تحت قدمي
فلا تنظر إلى الخلف بل إلى الأمام.

لعل الفتى سمع أنين فتاته المحتضرة أو لعل قلبه أوحى له، المهم أنه عاد مسرعاً من كوموخ على حصانه المتصبب عرقاً. ولما عرف بالحادث المؤسف، ترك عنان جواده وأطلقه. ثم فك زناره ورمى سلاحه بعيداً. حطم بندقيته على صخرة ثم اتجه إلى والد حبيبته القتيلة وإخوتها وقال:

«لا أريد أن أعكر هدوء بيتكم،
ولن أشحذ خنجري على الصخر.
لا أريد أن أنتقم لا بالفولاذ، ولا بالرصاص الكريه
إنما أروني وجهها فقط.
أتركوني مرة واحدة أنظر
إلى صدرها الشاب الأبيض كالثلج».
ويرفع والدها الشيخ الغطاء
والفتى شاحب، كأنه قادم من عالم الأموات
كشفوا عن صدرها، نظر الفتى،
ترنح ووقع بلا حراك إلى الأبد.

مصيرهما أصبح واحداً، لكن جسديهما بقيا منفصلين فما العمل؟ وكيف سيقبران؟ عندئذ التأم مجلس عظيم. من كل أطراف داغستان جاء الحكماء.

ويقول أنبياء الحب المشهورون:

انطفأت الحياة، وتجمّد الدم
كان حبهما صادقاً
جسدان، وحب واحد

حياتان، وموت واحد.

احفروا قبراً لهما كليهما
وليكن واسعاً
فرقتهما الحياة فترة
وجمعهما الموت إلى الأبد.

نلفهما بعباءة واحدة
ونهيل عليهما التراب
وشاهدة واحدة
ننصبها فوق قبرهما.

وكما قالوا فعلوا. ونبتت قرب الشاهدة زهرة حمراء وريقاتها لا تذوي تحت الثلج، بل إن الثلج ما إن يلامسها حتى يذوب. كأنها زهرة من نار. وعند أسفل القبر تفجّر ينبوع. الناس يشربون منه. وعلى جانبي القبر نمت شجرتان لا مثيل لهما حتى في الأساطير. عندما يهب هواء بارد تتباعد أغصانهما، وعندما يهب هواء دافىء تتلاصقان من جديد كأنهما عاشقان يتعانقان: فتى كوموخ وفتاة آزيني.

كنت أريد أيضاً أن أغني أغنية عن علي. لكنها طويلة جداً. فاسمحوا لي أن أفعل كما فعلت في القصة السابقة: أغني بعضها وأروي بعضها بكلماتي أنا.

كان يعيش في إحدى القرى شخص اسمه علي. وكانت له زوجة شابة وجميلة، وأم عجوز. وكان يغيب طويلاً في الجبال يرعى الغنم.

ذات مرة أتى إلى علي شخص يحمل طلباً من أمه بأن يترك غنمه ويعود بسرعة إلى البيت.

أخذت الهواجس تنهش قلب علي. ألم تحل مصيبة ما؟ وما حاجتهم إليه؟ وإذا كانت مصيبة، فمن أين يمكن أن يتوقعها إن لم يكن من زوجته الشابة؟

سأل علي الرسول فصمت. ألحّ عليه في السؤال، وغضب ثم أخذ يتهدّده بخنجره. عندئذ قال له الرسول:

جميلة زوجتك، يا علي
الجميع في البيت ينامون بهدوء في الليل
لكن قل لي، يا صديقي، يا علي
لماذا صرير النوافذ في العتمة؟

زوجتك شابة يا علي
والأرض يغطيها ثلج أبيض
لكن قل لي يا صديقي، يا علي
آثار مَن على الثلج الطري؟

النوافذ لا تصرّ من الريح، آه كلا،
بل زوجتك تفتح النوافذ
وهي لا تحمل السوار هديتك
كما لا تضع خاتمك.

يسرع علي طبعاً إلى قريته. يسرع فوراً إلى زوجته الشابة الجميلة دون أن يعرج على والدته. الزوجة تريد أن تنزع عنه عباءته وقلبقه، وتعرض عليه البوزا(*)، وتطلب إليه أن يرتاح من وعثاء الطريق.

- اخلع ملابسك، سأسقيك البوزا
في البيت جبن وأرغفة
- على أي كتفين سوى كتفيّ
قست هنا عباءتي؟

- اخلع القلبق يا سيدي.
يا بطلي، يا فارسي

(*) نوع من المشروبات الروحية الخفيفة.

ـ من سقيت البوزا
حين كنت في الجبال أرعى الغنم؟

واستل علي خنجره وطعن به زوجته طعنتين.

ـ كن سعيداً يا بطلي، يا علي،
وعمر ثلاثمائة عام على هذه الأرض.
لكن أنظر إليّ يا بطلي، يا علي،
إني على الأرض أتخبط في دمي.

ليرحمك اللّه
وليباركك
احملني على ذراعيك
وضمني على السرير.

سأضعك، كان جواب علي
إذا قلت لي في صراحة
أين هديتي، السوار الغالي
ولماذا نزعت خاتمك؟

ـ افتح الصندوق، يا بطلي، يا علي،
السوار والخاتم في أسفله.
إذا لم تكن قربي، يا علي،
فما نفع الحلي والزينة؟

واندفع علي إلى أمه:

ـ لماذا دعوتني؟ ماذا حدث؟

ـ اشتاقت زوجتك إليك، واشتاق أولادك. وقلت أيضاً في نفسي، لا بد أنك ستجلب معك قليلاً من لحم الضأن الطازج. فنحن لم نأكله من زمن.

أمسك علي رأسه يأساً، واندفع من جديد إلى مخدع زوجته.

عيناها تنطفآن، والنور يخبو فيهما،
يداها تبردان، والصدر ساكن
علي يذرف الدموع، زوجته غابت
وليس إلى عودتها سبيل.

للمرة الثالثة استل علي خنجره
وما زال نصله مخضباً بالدم
أداره إلى صدره وضغط،
وارتمى قربها دون حراك.

هكذا انتهت هذه القصة. دفنا معاً، ثم نمت قرب قبرهما شجرتان.

وعن أي شيء آخر تريدون أن أغني؟ عن كمال بشير؟ من كمال بشير؟ إنه دون جواننا الداغستاني إذا شئتم. يقال إنه عندما كان يشرب الماء الرقراق، كان هذا يرى وهو يتدفق في حلقه لشدة ما كان جلده ناعماً ورقيقاً. هذا العنق قطعه والده. لماذا؟ لأن ابنه كان جميلاً أكثر مما ينبغي.

وما همّ، لقد مات كمال بشير، لكن الناس ما زالوا يتغنون بالحب كما كانوا يغنون.

ما إن يولد الطفل، حتى تتعالى أغاني الحب فوق مهده.

مرة أخرى يجب عليّ أن أتذكر لعبتنا الشعبية البسيطة. واسمها «باكيدي راخين».

إنها مباراة في الشعر الغنائي، مباراة في الظرف وفي القدرة على إيجاد الكلمة المناسبة في سرعة ـ هذه هي لعبتنا. إنها معروفة في كل قرية من قرى داغستان. في أمسيات الشتاء الطويلة يجتمع فتيان القرية وفتياتها في أحد البيوت. إنهم لا يشربون الخمر، ولا يلعبون بالورق في حماسة واندفاع، ولا يفصفصون البزر، ولا يعربدون، بل يلعبون بالشعر. أليس هذا رائعاً؟

تظهر عصا صغيرة. ها هي ذي في يد الفتاة. تلامس بها أحد الفتيان وتغني:

خذ هذي العصا، يا أجمل الفتيان،
واختر أجمل فتاة هنا.

ويختار الفتى فتاة. تجلس هذه على كرسي ويبدأ بينهما الحوار الغنائي.

أيتها الجميلة، أيتها الجميلة،
من أنت قولي لي،
أيتها الجميلة، أيتها الجميلة
من قومك، قولي لي.

الجميع يصفقون وينشدون: «آي، دايْ، دالالايْ!».

لقد قلت اسمي
لكن لغيرك،
ووعدت بحبي
لكن غيرك.

الجميع يصفقون وينشدون: «آي، دايْ، دالالايْ!».
ثم تنهض الفتاة عن كرسيها وتختار بعصاها شاباً ليجلس مكانها. ويأخذ الزوج الجديد بعقد حوار غنائي آخر.
الفتاة:

الثلج يغطي الجبال،
ولا ترى فيها الدروب،
والحمل ذو الصوف الذهبي
لا يجد عشباً يرعاه.

الفتى:

الثلج سيذوب
وينساب نهراً من اللجين،
وعلى صدرك سيرعى
ذلك الحمل الذهبي.

«آي، دايْ، دالالايْ!». ويتقدّم زوج آخر.

الفتاة:

قرب النبع البارد
يعيش تحت الصخرة تنين
لا يدع الجدي الذهبي
يشرب حتى يرتوي!

الفتى:

لا تخيفينا بالتنين
القابع قرب النبع البارد
الجدي سيرتوي
من ماء عينيك الرائعتين

«آي، دايْ، دالالايْ!». ويتقدم زوج آخر.

الفتى:

في الشعاب عاصفة ثلجية،
والنهر غطاه الجليد،
أريدك لي، يا بنية
لنبني بيتاً جديداً

الفتاة:

ابحث لك عن أخرى
في قرية أخرى
ففي حوشك لن ترى
مكان الدجاجة حجلة.

«آي، دايْ، دالالايْ!». الجميع يصفقون، يضحكون. وهكذا تمضي ليالي الشتاء الطويلة.

أيتها الأغاني الداغستانية عن الحب! حين كان هذا الفتى يتوسل إلى الفتاة أن تتزوجه، كان غيره يخطفها بكل وقاحة.

وحين كانوا يقرعون باب هذه الفتاة بكل احترام، كان غيرهم يقفز إليها من النافذة.

وتمرّ القرون، وما زالت الأغنيات تعيش وتعيش، يبدعها المغنون، وهي تبدع المغنين.

هل يمكن أن يقوم عرس دون أغنية، هل يمكن أن يمر يوم دون أغنية، هل يمكن أن يعيش إنسان دون أغنية؟

يقولون عندنا: من لا يعرف الأغنية، فعليه أن لا يعيش في منزل، بل في زريبة.

ويقولون أيضاً إن العملاق الذي لا يعرف الحب لا يبلغ حتى خاصرة الإنسان العاشق.

ويروون عن محمود أنه كان أثناء الحرب العالمية الأولى في فوج الخيالة الداغستاني في جبهة الكربات. وهناك نظم أغنيته الشهيرة «مريم». وأخذ رفاق محمود في السلاح وأصدقاؤه ينشدونها في فترات توقفهم. وإليكم قصة هذه الأغنية.

في إحدى المعارك الضارية استولى الروس على إحدى القرى بعد أن طردوا النمساويين منها. ووجد محمود نفسه وهو يطارد أحد الأعداء الهاربين قرب إحدى الكنائس. في هذا الوقت كان يعدو خارجاً من باب الكنيسة أحد النمساويين المذعورين، لكنه ما إن رأى هذا الجبلي الغاضب على ظهر حصانه، حتى قفل ليختفي بسرعة فيها.

كان أخو محمود قد خرّ صريعاً قبل هذا بأيام، وكان محمود متعطشاً للثأر له. ودون أن يفكر طويلاً، قفز من على ظهر حصانه واستلّ

خنجره، ثم اندفع في إثر النمساوي معتقداً أنه سيتركه بعد قليل أشلاء متناثرة. لكن ما إن دخل محمود الكنيسة، حتى جمد في مكانه.

رأى أمامه مباشرة النمساوي جاثياً على ركبتيه، يتضرّع أمام أيقونة العذراء مريم.

في داغستان لا يرفعون أيديهم على إنسان راكع على قدميه، فكيف إذا كان يصلي.

لكن محموداً، بهر بالإضافة إلى ذلك كله، بجمال المرأة التي كان محمود يصلي أمامها.

وفجأة، رأى محمود أمامه محبوبته موبي، عينيها، حزن عينيها، ملامحها، ملابسها. ووقع الخنجر من يده. لست أدري ما رواه النمساوي عن هذه القصة، لكن هذا الجبلي الغاضب خرّ على قدميه قرب النمساوي، وأخذ يصلي على الطريقة المسيحية، ضاغطاً بأصابعه بشكل عشوائي على جبينه وكتفيه وصدره. لم يلحظ محمود النمساوي حين اختفى. وحين عاد إليه وعيه، نظم أبياته الشهيرة في «مريم» أي أبياته في مريم العذراء. لقد ذابت موبي ومريم في صورة واحدة عنده. كان يكتب في مريم وهو يفكر في موبي، ويكتب في موبي وهو يفكر في مريم.

من ذلك الوقت لم يعد محمود يعترف إلا بشيء واحد على هذه الأرض، هو الحب. لم تكن نفسه تتقبّل أغنيات أخرى. ولم يكن في مغنّي داغستان بعد إنسان يسمو سموّ عاطفته أو يصل إلى عمق أغانيه. لم يكن يلاحظ أنه ينظم شعراً، فهو يتكلم شعراً، بل هو لا يتكلم إنه يغني. كأنما كان هناك إنسان آخر يتكلم ويغني مكانه. كان يعزو كل نجاح يصيبه إلى موبي وعاطفته نحوها وإذا ما كلمه صديق عن شخص غير موبي، كان يعرض عن الاستماع إليه.

وإليكم ما رواه والدي عنه:

أخذ أناس كثيرون يفدون إلى محمود. كان لا يأتيه إلا العاشقون.

لقد أدركوا قوة كلمته، فصاروا يطلبون إليه أن ينظم لهم أشعاراً. كان يأتيه الذي عشق أول مرة ولا يعرف كيف يبوح بعاطفته لحبيبته. وكان يأتيه الذي تزوجت حبيبته غيره ولا يعرف الآن ماذا يفعل بشوقه المبرح. وكان يأتيه الذي أحب أرملة ظلت وفية لزوجها المتوفي ولا يعرف كيف يحنّن قلبها.

كان يأتيه الذين خدعوا في حبهم. وكان يأتيه الذين يحرق قلوبهم حبّ غير مشترك. كان يأتيه الذين ضلوا في حبهم، والذين تشاجروا مع محبوباتهم. وكان يأتيه الذين افترقوا.

كان العشاق في مثل عدد الذين يزورونه من الناس، وكانت أنواع الحب في مثل عدد العشاق. فلا وجود لحبين متشابهين.

وكان محمود ينظم أبياتاً تناسب كل حالة. كان العشاق يعودون، والمتخاصمون يتصالحون، والأرملة القاسية والحزينة تلين، والفتى اليافع يتجرأ، والخائفون يخجلون، والمخدوعون يغفرون.

سئل محمود مرة:

ـ كيف تستطيع أن تنظم أشعاراً تتجاوب وأمزجة الناس المختلفة؟

ـ مصير كل الناس يمكن أن يسعه قلب إنساني واحد. أفي الحق أني أنظم أشعاراً فيهم؟ في حبهم، في عذابهم؟ كلا، أنا أنظم شعراً عن نفسي. لقد أحببت في صباي، وأنا ابن فحام فقير، مويي من قرية بيتلي. لكن مويي تزوجت آخر، فأدمى ذلك قلبي. ثم توفي زوج مويي فبقيت وحيدة. وظلت نفسي لا تعرف الهدوء كما كانت من قبل.. لا، إني أعرف كل شيء عن الحب، ولا حاجة بي أن أنظم شعراً في الآخرين.

يقال إن الناس كانوا يأتون إلى محمود طالبين إليه أن يكتب شعراً في الذين ماتوا أو الذين قتلوا في الحرب. كانت الأمهات والأخوات والزوجات والمخطوبات يرجونه، لكن محموداً لم يكن يستطيع أن يكتب أي قصيدة، وكان يجيبهن:

ـ كيف أستطيع في قرية آمنة أن أكتب عن الحرب، إذا كنت قد كتبت في وقت الحرب عن الحب؟

لكن الجبليين يقولون عندئذ: «لا يقدِّر الإنسان الأغنية السليمة حق قدرها، إلا حين تقع الحرب». ويقولون أيضاً: «لكي تختبر حبك، اذهب إلى ساحة القتال».

للخنجر حدّان: واحد لحب الوطن، وآخر لبغض العدو. وللطنبور وتران: واحد ينشد أغنية الحقد، وآخر أغنية الحب.

يقولون في الجبلي إنه حين يستلقي ضامّاً إليه فتاته بيد واحدة، تكون اليد الأخرى ممسكة بالخنجر. وليس عبثاً أن أغنيات وقصصاً قديمة كثيرة تنتهي بطعنة خنجر. لكن قصصاً كثيرة أخرى تنتهي بعودة الجبلي إلى قريته، وفتاته أمامه على صهوة حصانه.

حين ينبشون القبور القديمة في الجبال، يجدون فيها خناجر وسيوفاً.

ـ ولماذا لا يجدون الطنبور.

ـ الطنبور يبقى للأحياء حتى يغني الأحياء للأبطال الذين قتلوا. وهكذا، إذا اختفى السلاح على وجه البسيطة، ولم يبق أي خنجر، فإن الأغنية لن تغيب.

كان والدي يقول إن الضيف العادي هو ضيف بيتك. لكن الضيف إذا كان مغنياً، أو إذا كان موسيقياً، فهو ضيف القرية كلها. القرية كلها تخرج للقائه ولوداعه. محمود مثلاً، كان يستقبل في كل مكان أفضل مما يستقبل الحاكم ربما لهذا السبب لم يكن حكام المناطق، يحبون المغنون الطلقاء؟

يروي والدي أن رجلين كانا يضربان في شعاب داغستان. وحين حان المغيب، قال أحدهما لصاحبه:

ـ أما آن لنا أن نرتاح؟ المساء يقترب. وأرى أنك تعب وبردان. وها أنا ذا أرى قرية فلنعرج عليها ونطلب المبيت هناك.

ـ أنا بالفعل تعبت وبردت. لا بل مرضت. لكن لن أبيت في هذه القرية.

ـ ولماذا؟

ـ إنها قرية مملّة. لم يسمع أحد أغنية تردّدت في جنباتها.

قد يكون هذان المسافران وقعا على مثل هذه القرية. لكن أحداً لا يستطيع أن يقول هذه الكلمات عن داغستان ككل: كأن يقول: هذا بلد لا تسمع فيه أغان، فلنتجاوزه.

بيستوجيف ـ مارلنسكي ضمن كتابه أغنيات داغستانية، قال بيلنسكي فيها إنها أثمن من الكتاب نفسه. وقال بيلنسكي أيضاً إن بوشكين نفسه ما كان ليخجل أن يعتبرها من نظمه.

وكان ليرمنتوف الشاب يستمع إلى أغاني الجبليين في تيمور خان شور. وكان يتمتع بها مع أنه لم يكن يفهم لغتنا.

وكان البروفسور أوسلار يردد أنّ أنغام غونيت هدية رائعة للإنسانية.

فمن أعطانا هذه الألحان وهذه الأغاني؟ من علم الجبليين هذا العواطف؟ النسور والجياد، والسيوف والأعشاب، مهود الأطفال، أنهار كويسو الأربعة، مريم محبوبة محمود، تاريخ داغستان كله، كل اللغات الموجودة فيها، وداغستان كلها.

سئل أبو طالب ذات مرة:

ـ كم شاعراً في داغستان؟

ـ نستطيع أن نعدّ ثلاثة ـ أربعة ملايين.

ـ كيف هذا وشعبنا لا يتجاوز المليون!

ـ في كل إنسان ثلاثة، أربعة مغنين. لكنهم لا يغنون كلهم، ولا يغنون دائماً. ولكنهم لا يعلمون.

ـ ومع هذا، فمن أفضل مغنيكم؟

ـ نجد دائماً من هو أفضل مغن لكني أستطيع أن أذكر واحداً.

ـ ومن هو؟

ـ الأم الداغستانية. كما نستطيع أن نعد ثلاث أغنيات فقط عند الجبليين.

ـ ما هي؟

ـ الأولى تغنيها الأم الجبلية حين ترزق ابناً، وتقف فوق سريره.

ـ والثانية تغنيها الأم الجبلية حين تفقد ابنها.

ـ والثالثة؟

ـ الأغنية الثالثة هي كل ما عداهما من أغنيات.

أجل، الأم... الشاهد الصادق، وإن يكن المتحيز على ما يزهر ويذوي، يولد ويموت، يأتي ويروح. الأم التي تهزّ السرير وتمدّد طفلها على ذراعيها، وتضم إليها ابنها الذي يتركها إلى الأبد.

ها هو ذا الجمال، ها هي ذي الحقيقة، ها هو ذا الشرف.

الناس يكونون طيبين وسيئين، حتى الأغنيات تكون أفضل أو أسوأ، لكن الأم وأغنية الأم رائعتان دائماً.

إني لا أذكر بالطبع الأغنيات التي غنيت فوق مهدي. لكنني أنصت فيما بعد، وفي قرى عديدة إلى كثير من الأغنيات الجيدة بما فيها أغنيات المهد. وها هي ذي واحدة منها:

ستكبر يا بني، وتصبح قوياً
كي تنتزع اللحم من أنياب الذئاب.
ستكبر يا بني وتصبح شاطراً
كي تنتشل الحمام من بين أظافر النمر

ستكبر يا بني لتستطيع كل شيء.
لتسمع كلام الشيوخ وتكسب الأصدقاء.

ستكبر يا بني وستزداد ذكاء،
المهد سيضيق، فتحلق في الفضاء.

ستكون ابناً لي، أنا أمك،
وصهراً لها، تلك الأم الغريبة.

ستكون رجلاً لها، لزوجتك الشابة
وستكون أغنية لها لبلادك الغالية.

يا له من إيمان! لا توجد أم واحدة لا تجيد الغناء ـ كان والدي يقول: ولا توجد أم ليست في قرارة نفسها شاعرة.

المطر في صيف جاف ـ
هو أنت يا صغيري
الشمس في صيف ماطر ـ
هو أنت يا صغيري.
الشفتان اللتان كقرصي عسل ـ
هما أنت يا صغيري
الاسم الأحلى من العسل ـ
هو أنت يا صغيري
الوجه الذي يحلو للعينين ـ
هو أنت يا صغيري
القلب الحي، النابض ـ
هو أنت يا صغيري
مفاتيح القلب الحي ـ
هي أنت يا صغيري

الصندوق المبطن بالفضة ـ
الذهب الخالص في ذلك الصندوق ـ
هو أنت يا صغيري
ما زلت زغيفاً مدوراً صغيراً،
لكنك ستصبح رصاصة،

سنصبح مطرقة ثقيلة
تفتت الصخر وتطحنه
سنصبح سهماً صائباً
لا يخطىء مرماه
سنصبح راقصاً رشيقاً،
ومطرباً عذب الصوت،
وأمام شباب القبيلة
سنصبح عداء لا يجارى
وفارساً لا يشق له غبار،
تنطلق في الوادي
فينعقد الغبار المتطاير
من تحت الحوافر
غيمة سوداء في الفضاء.

كان والدي يقول: من لم يسمع أغنية الأم كان كمن نشأ يتيماً. ومن نشأ دون أب ودون أم لا يحسب يتيماً، إذا رددوا فوق مهده أغانينا الداغستانية. ومن يستطيع أن يغني، إذا لم يكن هناك أم أو أب؟ داغستان نفسها كانت تغني، والجبال الشاهقة كانت تغني، والجداول المنحدرة من الجبال الشاهقة كانت تغني، والناس الذين يعيشون في الجبال، كانوا يغنون:

ابنتي ـ شلة خيطان ذهبية،
وشريطة من الفضة ـ ابنتي
ابنتي القمر فوق الجبل العالي
ابنتي عنزة فوق الجبل العالي

إليك عنا بعيداً أيها الجبان
ابنتي لن تكون لجبان،
أيها الوجل لا تتسكع قرب الأبواب
فابنتي لن تكون لمن يهاب

ابنتي زهرة ربيعية زاهية
ابنتي إكليل من أزهار الربيع.
وبساط من الأعشاب الطرية
ابنتي الغالية!

سوقوا لي ثلاثة قطعان من الأغنام
فلن أعطيكم حتى حاجبها.
واحملوا لي ثلاثة أكياس من الذهب
فلن أعطيكم حتى خدها

وحتى الغمازة على خدها
لن أعطيها مقابل ثلاثة أكياس.
لن أعطيها للغراب الأسود،
لن أعطيها للطاووس الطيب.

يا أنت يا حجلتي،
يا أنت يا لقلقي.

وتغني أم أخرى بطريقة أخرى:

من يقتل النمر بقطعة حطب،
أعطيه إياها.
من يحطم الصخر بقبضته،
أعطيه إياها.
من يستولي على القلعة بسوطه،
أعطيه إياها.
من يقطع القمر كالجبنة،
أعطيه إياها.
من يوقف ماء النهر،
أعطيه إياها.

من يقطف النجم كالزهرة،
أعطيه إياها.
من يلجم الريح،
أعطيه إياها.
يا أنت يا تفاحتي الموردة

أو هذه الأغنية الأمنية:

لتفتح ابنتي،
قبل أن يتفتح الزهر

السواقي لما تجر،
وها هي ذي ضفائرها تجدل.
والثلج لما يذب،
وها قد جاء الخاطبون.

إذا أرادوا أن يخطبوها،
فليأتوا ببرميل عسل،

وليسوقوا إليها الخراف والنعاج،
لكن الفتاة لها والدها.

فليسوقوا إليه مسرعين
قطيعاً من الجياد الجامحة.

وإليكم أيضاً هذه الأمنية التي تقال فوق سرير الطفل:

قبل أن يزقزق عصفور في الصباح،
ليروا ابنتي في حقل القمح.

وقبل أن يستيقظ الوقوق في الغابة البعيدة،
ليروا ابنتي في المرج الأخضر.

وحين لا تزال الفتيات يتبرجن،
تكون ابنتي قد عادت من النبع تحمل جرتها.

لولا الأغنيات التي تقال فوق المهد، ربما لم توجد في هذا العالم الأغنيات الأخرى. ولكانت حياة الناس أقل إشراقاً والمآثر أكثر ندرة، والشعر في الحياة أقل.

الأمهات هن أول الشعراء. إنهن يرمين بذور الشعر في نفوس أبنائهن وبناتهن، ومن هذه البذور تنمو فيما بعد الأزهار وتتفتح. وفي أصعب ساعات حياتهم وأشقها وأرهبها يذكر الرجال الأغنيات التي سمعوها وهم صغار.

قال الحاج مراد لأحد مقاتليه الوجلين: «الأرجح أن أمك لم تغن فوق سريرك». وحين خان الحاج مراد نفسه شاملاً وانضم إلى القيصر، قال شامل في احتقار: «لقد نسي أغنية أمه فوق مهده».

وأغنية أمه فوق مهده كانت التالية:

اسمع أغنيتي،
والبسمة على شفتيك.
أغني لك عن الشجاع،
عن الشجاع الأبي.

كان يحمل سيفه على جنبه،
غيوراً على كرامته،
وكان يقفز إلى جواده وهو يعدو
ثم يكبح جماحه.

كان يقطع الحدود
كنهر جبلي،
وكان يقطع ظهر الجبل

كما يومض نصل

كان يستطيع أن يلوي بيده
السنديانة المعمرة فتصبح حلقة.
فكن، يا نسري الصغير،
شجاعاً مثله.

كانت الأم تنظر إلى محيا صغيرها الباسم مؤمنة بكلمات أغنيتها. ولم تكن تدري وقتها ما ينتظر ابنها الحاج مراد من محن.

وحين عرفت أنه ترك شاملاً وانضم إلى أعدائه، غنت له أغنية أخرى:

سقطت من قمم الجبال إلى الهاوية
لم تخش المكان العالي
ومن الهاوية التي فيها ترديت
لن تعود أبداً.

من غاراتك الجريئة كنت تعود
إلى الجبال في غياهب الظلام
فأصبحت لقمة سائغة لقمة سائغة
وإلى بيتك لن تعود أبداً.

أيامي أنا التي ولدتك، سود
فارغة ومرة.
من مخالب القفص الحديدية القوية
لن تعود إلى بيتك أبداً

احتقرت الإمام، واحتقرت القيصر.
وكانت أيامك كلها انتصارات
وجبالنا كذلك احتقرت،
فإلى بيتك لن تعود أبداً.

لقد حاول الحاج مراد فيما بعد، كما هو معروف، أن يهرب من القصر ويعود إلى رجاله. لكنهم لحقوا به أثناء هربه وقتلوه، ثم جزوا رأسه وهو ميت. آنئذ ظهرت في الجبال أغنية أم أخرى:

لوحوا بسيوفهم، فهوى رأسه
لكن هذا خبر كاذب
ما أشد حاجتنا إلى رأسه
في مجال الحرب والمعارك الحامية.

عند الطريق دفنوا جثمانه دون رأس،
لكن هذه أقاويل فارغة
فنحن في حاجة إلى كتفيه ويديه
في الجبال المحاصرة والمحترقة.

سلوا السيوف والخناجر الحادة،
نائب شامل هل مات؟
أصحيح أن الصخور لا تتنفس رائحة البارود
وأن الأرض لا يغطيها الدخان؟

اسمه حوّم كالنسر في العلاء،
ثم خفت بريقه
ستقوم السيوف التواء حياته
وستمحو عاره.

أغنية الأم هي بداية كل الأغاني الإنسانية ومصدرها. إنها أول بسمة وآخر دمعة.

الأغنية تولد في القلب، ثم ينقلها القلب إلى اللسان، ينقلها اللسان إلى قلوب كل الناس، وتنقل قلوب كل الناس الأغنية من قرن إلى قرن.

من المناسب هنا أن أحكي لكم حكاية تلك الأغنيات.

أغنية أم شامل

«أبحث في الأغنية عن شيء واحد: الضحكة أو الدمعة. ونحن الجبليين لسنا في حاجة الآن لا إلى هذه ولا إلى تلك. نحن نحارب. والرجل لا يجب أن يشكو أو يبكي، مهما تكن المحن التي ينوء بها. ومن ناحية أخرى ليس هناك ما يسر. فالحزن والحرقة في قلوبنا. أمس أنزلت القصاص بشبان كانوا يرقصون ويغنون قرب الجامع. إنهم لأغبياء. وإني لعلى استعداد أن أعاقبهم ثانية إذا عادوا إلى مثل هذا. إذا كنتم في حاجة إلى شعر، فاقرأوا القرآن. ردّدوا آياته. فهي منقوشة حتى على أبواب الكعبة».

وهكذا حرّم الإمام شامل على الناس في داغستان أن يغنوا. وكان يعاقب النساء بضربهن بالمكنسة، والرجال بالسياط. الأمر هو الأمر. وكثيرون هم المغنون الذين ذاقوا لسعات السوط.

ولكن هل بإمكانك أن تجعل الأغنية تصمت؟ قد يكون ذلك ممكناً بالنسبة للمغني. أما بالنسبة للأغنية فلا. إننا نرى الكثير من قبور الناس، لكن من رأى قبر الأغنية؟

قرأت على إحدى الشواهد ما يلي: «مات، الناس يموتون وسيموتون». وبإمكاننا أن نقول في الأغنية ما يلي: «لم تمت، لا تموت ولن تموت». أي شيء لم يقترف بحق الأغنيات في أيام الغزوات، لكنها فوق أنها عاشت ووصلتنا، صارت تدعى الآن، ويا لسخرية القدر، «أغنيات شامل».

لكن إليكم قصة أغنية أم شامل... في تلك الأيام استولى الأعداء على قرية أخولفو. لقد ولدت تلك المعركة كثيراً من الأبطال، لكنهم بقوا جميعاً هناك، فوق أرض المعركة. والجرحى قفزوا في نهر كويسو الآفاري كي لا يستسلموا. وكانت أخت شامل مع أولادها بين المحاصرين.

في هذا الوقت العصيب وصل الإمام منهكاً مثخناً بالجراح إلى قريته غمرا. وما إن سلم مقود حصانه لمريديه حتى تناهت إلى سمعه أغنية أو على الأصح نحيب:

أبكوا أيها الناس في القرى الجبلية،
أبكوا أمواتكم ومجدوهم،
لقد استولى العدو على قلعة أخولفو،
ولم يبق أحد فيها حياً.

ثم تعدد الأغنية أسماء كل الأبطال القتلى، وتروي كيف جفت كل الينابيع في الجبال، عندما سمعت بهذه الكارثة، وتوجهت الأغنية بالدعاء إلى اللّه أن يحفظ الجبليين، وأن ينفخ القوة في الإمام، ويحفظ حياة جمال الدين، ابن شامل ذي السنوات الثماني والموجود رهينة عند القيصر الأبيض في بطرسبرغ.

جلس شامل على حجر، ودسّ أصابعه في لحيته الكثة المخضبة بالحناء، ثم نظر إلى الواقفين قربه نظرة متفحصة وسأل:

ـ كم بيتاً في هذه الأغنية، يا يونس؟

ـ مائة بيت وبيتان أيها الإمام.

ـ ابحث عن صاحب هذه الأغنية، واضربه مائة سوط. واترك ضربتين لي.

وأخرج المريد سوطه دون إبطاء.

ـ من ألّف هذه الأغنية؟

وصمت الجميع.

ـ إني أسأل: من ألّف هذه الأغنية؟

في هذا الوقت اقتربت من الإمام أمه حزينة محدودبة الظهر، تمسك مكنسة بيدها.

ـ أنا ألّفت هذه الأغنية، يا بنيّ. في بيتنا اليوم مأتم. خذ هذه المكنسة ونفّذ أمرك.

فكّر الإمام قليلاً، ثم أخذ المكنسة من يد أمه وأسندها إلى الحائط.

ـ اذهبي أنت إلى بيتك، يا أمي.

تطلعت الأم إلى ابنها وخرجت. وما إن غابت عن ناظري شامل، في الزقاق، حتى فك قراب سيفه، وحلّ زناره وألقى قفطانه جانباً.

ـ لا يجوز أن تضرب أمي. بل يجب عليّ أنا ابنها شامل أن أتحمل وزرها.

ثم تمدّد على دكّة بعد أن تعرّى حتى الخصر، وقال لمريده:

ـ لماذا أخفيت السوط؟ أخرجه ونفّذ ما أقوله لك.

تردّد المريد، فقطّب الإمام حاجبيه. وكان المريد خير من يعرف ما وراء تقطيبه هذا.

وأخذ يسوط الإمام، يسوطه برفق. وبالأحرى لم يكن يسوطه بل يدغدغه.

نهض شامل فجأة وصرخ:

ـ تمدّد مكاني!

تمدّد المريد على الدكّة. فأخذ شامل السوط منه وساطه ثلاثاً بشدّة. بانت على ظهر المريد ندوب حمر.

ـ هكذا يجب أن تضرب، أفهمت؟ إبدأ الآن، ولا تحاول أن تراوغ من جديد.

وشرع المريد يسوط الإمام ويعدّ الضربات.

ـ ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون...

ـ كلا، سبعة وعشرون فقط. لا تتخطّ ولا تقفز.

كان العرق يتصبّب من المريد، وكان يمسحه بكمّه الأيسر. وكان ظهر الإمام كسلسلة جبلية تقطّعها دروب. وطرق متقاطعة، أو كمنحدر رابية طرقته قطعان كثيرة.

وأخيراً انتهى العذاب، وارتدّ المريد وهو ينفخ: ارتدى شامل ثيابه وتنكب سلاحه، ثم استدار نحو الناس وقال:

ـ أيها الجبليون، علينا أن نحارب. لا وقت لدينا لتأليف الأغنيات وانتشارها، ولا لرواية القصص. فلنجعل الأعداء يغنون الأغنيات فينا. وستعلمهم سيوفنا كيف يفعلون ذلك. امسحوا دموعكم واشحذوا سلاحكم. لقد خسرنا أخولفو، لكن داغستان ما زالت حية، والحرب ما زالت دائرة.

وفي غمرة معركة غونيب التي استمرت عدة أيام، كان الإمام في المسجد يصلي.

قالت فاطمة أولى زوجات شامل وأكبرهن سناً:

ـ لم تعرف داغستان أبداً محنة كهذه!

ـ إنك مخطئة يا فاطمة، لقد عرفت داغستان محنة قبل هذه.

ـ أي محنة؟

ـ عندما كانت عندي زوجة مثلك، ثم تزوجت سكينة بعدك.

وضحك الإمام، وضحك مريدوه المثخنون بالجراح، والراقدون هناك أيضاً، في المسجد. وبدا أن داغستان كلها ضحكت، وقد سمعت الإمام يضحك للمرة الأولى.

ضحك في أحلك ساعة عرفتها داغستان، حين انهار كل ما بنى وما كان يعتز به. ضحك قبل ساعات من وقوعه في الأسر.

وفجأة صمت شامل، واكتسى وجهه مسحة جادة. أجلس نساءه الثلاث معاً على حجارة غونيب وطلب منهن قائلاً:

ـ غنين لي الأغنية التي ألفتها المرحومة أمي.

وارتفعت أصوات فاطمة ونابسة وسكينة بالغناء معاً:

أبكوا أيها الناس في القرى الجبلية...

خفت آخر أصوات الأغنية. وطلع القمر في السماء. وحفّت بالإمام الكآبة:

ـ غنين مرة أخرى.

ومرة أخرى غنّت فاطمة ونابسة وسكينة. هذه المرة طارت الأغنية أبعد، فقد استمعت-إليها الصخور الحزينة التي يضيئها القمر، الصفصاف الباكي وشجرات البتولا في غونيب.

وصرخ شامل:

ـ غنينها للمرة الثالثة!

وانسابت ألحان الأغنية هذه المرة بعيداً بعيداً. فسمعتها القرى المحترقة قرب غونيب، وكل القرى الصامتة في الجبال البعيدة، وكل المريدين القتلى في قبورهم. لكن الفجر كان قد حان، فارتفع هدير المعركة، آخر معركة، من جديد. وحين صمتت المدافع، لم يعد للأغنية وجود.

أصبح الإمام أسيراً محترماً. أعيد له سلاحه وحصانه، واحتفظ له بنسائه. لكنهم لم يحتفظوا له بداغستان. أخذوه بعيداً إلى الشمال. ولم تبق من داغستان إلا أغنية واحدة ألفتها ذات يوم أم عجوز. في أول الأمر كانت نساؤه الثلاث يغنين له هذه الأغنية. ثم لم تبق منهن إلا اثنتان نابسة وسكينة. وفيما بعد، في الصحراء الآفارية البعيدة غنتها له سكينة صغرى زوجاته، والوحيدة الباقية على قيد الحياة منهن، وكانت آخر أغنياته.

حين كان الحديث يتطرّق إلى سكينة، كان والدي يقول:

«كانت أجمل امرأة في بيت شامل. كانت آخر زوجات الإمام وأول حب له. فالإمام ككل الجبليين اتخذ له نساء حسب تقاليدنا. لكن هذه. . . كانت مكافأة غير متوقعة. فحين غزا أحد أشجع نواب شامل، وهو أخفيرديل محمد، موزدوك، خطف ابنة تاجر أرمني هي آنا الجميلة. حدث هذا قبل عدة أيام من اليوم المقرر لزواجها. حمل المريد غنيمته

إلى قصر الإمام ملفوفة بعباءة. وحين نشرت العباءة، لم ير الإمام سوى عينين زرقاوين واسعتين كأنهما قطعة من سماء داغستان. هاتان العينان كانتا تنظران إلى الإمام مباشرة ودون أي وجل. كانت تنظران إلى جزمته الحمراء المصنوعة من جلد الكروم الناعم، وإلى سلاحه ولحيته وعينيه. ورأت الصبية الأرمنية أمامها شخصاً لا يمكن أن يقال عنه إنه شاب وجميل. لكن شيئاً ما في مظهره كان جذاباً، مغرياً. كان اللطف والطيبة يتلامحان مع القوة والحزم. والتقت عيونهما. وشعر المحارب الشديد بضعف يسري في قلبه. كان هذا الضعف غريباً، فخافه. وللحال ارتفع صوته آمراً:

ـ اذهب وأعد هذه الفتاة من حيث أتيت بها.

ـ ولماذا، أيها الإمام؟ فتاة جميلة كهذه. وكل شيء على ما يرام.

ـ أعرف لماذا. ومهمتك أن تسرج حصانك.

ـ وما هي الفدية التي نأخذها؟

ـ تعيدها هكذا ببساطة، بدون فدية.

ودهش أخفيرديل محمد. فلم يحدث قط أن أعاد شامل أسرى دون فدية. لكن النقاش معه غير وارد.

وقال لأسيرته:

ـ سأعيدك للحال إلى أهلك. إنهم سيسرون. وستقولين لهم إن شاملاً ليس قاطع طريق.

نظرت آنا إلى شامل في دهشة، حين ترجموا لها كلمات المريد. اعتقد الجميع أنها، بكل بساطة، لا تصدق لفرط سعادتها.

فقالوا لها ثانية:

ـ الإمام يأسف جداً لما حصل. إنه يعتقك دون فدية.

عندئذ قالت الحسناء وهي تلتفت إلى شامل:

ـ لم يفكر أحد بأن يخطفني، يا زعيم داغستان، بل جئت أنا إليك لأكون أسيرتك.

ـ كيف، ولماذا؟

ـ لأنظر إلى البطل الذي يتحدث القفقاس كله والعالم كله عنه. افعل ما تشاء. لكني لا أبدل بأي شيء أسري الطوعي هذا. ولن أخطو خطوة واحدة من هنا.

ـ لا، الأفضل أن تذهبي.

ـ وتقول ذلك، أنت شامل الذي يحسبه الجميع رجلاً شجاعاً.

ـ هكذا يقول الله.

ـ لا يستطيع الله أن يقول شيئاً كهذا.

ـ إلّهي وإلّهك يتكلمان لغتين مختلفتين.

ـ أنا أسيرتك من الآن، يا زعيم داغستان، أنا أمتك. إلّهك سيكون من الآن إلّهي. لقد سمعت منذ طفولتي أغاني عنك، وقد حفظت واحدة منها. لقد أعجبتني كثيراً.

وغنت الصبية الأرمنية أغنية جميلة بلغة لم يفهمها أحد. وطلع القمر من خلف الجبل العالي، وما زالت ابنة أرمينيا تغني.

ودخل المريد.

ـ لقد أسرج الحصان، أيها الإمام. هل أستطيع أن آخذ الفتاة؟

ـ اتركها. هذه الأغنية يجب أن تغنيها حتى النهاية، ولو كلفتها حياتها كلها.

بعد عدة أيام سرت في داغستان إشاعة مكتومة أخذت تتهامسها القرى والناس.

ـ هل سمعت؟ شامل اتخذ له زوجة أخرى.

ـ إمامنا المؤمن تزوج فتاة أرمنية صغيرة.

ـ الكافرة تغسل لإمامنا عمامته، وتغني له بدل أن تصلي.

وتهامست داغستان كلها. لكن الإشاعات كانت صحيحة. لقد تزوج الإمام مرة ثالثة. لقد أسلمت زوجته الثالثة، وربطت رأسها بمنديل أهل الجبال، واتخذت لها اسماً آفارياً فأصبحت سكينة. وبالنسبة للإمام صار

الطعام الذي تقدمه ألذ طعام، وصار السرير الذي تعدّه أعظم سرير، وأصبحت حجرتها أدفأ وأشرق حجرة، وكلمتها أعز كلمة وأحبها. وأصبح وجه الإمام العابس أكثر ليناً ولطفاً وطيبة.

مراراً كثيرة وفد إلى شامل رسل من أهلها في موزدوك يرجون الإمام أن يطلق سراحها مقابل ما يشاء من فداء. وكان شامل يروي لسكينة ما يحصل. لكن هذه كانت تقول له شيئاً واحداً:

ـ أنت زوجي، أيها الإمام. لكني لن أعود إلى أهلي حتى ولو قطعت رأسي.

وكان الإمام ينقل جوابها إلى الرسل القادمين من موزدوك. وذات مرة حضر أخوها. فاستقبله الإمام استقبالاً طيباً، وأذن له أن يراها ويتحدث إليها. بقي الأخ وأخته ساعتين على انفراد. حدّثها أخوها عن حزن والدها ودموع أمها، وعن الحياة الرائعة التي تنتظرها في بيت أهلها، وعن الشاب التعس الذي لا يزال يحبها.

لكن هذا كله ذهب أدراج الرياح. وقفل الأخ عائداً صفر اليدين.

واغتنمت زوجة الإمام الأولى فاطمة فرصة مؤاتية وقالت لزوجها:

ـ الدم يسيل حولنا، أيها الإمام، والناس يقتلون. فكيف تستطيع أن تستمع إلى أغاني سكينة وكأنها صلاة؟ لقد منعت الغناء في داغستان، ولقد أعرضت حتى عن أغنية أمك.

وقال الإمام:

ـ إن سكينة، يا فاطمة، تغني الأغاني التي يردّدها أعداؤنا عنا. ولو أني مكنت للأغاني الباكية أن تذاع، لبلغت أعداءنا ولتغيّرت فكرتهم عنا. وسأشعر بالخجل آنذاك من النظر في عيون الأمهات اللواتي استشهد أبناؤهن في حملاتهم معي. أمّا الأعداء فليغنوا فينا أغانيهم. فأنا أستمع إليها، وسأدعو الآخرين للاستماع إليها.

لكن فاطمة لم تكن تتألم لأن الإمام يستمع إلى أغاني زوجته الشابة،

بل لأنه لم يبق كسابق عهده مع زوجتيه الأخريين. ثم وقعت الحادثة التالية:

أبلغ الإمام ذات مرة أن القيصر الأبيض على استعداد لأن يعيد إليه ابنه جمال الدين الذي يدرس الآن في الكلية الحربية في بطرسبرغ مقابل سكينة. وضع صعب. رفض الإمام. وأخفى عن الجميع وجود مثل هذه الإمكانية. لكن الإشاعة وصلت إلى فاطمة.

وذات مرة أتت إلى منافستها الشابة.

ـ سكينة، هل تعدين بأن لا يعرف بأمر حديثنا إلّا اللّه وحده؟

ـ أعدك.

ـ تعرفين أفضل مني أن شاملاً لا ينام في الفترة الأخيرة، وأنه مهموم جداً ويتعذب.

ـ أرى ذلك، يا فاطمة، أرى ذلك.

ـ ألا تعرفين السبب؟

ـ لا أعرف.

ـ أنا أعرفه. وتستطيعين، إذا أردت، أن تجدي له الدواء المناسب.

ـ قولي يا فاطمة، قولي يا عزيزتي.

ـ لقد سمعت بالطبع بجمال الدين ولدنا أنا وشامل؟

ـ سمعت.

ـ عودته إلينا متوقفة عليك. إنك لا بدّ تذكرين أمك. وأنا أيضاً أم. عشر سنوات مرّت دون أن أرى ابني. ساعديني! لا إكراماً لي بل للإمام.

ـ أنا على استعداد لأفعل كل شيء من أجل شامل. لكن كيف؟

ـ إذا عدت إلى أهلك، سيعيد القيصر إلينا ابننا جمال الدين. أعيدي إليّ ابني. واللّه يجزيك جنة خلده. أرجوك.

وفي غرفتها انطرحت على سجّادتها. انتحبت طويلاً في أول الأمر، ثم غنت أغنية حزينة. وحضر شامل.

ـ ماذا بك، يا سكينة.

ـ أطلق سراحي، أيها الإمام.

ـ كيف؟

ـ يجب أن أعود إلى أهلي.

ـ لماذا؟ ماذا تقولين؟ أنت نفسك رفضت، والآن لا أستطيع أن أطلق سراحك.

ـ شامل، ابعثني إلى بيتي. فليس هناك إلا هذا المخرج.

ـ أنت مريضة على ما يبدو.

ـ أريد أن ترى جمال الدين.

هذا هو السرّ إذاً. لن تتحركي من هنا يا سكينة. فلأحرم ولدي إلى الأبد إذا كانت عودته على حساب زوجتي. إذا كان ابني فعلاً، فليبحث هو نفسه عن طريق العودة إلى أمه ووطنه. أما أنا فلن أذهب إليه في الطريق التي رسمتها أنت. بل سأجد طريقي إليه، طريقاً تليق بي وبه. الأفضل أن تحضري جوادي.

أخرجت سكينة الجواد من البوابة. ثم نزعت السوط وأعطته شاملاً.

في كل حملات شامل، وفي كل أسفاره ـ في داغستان، في بطرسبرغ، في كالوغا، في بلاد العرب ـ وحتى وفاته كانت زوجته سكينة دائماً إلى جانبه، لم تبتعد عنه خطوة واحدة. ولا زالت الأساطير تروى حتى الآن عن هذه المرأة المدهشة. ولقد ساعدت في النهاية على عودة جمال الدين إلى أبيه. لكن هذه قصة أخرى.

أغنية جمال الدين

عاد الرهينة جمال الدين ابن الثامنة إلى داغستان شاباً في الرابعة والعشرين من عمره. لقد استنفد الإمام الكثير من قواه وصبره ودهائه ليعيد ابنه إليه. اقترح شامل على القيصر الروسي استبدال جمال الدين

بأسرى حرب روس كثيرين، لكن القيصر لم يقبل. فقد كان في حاجة إلى هذا الجبلي الشاب في بطرسبرغ. كان القيصر يحاول إقناع شامل بإنهاء هذا الكفاح الذي لا معنى له مهدّداً إياه بقتل ابنه. لكن الإمام لم يخضع للتهديد. كتبوا له باسم ابنه: (وقد يكون الأبن نفسه كتب) القيصر قوي جداً، وليس هناك أي أمل في إلحاق هزيمة به، داغستان تنزف دائماً، واستمرار المقاومة لن يجلب إلا الضرر والحزن.

لكن الإمام العنيد لم يكن ليصدق شيئاً. وكان أن انضم الحاج مراد مع بعض مريديه إلى القيصر. لكنه ترك أسرته ـ أمه وزوجته وأخته وابنه ـ في الجبال. ومن الطبيعي أنهم كانوا جميعاً في قبضة شامل. وقد كتب شامل إلى الحاج مراد يقول: «إذا لم تعد، فسأقطع رأس ابنك بوليتش، وأترك للمقاتلين أن يفضحوا أمك وأختك وزوجتك».

وكان الحاج مراد يبحث من جهته عن طريق ينقذ بها أسرته فيصبح بذلك طليق اليدين في صراعه مع الإمام العنيد. كان يقول في تلك الأيام: «أنا مربوط بحبل، وطرف الحبل بيد شامل». لكن أمر الفدية لم يكن وارداً في أي حال من الأحوال. وقد قال شامل حين بلغه أن مريده السابق يأمل في افتداء أسرته: «بالإضافة إلى كل ما سبق، يبدو أن الحاج مراد جنّ».

لكن إذا كان شامل يمسك بيده طرف الحبل الموصل إلى الحاج مراد فإن الحاج مراد كان يمسك خيطاً يصل مباشرة إلى قلب شامل. هذا الخيط كان جمال الدين. ذهب الحاج مراد إلى فورونتسوف يرجوه: «فليطلق القيصر الأبيض سراح جمال الدين وعندئذ قد يطلق شامل سراح أهلي. وما دامت أسرتي في قبضة شامل، فإن خروجي إلى محاربته يعني أني أذبح بيدي أمي وابني وزوجتي وكل عشيرتي».

نقل فورونتسوف ما سمعه، إلى القيصر، فوافق على التبادل. وكتبوا إلى شامل يقولون: «تأخذ ابنك، إذا أفرجت عن أسرة الحاج مراد».

وجد شامل نفسه أمام خيار صعب. ظل ثلاث ليال لا ينام، لا هو ولا أسرته. وفي اليوم الرابع استدعى إليه بوليتش ابن الحاج مراد.

ـ أنت ابن الحاج مراد.

ـ نعم، أنا ابن الحاج مراد، أيها الإمام.

ـ هل تعرف ما اقترف؟

ـ أعرف، أيها الإمام.

ـ وما تقول في ذلك؟

ـ وماذا يمكن قوله؟

ـ هل تريد أن تراه.

ـ جداً.

ـ إني أبعثك إليه مع جدتك وأمك والأسرة كلها.

ـ لا، لا أستطيع أن أذهب إليه. مكاني هنا في داغستان. هناك ليست داغستان.

ـ يجب أن تذهب، يا بوليتش، أنا آمرك بذلك.

ـ لن أذهب، أيها الإمام. لا، الأفضل أن تقتلني على الفور في هذا المكان.

ـ أراك صعب المراس كوالدك.

ـ كلنا في طاعتك، أيها الإمام. لكن لا تقل لي أن أذهب إلى هناك. الأفضل أن ترسلني إلى الحرب فلن أبخل بحياتي.

ـ لتحارب والدك؟

ـ لأحارب الأعداء.

في ذلك اليوم أهدى شامل بوليتش واحداً من أفضل خناجره.

ـ أجذ استعماله كوالدك. لكن اعرف دائماً من تطعن به.

لكن هذه الصفقة لم تنجح. فلا بوليتش عاد إلى الحاج مراد، ولا جمال الدين عاد إلى الإمام.

كان شامل خلال ذلك يعدّ لأمر آخر. فقد أرسل ابنه الآخر القاضي

محمداً ليغزو إمارة تسيننذالي الجيورجية. وكانت من نتيجة الغزو أن أسرت الأميرة تشافتشا فادزي والأميرة أوربيلياني ومعهما مربية فرنسية، كما وجد المريدون كاتيرينا تشافتشا فادزي أخت نينا غريبوييدفا في جوف شجرة فأخذوها من هناك.

لقد أصبح في مقدور شامل الآن أن يملي شروطه على القيصر. فالقيصر سيحاول أن ينقذ الأميرات الجيورجيات بأي ثمن. «أعيد إليك الأميرات مقابل ابني فقط» ـ كانت هذه كلمة شامل الأخيرة.

وأتى اليوم الموعود. نهر واسع. على إحدى ضفتيه الأميرات المخطوفات ينتظرن إطلاق سراحهن. وعلى الضفة الأخرى وصل ابن الإمام برفقة جنود روس. ووصل شامل أيضاً إلى قرب النهر على حصانه. كان يحدّق في الناس الموجودين على الضفة الأخرى من النهر لعله يتبيّن ابنه جمال الدين. لقد مرّ وقت طويل جداً على فراق الأب والابن. فهل سيعرف أحدهما الآخر؟

وأشار مرافقو الإمام إلى ضابط روسي ممشوق القامة يلبس معطفه الرسمي وعليه كتافيات ذهبية. كان الضابط يتحدث إلى ضباط روس آخرين معه ويودعهم ويعانقهم. ثم اقترب من فتاة شابة كانت تقف على مقربة منهم فقبّل يدها. وكان في أثناء ذلك يتطلع بين الحين والآخر إلى والده على ظهر جواده الأبيض.

ـ أحقاً هذا هو ابني؟ سأل الإمام دون أن يرفع ناظريه إلى الضابط. ومحاولاً ألا تفوته حركة من حركاته.

ـ نعم. هذا هو جمال الدين نفسه.

ـ احملوا إليه، إلى الضفة الثانية، قفطاننا وسلاحنا. إنه لم يعد منذ الآن ضابطاً من ضباط القيصر، بل محارباً من محاربي داغستان. واللباس الذي يرتديه الآن ارموه في النهر. وإلا فلن أدعه يقترب مني.

نفّذ جمال الدين إرادة أبيه واستبدل ثيابه. وضع سلاح الجبلي فوق

قفطان الجبلي. لكن قلب جمال الدين ورأسه بقيا تحت القفطان والقلبق وقلبه ورأسه كان من غير الممكن أن يستبدل بهما شيئاً آخر.

وها هو ذا أخيراً يقطع النهر ويقترب من والده.

ـ بنيّ العزيز!

ـ والدي!

أُعطي جمال الدين حصاناً. كل الطريق حتى فيدنيو قطعها الأب والابن معاً أحدهما إلى جانب الآخر. وكان الوالد يسأل بين الحين والآخر.

ـ قل لي، يا جمال الدين، ألا تذكر هذه الأماكن؟ ألم تنسَ هذه الصخور؟ هل تذكر قريتنا غمرا؟ هل تذكر أخولفو؟

ـ لقد كنت آنذاك صغيراً جداً، يا والدي.

ـ قل لي، هل صلّيت ولو مرة واحدة من أجل داغستان؟ ألم تنسَ صلواتنا؟ هل تذكر آيات من القرآن؟

وأجاب جمال الدين في تثاقل:

ـ هناك حيث عشت لم يكن القرآن في متناول يدي.

ـ أيعقل أنك لم تحن رأسك مرة واحدة أمام جبروت اللّه؟ ألم تردّد الأناشيد الدينية؟ ألم تصم صيامنا؟ ألم تؤدِّ الصلاة؟

ـ والدي، يجب أن نتحدث.

لكن شاملاً همز حصانه.

وفي اليوم التالي استدعى شامل إليه ابنه.

ـ أنظر، يا جمال الدين، الشمس تشرق من وراء الجبال. أليس هذا جميلاً، بالحقيقة؟

ـ جميل، يا والدي.

ـ هل أنت مستعد أن تضحي بحياتك من أجل هذه الجبال، من أجل هذه الشمس؟

ـ والدي، يجب أن نتحدث.

ـ لا بأس، تكلم.

ـ يا والدي، إن روسيا عظيمة وغنية وجبارة. فلماذا ندافع عن فقر هذه الجبال، وعن البؤس والجهل؟ في روسيا أدب عظيم، وموسيقى عظيمة، ولغة عظيمة. سيأتون إلينا. وداغستان ستربح إذا اتحدت بروسيا. لقد آن الأوان لأن ننظر إلى الحقيقة كما هي، ولأن نلقي السلاح ونضمد الجراح. صدقني، إني أحب داغستان لا أقل منك...

ـ جمال الدين!..

ـ والدي، ليس في داغستان قرية لم تحرق مرة واحدة على أقل تقدير. ولا توجد صخرة لم تجرح، ولا حجر لم يخضب بدم.

ـ أرى أنك لست مستعداً، ولست قادراً على أن تدافع عن هذه الصخور الجريحة.

ـ والدي!

ـ لست بوالدك. وأنت لم تكن ابني. الأموات يجب أن يخرجوا من قبورهم حين يسمعون كلماتك. فما بالك بي، أنا الحي، عندما أسمع هذا كله منك، ماذا عليّ أن أفعل؟ أترى، كيف اسودَّت الصخور؟

ودعا شامل إليه مقربيه الأوفياء وأسرته:

ـ أيها الناس، أريد أن أروي لكم ما يقوله ابني. إنه يقول إن القيصر الأبيض عظيم، وإن قوة الأعداء كبيرة، وإن دولة القيصر عظيمة، وإننا نحاربها عبثاً. ويقول إنه آن الأوان لأن نرمي السلاح ونحني رؤوسنا أمام القيصر. كنت أحسب أن الإنسان الذي يجرؤ على مثل هذا التفكير، بله قوله، لن أتركه في داغستان ولو ساعة واحدة. لكن هذه الكلمات تتردّد اليوم، وأين؟ في بيتنا؟ ومن يقول هذا القول؟ ابني! فماذا نفعل به، بإنسان أرسله القيصر ليفضح داغستان ويفضحني؟ تعرفون جيداً كم مرة طعنت حراب الأعداء صدر داغستان وصدري. هذه الحربة التي صنعتها، شحذها القيصر الآن ووجّهها إلى قلبي. فما العمل؟

أصغى المجتمعون في أسى إلى إمامهم. لكن أم جمال الدين وحدها لم تكن تستطيع أن تصدق هذا كله.

والتفت شامل إلى ابنه:

ـ آه منك يا عدوّ الجبال! ستكون في مكان لا أسمع فيه صوتك. ليس لك أب، وداغستان ليست داغستانك. لقد بادلتك بالأميرات الجيورجيات، فبمن أبادلك؟ ماذا أفعل بك؟

ـ افعل ما تشاء بابنك، يا والدي. اقتلني لكن استمع إليّ أولاً.

ـ كفى. كنت أطيع اللّه دائماً، لكني لن أطيع أحداً اليوم حتى إلّهي. إنه يقول: لا تقتل. وأقول له: إنه ليس عدواً، بل ابن ضال. وأقول له إني عاجز عن قطع إصبع من أصابعه. عش إذاً، لكن انزع هذا الخنجر. فالخنجر يحتاجه من هو على استعداد لأن يحارب.

ونفى شامل ابنه إلى قرية نائية. وعاش جمال الدين هناك كورقة نزعت عن أمها. هدّته الأفكار الحزينة والطعام السيىء والمناخ الغريب فأصيب بالسلّ. كان الإمام يحارب، وكان تنفّس ابنه يزداد صعوبة. لقد قضي عليه. في هذه الأثناء أتت إليه أمه فاطمة سراً، وجلبت له معها لعباً مصنوعة من العجين. واحدة بشكل خنجر، وثانية بشكل نسر، وثالثة بشكل سيف. ثم أتت من الحوش بأقراص الزبل وأوقدت النار في الموقد. سخنت فاطمة اللعب ثم مسحت عنها الرماد بركبتها، وبعد أن كسرت واحدة منها قدمتها لجمال الدين وكأنه طفل صغير. وقالت فاطمة:

ـ عندما لا يكون للأم حليبها الخاص، فإنها تحاول أن تعوّد ابنها على حليب التيس الجبلي.

كان جمال الدين ينظر إلى أمه بعينين مدهوشتين. بدا له أنه يراها للمرة الأولى، وفجأة تذكّرها صبية وجميلة. وكانت في طفولته تطعمه مثل هذه الأرغفة بالضبط. وعند سريره الذي كان يشبه الحصان كانت

تغني له أغنية الشاب الذي يتغذّى بحليب اللبؤة. وعند طرف السرير، تحت مخدته كان يوجد خنجر خشبي صغير.

وصرخ جمال الدين كما في طفولته:

ـ ماما!

وقالت فاطمة:

ـ جمال، بنيّ، عد إليّ!

لقد عرف جمال الدين أمه. وقرب الموقد الذي أخذت ناره تهمد، أخذت الأم تغني لابنها، وهي تنحني فوقه، أغنيات المهد، كما كانت تفعل في فجر حياته.

كان الإمام الذي لم يفهمه ابنه يحارب مع مريديه في مكان ما بعيد. أما زوجته فاطمة فكانت تغني أغنية الوداع لبكرها المحتضر.

وبدا لجمال الدين أن نهراً ينتحب في مكان ما قريب بين الصخور. وتراءى له أن عجلاً صغيراً يرقد على العشب المحصود واليابس قرب الأبواب.

تذكّر بيته في غمرا، وتذكّر أباه، وتذكّر جواده الأول. كانت أمه تغني عن دينفير دينفارتشو المرح الذي صعد إلى السموات على حبال المطر.

ـ أين كنت، يا دنفير دينفارتشو؟
ـ في الغابة كان دنفير دينفارتشو.
ـ ولماذا كنت هناك، يا دنفير دينفارتشو؟
ـ يقطع الحطب كان دنفير دينفارتشو.
ـ ولماذا كنت تقطعه، يا دنفير دينفارتشو؟
ـ ليبني بيتاً دنفير دينفارتشو.
ـ وما حاجتك إلى البيت، يا دنفير دينفارتشو؟
ـ يريد أن يتزوج دنفير دينفارتشو.
ـ ولماذا تتزوج، يا دنفير دينفارتشو؟
ـ ليرزق أبطالاً دنفير دينفارتشو.

ـ والأبطال لماذا، يا دنفير دينفارتشو؟
ـ ليعتز بهم دنفير دينفارتشو.

وانتصبت أمام عيني جمال الدين جبال بلاده. الثلج يذوب، والسيول تهدر دافعة معها الحجارة. والغيوم تزحف على الجبال. وأحاطت به داغستان التي نسيها في بلاد الغربة. وكانت أمه لا تزال تغني. كانت هناك أغنيات تغنى حين يولد الأبناء، وأخرى تغنى حين يموت الأبناء، وأخرى عن أغنيات الأبناء التي تبقى بعد أن يغيبوا. كانت الأم تغني عن شامل وعن الحاج مراد، والقاضي محمد، وحمزة بيك، وعن خوتشبار الشجاع وعن بارتو وفاطمة وعن هزيمة الشاه نادر، وعن أولئك الذين لم يعودوا من غزواتهم.

كانت بقية من نار تخمد في الموقد. وكانت داغستان تحترق في لهيب الحرب. وهاتان الناران انعكستا الآن في عيني جمال الدين. لقد هزّته أغنية أمه. فاستفاق فيه وتفجر حبه البنوي يدعوه لأن يقف إلى جانب والده.

ـ أماه، الآن فقط عدت إلى داغستان. الآن فقط التقيت بوالدي. هاتي لي سلاحاً. أنا ابن شامل. لا يجوز أن أموت قرب الموقد. دعوني أذهب إلى حيث المعركة.

وهكذا، فعلت أغنية الأم ما لم يستطع أن يفعله لا القرآن ولا أمر والده.

لكن هذه لم تكن إلا ثورة موقتة. فأغنيات أمه لم تستطع أن تخنق فيه أغاني أخرى. لم يستطع أن ينسى بطرسبرغ التي ترعرع فيها. وكان ينشد للجبليين الداغستانيين بلغة غريبة أبياتاً غير مفهومة:

أحبك يا صنيع بطرس،
أحب منظرك القاسي الممشوق،
أحب جريان النيفا الجليل،

وشاطئها الغرانيتي
وأسوارك ذات الزخرف الحديدي
ولياليك الحالمة
بعتمتها الشفافة وبريقها في غياب القمر،
حين أكون في غرفتي
أكتب أو أقرأ دون مصباح
وشوارعك الخاوية مشرقة
بكتلها الضخمة النائمة، وحيث تلمع
مسلة مفرق مبنى الأدميرالية(*)...

كانت هذه الكلمات ذات صدى غريب في ذلك البيت الداخن من تلك القرية الجبلية. وكان جمال يرى في نومه أنه في المدرسة الحربية من جديد، وأنه يلتقي عند سياج الحديقة الصيفية بالحسناء الجيورجية نينا...

نسران كانا يعيشان في قلب جمال الدين ويتنازعانه. وكانت أغنيتان تترددان في صدره. محبوبته نينا بعيدة. وبينهما يمر نهر عظيم. البريد لا يروح ويجيء عبر النهر.

وفي هذا النهر غرق ضابط روسي، هو ابن إمام داغستان. لقد جرف النهر وحمل معه أحلامه كلها ومنها واحد هو أهمها.

لقد كان أمل جمال الدين المنشود أن يبني جسراً فوق هذا النهر العظيم، وأن يربط الضفتين، وأن يبدل قساوة الحرب والقتل الذي لا معنى لها صداقة وبشاشة وحياة. كان يفهم الأغاني التي يغنيها الجبليون، وكان يفهم أغاني أمه، لكنه كان يفهم أيضاً أغاني بوشكين. لقد التقت الأغنيتان في قلب واحد. لو فهم والده ذلك، لو فهم الجميع، لو أن الأغنيتين نفسيهما فهمتا، وأحبت إحداهما الأخرى!

لكن الأغنيات كانت تشبه السيوف. كانت تتقارع فيقدح منها الشرر.

(*) هذه الأبيات للشاعر الروسي الكبير بوشكين (المترجم).

وكانت داغستان تغني، وهي تنزف دماً، عن الدم، والشجعان، وعن العيون ينقرها الغراب، وعن صهيل الخيل، وصليل الخناجر، وعن الفرس تعود إلى بيتها بعد أن تركت فارسها في ساحة الوغى.

وحين كانت الأغنيات تفهم إحداها الأخرى، حين كان الناس المقيمون على إحدى الضفتين يفهمون الأغنية الآتية من الضفة الأخرى، كان إطلاق الرصاص يهدأ، وصليل الخناجر يصمت، والدم يتوقف عن النزف، واليد تكف عن طلب الثأر، وكان الحب يستيقظ في القلب بدل الضغينة.

في إحدى المعارك قرب نهر فاليريك، وقع أحد مريدي شامل الجرحى وهو الملّا محمد في أسر الروس. فبكاه أهل القرية ظناً منهم أنه قتل. لكنه ما لبث أن عاد بعد شهر سليماً معافى إلى بيته. وأخذ الناس يسألونه مستغربين أن يروي لهم كيف نجح في الخلاص من الأسر. لكن هذا السؤال أغضب المريد فقال:

ـ لا تظنوا أن الملّا محمد استعاد حريته بالكذب أو التزلف. فأنا لست جباناً.

ـ نعرف أنك مريد شجاع. لا بدّ أنك شققت طريقك بسيفك.

ـ لم يكن معي سيف. ولو كان معي لما أفادني في شيء.

ـ كيف هربت إذاً؟

ـ لقد وضعوني في قبو، وأقفلوا الباب.

ـ وكيف شعرت بنفسك وأنت هناك؟

ـ كتيس جبلي وقع في مصيدة. لكني تذكرت في هذا القبو فجأة أغنية عن علي، الذي تركه أخوته الأشرار فوق صخرة عالية. غنيت هذه الأغنية، ثم أخذت أغني أغنيات أخرى. غنيت عن العصافير التي تأتي في الربيع، وعن الغرانيق التي تغادرنا في الخريف، غنيت عن الأيل الذي أصابه صياد قليل الخبرة بتسعة جروح، غنيت عن الخريف وغنيت

عن الشتاء. غنيت أغاني لم يغنها أحد حتى الآن. ثلاث ليال بقيت لا أفعل شيئاً سوى الغناء. لم يعترضني الحرس. فالأغنية هي الأغنية، حتى وإن لم يفهم الجميع كلماتها. الأغنية يسمعها الجميع. وذات مرة رأيت ضابطاً شاباً يقترب من الحراس. فقلت في نفسي إن نهايتي قد دنت. وأتى مع الضابط شخص آخر يعرف لغتنا، سألني: «الضابط يريد أن يعرف ما تغني. وعمَّ تدور أغنيتك؟ غنِّها لنا مرة أخرى». أخذت أغني عن داغستان التي تحترق. طلب إليّ أن أغني مرة أخرى، فغنيت عن أمي المسكينة وعن زوجتي المحبوبة. كان الضابط يصغي وهو يلتفت صوب الجبال. وكانت الجبال ملفوفة بالغمام. قال للحراس أن يفكّوا قيدي. وقال لي الشخص الذي يعرف لغتنا: «هذا الضابط يطلق سراحك. لقد أعجبته أغانيك كثيراً. ولهذا فهو يفرج عنك لتعود إلى وطنك.. وصرت بعد هذا أفكر أحياناً في نفسي: «ربما كان الأفضل لداغستان أن تغني دائماً أغانيها! لا أن تسفك دمها».

لكن شاملاً سأل مريده العائد من الأسر:

ـ لكني حرّمت الغناء، فلماذا غنيت؟

ـ لقد حرّمت الغناء هنا، في داغستان، أيها الإمام، لكنك لم تحرمه هناك.

ـ أعجبني جوابك، قال شامل، ثم أردف بعد تفكير قصير: ـ تستطيع أن تغني أيها الملّا محمد.

ومنذ ذلك الوقت أخذ الناس يطلقون على «الملا محمد»: محمد الذي أنقذته الأغنية.

كانت داغستان في حاجة إلى أغنية كي تنقذها. ولكن هل كان فيها شخص قادر على أن يفهمها كما فهمها ذلك الضابط؟ ومن كان؟ أليس الملازم ليرمنتوف؟ قد حارب ليرمنتوف أيضاً عند نهر فاليريك.

وحادثة أخرى. كان الحاج مراد عائداً مع جماعته من غزوة ناجحة

لتيميرخان شورا، حين رأى في إحدى الغابات وعلى مقربة من الطريق جنديين روسيين. كانا يجلسان باطمئنان قرب نار أوقداها يغنيان. وسأل الحاج مراد أحد محاربيه وكان يفهم الروسية قليلاً:

ـ عم يغنيان؟

ـ عن الأم، عن الحبيبة، عن قادة وطنهم البعيد.

استمع الحاج مراد طويلاً إلى أغنية الروسيين ثم قال بصوت خافت.

ـ هذان الشخصان ليسا عدوين. دعوهما وشأنهما، يغنيان عن الأم.

وهكذا جنبت الأغنية الناس الرصاص. وكم رصاصة كان يمكن تجنّبها وإيقافها، لو كان الناس يفهم بعضهم بعضاً!

وحادثة ثالثة. أرسل ماخاتش رئيس المجلس الثوري في داغستان الشاعر المشهور محمود يحمل إلى الأنصار في خونزاخ رسالة هامة وقال له:

ـ شق طريقك إليهم بالطنبور لا بالخنجر.

في قرية تسادانيخ ألقي القبض على محمود ووضع في حفرة. كان سيعدم لو عثر معه على رسالة ماخاتش. كان محمود يغني أغاني عن حبه وهو جالس في حفرته. أتت القرية كلها تستمع إليه كما أتوا إليه من القرى الأخرى. آنذاك أدرك نجم الدين غوتسينسكي: «إذا قتلت هذا المغني اليوم، فسيعرض عني كل الجبليين غداً» وأطلق سراح الشاعر.

كان إيرتشا كازاك يقول إنه كان من الممكن أن يموت وهو أسير في سيبيريا لو لم تكن معه الأغنية.

ومثل هذه الحوادث كثير... وعلينا أن نصدقها. فالأغنية أنقذت حياة الكثيرين، وكثيرون من المشاة جعلتهم خيالة. وكثيرون من الذين كانوا يخافون أصبحوا شجعاناً بعد أن سمعوا أغنية عن الشجعان.

أما هذه القصة فقد سمعتها من أبي طالب.

عندما عدت من الهند، أخذ يسألني كثيراً عن هذا البلد. فأخبرته

كيف أن فقراء الهند، الحواة، يرقصون الكوبرا كأنها راقصة باليه على أنغام مزمار خاص.

قال أبو طالب:

ـ هذا ليس بالأمر الغريب. فرعاتنا يرقصون التيوس في الجبال العالية. وأنا ذاتي رأيت كيف كانت أجبن الأيائل تسير فرحة على أنغام الموسيقى. ورأيت الدببة ترقص على الحبال على أنغام القيثارة كبهلوانات. صمت أبو طالب قليلاً ثم أخذ يعترف لي: لقد ساعدني النغم في حياتي أنا أيضاً. تعرف على الأرجح، أني أحب القيثارة أكثر من أي شيء آخر. إنها تسمع بعيداً. إنها تبشر بمولد الطفل، وبعودة الصديق وبالأعراس. إنها صوت المبشر بكل المسرات في داغستان: بالفوز في المصارعة على السجادة، أو بفوز فرس في سباق. إنها بين الآلات الموسيقية الأخرى كالقيم على المأدبة. كما أحب القيثارة بسبب آخر هو أنها أطعمتني في شبابي. أريد أن أحدثك عما جرى لي ذات مرة.

كنت شاباً يومئذ. دعيت ذات مرة إلى عرس في قرية جبلية نائية. كان الوقت شتاء، وكان الثلج يتساقط بغزارة. والطريق كانت متعرجة كالأرقام اثنان وثلاثة وأربعة. تعبت فجلست أرتاح على حجر. كانت المسافة إلى القرية لا تزال بعيدة جداً. فجأة سمعت وراء المنعطف أصوات أجراس صغيرة، ثم ظهرت على الطريق مركبة مكشوفة. كان فيها ثلاثة أشخاص شباع، مخمورين، صاخبين، من أسرة غنية على ما يبدو. والأحصنة أحدها أبيض كالسكر، والثاني ذو غرة بيضاء والثالث أسود. «السلام عليكم» و«عليكم السلام». عرفت أن الركاب ذاهبون إلى العرس نفسه. رجوتهم أن يأخذوني معهم. لكنهم رفضوا، كما يفعل الآن السائقون الذين لا يحترمون أنفسهم، لا بل أخذوا يهزأون بي «لا بأس تستطيع أن تصل إلى القرية في العرس القادم. أما هذا العرس فالظاهر أنه في غنى عنك».

كنت تعباً ومهاناً فأخرجت القيثارة وأخذت أعزف. أنا في حياتي لم أكن قد عزفت مثل هذا العزف. وهنا حدثت أعجوبة. فقد توقفت الخيول مسمّرة في مكانها حين سمعت صوت القيثارة. استعر الركاب غيظاً فأخذوا يضربون الأحصنة بسياطهم، ولكن عبثاً. بقيت الأحصنة جامدة في مكانها. يبدو أن لحني قد أعجبها. ويبدو أن عندها من الإحساس الإنساني أكثر مما عند أصحابها. واستمرت مناقشاتنا طويلاً. وكانت الأحصنة إلى جانبي. أخيراً اضطر أصحابها إلى نقلي في مركبتهم، وهكذا أنقذتني القيثارة. الأغنيات هي التي أخرجتني من القبو إلى الطريق الواسع، طريق الاحترام والتقدير.

وسألت أبا طالب:

ـ ها أنت ذا تعزف على القيثارة وعلى المزامير الأخرى. بل إنك تعرف صنعها فوق ذلك. فلماذا لا تعرف العزف على الكمان؟ فالجبليون يحبون هذه الآلة حباً جماً.

ـ هل أخبرك، لماذا لا أعزف على الكمان؟ اسمع. كنت أعزف عليه حين كنت شاباً. وذات مرة ظهر في قريتنا اللاكية، آفاري تعيس وسقيم. كان قد قتل أحد أبناء قريته فأبعد بسبب ذلك. أهل القرية يسكنون المبعد دائماً في بيت على طرف القرية، لا يذهبون إليه ولا يأتي إليهم. وبما أني كنت أعرف قليلاً اللغة الآفارية، أخذت أتردد عليه أحياناً. وأتيت إليه ذات مساء ومعي كماني، فوجدته جالساً قرب الموقد يقلب القش المحترق تحت الطنجرة. وكان يغلي في الطنجرة قشاً أيضاً. أخذت أعزف على الكمان، والآفاري المسكين ينظر إلى النار ويصغي صامتاً. ثم أخذ فجأة كماني بين يديه، وتطلع فيه، وقلبه، ثم دوزنه قليلاً وأخذ يعزف.

آه، يا رسول، لو تدري كيف كان يعزف! لن أنسى عزفه ما حييت. كان القش يحترق في الموقد. وأحياناً كان يومض بلهيب ساطع فينير عيوننا. وكانت الدموع تتلألأ أحياناً في عيوننا. تركت كماني عند

الآفاري وعدت إلى بيتي. وفي اليوم التالي اتجهت إلى الجبال، فوجدت قريته ثم وجدت أعداءه. أتيت بهم إلى بيت المبعد. كانوا يجلسون في بيتي نهاراً، وفي الليل يذهبون معي ليستمعوا إلى عدوهم كيف يعزف. استمرت الحال هكذا ثلاث ليال متوالية. وفي اليوم الرابع تخلّى أعداؤه عن الثأر. قالوا لابن قريتهم: «عد إلى بيتك. لقد عفونا عنك». وأراد الآفاري أن يعيد إليّ كماني حين قام يودعني، لكني رفضت. قلت له: «لن أتعلم أبداً العزف مثلك. كما أني لم أعد أقوى على العزف عزفاً أسوأ من عزفك. ولهذا السبب فلست في حاجة إلى الكمان». ومنذ ذلك الوقت لم تمس يديّ كماناً. لكن الموسيقى التي رمت السلام بين الأعداء لن أنساها هي الأخرى أبداً. وكثيراً ما أفكر لو استطاع الناس كلهم أن يستمعوا إلى مثل ذلك العزف على الكمان، لما عمد إنسان إلى صنع الشرّ، ولزالت البغضاء والعداء من العالم.

سأروي لكم الآن قصتين صغيرتين تتعلقان بوالدي.

افتتح أحد الغوتسالينيين واسمه حاج حانة في خونزاخ. وذات يوم دعا والدي إليه وقال له:

ـ أنت إنسان معروف في الجبال. ألّف أغنية عن حانتي وقل فيها كلمة حلوة حتى يعرفها الناس. ولن أتردد عن دفع أي مبلغ تريده.

وبالفعل كتب والدي أبياتاً، واشتهرت حانة الفوتساليني، لكنه شهرها كمكان قذر لا نفع فيه. وبعد هذا صار الجميع يشيرون بإصبعهم إلى الحانة وصاحبها ويقولون: «هذا هو الذي فضحه حمزة».

قلق صاحب الحانة حين عرف بوجود مثل هذه الأبيات. فاقترح على والدي حصاناً مسرجاً على أن لا يذيع أبياته. لكن إذا تجاوزت الكلمة وادياً فإنها ستعبر كل الجبال ولن يوقفها شيء. وسرعان ما اشتهرت أغنية والدي عن الفوتساليني السيىء الحظ في كل القرى. وهي ما زالت تغنى حتى الآن. ولم يكن من الحاج إلا أن أغلق حانته.

ذات مرة اختفى من بيتنا فخذا خروف مقددان. ولم تكن هناك إمكانية

للعثور عليهما. ولكن سرت في القرية فجأة إشاعة تقول بأن حمزة ألف أغنية في السارق. وفي اليوم نفسه قذف السارق الفخذين المقددين خفية إلى شرفتنا. مع أن والدي لم يفكر حتى مجرد تفكير في تأليف هذه الأغنية.

تحدث أحياناً بين المتزوجين حديثاً مشاجرات. في مثل هذه الأمسيات يأتي أصدقاء الطرفين، وعلى الأخص أصدقاء الزوج، إلى تحت نوافذ البيت ويأخذون في العزف على المزمار. وأنغام المزمار هذه تجعل الزوجين الشابين ينسيان خلافاتهما الصغيرة.

وأنا أيضاً كان لي صديق طيب هو المصور والموسيقي أمين تشوتويف، وكثيراً ما اضطر في سنوات زواجي الأولى إلى أن يأتي ويعزف تحت نوافذي.

أي أمين تشوتويف، لماذا لا تأخذ كمانك الآن وتعزف تحت نوافذ العالم لتخمد نزاعات عصرنا فتهدأ؟

كان لي في إحدى لقاءاتنا في شيكاغو نقاش حام مع زميل أميركي. كان النقاش قاسياً، لا سبيل فيه إلى الاتفاق على ما بدا، لكن الأميركي قرأ فجأة فيما بعد أبياتاً لأخيه الذي فقده في ألمانيا أثناء الحرب الأخيرة. وأنا من جهتي قرأت أبياتاً لأخي الذي قتل هناك أيضاً وفي الوقت نفسه.

فهدأ نقاشنا ولم تبقَ إلا أبيات الشعر. حبذا لو أننا نذكر قتلانا أكثر، ولو أننا نلوذ بالشعر وبالأغنية أكثر!

أغار جدودي مراراً على جارتنا جيورجيا. وفي إحدى غاراتهم هذه اختطفوا الشاب دافيد غوراميشفيلي الذي سيصبح واحداً من أعمدة الأدب الكلاسيكي الجيورجي وأخذوه معهم إلى جبال آفاريا.

كان الأسير المسكين الذي ألقي في حفرة في أونتسوكول الجبلية العالية يغني أغانيه الجيورجية. وهناك بالذات بدأ ينظم الشعر. وقد استطاع فيما بعد أن يهرب من أونتسوكول إلى روسيا ومنها إلى أوكرانيا.

لقد حضرت في تيبيليسي مهرجان هذا الشاعر الرائع. وحين جاء دوري في الكلام لاحظت مازحاً «أن جيورجيا مدينة لنا، نحن الداغستانيين، بشاعر كبير مثل دافيد غوراميشفيلي. فلو لم نختطفه ونلقه في حفرة، فقد لا ينظم الشعر ولا يصل إلى روسيا وأوكرانيا، ولربما أخذت حياته كلها مجرى آخر. لكني أضفت قائلاً: «حين اختطف أجدادي الأمير الشاب، لم يكونوا يدرون أنهم يختطفون شاعراً، وإلا لما فعلوا ذلك. على أي حال، إذا كان الداغستانيون قد أسروا دافيد غوراميشفيلي فيما مضى، فإنه الآن يأسر الداغستانيين بشعره. فانظروا كيف ... الأحوال».

الآ... أغنيات جديدة. لكننا لم ننسَ القديمة. وهذه الكنوز الثمينة يهبها الشعب الداغستاني الآن للناس كلهم.

قاسية طبيعة الجبال. في القديم كان يموت كثير من الأطفال هنا لكن الذين كانوا يبقون على قيد الحياة كانوا يعمرون طويلاً، أكثر من مائة عام.

والأغنيات التي غنيت لم تبقَ كلها، لكن ما بقي منها صار يتحدّى الزمن.

في سن الطفولة كانت تموت نسبة أكبر من الصبيان، أما البنات فكن أكثر قدرة على التحمّل وعلى الحياة.

وهكذا حال الأغنيات. أغنيات الرجال، أغنيات الفروسية والحرب، والأغنيات المتصلة بالغزو والقتال، بالقبر والثأر والدم، بالتحدي والجرأة، لا أدري لماذا تنطفىء قبل أغاني الحب.

لكن الأغنيات القديمة كلها كأنما هي مقدمة لموسيقى داغستان الجديدة. أوتار جديدة تشدّ على الطنبور القديم، وها هي ذي أصابع الجبليات الدربة تتسارع فوق مفاتيح البيانو البيضاء والسوداء.

لقد ولدت وترعرعت في بيت أغان. وفي وجل أمسكت بقلمي. كنت أخاف الاقتراب من الشعر، لكني لم أستطع إلا أن أقترب منه. كان

وضعي معقداً. فبعد حمزة تساداسا من تراه يحتاج إلى رسول تساداسا (أي من قرية تسادا)، من قرية واحدة، من بيث واحد، من داغستان واحدة.

كنت، حيثما ذهبت، وحيثما كان عليّ أن ألتقي بالناس وأتحدث إليهم، ولا أزال حتى الآن بعد أن اشتعل رأسي شيباً، أسمع هذا القول في كل زمان وفي كل مكان: «الكلمة الآن لرسول ـ ابن شاعرنا حمزة» بالطبع ليس بالأمر اليسير أن تكون ابن حمزة، لكني أريد أن أكون ذاتي. وهذا أيضاً ليس بالأمر السهل.

ذهبت ذات مرة إلى منطقة جبلية، فزرت بعض قراها، لم يبق أمامي إلا قرية واحدة هي تسومادا. لمحت من بعيد وأنا أقترب منها أن ناساً تجمعوا في طرفها كان صوت القيثارة ورجع الأغاني مسموعين. لا بدّ أنهم يستقبلون شخصاً ما. لكن تبيّن لنا أنهم إنما خرجوا لاستقبالي أنا فشعرت بغبطة وببعض الخجل، كأنني لا أستحق بعد هذا الاستقبال. وحين اقتربنا منهم وترجّلنا، أخذ الناس يتساءلون:

ـ أين حمزة الشيخ؟

ـ حمزة في ماخاتشكالا. إنه لم يكن ينوي المجيء إليكم. ولقد أتيت أنا، رسول بن حمزة.

ـ قيل لنا إن القادم هو حمزة.

أخذ الناس يتفرقون، ولم يبق معي إلا بعض الشبان. أخذنا نغني. غنينا كثيراً، أغنيات ألّفها الشعب، وأغنيات ألفها والدي، لا بل غنينا أغنية ألفتها أنا.

كانت أغنيتي تشبه صبياً صغيراً يمسك سوطاً ويصعد السلم وراء والده الذي يحمل سرجاً.

إيه، طنبورنا الجبلي! بقدر ما أشيخ، وبقدر ما أعرف الحياة والناس والعالم، ما أخشى أن آخذك بين يدي. لقد ظلوا يصنعون أوتارك ويشدونها آلاف السنين. وآلاف المغنين أخرجوا منك الألحان البديعة.

حين آخذ في تدوير ملاويك، يتوقف قلبي عن الخفقان، ولو انقطع وتر في هذه اللحظة، لتمزّق قلبي، فقطع وتر بهذا اليسر معناه مقتل أغنية.

ولكن مهما يكن من أمر، يجب عليّ أن آخذك بين يدي، وأن أدوزنك وأغني أغنيتي. ولتضع أغنيتي وسط أغاني داغستان الأخرى، فصوتي لا يمكن أن يقارن بأصوات مغنينا القدامى. نعم، لقد أصبحت أغانينا غيرها بالأمس.

أحقاً أن أحداً لم يعشق بعد محمود؟ لا أدري لماذا لم نعد نسمع أغاني في الحب.

ـ ما زالوا يعشقون، ما زالوا يعشقون. ولكن لماذا الأغنية؟ موبي ليست في حاجة إلى أن يغنى لها وتخطف. موبي تأتي بنفسها.

ـ أحقاً انقرض الشجعان بعد شامل؟ لا أدري لماذا لم نعد نسمع أغاني عن مآثر الشجعان، وعن معاركهم المجيدة.

ـ الشجعان، على الأرجح، موجودون. ولكن لماذا ننشد أغاني الحرب في وقت حتى السيوف تنشد فيه السلام.

وماذا في الأمر إن ضاع صوتي بين أصوات داغستان الأخرى. سيأتي آخرون وسيكملون ما بدأت.

الشيخوخة تحرم الإنسان كثيراً من مسرّات الحياة. إنها تسلبه قوته وحدّة بصره وسمعه وتسدل أمامه ستاراً من الظلام، وتعزله عن العالم. حتى اليد لا تعود قادرة على أن ترفع كأس خمر.

لكني لا أخافها، لأنها، وإن سلبت مني كل شيء، لن تسلبني محموداً وباتيراي وبوشكين وهايني وبلوك وكل المغنين العظام بمن فيهم مغن اسمه داغستان. فما دامت داغستان موجودة، فالأمور ليست سيئة إلى هذا الحد. إن بقيت فلن نهلك ولن نضيع.

في إحدى القرى الجبلية لعبة أطفال يمكن تسميتها هكذا: «من يبحث يجد، ومن يجد يحصل» ولقد شاركت ذات مرة في هذه اللعبة.

يرسلون أحد الأولاد إلى غرفة أخرى كي لا يرى أين ستختبىء إحدى

الفتيات، ويعصبون عينيه. يأتي الولد ويأخذ في البحث، والجميع يغنون بصوت واحد: «آي، داي، دالالاي» حين يبحث الولد في غير المكان المناسب يغنون بصوت خافت وحزين، وحين يكون في الطريق الصحيح، يغنون بفرح وحيوية. وحين يعثر على الفتاة، يصفق الجميع ويجبرونهما على الرقص. وهكذا تقود الأغنية الفتى ذا العينين المعصوبتين إلى الطريق الصحيح، وتوصله إلى الهدف المنشود.

لقد ولدت في بيت أغان، في داغستان الأغاني، في بلد الأغنيات روسيا، في عالم أغان. أنا أعرف قوة الأغنية، وأعرف قيمتها. ولو لم يكن لداغستان أغانيها، لما كان أحد عرفها كما يعرفها الآن، ولكانت داغستان كتيس جبلي تائه. لكن أغنيتنا قادتنا في الدروب الجبلية الوعرة إلى العالم الواسع وكسبت لنا أصدقاء.

يقول أبو طالب محرفاً القول المأثور: «غن لي أغنية أقل لك من أنت». لقد غنت داغستان أغانيها، وقد فهمها العالم.

الكتاب

تأتي كلمة «تيبخ» بمعنيين في اللغة الآفارية: جلد الغنم والكتاب.

يقولون: «يجب على الإنسان أن يحافظ على رأسه، وعلى القلبق فوق رأسه»، والقلبق، كما هو معلوم، يصنع من جلد الغنم، أما رأس الجبلي فكان طوال آلاف السنين الكتاب الوحيد غير المكتوب الذي حفظ لنا لغتنا وتاريخنا وقصصنا وأساطيرنا وتقاليدنا وعاداتنا وكل ما ابتدعه شعبنا. لقد صان جلد الغنم قروناً طويلة الكتاب غير المكتوب عن داغستان ألا وهو رأس الجبلي وأدفأه وحماه. لقد بقيت أشياء كثيرة ووصلتنا، لكن أشياء كثيرة ضاعت، توقفت في الطريق، واندثرت.

بعض صفحات هذا الكتاب سقطت. كما سقط الأبطال في نار المعارك (فالقلبق لا يستطيع أن يقي من الرصاصة ومن السيف)، وبعضها سقط كما سقط مسافرون مساكين ضلوا طريقهم، فتلقفتهم عاصفة ثلجية، وخارت قواهم فسقطوا في هاوية، أو تحت انهيار ثلجي أو تحت سكين قاطع الطريق.

يقولون: إن ما ضاع ونسي هو الأفضل والأعظم.

لأنك حين تقرأ قصيدة، وتنسى فجأة بيتاً، يبدو لك أن هذا البيت هو الألزم.

لأنهم حين يذكرون البقرة التي نفقت، يبدو لهم أنها كانت تعطي حليباً أكثر من سائر البقرات، وأن حليبها كان هو الأدسم.

أبو محمود أحرق صندوقاً ملآن بمخطوطات ابنه الشاعر، لأنه بدا له أن في الشعر هلاك ابنه الطائش. والآن يؤكد الناس جميعاً أن أفضل أبيات محمود كانت في ذلك الصندوق.

وباتيراي لم يكن يغني أغنية من أغانيه مرتين، وكثيراً ما كان يغنيها في الأعراس المخمورة. وهذه الأغاني بقيت هناك لم يحفظها أحد. والآن يؤكد الناس جميعاً أنها كانت أفضل أغانيه.

وإيرتشي كازاك غنّى كثيراً من أغانيه في قصر الشامخال، لكن أغاني نادرة منها غادرت هذا القصر واخترقت أسواره لتصل إلى الناس. وايرتشي كازاك كان يقول: مهما غنيت، فلا الشامخال ولا الحمار يفهمان أغانيك.

ويقولون إن أشعار إيرتشي كازاك التي ضاعت كانت أفضل أشعاره.

أصوات الطنابير المحروقة لم تصلنا، وأنغام المزامير المرمية في الأنهر لم تصلنا. وإني لأحنُّ اليوم إلى كل تلك الأصوات التي هلكت أو قتلت.

لكني حين أستمع أو أقرأ ما بقي، يفرح قلبي، وأشكر قلوب الجبليين المساكين الذين حملوا في ذواتهم، ونقلوا إلينا كتبنا غير المكتوبة والتي لا تقدّر بثمن.

وكأني بهذه القصص والأساطير والأغاني تقول للكتب المكتوبة باليد على الورق أو المطبوعة: «نحن الكتب التي لم تكتب بقينا مئات السنين نشقّ طريقنا عبر المحن وها قد وصلنا. أيتها الكتب المطبوعات بشكل جميل هل يمكن أن تصلي إلى الجيل التالي على أقل تقدير؟ سنرى أيهما أكثر أمانة: المكتبات أم قلوب الناس؟

أشياء كثيرة يطويها النسيان. من مائة بيت لا يبقى إلا بيت واحد، لكنه يبقى إلى الأبد.

قلنا سابقاً إن أطفالاً كثيرين كانوا في السابق يموتون وهم في المهد.

وكان الإمام يأمر الجرحى بالقفز إلى النهر، فهو ليس في حاجة إلى كسحاء، فهم على الحرب غير قادرين وإطعامهم أمر غير ضروري.

وأتت أزمان أخرى. الصغار يترعرعون تحيط بهم العناية والأطباء. الجرحى تضمد جراحهم. والكسحاء نصنع لهم أرجل صناعية. هذه التغييرات يجب اعتبارها أمراً رائعاً وإنسانياً حين يتعلق الأمر بالإنسان.

لكن أليس هذا نفسه ما يحدث للأفكار العرجاء، والأبيات العاجزة، والمشاعر بنصف الحية وحتى للأغاني المولودة ميتة؟ كل شيء يبقى في الكتاب. كل شيء مسطّر على الورقة. كل شيء يجري إنقاذه وحفظه في المكتبة.

كانوا يقولون في الماضي: «الذي يُقال يذهب، أما الذي يُكتب فيبقى». أخشى ألا يكون الذي يحدث هو عكس ذلك.

لكن لا تظنوا مع ذلك أني أشتم الكتاب والكتابة. إنهما كالشمس أشرقت من وراء الجبال فأضاءت الوادي وبدّدت الظلمة والجهل.

روت لي أمي قصة الثعلب والطائر. إليكموها:

في قديم الزمان وسالف العصر والأوان كان طائر يعيش فوق إحدى الأشجار. وكان له عش متين ودافىء يفرخ فيه صغاره. كان كل شيء على ما يرام، حتى أتى ذات يوم ثعلب وجلس تحت الشجرة وأخذ يغني:

هذي الصخور كلها صخوري،
وهذا الحقل كله حقلي،
وهذه الأرض كلها أرضي.
في أرضي
نمت شجرتي،
وعلى شجرتي
بنيت عشك

فأعطني لقاء ذلك
واحداً من صغارك.
وإلا قطعت الشجرة
وأهلكت صغارك كلهم.

وأعطى الطائر الثعلب أصغر أبنائه كي ينقذ شجرته وعشه وبقية صغاره.

وأتى الثعلب في اليوم التالي وأخذ يغني أغنيته من جديد. واضطر الطائر أن يضحي بصغير آخر. ولم يعد لدى الطائر من الوقت ما يكفي لبكاء أبنائه: فما إن يطل يوم جديد حتى يأتي الثعلب.

وعرفت الطيور بما حلّ بصاحبها فأتت تسأله الخبر. فروى لها الطائر الغبي ما حدث له. عندئذ غنّت له الطيور:

أنت أنت المذنب،
أيها الطائر الغبي.
لقد خدعك
الثعلب الماكر.
بماذا يقطع الشجرة،
بذنبه؟
كيف يصل إلى صغارك،
بذنبه؟
أين فأسه قل؟
أين منشاره، قل؟
ومن ذلك الوقت عاش طائرنا
في سلام.

إلا أن الثعلبَ لم يعرف بشيء مما حدث، وعاد في اليوم التالي يخوّف ويتوعّد ويطالب بضحية جديدة. ومن جديد أخذ يغني بأنه سوف يقطع الشجرة ويُهلك كل الصغار. لكن الكلمات التي كانت تلقي الرعب

في قلب الطائر بدت له الآن كلمات مضحكة، متبجحة. فارغة. وأجاب الطائر الثعلب:

هذه الشجرة جذورها في الأرض،
فهات معولاً لتجتثها.
هذه الشجرة متينة الجذع،
فهات فأساً لقطعه
عشّي فوق أغصانها العالية،
فهات سلماً لتصل إليه.

ابتعد الثعلب عن الشجرة بقرني حمار، كما يقال، ولم يعد إليها بعد ذلك.

وما زال الطائر يعيش حتى الآن، يفرخ صغاراً، وصغاره تنمو وتغني الأغنيات.

ما أكثر ما أهلكت داغستان من صغارها بسبب التخلف والجهل. لكي يعرف الإنسان نفسه يحتاج إلى الكتاب، ولكي يعرف الآخرين، يحتاج إلى الكتاب. الشعب بدون كتاب كإنسان يسير مغمّض العينين: إنه لا يرى العالم. الشعب بدون كتاب كإنسان بدون مرآة: لا يستطيع أن يرى وجهه.

«جبليون متخلفون وجهلة» ـ هكذا كتب عنّا وتحدّث الرحّالة الذين زاروا داغستان.

وفي هذه الكلمات من الحقيقة أكثر مما فيها من التعالي أو سوء النية. «إنهم أطفال بالغون» ـ هكذا كتب عنا أحد الأجانب.

«إنهم جهلة، علينا أن نستغل ذلك» ـ قال الأعداء.

«لو أن هذه الشعوب تتقن فن إدارة الحرب، لما تجرأ أحد أن يرفع يده عليها» ـ قال أحد القواد.

ويقول الجبليون «لو أن معارفنا الحالية أضيفت إلى شجاعة الحاج مراد أو موهبة محمود!».

سأل الحاج مراد شاملاً مرّة:

ـ لماذا توقفنا، أيها الإمام. في صدرنا قلب متوثب، وفي يدنا خنجر حاد. فماذا ننتظر؟ لننطلق إلى الأمام ولنشق طريقنا!!

ـ مهلاً، حاج مراد، لا تستعجل. السواقي العجلى لا تصل إلى البحر. سأسأل الكتاب لأرى ما يقوله. الكتاب شيء ذكي.

ـ قد يكون كتابك ذكياً، أيها الإمام، لكننا في حاجة الآن إلى الشجاعة. والشجاعة في حدّ السيف وعلى صهوة الحصان.

ـ والكتب أيضاً شجاعة.

الكتاب... الحروف، السطور، الصفحات. يبدو وكأنه مجرّد ورقة. لكنه موسيقى الكلمة، ورخامة اللغة، والفكرة، إنني أنا الذي كتبته، والآخرون هم الذين كتبت عنهم، والذين كتبوا هم أيضاً عن أنفسهم؛ إنه الصيف القائظ، والعاصفة الثلجية، وأحداث الأمس، وأحلام اليوم، وأفعال الغد.

تاريخ العالم، كمصير أي إنسان، يجب أن نقسمه إلى قسمين: قبل ظهور الكتاب وبعد ظهور الكتاب. الفترة الأولى ليل، الفترة الثانية نهار ساطع. الفترة الأولى وادٍ ضيّق مظلم، والثانية سهل واسع أو قمّة جبل.

كان والدي يقول: «لا بدّ أن الجهل جريمة، عاقبنا عليها التاريخ طوال هذا الوقت وبمثل هذه الصرامة».

فترتان ـ مع وجود الكتاب ودونه. لكن الكتاب الآن يأتي الإنسان باكراً في شكل كتاب مدرسي، أي وهو لا يكاد يتعلّم المشي. أما داغستان فقد أتاها الكتاب حين كان عمرها يعدّ بآلاف السنين. نعم، لقد تعلّمت داغستان القراءة والكتابة في وقت متأخر جداً.

وحتى هذا الوقت وعلى مدى قرون عديدة كانت الصفحات عند الجبليين هي السماء، كانت الحروف هي النجوم وكانت الدواة هي الغيوم الرمادية وكان المطر هو الحبر، والورقة هي الأرض، والحروف

هي الأعشاب والأزهار، كانت قمم الجبال ذاتها تنحني فوق هذه الصفحة لتقرأ.

أشعة الشمس الحمر كانت أقلاماً، كتبت على الصخور تاريخنا الملآن بالأخطاء.

جسد الرجل الدواة، ودمه الحبر، وخنجره القلم. آنذاك خط كتاب الموت، وكانت لغته يفهمها الناس جميعاً ولا تحتاج إلى ترجمة.

بؤس النساء الدواة، ودموعهن الحبر، ومخدتهن الصفحة. آنذاك سطر كتاب الآلام، لكن الذين قرأوه كانوا قلائل، لأن الجبليات لا يعرضن دموعهن للأنظار.

الكتاب، الكتابة... إنهما الكنزان اللذن نسي أن يعطينا إياهما من وزّع اللغات.

الكتاب نوافذ مشرّعة في البيت. ونحن كنا نجلس ضمن أربعة جدران مسدودة. كان بإمكاننا أن نرى من هذه النوافذ رحاب الأرض والبحر والسفن الرائعة تمخر عبابه. كنا أشبه بتلك العصافير التي لم تهاجر وبقيت لتمضي فصل الشتاء، وعندما أقبل البرد القارس أخذت تنقر زجاج النوافذ لتنطلق إلى البلاد الدافئة.

لقد جفّت شفاه الجبليين وأحرقها العطش... وإن عيوننا لجائعة ملتهبة.

ـ لو أننا استطعنا أن نستخدم الورقة والقلم، لما كانت بنا حاجة إلى أن نلجأ إلى السيف كل هذا اللجوء.

نحن لم نتقاعس أبداً عن امتشاق السيف، وسرج الحصان والوثوب على صهوته، والخروج إلى ساحة الوغى. في هذا المجال لم يكن فينا عرج ولا صمّ ولا عميان. لكننا تأخرنا كثيراً جداً في تعلّم أحرف صغيرة تبدو كأنها تافهة. ومن المعروف أن من فكره أعرج، لا تنفعه عصيّ أونتسوكول.

لقد خطرت للمحارب الأرمني العظيم مسروب ماشتوتس قبل ألف

وخمسمائة عام فكرة هي أن الكتابة أقوى من السلاح، فوضع الأبجدية الأرمنية.

لقد كنت في ماتينا داران حيث تحفظ المخطوطات القديمة.

وهناك فكرت في أسى في داغستان التي أضاعت الآلاف المؤلفة من السنين دون أن يكون لها كتابها وكتابتها. لقد مرّ التاريخ من خلال منخل الزمن. ولم يبق منه أي أثر، اللهم إلا قصص وأغان مبهمة وغير موثوقة في معظم الأحيان تناقلتها شفة عن شفة، وقلب عن قلب.

في حكايانا يسهل علينا
أن نذكر الزمن القديم، القديم.
من تلك الحكايات التي أعادتها عليّ أمي
أذكر واحدة.

في القرية عاش جبلي شجاع،
وكان يقوم بأعمال جليلة،
وذات مرة دعاه
الخان الجبار.

دخل بطلنا القصر
(واسمه سليم)،
فأخذت الأبواب أمامه
تتفتح واحداً بعد واحد.

سجاجيد، مصابيح، نوافير
ومياه لؤلؤية.
وعرض الخان الغني
كل ما عنده من كنوز.

لا نستطيع أن نعدّ
كل ما رآه بطلنا،

فكل ما على هذه الأرض
كان يملأ القصر.

وقال الخان الأشيب
لضيفه العزيز:
«خذ ما تريد،
ما يشتهيه عقلك وقلبك».

كل هذه الأشياء جيدة،
لكن تذكّر شيئاً واحداً:
لا تتسرَّع وأنت تختار
كي لا تندم فيما بعد».

لكن الجبلي الشجاع أجاب
بكل وقار واعتزاز:
«أعطني سيفاً وخنجراً
وجواداً سريعاً.

الصناديق لا تقدّر بثمن،
لكني لست في حاجة إليها،
فهذا كله أستطيع أن أناله
بسيفي وجوادي».

آه، أيها الجبلي، أيها الجبلي، يا جدّي
أي خطيئة اقترفت.
أخذت الجواد والسيف
ولم تأخذ الكتاب،

لم تضع في كيسك،
يا جدّي الساذج،
ورقة كبيرة من الرقاق
وقلماً ويراعاً.

كانت نفسك طاهرة
وكان رأسك فارغاً،
لو فعلت لأعطانا الكتاب
أكثر مما يعطينا حدّ الفولاذ

حين وكلنا إليه مصيرنا،
لم نكن نعرف شيئاً واحداً:
الكلمة أحدّ من كل السيوف
وأسرع من الحصان.

فيها جمال الحكمة
وحكمة الجمال.
لقد تخلفنا مئات السنين،
هذا ما فعلته، يا جدّي!

هكذا يصل التلميذ المتأخر
إلى عتبة الصف،
والدرس، منذ وقت طويل،
يجري وراء الأبواب.

على مقربة منّا، وراء سلسلة الجبال تقع جيورجيا. ومنذ قرون عديدة أبدع شوتا روستافيلي قصيدته الخالدة عن الأمير في جلد النمر وأهداها للجيورجيين. بحث الجيورجيون عن قبره طويلاً، وطافوا الشرق كله. قالت إحدى النساء: «لم نعثر على قبره في أي مكان، لكن قلبه الحيّ ينبض في كل مكان».

البشرية كلها تقرأ قصة بروميثيوس المقيّد إلى صخرة في القوقاز.

منذ آلاف السنين والعرب تدمع عيونهم وهم يقرأون شعرهم.

منذ ألف عام سجّل الهنود على أوراق النخيل حقائقهم وضلالاتهم. ولقد لمست بيدين راعشتين هذه الأوراق وقرّبتها من عينيّ.

وشعر اليابان الثلاثي الأبيات يفيض رشاقة! والصين القديمة حيث يختفي وراء كل حرف، بل وراء كل إشارة، مفهوم كامل!

لو أن شاهات إيران لم يأتوا داغستان يحملون الحديد والنار، بل حكمة الفردوسي، وحب حافظ، ورجولة السعدي وفكر ابن سينا، لما اضطروا إلى الفرار لا يلوون على شيء!

في نيسابور زرت قبر عمر الخيام. وهناك فكرت قائلاً في نفسي: «صديقي الخيام! أنت لا تعرف مقدار البهجة التي كانت شعوب الجبال ستستقبلك بها، لو جئت أنت آنذاك بدل الشاه!».

كان علم الجبر قد ابتكر، ونحن لمّا نعرف العدّ. وكانت قصائد فخمة قد تردّدت، ونحن لما نعرف أن نكتب «ماما».

عرفنا الجنود الروس أولاً، وبعدها عرفنا الشعراء الروس.

لو أن الجبليين قرأوا بوشكين وليرمنتوف، لكان من الممكن أن يسير التاريخ في طريق آخر.

حين قرئت للجبلي قصة تولستوي «الحاج مراد» قال: «لا يستطيع إلا إلّه أن يكتب مثل هذا الكتاب الذكي».

كان لنا كل ما يحتاج إليه كتاب: حب جامح، وأبطال شجعان، ومآس، وطبيعة قاسية، لكن الكتاب نفسه كان وحده غير موجود.

ما أكثر المآسي التي عشناها،
كم من رجل غيور كان،
ويد تشدّ على حدّ سكينه، والأنة في صدره،
يقترب من ديدموتا الجبلية!

ما أكثر أولئك الذين مضوا
خلال مئات السنين في الجبال
كأنما على سطح العالم من أمثال هملت
وأوفيليا وجوليت لكن شكسبير لم يكن.



مهما صدحت الموسيقى في الجبال،
من خرير أنهر وفي جوقة عصافير،
إلا أنه لم يظهر (باخ) جبلي
ولم يكتب بيتهوفن سوناتاته.

وحين كان درب جوليت القصير
ينتهي نهايته المأساوية،
كان المنتقمون، لا الشعراء،
يذكرونها لا بالكلمة بل بالرصاص.

حين أخذ الجبليون يجمعون الغنائم بعد معركة عنيفة مع قطعان تيمورلنك قرب قرية كوموخ، وجدوا كتاباً في جيب أحد القتلى. قلبوا صفحاته وانحنوا فوق حروفه، لكن لم يكن بينهم من يستطيع أن يقرأه. عندئذ أراد الجبليون أن يحرقوه ويمزّقوه ويذروه في الريح. لكن بارتو باتيمان الذكية والشجاعة تقدّمت وقالت:

ـ حافظوا عليه مع السلاح الذي غنمناه من العدو.

ـ وما حاجتنا به؟ لا أحد يستطيع، على أي حال، أن يقرأه!

ـ إذا لم نستطع نحن أن نقرأه، فسيقرأه أبناؤنا أو أحفادنا. ونحن، على أي حال، لا نعرف ما فيه. قد يكون فيه مصيرنا.

في المعركة التي خاضها سراقة التونسي ضد العرب، سلّم أحد العرب الأسرى الجبليين فرسه وسلاحه وترسه. لكنه لم يشأ أن يسلم الكتاب الذي أخفاه في صدره. إلّا أن سراقة أعاد إلى الأسير سلاحه وفرسه، وأمر بأن يؤخذ الكتاب منه، وقال:

ـ عندنا من الخيل والسيوف ما يكفينا، لكن ليس عندنا كتاب واحد. أما أنتم العرب فعندكم الكثير من الكتب. فلماذا تبخل علينا بواحد منها؟

دهش المحاربون وسألوا قائدهم:

ـ وما حاجتنا إلى الكتاب؟ فنحن لا نعرف أن نقرأه، لا بل لا نعرف

حتى كيف نمسكه. فهل من العقل في شيء أن نأخذه بدل الفرس والسلاح؟

ـ سيأتي يوم وسيقرأونه. سيأتي يوم ويحلّ فيه بالنسبة للجبليين محل القفطان والقلبق والفرس والخنجر.

حين ساءت أحوال شاه إيران الذي هاجم داغستان، دفن في التراب الكنوز التي كان يحملها دائماً معه. وضعت فوق الحفرة بلاطة وحفرت عليها حدوة فرس. ثم قتل الشاه شهود الحادثة. لكن مرتضى اللّه خان وجد هذه الحفرة مع ذلك، وعثر على الصناديق المملوءة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ـ أي كل ما استطاع شاه إيران أن ينهبه. حملت كنوز الشاه على عشرين بغلاً. وبين الكنوز الأخرى وقعت يد مرتضى اللّه خان على بعض الكتب الفارسية؟ وبعد أن تأمل سرخات ذو اليد الواحدة ووالد مرتضى اللّه خان الكنوز كلها، قال:

ـ لقد وجدت كنزاً كبيراً يا بني. وزّعه على رجالك، أو بعضه إن شئت. إنه سينفذ على أي حال. لكن الجبليين سيجدون ولو بعد مائة عام الجواهر المدفونة في هذه الكتب. فلا تعطها أحداً، لأنها أثمن من كل الكنوز.

كان لشامل كاتب هو محمد طاهر الكرخي. ولم يكن شامل يدعه يذهب إلى أماكن الخطر. وكان محمد طاهر برماً بذلك. وذات مرّة قال لشامل:

ـ لعلّك لا تثق بي، أيها الإمام؟ دعني أذهب إلى ساحة المعركة.

ـ يجب أن تبقى حيّاً، حتى ولو هلكنا جميعاً. كل إنسان يستطيع أن يحل محل المحارب بالسيف، أما المؤرخ، فلا. أنت إبقَ هنا واكتب عن جهادنا.

توفي محمد طاهر ولم ينه كتابه، لكن ابنه أتمّ مؤلف والده. وهذا المؤلف اسمه: «بريق سيف الإمام في بعض معاركه».

كانت لشامل ذاته مكتبة كبيرة. وظلّ طوال خمسة وعشرين عاماً

يحملها معه على عشرة بغال من مكان إلى آخر. فقد كان لا يستطيع العيش بدونها. وفيما بعد على جبل غونيب طلب شامل وهو يستسلم أن يتركوا له كتبه وسيفه. وحين كان في كالوغا، كان يطلب باستمرار أن يأتوه بكتب، وكان يقول: «لقد خسرنا كثيراً من المعارك بسبب السيف، لكننا لم نخسر معركة واحدة بسبب الكتاب».

حين عاد جمال الدين من روسيا، أجبره أبوه الإمام شامل على أن يلبس لباس الجبليين، لكنه لم يمسّ كتبه. وقد أجاب الذين اقترحوا عليه أن يرموا في النهر «بكتب الكفار» قائلاً: «هذه الكتب لم تطلق النار علينا في أرضنا، ولم تحرق قرانا، ولم تقتل شعبنا. من يفضح الكتاب يفضحه».

بودي أن أعرف الآن الكتب التي حملها معه جمال الدين من بطرسبرغ!

جلّ ما كتبه الداغستانيون لعدم وجود أبجدية خاصة بهم كان أحياناً كلمات نادرة بلغات أخرى. كانت كتابات على المهود، على الخناجر، على أخشاب السقوف، على شواهد القبور وحجارتها.

وكانت كتابات بالعربية أو الفارسية أو التركية أو الجيورجية. لا يستطيع الإنسان أن يجمع كل هذه الكتابات الزخرفية. لكن لن تستطيع أن تقرأ شيئاً بلغتنا الأم. والجبليون كانوا لعدم معرفتهم كتابة اسمهم يرمزون إليه برسوم السيف والفرس والعصفور والجبل.

يمكننا أن نترجم بعض الكتابات على القبور: «هنا ترقد امرأة اسمها بوغب باي، عاشت حتى العمر الذي كانت ترغبه وتوفيت في المائتين من عمرها». «هنا يرقد كوبا علي الذي سقط في معركة ضد الجرخان في الثلاثمائة من عمره».

بقايا تافهة، كلمات متفرقة. وجمل بدلاً من تاريخ متعدد الأجزاء.

حين كنت أدرس في المعهد الأدبي، كان يلقي علينا المحاضرات في الأدب اليوناني القديم شيخ أشيب طيب القلب هو سرغي إيفانوفتش

رادتسيغ. كان يعرف النصوص القديمة كلها عن ظهر قلب، وكان يقرأ لنا مقاطع كبيرة باللغة اليونانية القديمة. كان يعشق اليونانيين القدماء، وكان يحب أن يتحدث عما يثيرونه فيه من انطباعات. كان يقرأ أشعار القدماء كما لو كان مؤلفوها يسمعونه، كما لو كان يخاف أن يخطىء فجأة، تماماً كما يخاف مسلم متعصب أن يخطىء في تلاوة آيات القرآن. كان يعتقد أننا نعرف جيداً ومنذ زمن بعيد كل ما يتحدث عنه. وكان لا يمكن أن يسلّم، حتى ولو نظرياً، بأنه يمكن لإنسان أن لا يعرف «الأوديسا» و«الألياذة». كان يظن أن هؤلاء الشباب العائدين مباشرة من الحرب، لم يكن لهم من عمل طوال السنوات الأربع الماضية إلا دراسة هوميروس وإسخيليوس وأوريبيدس.

وكاد يبكي ذات مرة حين رأى ضآلة ما يعرفه هؤلاء الشباب.

وقد أدهشته أنا بنوع خاص، فقد كان الآخرون يعرفون شيئاً ما على الأقل. إذ حين سألني عن هوميروس، أخذت أحدثه عن سليمان ستالسكي ذاكراً له أن مكسيم غوركي دعاه هوميروس القرن العشرين. نظر إليّ الأستاذ بأسف وسألني:

ـ أين نشأت حتى إنك لم تقرأ «الأوديسا»؟

قلت له: إني نشأت في داغستان حيث لم يظهر الكتاب إلّا من مدّة وجيزة. ولكي أخفف من ذنبي، قلت عن نفسي دون أي حرج: إني جبلي متوحش. عندئذ قال لي الأستاذ كلمات لا أنساها:

ـ أيها الشاب، إذا كنت لم تقرأ بعد «الأوديسا» فأنت ما زلت بعيداً عن أن تكون جبلياً متوحشاً. إنك ما زلت همجياً وبربرياً.

والآن عند زيارتي لليونان أو إيطاليا كثيراً ما أذكر أستاذي وكلماته وموقفه من الأدب القديم.

ولكن أنّى لي أن أعرف هوميروس وسوفوكليس وأرسطو وهيسيودوس، إذا كنت لا أكاد أتكلم وأقرأ بالروسية؟ أشياء كثيرة في هذا العالم لم تكن في متناول داغستان، وكنوز كثيرة لم تكن معدّة لها.

لقد تهيأ لي أن أروي لكم كيف بكت مكساكوفا حين سمعت مغنينا تاتام مرادوف. لم يتلق مرادوف أي دراسة، وكان عمره آنذاك ما يقارب الستين عاماً. كان الجميع يظنّون أن صوت مغنينا هو الذي أثر في مكساكوفا، لكن هذه قالت:

ـ أنا أبكي أسى. صوت بديع كهذا! كان بإمكانه أن يذهل العالم، لو تهيّأ له أساتذة. لكن الآن انتهى كل شيء.

كثيراً ما أتذكر هذه الكلمات حين أفكر في مصير داغستان. إنها كلمات لم تقل في تاتام وحده. فكم من مغنّ ومحارب وفنان ومصارع (على السجّادة) غيّبه التراب دون أن يعلم العالم بمواهبهم. لقد بقيت أسماؤهم مطوية. وكان لنا على الأرجح أناس أمثال شالابين وبودوبني. وكان يمكن أن يكون هرقلنا، عثمان عبد الرحمانوف مصارعاً لا يجارى فيما لو اقترنت قوته بالعلم والفن. لكن لم يتوفر له معلمون. فلم يكن لنا معاهد موسيقية ولا مسارح ولا معاهد ولا مجامع علمية حتى ولا مدارس.

الألواح المقدسة لا تتحدث عن القرون الخوالي.
يا للخسارة. لكن طريقنا لا ينتهي.
تلك القصة التي بدأها الأجداد بسيوفهم
أكملها أنا ويراعي في يميني.

لم يكن الجبليون يعرفون كيف يمسكون اليراع، ولا كيف يتهجّون. وكان الجبليون، إذا أرادوا أن يعرضوا الاستسلام على أعدائهم، يضعون إبهامهم بين السبابة والوسطى كما يفعل الزاباروجيون. ويرفعونه في وجههم أو يرسمون شيئاً أنظف من هذا ويتوجهون به إلى أعدائهم.

كانوا يقولون في داغستان: «هذا البلد يرقد في صندوق حجري كأغنية لم تؤلف، لم تغنّ. من يخرجها ومن يؤلفها ومن يغنيها؟...».

الحروف، الكلمات، الكتب هي مفاتيح القفل الذي أغلق به ذلك الصندوق. ففي أي أياد مفاتيح أقفال داغستان الثقيلة والقديمة؟

أناس متنوعون اقتربوا من هذه الأقفال، لا بل رفعوا أحياناً الغطاء قليلاً، ليلقوا نظرة إلى الداخل. لم يكن الداغستانيون أنفسهم يمسكون القلم بأيديهم، حين كان زوّار كثيرون، ورحّالة، وعلماء باحثون، قد كتبوا عن داغستان بلغات أخرى: بالعربية والفارسية والتركية والجيورجية والأرمنية والفرنسية والروسية. . .

يا داغستان: في المكتبات القديمة أبحث عن اسمك فأجده مكتوباً بلغات مختلفة، وأجد ذكراً لدربيذ وكوباتشي وتشيركي وخونزاخ.

شكراً للرحّالة إنهم لم يستطيعوا أن يفهموك بكل عمقك وتعقيدك، لكنهم كانوا، مع هذا، أول من حمل اسمك إلى ما وراء حدود جبالنا.

ثم قال بوشكين وليرمنتوف كلمتيهما:

في قيظ الظهيرة في وادي داغستان
تمددت بلا حراك والرصاص في صدري

يا لها من أبيات بديعة! أما بيستوجيف مارلنسكي فقد كتب «أمالات بيك». ولا تزال توجد حتى لآن في مقبرة دير بنت الشاهدة الحجرية التي وضعها على قبر عروسه.

وألكسندر دوما زار داغستان. كما زارها بوليجايف صاحب قصيدتي «أربيل» و«تشيريورت». لقد كتب كلّ منهم فيك ما كتب على طريقته، لكن أحداً لم يفهمك بمثل العمق والإلهام اللذين فهمك بهما الشاب ليرمنتوف والشيخ تولستوي. أمام هذين الرجلين اللذين غنياك أحني رأسي الذي خطه الشيب، وإني لأقرأ هذه الكتب كما يقرأ المسلم قرآنه.

اليوم الذي يسمى فيه الصبي هو يوم فرح عظيم. واليوم الذي كتب فيه أبناؤك عنك بلغاتهم يجب أن يصبح يوماً من هذه الأيام الخالدة في

حياتك، يا داغستان. إني لأذكر الآن أية خطيئة اقترفت حين استدعتني معلمتي الأولى فيرافاسيلفنا إلى اللوح، وطلبت إليّ أن أكتب اسمك. كتبت اسمك مبتدئاً بحرف صغير. لكن فيرافاسيلفنا أوضحت لي أن داغستان اسم علم ويجب أن يكتب أول حرف منه بحرف كبير. عندئذ كتبت د داغستان ظناً مني بأنه يجب عليّ أن أكتب الحرفين الصغير والكبير. لكن هذه أيضاً كانت خطيئة. وأخيراً، في المرة الثالثة، كتبت داغستان بالشكل الصحيح.

ألم يعلموك، يا داغستان، أنت أيضاً بهذه الطريقة كتابة اسمك؟ أولم يعلموك بهذه الطريقة نفسها أن تتحدثي عن نفسك؟ لقد بدأت كل شيء من البداية مرات ومرات. كنت تختارين الأحرف والأبجدية. كتبت بأحرف عربية ولاتينية وروسية. لقد اقترف الكثير من الأخطاء، لأنه بدىء بالحرف الصغير، ما كان يجب بدؤه بالحرف الكبير، ولأنه بدىء بالحرف الكبير ما كان يجب بدؤه بالحرف الصغير. وفي المرة الثالثة فقط تعلمت يا داغستان، يا بلدي، أن تكتبي بالشكل الصحيح. وإليكم أسماء الكتب والمجلّات والصحف الداغستانية الأولى: نجم الصبح، الشعاع الجديد، الجبلي الأحمر، الجيران، الأمثال الجبلية، الحكايا الكوميكية، الألحان اللاكية، القصص الدرغينية، الشعر الليزغيني، داغستان السوفياتية. وهذا كله بلغات داغستان. إنها ليست مجرّد أسماء، بل إنها أجنحة.

في عام 1921 أرسل لينين إلى بلدنا بعد حديثه إلى الوفد الداغستاني ثلاثة أشياء هي أشد الأشياء ضرورة لها: القمح والمواد وحروف الطباعة. كان عند داغستان الفرس والخنجر، لكن لينين أعطاها الكتاب مع الخبز. لقد انحنت الثورة فوق مهد داغستان. فرأت داغستان البحر، ورأت ذاتها، رأت ماضيها ومستقبلها. وبدأت هي نفسها تكتب عن ذاتها.

طلب سليمان ستالسكي من مكسيم غوركي قائلاً: «كلانا تقدمت به

السن. عشنا عمرنا وعرفنا العالم. ولدى كل منا كتبه. أنت تكتب على الورق، أنت متعلم، وأنا أغني لأني لا أعرف الكتابة. إننا نمثل داغستان وروسيا. روسيا متعلمة. أما داغستان فأكثر أهلها لا يعرفون كتابة أسمائهم حتى الآن. إنهم يضعون بصمات أصابعهم بدلاً من تواقيعهم. ألا تستطيع أن تبعث إلينا فريقاً من الكتاب المتعلمين كي يتحدثوا عنا نحن الداغستانيين للبلد كله وللعالم كله؟».

كان أفندي كابييف هو الذي يقوم بترجمة حديث سليمان ستالسكي وغوركي. وعد غوركي بتلبية طلب سليمان، لكنه قال، وهو يشير إلى كابييف: لقد ترعرعت الآن في داغستان شبيبة متعلمة وموهوبة.. وسيكون من الأفضل لو كتب الداغستانيون أنفسهم عن أرضهم بكل لغات الجمهورية. لأنه، كما يقال عندنا، «جدران البيت هي الأعرف بحاله».

الشباب الذين تحدث عنهم غوركي شبوا الآن وشاخوا. لقد كتبوا كتباً عن داغستان وسيكتبون. في الماضي كان الآباء يورثون أبناءهم سيفاً وطنبوراً، أما اليوم فيراعاً وكتاباً. لا يمرّ يوم على داغستان دون أن يولد لها فيه ابن، ولا يوم دون أن يصدر فيها كتاب. كل واحد يكتب عن داغستانه الخاصة. ظلّ والدي يكتب أكثر من خمسين عاماً، ولم تكفه حياته. والآن ها أنا ذا أكتب. لكني لن أكتب كل ما أريد كتابته. ولهذا سأضع قلماً ودفتراً جديداً عند مخدة الأطفال بدلاً من الخنجر. داغستان عند والدي وعندي واحدة. لكن ما أكثر اختلافها في قلمينا! عند كل منّا خطه، حروفه، طريقته، نغمه. هكذا تنطلق العربة تستبدل سائقيها في طريقها الطويلة.

كان والدي يقول: «أكتب عما تعرف وتستطيع. أمّا ما لا تعرفه فاقرأه في كتب غيرك».

الكتاب

صادق الكتاب، فصفحاته الخيرة
تنتظر نظرة منك. إنه مخلص دائم الإخلاص
سواء أكنت غنيّاً كخان، أو فقيراً دون فلس.
فلن يخونك ولن يخدعك.

أحنِ جبينك فوق صفحاته في جد،
في كل سطر يختفي شهد الحكمة
تعشق بالمعرفة، يا بني! واعلم أنك لم تبلغ ما تريد،
وأن عقلك لن يرتوي إلّا إذا نهل منها.

هذا سلاحك لا تلقه من يدك.
إنه صديق مأمون، إن ذممته أو مدحته.
لن يخذلك في الضيق
ولو أهملته.

كن صديق المعرفة فبيتها غني،
وعطاياها سخية، وجناتها وارفة،
وأنت ضيف عزيز في تلك الجنان،
اذهب واقطف الثمار اليانعة.

أودع الكتاب أحلامك وحياتك،
إن الشاعر يقتحم القلب دون سؤال
اكشف للشعر بكل ما في طوايا نفسك،
ففي بسمته تجد لكل شيء جواباً.

عندما كان الشعراء الشباب يحملون إلى والدي أشعارهم، كان ينظر إلى خطهم أول ما ينظر. لأنه كما يقول المثل: كما يكون الثلم، يكون صاحب الحقل. ثم كان يصحّح الأخطاء ثم يرتّب علامات الترقيم. وكان يهزّ رأسه كأنما يقول: تعلم كيف تكتب كتابة صحيحة. وكان بعض الشبان يلاحظون بوجل أنه حتى «هوميروس القرن العشرين» كان أمّياً. وقال والدي «وأنا لم أكن أعرف ذلك!؟» هذا «الهوميروس الشاب».

ومثل هؤلاء لا يزالون كثيرين في داغستان حتى الآن. حتى الخطأ النحوي في الأبيات كان يثير والدي دائماً. وحين طبعت إحدى قصائده في صحيفة وفيها عدد وافر من الأخطاء، كتب قصيدة يقول فيها:

مصيبة حلّت بأغنيتي
على غير انتظار
أرسلتها إلى الجريدة
في عيد داغستان.

نظرت إليها، فإذا هي كالشوفان،
مدعوكة مطحونة،
كأنما أصابتها في طريقها
هراوة غليظة.

أو لعلها التقت،
بشرذمة من السكارى العتاة

رسموا على ظهرها بقوائمهم
رقصة عنيفة؟

أو أنها وجدت نفسها في أوسكوتلندا
في حلبة صراع بالقبضات،
لملمت نفسها، ولم تكن،
غير سعيدة بهداياهم؟

لقد ضربوا رباعياتي
على قفاها
حتى أن معناها الأول
لا يكاد يعرف.

ولتكتمل الأمور
لحق بها من ضربها بالسياط.
فهي تحتضر الآن،
لم يبق فيها حياة.

أيتها الجمجمة المسكينة! لا نستطيع
أن نعد ما لحق بك من ندوب وكدمات
هذا المصير،
اعترف أنه غير مفهوم.

لم يبقَ في أغنيتي أضلاع سالمة،
إنها تنظر بعينين غائمتين
مثل متسكعنا مصطفى
حطّمه تساقط الحجارة...

إذا كان في عدد واحد عندكم
عشرة من هؤلاء «الضحايا»،
فستشتهرون في كل مكان
يا «أبطال» الأخطاء المطبعية.

لكن النقد الذاتي يستطيع دائماً
أن يخفف من أثر الخطأ،
وهذه الأغنية، أرجو،
أن تنشروها!

والدي... كان كل من يعرفه يتصوره ـ فيما يبدو ـ على طريقته الخاصة.

طبعاً كان يحرث الأرض، ويحش العشب، ويحمله على العربة، ويسقي الحصان ويمتطيه. وكنت أراه دائماً وكتابه في يده. كان يمسك الكتاب دائماً، كما لو كان عصفوراً مستعداً دائماً لأن يطير من يديه. كان يشعر دائماً، وهو المحبّ للضيوف، بالضياع والارتباك، إذا أتاه أحدهم وصرفه عن القراءة كأنما صرفه عن صلاة هامة. وفي الساعات التي كان والدي يقرأ فيها، كانت أمي تمشي على رؤوس أصابعها، واضعة طوال الوقت إصبعها على شفتها لتجبرنا على أن نتكلم همساً.

ـ لا تضجّوا، والدكم يشتغل.

كانت تدرك تماماً أن قراءة كتاب بالنسبة لأديب هي عمله.

وهي ذاتها لم تكن تجرؤ أن تدخل عليه لترى إن كان في حاجة إلى شيء، إن كان الحبر قد نفد في الدواة. فقد كانت دائماً تراقب بحرص دواة والدي ولم تكن تدعها تجفّ أبداً.

إذا كان في حياة والدي يومان بهيجان، فالكتب هي التي حملتهما إليه.

الكتب التي كان يقرأها، والكتب التي كان يكتبها.

كان لا يستطيع مطلقاً أن يرفض طلباً للناس مهما كان. كان يعتبر قول «لا يوجد» في حين أنه «يوجد» أكبر كذبة وأعظم خطيئة. وكان وضعه يصبح تعساً بالفعل، حين كان يطلب منه كتاب يحبه. يكون الكاتب قد استعير، يكون الكتاب في أيد غريبة، ويدا والدي ما زالتا

ممدوتين إليه. وحين كان المستعير يبقى فترة طويلة دون أن يعيد الكتاب، كان والدي يكتب إليه يقول: «إني أحنّ جداً إلى صديقي الذي أخذته في المرة الماضية معك. ترى، ألا يفكر في العودة؟».

كان والدي أخاً وحيداً لسبع بنات (القلبق الوحيد في الأسرة)، وقد تيتموا كلهم في وقت باكر. وفي وقت باكر أيضاً غادر والدي قريته. فقد أرسله عمّي، وهو الوصي على أبناء أخيه الأيتام، إلى قرية أخرى، إلى المدرسة قائلاً إن في القرية الكبيرة كمية أكبر من العقل والذكاء. ومنذ ذلك الوقت ووالدي يتشرّد من قرية إلى أخرى وخرجه دائماً على كتفه: في أحد جانبيه كتب، وفي الجانب الآخر دقيق محمّص. كان والدي يزداد معرفة أثناء تجواله. وقيل له آنذاك في أحد أسمار القرية: إذا قرنت موهبتك ومعرفتك في عربة واحدة فسيكون طريقك طويلاً.

ولم يخطئوا. فقد ذاع اسم والدي. وجرت أبيات كثيرة من شعره مجرى الأمثال.

كتب والدي كثيراً للكبار وللأطفال، وللذين يولدون والذين يموتون. كتب أشعاراً وقصائد كبيرة ومسرحيات وأمثالاً وحكايا. كان خطّه هادئاً متوازناً. وهكذا كانت لغته. وهو نفسه كان هكذا. الذين كانوا يعرفون خط حمزة وهو في سنّ الشباب كانوا يطلبون إليه أن ينسخ الأوراق الهامة: قرارات، نداءات إلى الشعب. كان يكتب مستعملاً أبجديات متنوعة: العربية، اللاتينية، الروسية. كان يكتب من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين.

وكانوا يسألونه:

ـ لماذا تكتب من اليسار إلى اليمين؟

ـ إلى اليسار القلب، إلى اليسار الإلهام: كل ما هو عزيز علينا نضمّه إلى الجهة اليسرى من القلب.

ـ ولماذا تكتب من اليمين إلى اليسار؟

ـ قوة الإنسان إلى اليمين. في اليد اليمنى. ويصوبون بالعين اليمنى أيضاً.

هذه الكلمات كانت مزاحاً بالطبع. لكنه لم يكن مازحاً فقد تعلم أبجديات مختلفة. مع أنه، في الواقع، يكتب أشعاره على الدوام تقريباً بلغته الآفارية الأم.

لكنه كتب مع هذا بعض أشعاره بالعربية، وكانت بشكل أساسي أشعاراً وجدانية حميمة. ولم يكن في أسرتنا من يستطيع أن يقرأها. لكن هذه الأشعار كانت قليلة. وحمزة نفسه كان عدواً مبدئياً لمثل هذه الأشعار. كان يقول:

«لا يجوز أن تكتب أشعاراً لا يمكن أن تقرأها لأم، لابنة أو لأخت. أنا لا أستسيغ الأفلام التي يمنع الذين لم يبلغوا السادسة عشرة من مشاهدتها».

كان والدي يستخدم العربية أكثر ما يستخدم. كان يحب فيها حروفها ذاتها، أشكالها، ويرى فيها مواطن جمال. وكان لا يطيق الكتابة غير المتقنة. وذات مرة تلقى من رفيق قديم رسالة كتبت بعربية غير متقنة، فكتب إليه ساخراً:

أحد حروفك طبل ممزّق،
والنقطة داخله بلاطة ثقيلة.
والآخر حوش أنهار سقفه،
فلم يبقَ إلا عمود يسند بقاياه.
وهذا الحرف المسكين سحقته صخرة كبيرة،
قل لي كيف استطعت أن تحمّله هذا الجلمود الثقيل؟
وحرف رابع أملت عليه القلبق حتى الحاجبين
كل سطر منك يشغل صفحة كاملة،
ترى، هل فكرت باستعمال قائمة هرّ بدلاً من القلم؟
الحرف كشجرة ممتدة الأغصان،
والصفحة غابة عصفت فيها الريح،
وعملت فيها فؤوس الحطّابين،
عجيب: أين تعلّمت هذه الكتابة؟

لقد أغضبت هذه الأبيات يومئذ أناساً كثيرين. بعضهم غضب لأنه لم يفهمها كما يجب، وبعضهم لأنه فهمها بشكل ممتاز. بعضهم كان يحسب أن حمزة لا يسخر من كتابة الأحرف العربية بشكل قبيح، بل من الأحرف العربية ذاتها.

لكن والدي لم يخطر له أبداً أن ينتقد الأبجدية ككل. كان يقذف بالحجارة بستان الذين كانوا يفسدونها بعدم تأنيهم والذين لم يكونوا يحسنون استخدامها. ويمكن القول بشكل عام إن والدي لم يذكر أبجدية ما بسوء. بل كان على عكس يحتقر الذين كانوا يذمون أية أبجدية. كان يقول: «لقد هاجم العرب داغستان، وهذه حقيقة. لكن الكتابة العربية لا ذنب لها في هذا، وكذلك الكتب العربية».

كثيراً ما كان أهالي قريتنا يجتمعون بعد الغداء على سطح بيتنا. وكان والدي يقرأ لهم قصصاً وحكايا وأشعاراً. وكانت موسيقى الأبيات العربية المتعددة الأوزان تتردّد موزونة رتيبة.

لم يكن والدي يعرف الروسية. وكان عليه أن يقرأ باللغة العربية نفسها تشيخوف وتولستوي ورومان رولان. وعن هؤلاء جميعاً لم يكن لدى الجبليين أية فكرة. كان والدي يحب تشيخوف أكثر من سائر الكتاب، كان معجباً على الخصوص بأقصوصته «الحرباء» أشد العجب، وكان لا يفتأ يعيد قراءتها.

كانت اللغة العربية منتشرة في داغستان على وجه العموم. بعضهم كان يكتب بالعربية لأنه لم تكن لداغستان أبجديتها. وبعضهم لأنها كانت تبدو له أغنى وأبهى من اللغات الداغستانية. وكانت تكتب بالعربية كل الأوراق والوثائق الرسمية. وكل الكتابات على شواهد القبور كانت بحروف عربية مزخرفة. وكان والدي يجيد قراءة هذه الكتابات وتفسيرها.

ثم أتت سنوات أعلنت فيها اللغة العربية من الرواسب البرجوازية. فعانى الناس الذين كانوا يقرأون ويكتبون بالعربية وعانت الكتب. فقدت

مكتبات كاملة كان قد جمعها بجهد عظيم المنوّران الداغستانيان علي بيك غودي وجلال كوركماسوف. وجلال هذا درس في السوربون، وكان يعرف اثنتي عشرة لغة، وكان صديقاً لأناتول فرانس. كان يجمع الكتب القديمة الموجودة في القرى الجبلية، ويدفع ثمنها سلاحاً وخيلاً وأبقاراً، وفيما بعد حفنة دقيق أو قطعة قماش. وفقد الكثير من المخطوطات. يا للخسارة الفادحة التي لا تعوّض!

إيه يا كتاب داغستان الذي تألم كثيراً، لقد كتبوك بخطوط مختلفة وبحروف مختلفة، وبلغات مختلفة. كتبوك لأنه لم يكن بوسعهم إلّا أن يكتبوا، كتبوا دون غرض، ودون أن يطلبوا مكافأة أو تعويضاً. وقد أصدرت الثورة هذا الكتاب.

ظهرت صحيفة «الجبال الحمر» التي سميت فيما بعد «الجبلي» مرّة و«الجبلي البلشفي» مرة أخرى. وفي هذه الصحيفة نشرت لأول مرة أشعار والدي. بقي يساهم فيها سنوات كثيرة، لا بل قل يعمل فيها أمين سر. وكنت أدهش وقتها للسرعة التي تطبع فيها الأشعار في الصحيفة. وكيف لا أدهش؟ الأشعار التي كتبها والدي البارحة بالذات أمام عيني، كان بإمكاني أن أقرأها اليوم في الصحيفة. ثم كانت الأشعار تتوحد في كتاب. أربعة كتب ضخمة ضمت في داخلها حياة والدي كلها، عمله كله.

ومات والدي في مكتبه، قرب كتبه وريشه وأقلامه، وورقة مكتوبة وأخرى فارغة لم يكتبها. وماذا في الأمر، سيكتبها آخرون. داغستان تتعلم، داغستان تقرأ، داغستان تكتب.

سأروي لكم الآن كيف تعلمت أنا. أو على الأصح كيف أجبروني على أن أتعلم.

كان عمري خمس سنوات آنذاك. كانت داغستان كلها خلف مقاعد الدراسة. كانت المدارس والمعاهد والمدارس المهنية تفتتح الواحدة تلو الأخرى. الشيوخ والأطفال النساء والرجال كانوا يتعلمون. كان هناك

مسيرات ثقافية. أذكر أول كتاب مدرسي، ودفاتري الأولى التي اشتراها لي والدي. وقد كان هو نفسه يذهب من قرية إلى أخرى يدعو الناس إلى التعلم.

وظهرت أبجدية جديدة. فحياها والدي بحرارة. فقد كان يتألم دائماً، لأن داغستان كانت معزولة عن الثقافة الروسية العظيمة لعدم وجود أبجدية.

كان يقول: «داغستان جزء من بلدنا العظيم. عليها أن تعرفه وتعرف الإنسانية كلها، وتقرأ كتاب حياتها وتعرف خطها».

«طريق جديدة»، «عالم جديد»، «أناس جدد». هذه هي شعارات تلك الأيام. وأرسل والدي أطفاله للقاء النداء، نداء الزمان الجديد. لم يكن سهلاً على الجديد أن يشق طريقه. كان هناك الكثيرون الذين وضعوا الحجارة في طريق هذا الجديد. وكثيرة كانت النوافذ التي حطمت في المدارس الأولى. كان أعداء التعليم يقولون: «ما هذا الزمان الذي يقرأ فيه الراعي كتابه، ويحفظ فيه الطحان دروسه؟ واجبهما رعاية الأغنام وطحن الدقيق» وحدث ما هو أسوأ. أذكر كيف سقطت الرصاصة الموجهة إلى المعلم في المصور المعلق على حائط المدرسة، وكيف قال والدي بهذا الصدد: «كاد هذا المجرم أن يثقب العالم كله بطلقة واحدة».

في السنوات الأولى تلك حاولوا أن يقرنوا الدراسة الجديدة بالدراسة القديمة، الدينية. كان يحدث أن تختلطا. فكان يصعب أن تعرف أين الدكان وأين السوق، أين علي وأين عمر. كان إخوتي الأكبر سناً يذهبون إلى مدرسة الشبيبة الشيوعية. كنت أحسدهم. لكني كنت مجبراً على الاهتمام بالتوافه وانتظار عودتهم كل يوم. كنت أرغب جداً في الدراسة، لكني لم أكن قد بلغت السابعة بعد.

في ذلك الوقت افتتحت في قريتنا مدرسة لمن لا يريد أن يرسل

أولاده للدراسة في قلعة خونزاخ. فقد كانت هذه المدرسة نصف دينية وكانت تدعى «مدرسة حسن».

كان حسن إنساناً طيباً وغريب الأطوار، وغرابته كانت في اعتقاده أنه يستطيع أن يجمع بين الجديد والقديم. أما كيف استطاع أن يجمع هذا في شخصه فأمر لا يعرفه إلا اللّه وحده. كان في آن أمين سر منظمة الكومسمول في قرية وشيخاً في قرية أخرى، ولا يصعب على المرء أن يخمن ما انتهى إليه أمره. فبوصفه شيخاً طرد من الكومسمول، وبوصفه كومسمولياً طرد من الجامع. في أثناء الحرب الأهلية كان نصيراً أحمر، كما كان بمشيئة الأقدار معلمي الأول. ولا بأس أن يتحدث المرء عن معلمه الأول بتفصيل أكبر.

ولهذا سأروي ثلاث قصص صغيرة مضحكة تتصل به لتتصوروا بشكل أفضل هذا الإنسان.

1 ـ حسن والأسير

ألقى الأنصار القبض على جندي معاد للثورة وأخذوه أسيراً. كان من المفروض أن يرسل مخفوراً إلى القيادة، إلى مسلم عطاييف. فأوكل الأمر إلى حسن. سار كل شيء في البداية على ما يرام. لكن ما إن حانت ساعة الصلاة، حتى توقف حسن قرب ساقية وأخذ يصلي بعد أن أجلس أسيره على حجر قربه. طلب الأسير إلى حسن أن يطلق يديه حتى يستطيع هو الآخر أن يؤدي الصلاة. فسأله حسن بدهشة.

ـ ولماذا تصلي؟ أنت أبيض. ومهما صليت فلن تدخل الجنة.

ـ على كل حال: أنا مسلم. ومسلم عطاييف لن يرحمني، بل سيعدمني فوراً، وعلى هذا يجب أن أصلي للمرة الأخيرة.

فك حسن قيد أسيره وهو يقول:

ـ ها أنت ذا كنت تشتم السلطة السوفياتية وتقول إنها كانت تحرم على المسلم الإيمان باللّه. تفضل، صل ما طابت لك الصلاة.

واستغرق حسن بعدها في صلاته، حتى أنه حين التفت حوله، كان الأسير قد اختفى، قد هرب، عندئذ صرخ حسن غاضباً:

ـ أقسم باللّه وبالثورة، سأجدك واقبض عليك.

وبالفعل عاد حسن وقبض عليه في إحدى العزب وسلمه إلى حيث يجب أن يسلم.

2 ـ الصلاة والأغنية

عمل حسن في أوائل سني السلطة السوفياتية أمين سر لمجلس القرية. في هذه الفترة اهترأ ختم مجلس القرية وأصبح أملس، لأن حسناً لم يكن ليرأف به، بل كان يختم به كل ورقة تقع تحت يده.

وكان يقول إذا برزت مسألة صعبة وهامة:

ـ يجب استشارة الشيخ والمجلس التنفيذي للمنطقة.

ولقد حاول، بالمناسبة، أن ينقل يوم العطلة الأسبوعية من الأحد إلى الجمعة، وكان يعمل بلا كلل على نشر توجيهات السلطة السوفياتية ومقرراتها، وتوضيحها للشعب وتنفيذها، وعلى إصلاح جامع القرية الذي تأثر في الحرب الأهلية.

تمّ إصلاح الجامع وعين يوم افتتاحه. وفي هذا اليوم بالذات قدمت من المنطقة مجموعة ثقافية كبيرة تضم كتاباً وفنانين ومغنين وموسيقيين. أرسلت هذه المجموعة كلها إلى القرية حيث كان حسن يستعد للافتتاح المهيب.

وفي القرية استقبل الضيوف استقبالاً جيداً. عرضوا عليهم سباق خيول ومصارعة وصراع ديكة. ولم يتخلف الضيوف فألقوا محاضرة، وتحدثوا عن المهام الراهنة في الزراعة وأقاموا حفلة موسيقية.

وفي أوج الحفلة الموسيقية صعد إلى مئذنة الجامع مؤذن وأخذ يدعو المؤمنين بصوت جهوري إلى صلاة العشاء. عندئذ نهض حسن وتوجه إلى الضيوف بقوله:

ـ أشكر لكم تشريفكم إيانا في مثل هذا اليوم الرائع، يوم افتتاح جامعنا. وشكراً لكم على حفلتكم. والآن سنذهب لنصلي، إذا شئتم تابعوا حفلتكم، وإذا شئتم انتظرونا، وإذا شئتم تعالوا معنا.

بعض أهالي القرية ذهب إلى الجامع، وبعضهم بقي يستمع إلى أغاني القادمين. وآخرون وقفوا محتارين لا يعرفون ما يفعلون. وارتبك

الضيوف أيضاً. وبعدها صعد إلى السطح الذي كان بمثابة منصة، المغنون المعروفون أراشيل وعمر وغازي محمد والمغنية فاطمة الكيفيرية أيضاً. قبلقان ومنديل وطنبوران ودف. وانطلقت فوق الجبال أغنية جديدة. كانت أغنية عن لينين، عن النجمة الحمراء، عن داغستان الحمراء. كانوا يغنونها، وهم يرفعون الطنبورين والدفّ عالياً فوق رؤوسهم، وتارة يضمونها إلى صدورهم.

بعض المصلين جذبتهم هذه الأغنية من صلاتهم إلى الشارع، بعضهم على عكس ذلك انطلق إلى الجامع.

هذه الحادثة الطريفة لا تزال تروى حتى الآن في قرية حسن.

بين أعضاء المجموعة الثقافية كان والدي حمزة تساداسا، وأمامه على السرج كنت أنا الذي لم يكن يفهم شيئاً في ذلك الحين.

وعند الوداع أهدى الضيوف القرية حاكياً ومكبر صوت.

3 ـ مكبر الصوت وحسن

لست أدري من صاحب هذا التصرف، وإن كنت أعتقد أنه حسن على الأرجح. المهم أنهم علقوا مكبر الصوت الذي أهدانا إياها الضيوف على عمود الهاتف قرب الجامع، وأخذت الإذاعة تذيع من الصباح حتى الليل. كان صوتها يسمع في الجبال المجاورة. كانت تارة تنفخ في بوق الطلائع وتارة تغني، تارة تهدر، بموسيقى وتارة تتكلم، ولا بل كانت أحياناً تشخر وتقرقع.

وأحياناً كان صوت المؤذن المنطلق من المئذنة يختلط بصوت الإذاعة، فلا يعود من الممكن أن تفهم شيئاً.

وذات مرة، قبل أن يصعد المؤذن إلى المئذنة مباشرة، صمت مكبر الصوت. لا بد أن أحدهم قطع الشريط على العمود. وحين انتهى

المؤمنون من صلاتهم في الجامع، تسلق حسن العمود وأصلح الشريط، فعاد المكبر إلى الكلام من جديد.

وفي اليوم التالي صمت المكبر من جديد قبل الصلاة. واضطر حسن (بعد أن انتهوا من الصلاة في الجامع) أن يتسلق العمود من جديد.

وتكررت القصة كثيراً. وكان الجميع في حيرة: لماذا لا يهتم حسن بالأمر ويلاحق «المخرب».

وكم كانت دهشة كل سكان القرية كبيرة حين تبيّن أن حسناً نفسه هو الذي كان يعطل الإذاعة في كل مرة.

قوتان كانتا تتصارعان فيه: الصلاة والأغنية. وكان حسن يسعى للتوفيق بينهما. كان يعتبر أن على القرآن ونظم حياة الدولة السوفييتية أن تتقارب. كان يزوج العروسين في الجامع ثم يذهب بهما إلى مجلس القرية ليوقعا عقد زواجهما.

كانت له طرقه في دراسة الطبيعة. كان يتوقف وينظر إلى النجم أو الصخرة. وتمضي ساعات وهو واقف دون حراك. وإذا ما كان عليه أن ينصرف إلى بعض أعماله، كان يطلب إلى زوجته وأحياناً إلينا نحن الأطفال أن نقف مكانه.

كان في المدرسة يشرح لنا قوانين حركة الأجرام السماوية، وكان يحدثنا كثيراً جداً عن الهزّات الأرضية. وعن كسوف القمر والشمس. وعن المد والجزر. كان يحدثنا بشكل ممتع لكنه غريب حتى أنه لم يبق الآن في رأسي شيء من أحاديثه.

كان كل شيء يختلط في برنامجه: العربي بالروسي باللاتيني.

كان يكتب أحرفاً عربية كبيرة على الخشب الرقائقي ويقول لي:

ـ تعلم تنقيط هذه الأحرف. لقد ظل أبوك طوال حياته يكتب ويقرأ بهذه الأحرف.

ثم كان يكتب أحرفاً روسية لا تقل عن الأولى حجماً ويقول:

ـ تعلم هذه الأحرف. لقد تعلّم والدك هذه الأحرف في السن الذي يضع الناس فيه نظارات، إنها ستنفعك.

وأحياناً كان يعطينا نصاً لنقرأه ويذهب إلى الجامع يصلي.

حين كان يعلمنا الكتابة العربية، كان يحمل عصا يضربنا بها حين كنا نخطىء أو نتهاون.

أما حين كان الأمر يتعلق بالأبجدية الروسية، فكان حسن يمسك مسطرة. وهكذا كنا نذوق طعم العصا والمسطرة.

بيتنا كان يقع بالقرب من الجامع، ولم يكن يفصل بينهما إلا ممر لا يتجاوز عرضه خطوة واحدة. كنت أداب على القفز من سطح بيتنا إلى سطح الجامع. وعلى هذا ضربني حسن. ثم أغلق الجامع، وأنشىء فيه ما يشبه نادياً ريفياً. وتابعت قفزي كالسابق. ومن جديد عاقبني حسن.

أيد والدي حسناً وقال لي:

ـ أنت لست جندباً لتقفز. تعلم أن تمشي في الأرض.

ثم بلغت السابعة وتوقفت قفزاتي تلقائياً، وبدأت أتعلم في المدرسة، في قلعة خونزاخ.

لم يتمكن أحد من إكمال دراسته في مدرسة حسن، لأنها أغلقت. وأخذ حسن يعمل في كولخوز، ثم أرسل إلى المعرض الزراعي لعموم الاتحاد السوفياتي، وعاد من هناك يحمل ميدالية المعرض، ثم حاز على ميداليتين أخريين في الجبهة. وبعد الحرب راح يحدثنا:

ـ حيثما كنت، طوال الحرب كلها، لم تفتني صلاة واحدة. ولولا هذا، فهل كان لي أن أعود إلى بيتي سالماً معافى؟

وباختصار ظل حسن كما كان. وهو الآن يعمل في جمع مواد تتعلق بتاريخ الخان الآفاري سوراكات. ولا زال كما كان إنساناً طيب القلب، شريفاً جداً، وإن كان غريب الأطوار.

حين أزور القرية أزوره لأني أجله بوصفه معلمي الأول.

وأذكر أيضاً معلمي الثاني، في دار المعلمين هذه المرة. كان هذا

يروي طوال الوقت الأساطير عن نفسه. وإني لأدرك الآن أنه كان مونها وزناً آفارياً حقيقياً. كان يبدأ كل درس من دروسه عادة بالكلمات التالية:

ـ إيه يا شباب، هل أروي لكم حادثة من حوادث حياتي.

ـ وكنا نصرخ بصوت واحد:

ـ أخبرنا.

ـ كنت ذات مرة أعبر جسراً من الجبال على نهر كويسو الآفاري، فإذا أنا أمام دب ضخم. كان من المتعذر علينا أن ننصرف كل في سبيله. الدب لم يرد أن يتنحى من طريقي، ولا أنا كنت أريد أن أتنحى له. واشتبكنا في وسط الجسر، وكان هذا الدب أقوى بكثير من كل الدببة التي واجهتها من قبل. لكن غافلته مع هذا، وأمسكت به من غاربه ورميته إلى النهر.

كنا نسمع تلفيقات معلمنا فاغري الأفواه.

ـ وفي الأسبوع الفائت ذهبت إلى حقلي وأخذت أفلحه مطمئن البال. ثوراي جيدان، قويان لكنهما توقفا فجأة وحرنا، ماذا حدث؟ نظرت فإذا بأفاع بحجم قبضة اليد تلتف على كل محراثي. تسع أفاع. اثنتان منها أخذتا تزحفان نحو يدي. فشهرت للحال مسدسي وأطلقت النار عليها فجرى من الدم ما يكفي لسقاية الحقل. ثم تابعت الفلاحة بكل هدوء وعدت إلى بيتي إنما أخاف شيئاً واحداً هو أن تنبت في الحقل أفاع بدل القمح.

هل أخبركم كيف خطفت زوجتي؟ كنت مشغولاً آنذاك بالقبض على اللصوص في غابات تسونتين. وصلت ذات مرة إلى بيت أحد اللصوص وكان أشدهم شراسة. كان اللص قد تمكن من الهرب، بقيت في البيت ابنته الجميلة التي تُشبه البدر. نظرت إليها ونظرت إليّ، وأحب أحدنا الآخر. أخذتها ووضعتها على السرج وانطلقنا. وفجأة رأيت أربعين لصاً مخيفاً ينطلقون ورائي، بين أسنان كل منهم خنجر، وفي إحدى يديه

سيف، وفي الآخر مسدس. التفت وسددت إليهم طلقاتي الدقيقة فجندلتهم حتى آخرهم. كل داغستان تعرف هذه القصة.

كنت أتحدث ذات مرة في الدرس مع جاري باريس. استدعاني المعلم وسألني في صراحة:

ـ لماذا هذا السلوك السيىء؟ عم كنت تتحدث مع باريس طوال ساعة؟

ـ كنا نتناقش. كان باريس يقول إنك يا أستاذ، قتلت في الحقل آنذاك ثماني أفاع، وكنت أقول له إنك قتلت ثماني عشرة.

ـ قل لباريس إنك أنت المصيب لا هو.

ومنذ ذلك الوقت أخذ العجب والدي كيف أني، أنا الذي لا أذاكر دروسي، كنت قادراً على أن آتيهم دائماً بعلامات جيدة من المدرسة.

كان إنساناً طيباً، لكنه لم يكن يستطيع أن يثبت في مكان واحد. بعثوه إلى قرى نائية، مرة إلى سيلوخ وأخرى إلى أراديريخ، لكنه لم يكن ليتأقلم حتى هناك.

منذ مدة وجيزة أتاني في اتحاد الكتاب وطلب إليّ أن أدبر له عملاً.

ـ وماذا تريد أن تعمل؟

ـ بوسعي أن أكتب مذكرات عن الحرب. فكل المارشالات كانوا أصدقائي. حتى أن بعضهم أنقذته من الموت.

كان عندي معلمون متنوعون، الأول والثاني والثالث. لكني أعتبر أن معلمتي الأولى حقاً هي امرأة روسية طيبة، هي المعلمة فيرافاسيلفنا. لقد كشفت لي عن جمال اللغة الروسية وعظمة الأدب الروسي.

معلمون في دار المعلمين الآفارية، وأساتذة في المعهد الأدبي في موسكو!

منصور غيباربيك وبوسبيلوف، محمد غيداروف وغاليتسكي، شابيناغو، رادتسيغ، اسموس، فوخت، بوندي، ريفورمتسكي، فاسيلي سيمورنوفتش سيدروين. . كنت في الامتحانات أجيبكم إجابات سيئة، لأني كنت لا

أزال أتكلم الروسية بشكل سيىء لكن يبدو لي أن فحوصي لم تنته بعد. وأحياناً يتراءى لي في نومي أني أعيد تقديم موادي الصعبة، وأرسب وأبقى في السنة الأولى.

وفي يقظتي حين يصدر لي كتاب جديد، آمل في سرّي أن يقع في يد واحد من معلمي القدامى ويقرأه. عندها أرتجف أكثر مما كنت أرتجف في فحص فقه اللغة أو الأدب اليوناني القديم. وفجأة لن يعجبهم كتابي، فيرمونه جانباً دون أن يقرأوه حتى نهايته ويقولون: «كتب رسول ما كتبه بشكل سيىء. من الواضح أنه تسرع». وهذا هو أصعب امتحاناتي.

إيه داغستان! لقد كان لك أنت أيضاً معلموك المتنوعون. كان لك أمثال حسن وأمثال مونهوزن، بعضهم، هم أنفسهم لم يكونوا يؤمنون بما يعلّمون، وبعضهم كانوا يخدعون، وآخرون كانوا تائهين. ثم أتت معلمة، عظيمة وعادلة، قوية وطيبة. هذه المعلمة هي روسيا، هي الاتحاد السوفياتي، هي الثورة، حياة جديدة، مدرسة جديدة، كتاب جديد.

فيما مضى ما كان يستطيع قراءة رسالة أو كتاب في القرية كلها إلا الشيخ. والآن الجميع يقرأون الكتب إلا الشيخ.

الشعب الصغير كان ذا مصير كبير، وقصة داغستان ما زالت تكتب. ليس لها، ولن يكون لها نهاية. وسأكون سعيداً إذا وجدت في هذا الكتاب الذهبي والخالد صفحة أنا كاتبها. أنا أغني أغنيتي، فاقبليها يا داغستان!

داغستان، كل ما أعطانيه الناس،
نتقاسمه معاً بشرف،
ميدالياتي وأوسمتي
سأعلقها على ذراك،
سأكرس لك أناشيد فخمة
وكلمات هي شعر،

ولكن هبي لي فقط عباءة الغابات،
وقلبقاً من الذرى المكللة بالثلوج!

انتهينا، حان وقت الفراق. وكما يقال سنلتقي مرة أخرى. إذا قدر اللّه لنا.

كتب هذا الكتاب في أماكن مختلفة: في قرية تسادا، وفي موسكو، وفي ماخاتشاكالا، وفي ديليجان وفي مدن أخرى كثيرة. لا أذكر متى بدأت كتابته، لكني فرغت منه في الخامس والعشرين من أيلول عام 1970.

وسلام وكلام

■ قال أبو طالب: إذا أطلقت نيران مسدسك على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك.

■ عندما تستيقظ من نومك فلا تقفز من سريرك كأن أحداً عضك، فكّر قبل كل شيء بما حلمت به في نومك.

■ المغني يمسك بطنبوره. اعرف أن له صوتاً حسناً ولكن لماذا يداعب أوتاره زمناً طويلاً؟ ولماذا يحلق في عالم آخر قبل أن يبدأ أغنيته.

■ الطائرة قبل أن تطير تثير كثيراً من الضجة وبعد أن تذرع المطار كله لتصل إلى المدرج تثير ضجة أكبر، قبل أن تندفع وتطير، وهكذا لا تقلع الطائرة في الهواء إلا بعد أن تتم استعدادها هذا كله.

■ والطائرة المروحية لا تحتاج إلى مدرج لكي تندفع ولكنها قبل أن تنفصل عن الأرض تنفخ وتدمدم أمداً طويلاً وتأخذها، رعدة شديدة.

■ نسر الجبال وحده ينطلق دفعة واحدة في السماء الزرقاء خفيفاً ويعلو ثم يعلو حتى يغيب عن الأنظار.


ISBN 9953-71-149-6

$ .1400